A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

تطور الأساليب النثرية

في

الأدب العربي

وهو يتناول النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الإسلام
إلى النهضة الأخيرة ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من أمراء
الأقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية

لمؤلفه

أنيس المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

الجزء الاول

اسلوب صدر الاسلام — الاسلوب المتوازن — الاسلوب المسجع

CA : AUB
892.7408
M23EA
V.1:C.2

تطور الأساليب النثرية

في

الأدب العربي

وهو يتناول النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الإسلام إلى النهضة الأخيرة ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من أمراء الأقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية

لمؤلفه

انيس المقدسي

استاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية

الجزء الاول

اسلوب صدر الاسلام — الاسلوب المتوازن — الاسلوب المسجع

من منشورات الدائرة العربية

في

جامعة بيروت الأميركية

L133-13351

وقفية ثيودور

كلمة تمهيدية

كنّا قد عقدنا النية على اصدار هذا الكتاب قبل الآن، وفعلاً باشرنا اعداد مواده للطبع . ثمّ بلغنا صدور كتاب «النثر الفني» للدكتور زكي مبارك، فتوقفنا عن العمل زمناً حتى حصلنا على الكتاب المذكور، وقابلناه بما كان قد تهيّأ لدينا من المواد، فوجدنا ان الكتابين على تقاربهما في الموضوع يختلفان من حيث الخطة والغاية. فكتاب النثر الفني يرمي في الدرجة الاولى الى تقرير ما كان عليه النثر العربي في القرن الرابع الهجري: وهو عمل جليل وقد سدّ فراغاً كبيراً في تاريخ الادب. اما كتابنا فغايته عرض الاساليب النثرية عرضاً يبيّن تطوّرها منذ ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر

وقد تعمّدنا عدم التعرّض للنثر الجاهلي، الاّ ما توصلنا الى تحقيقه عرضاً في اثناء البحث: وما ذلك الا لان المواد النثرية التي بين ايدينا من العصر الجاهلي لا تسوّغ لنا تناول ذلك بطريقة علمية

ولسهولة البحث افردنا لنثر صدر الاسلام قسماً خاصاً صرفنا العناية فيه الى تحقيق مروياته والنظر في نصوصه. وهو يشمل بضعة فصول ويمتد الى زمن عبد الحميد الكاتب . وقد قادنا البحث فيه الى النظر في الاسلوب النثري عند منبثق الاسلام وكيف يظهر في القرآن والحديث وكلام اهل الصدر الاول . وسلكنا في كل ذلك طريقاً يجمع بين صراحة التحقيق والحذر من التطرّف . ولسنا ننكر انها طريق وعرة شائكة واننا سنقع فيها ونقوم

ونصطدم بما لا يستطاع تدميثه او تعبيده . وربما اخرجتنا الرغبة في الدراسة الحرّة عن العُرف المقرّر فعرّضنا انفسنا والكتاب لاستياء العُرفيّين من العلماء والادباء . على اننا — يعلم الله — لا نرغب في استفزاز احد ، وانما السبيل جديد ، والرائد معذور اذا لم يأمن فيه العثرات

. . . . .

وبعد ان فرغنا من نثر الصدر الاول القينا نظرة على الاساليب الانشائية من ايام عبد الحميد الى الوقت الحاضر ، فاذا هي تجري في ثلاثة اساليب رئيسية —

١ — الاسلوب المتوازن (اي المزدوج غير المسجّع) — ويدخل فيه ترسل عبد الحميد والجاحظ واضرابهما

٢ — الاسلوب المسجّع — ويتناول الرسائل الديوانية والادبية والمقامات وما الى ذلك

٣ — الاسلوب المطلق — وهو النثر السائد في الكتب العلمية والتاريخية والاجتماعية قديماً ، واسلوب الانشاء العام في العصر الحديث

وقد تناولنا في هذا الجزء من كتابنا الاسلوبين الاولين وحاولنا ان نتابع تطوّر كلٍّ منهما مع الزمان وقرنّا ذلك بدراسات مسهبة لنخبة من كبار المنشئين المجمع على امامتهم في الفروع المختلفة، ولم نقرّر قضية او عرضنا لمنحى الاّ دعمنا الكلام فيهما بكثير من النصوص ، فجاء الكتاب معرضاً تاريخياً للنثر العربي ومرجعاً لكثير مما لا يوجد الا مبعثراً في تضاعيف الكتب القديمة

. . . . .

اما الاسلوب الثالث اي المطلق فلم نتعرّض له الآن لارتباطه

الوثيق بالاسلوب الانشائي في ادبنا الحديث ولأننا نرجو ان يتاح لنا فرصة اخرى نتناول فيها هذه الناحية الخاصة من تاريخ النثر في الجزء الثاني الذي سنخصصه للبحث في الاسلوب المطلق والمناحي النثرية في النهضة الاخيرة

. . . . .

ولا يعلم الا الذي يخوض امثال هذه المباحث ما عانيناه من ضبط المراجع ومراجعة الاصول. ومع كل ذلك فنحن لا ندّعي اننا بلغنا فيها الهدف الاسمى وسيجد النقّاد مجالاً للتنقيح والتصحيح، وانّا لنرحب بكل انتقاد نزيه يراد به الوصول الى الحقيقة

ولا بدّ في الختام من شكر زملائي اعضاء دائرة العلوم العربية في الجامعة لتكرُّمهم بكثير من الملاحظات المفيدة، وكذلك اشكر صديقي الاستاذ عمر فرّوخ لما قام به من مراجعة الاصول المطبعية

وعسى ان يكون في هذا العمل ما نتوخاه من الفائدة لطلاب البحث في الادب العربي

ا.خ.م

اسلوب صدر الاسلام

ويتناول

النثر عند منبثق الاسلام

الاسلوب القرآني

تحقيق النثر في نصوص الحديث

النثر في عصر الفتوح حتى عهد عبد الحميد

الاسلوب النثري

وكيف نراه عند ظهور الدعوة الاسلامية

نظرة في السجع القديم

يؤخذ مما نقله لنا رواة الادب القديم انه كان للجاهلية القريبة من الاسلام اسلوب مسجّع . ويظهر ان هذا الاسلوب كان شائعاً في الحلقات الدينية وما اليها . وقد اجمعت الروايات على ذكر كهّان العرب وما كانوا ينطقون به من الاسجاع حتى اننا نجد بين بعض العلماء تحريم السجع . ويستندون في ذلك الى حديث معروف وهو ان النبي قضى على رجل في الجنين بغرّة[1] عبد أو امة . فقال الرجل يارسول الله أأدِي من لا شرب ولا اكل، ولا صاح فاستهل، ومثل ذلك يُطلّ . فقال الرسول أسجعاً كسجع الكهان[2] . وفي الموطأ انما هذا من اخوان الكهان[3] . قال الجاحظ في عرض كلامه على السجع وسبب ما نقل من حديث تحريمه « وكان الذي كرّه الاسجاع بعينها ان كهان العرب الذين كان اكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع كقوله : والارض والسماء والعقاب والصقعاء . واقعة بقعاء . لقد نفر المجد بني العشراء . للمجد والسناء — وهذا الباب كثير — قالوا

---

(١) الغرّة هنا خمسون ديناراً راجع الموطأ ٢ — ١٩٢ (٢) كذا في ضبح الاعشى ٢ — ٢٧١ وقد رويت مع اختلاف يسير في صحيح مسلم ٥ — ١١١ والبيان والتبيين ١ — ١١٢ (٣) الموطأ ٢ — ١٩٢

فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيّتها فيهم وفي صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم »[١]

ولم ينفرد الجاحظ بذكر سجع الكهان وحديث تحريمه فقد تقدمه كما رأينا رواة وتبعه رواة . على اننا انما نأخذ بقولهم في هذا الباب لموافقته ماورد في القرآن من ذكر الكهان واسلوبهم . فقد عدَّ العرب النبيَّ في اول امره من الكهان او الشعراء ودفعاً لذلك نزلت الآية — « فذكّر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . ام يقولون شاعر نتربَّص به ريب المنون »[٢] . ومثلها «وماهو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون»[٣] وقوله « وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »[٤] . وانما نسب اليه العرب الكهانة لما حسبوه من تقارب في الاسلوب بين ما عهدوه من اقوال كهانهم وبين ظاهر السور القرآنية ولا سيما الاولى منها . وايضاحاً لذلك نعرض هنا بعض ما رووه من اسجاعهم ونقابلها ببعض من السور المكيّة القديمة فمن ذلك ما نقله القالي في اماليه من حديث الكاهنة زبراء مع بني رئام اذ قالت تحذّرهم من الاعداء — « يا ثمر الاكباد ، وانداد الاولاد ، وشجا الحساد هذه زبراء ، تخبركم عن انباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيِد[٥] الشنعاء . فاسمعوا ما تقول — قالوا وما تقولين يا زبراء قالت واللُّوح[٦] الخافق ، والليل الغاسق والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، ان شجر الوادي ليأدو[٧] ختلا ، ويحرق انياباً عُصلا[٨] ، وان صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه مَعلا[٩] » الخ الحديث[١٠] .

---

(١) البيان والتبيين ١ — ١١٣ (٢) الطور ٢٩ (٣) الحاقة ٤١ و ٤٢ (٤) القمر ٢
(٥) المؤيد الداهية (٦) اللُّوح الهواء (٧) يأدو يختل (٨) العصل العوجاء
(٩) المعل المهرب (١٠) الامالي ١ — ١٢٦

قابل هذه الاسجاع الكهانية بما نزل في سورة الشمس «والشمسِ وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاّها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سوّاها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» فتجد بين التنزيل هنا وبين قول الكاهنة — ونخص منه القسم الثاني — شبهاً واضحاً في الاسلوب القَسَمي وفي تقطيع الجمل وتسجيعها. ومما ينقلونه من هذه الاقوال القديمة ما يعزونه الى سُعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفّان — وكانت قد تكهّنت — فقد رووا لها قولها في النبي وذلك على ما يظهر في بدء دعوته وقد طلب الناس رأيها فيه — «ان محمد بن عبدالله رسول من عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو الى الله. مصباحه مصباح وقوله صلاح، وقرنه نطّاح، ذلّت له البطاح، ماينفع الصياح، لو وقع الذباح وسُلّت الصفاح»[1]. فاذا عارضت ما نقلوه عن لسانها بما نزل في سورة الناس «قل اعوذ بربّ الناس ملك الناس اله الناس من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس. من الجِنّة والناس». رأيت النسقين متشابهين من حيث السجع وتكرير القوافي. ومثل ذلك ما نقل عن لسان الخزاعي الكاهن من الحكم بين هاشم واميّة ومنه «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر من نُجد وغائر، لقد سبق هاشمٌ أُميّةَ الى المآثر، اوّلاً منه وآخر»[2] فتأمل سياق القسم والسجع فيها وقابله بما يتراءى لك من ذلك في سورة الفجر «والفجر، وليالٍ عشر، والشفْع والوَتر، والليل اذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حِجر» او في سورة التين «والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا

(١) نهاية الارب ٣ — ١٣١

(٢) نهاية الارب ٣ — ١٣٣

البلد الامين ، لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين »

ولا نشك ان سجع الكهان كان معروفاً في الجاهلية وعند منبثق الاسلام وقد وعته صدور العرب يومئذ ثم اهملوه ولكنهم لم ينسوا اسلوبه فلما كانت الدولة الاموية او العباسية حملت الحماسة بعضهم على انطاق الكهان باقوال هي من قبيل الدعاية الدينيَّة او الحزبيَّة كبعض الاسجاع السابقة الذكر وكحديث الكاهن خنافر الحميريّ . زعموا انه كان له رئيٌّ (ايجنيٌّ يلقّنه الكلام) اسمه شِصار وقد وضعوا على لسانه حديثاً ننقل منه ما يلي[1] « كل دولة الى اجل ، ثم يُتاح لها حوَل . أُنتُسِخت النِّحل ، ورجعت الى حقائقها الملل . إنك سجيرٌ[2] موصول . والنصح لك مبذول . وانّي آنستُ بارض الشام ، نفراً من آل العُذام[3] ، حكّاماً على الحكّام . يذبرون[4] ذا رونق من الكلام . ليس بالشعر المؤلّف ، ولا السجع المتكلّف ، فاصغيت فزُجرت ، فعاودت فظُلِعت[5] فقلت بم تهينمون ، وإلام تعتزون . فقالوا خطابُ كُبَّار[6] ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن اصدق الاخبار ، واسلك اوضح الآثار ، تنجُ من أُوار النار . فقلت وما هذا الكلام ، فقالوا فُرقان بين الكفر والايمان . رسولٌ من مُضَر ، من اهل المدر ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر » الخ وهذا الحديث كما يظهر موضوع لا يصحّ اعتباره وثيقة نثرية كذلك لا يصحّ اعتبار كل ما روي لنا من اسجاع الكهان فقد اتّهم الجاحظ بعض رواتها انهم ممن يصنعون الكلام[7] ولا يجوز علمياً ان نتكل على روايتها فقط في الحكم على ما كان عليه هذا

---

(١) الامالي ١ — ١٣٤ (٢) السجير الصديق . وهنا الرئي يخاطب الكاهن
(٣) آل العذام قوم من الجن (٤) يذبرون يقرأون (٥) ظلعت منعت
(٦) الكبَّار الكبير (٧) البيان والتبيين ١ — ١٣٧

النوع من النثر . على اننا لو قرنّا الرواية بما ورد في القرآن من ذكر الكهان والاشارة الى سجعهم ثم لو قطعنا النظر عن تفوّق الوحي الديني ووقفنا موقف قريش اول الدعوة الاسلامية من حسبانهم النبي كاهناً وبالتالي من وضعهم السوَر المكية الاولى موضع السجع الكهاني لرأينا انه لا محيص لنا عن القول بثبوت السجع وان مانقل لنا انما هو على مثال ما كانوا ينطقون به في الحلقات الدينية والاخلاقية لذلك العهد .

ويؤيد ما نراه من شيوع السجع في تلك الحلقات ان التنزيل القرآني على تعاليه عن اقوال العرب وكهّانهم لم يخرج عن الاسلوب الديني الذي عرفه الناس يومئذ (وسنتناول شرح ذلك في غير هذا المقام) . هذا وان اكثر ما نقله لنا الرواة من باب الوعظ والحكم وآداب النفس كان من قبيل السجع واذا قيل ان اكثر ذلك موضوع قلنا ولكنه وضع في الارجح على نسق الاصل ويجوز ان نستنير به في هذا السبيل . ومن ذلك هذه الخطب التي عزيت الى كعب بن لؤَي جد الرسول[1] والى قسّ بن ساعدة وسحبان وائل واقوال الوفود الى كسرى وسواها مما هو معروف متداول ونجتزئ هنا بما نقله القالي من قول لحمَة الدَّوسي واليك نصّه[2] — قال عامر بن الظَّرِب لحمة اين تحب ان تكون اياديك قال —

عند ذي الرَّثْية[3] العديم ، وذي الخَلَّة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعَف الهضيم

قال من احق الناس بالمقت قال —

الفقير المختال ، والضعيف الصوّال ، والعيي القوّال

---

(١) صبح الاعشى ١ — ٢١١ (٢) الامالي ٢ — ٢٨٠

(٣) وجع المفاصل والاطراف

قال فمن احق الناس بالمنع قال —

الحريص الكاند[١] والمستميد[٢] الحاسد والمُلحف الواجد

قال فمن اجدر الناس بالصنيعة قال

من اذا اعطي شكر ، واذا منع عذر ، واذا موطل صبر ، واذا قدُمَ العهد ذكر

قال من اكرم الناس عشرةً قال

من إن قرُبَ مَنح ، وان بعُدَ مَدَح ، وان ظُلم صفَح ، وان ضويق سمح

وعلى هذا المنوال يسأله فيجيبه عن ألأم الناس واسلمهم واحزمهم واخرقهم واجودهم وابلغهم وانعمهم عيشاً واشقاهم الى ان يقول ومن اغنى الناس فيجيبه من استشعر اليأس ، وابدى التجمّل للناس ، واستكثر قليل النِعَم ، ولم يسخط على القِسَم

واحكم الناس من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر

واجهل الناس من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما

والذي يَلفِت النظر ان هذا الاسلوب ظل بعد الاسلام متّبعاً بل شائعاً في الحلقات الدينية فهو ظاهر في اقوال خطباء المساجد والقصّاصين وعلى ذلك يقول الجاحظ[٣] « وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون في تلك الخطب اسجاع كثيرة فلم ينهوا احداً منهم » . ويؤخذ من كلامه ان قصّاص البصرة (وهم الذين كانوا يقصّون على الناس الاخبار الدينية) كانوا سجاعين — فاذا اعتبرنا كل ذلك واعتبرنا ان القرآن نزل بلغة العرب كما يقول علماء العرب وكالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه

(١) الكافر بالنعمة (٢) المستعطي (٣) البيان والتبيين ١ — ١١٣

ليبيّن لهم» — وذلك بديهي — لم يكن من الصواب ان نقول ما قاله الاستاذ نكلسون من ان العرب لعدم ممارستهم الكتابة في الجاهلية لم ينشأ منهم قط شيء من النثر الفني[١] »

فالاسلوب السجعي لم ينشأ طفرة في عهد النبي بل عرفه العرب زمناً طويلاً قبل ان يصل الى ما وصل اليه في القرآن

واننا لنرى الميل الى التسجيع بادياً في الخطب الدينية منذ صدر الاسلام وقد اصبح في العصر العباسي وما بعده اسلوب الخطباء ورجال الدين به يرسلون عظاتهم وينثرون حكمهم. واليك قطعة نقلها ابن عساكر للامام الأوزاعي المتوفى في منتصف القرن الثاني الهجري قال فيها[٢] — « اتقوا الله معشر المسلمين واقبلوا نصح الناصحين ، وعظة الواعظين. واعلموا ان هذا العلم دين. فانظروا ما تصنعون ، وعمّن تأخذون ، وبمن تقتدون ، ومن على دينكم تأمنون ، فان اهل البدع كلهم مبطلون ، افّاكون آثمون ، لا يرعون ولا ينظرون ولا يتقون ، ولا مع ذلك يؤمنون ، على تحريف ما يسمعون » ويسوق الكلام على هذا النمط الى ان يقول «واحذروا ان تكونوا على الله متظاهرين ولدينه هادمين ، ولعراه ناقضين موهنين ، بتوقير المبتدعين والمحدِثين ، فانه قد جاء في توقيرهم ما تعلمون » والعظة كلها مسجعة على قافية واحدة . وليس كل الخطب الدينية في صدر الاسلام كذلك ولكن السجع كما ذكرنا يكثر فيها وفي اقوال القصاصين ومن اليهم ثم يصبح الاسلوبَ السائد في العصور المتتابعة مما يميل بنا الى الاعتقاد ان الحلقات الدينية الاسلامية الاولى جرت في ذلك على ما ورثته من الاجيال السالفة ولكن جرياً معتدلاً حتى تعاظم

---

(1) Lit. Hist. of the Arabs 31

(٢) ابن عساكر ٢ — ١٩٩

سيل السجع في العصر العباسي فطما على الحلقات الدينية وسواها وظل كذلك الى عهد قريب كما سنبين بعد

قدمية النثر المطلق

ونعني به ما كان يرسل على السجية دون تعمّل فني خاص . والنثر المطلق قديم في الادب العربي نراه في عهد النبي ويحملنا الاستنتاج العقلي على انه كان في الجاهلية ايضاً . اذ لا يعقل ان تبلغ قريش مثلاً في جاهليتها ما بلغته من التقدّم التجاري فيكون لها اتصال باليمن والشام والعراق وفارس ولا يكون لها من نثر غير الاسجاع التي تعبر عن العواطف الدينية والنظرات الاخلاقية . فاذا قيل كيف نستدلّ على تقدم قريش التجاري واي مستند نستند اليه في تحقّق ذلك غير ما نقله المؤرخون عن السنة الرواة . قلنا نعود الى القرآن ففيه اشارات عديدة الى حياة مكة والمدينة الاقتصادية والاجتماعية واليك بعضها —

— واعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد (الحديد ٢٠)

— قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احبّ اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بامره والله لا يهدي القوم الفاسقين (التوبة ٢٥)

— رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة (النور ٣٧)

— الذين يأكلون الربا لا يقومون الاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان

من المسّ . ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحلّ الله البيع وحرّم الرّبا (البقرة ٢٧٥)

— واذا رأوا تجارة او لهواً انفضّوا اليها وتركوك قائمًا (الجمعة ١١)

— لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (قريش)

— وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًّا وتستخرجوا منه حِلية تلبسونها . وترى الفُلك مواخر فيه . ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (النحل ١٤)

وهناك عشرات بل مئات من الآيات التي ترد فيها معاني التجارة والبيع والدّين والخسارة والاحصاء والرهن والكسب وما الى ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية . وفي القرآن اشارات شتى الى الاسفار البرّية والبحرية ذكر بعضها آنفًا ومن ذلك الآية (يونس ٢٣) هو الذي يسيّركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » والآية (سورة يس ٤١ و ٤٢) وآية لهم انّا حملنا ذرّيتهم في الفُلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون »

ويقترن بالتقدّم التجاري استعمال الكتابة وفي القرآن نصوص لا تترك مجالاً للريب في معرفة العرب للكتابة واستخدامهم اياها في مرافق حياتهم كالآية ٢٨٢ من سورة البقرة « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدَين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ ان يكتب كما علّمه الله فليكتب وليُملل الذي عليه الحق » والآية ٢٨٣ « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة » . ومن الاشارات الى الكتابة في القرآن « يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب »

(الانبياء ١٠٤) . إقرأْ وربّك الاكرم الذي علّم بالقلم (العلق ٣و٤) . « ولو انّ ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان ٢٧) ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون (القلم ١و٢) وقالوا اساطيرُ الاولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً واصيلا (الفرقان ٥)

ففي هذه الآيات وامثالها ما يبيّن ان العرب او قل قريش عرفوا الكتابة واستعملوها ويزكّي رواية المؤرخين والرواة من انه ظهرت الدعوة الاسلامية وفي قريش كتّاب[١] وانه كان للنبي كتّاب من الصحابة يكتبون الوحي ولهم نوّاب ينوبون عنهم اذا غابوا[٢] وان العرب كانت تؤرخ في كتبها وديونها من عام الفيل ثم عام الفِجار حتى جاء الاسلام فارّخ المسلمون بعام الهجرة[٣] . هذه الحالة الاقتصادية التي وجدت فيها قريش كانت تقتضي نثراً غير النثر الديني المتكلّف نثراً مرسلاً للتعامل مطلقاً من قيود الصناعة اللفظية . على انه ليس لدينا من نصوصه الجاهلية ما يعتمد عليه فلا بدّ لنا من تحرّي ذلك في عهد النبي والصحابة وقد نُقل لنا شيء كثير من اقوالهم بين صحيح وموضوع . وهم وان خرجوا عن نطاق الجاهلية الديني باسلامهم فانهم لم يخرجوا عنها في مختلف عاداتهم وشؤونهم . واهم ما يلفت نظرنا هنا ما رووه من الرسائل والعهود النبوية فلنتقدّم الى دراستها لعلنا نجد فيها ما نستأنس به في التدليل على هذا الشكل من النثر العربي .

الرسائل النبوية

ونجدها متفرّقة في سيرة ابن اسحق والطبري والواقدي والبلاذري

---

(١) تاريخ البلاذري ٤٧١ جعلهم ١٧ كاتباً (٢) العقد ٢ — ٢٠٤
(٣) كتاب اخبار مكة ص ١٠٢

وطبقات ابن سعد و كتب الحديث وفي العقد الفريد وصبح الاعشى وسواها ومن اهم هذه المراجع كتاب الطبقات فقد افرد ابن سعد فيه فصلين ذكر فيهما وفود القبائل الى النبي والرسائل والعهود التي كتبها لهم

وتقع هذه العهود في ثلاثة ادوار رئيسية[1] —

١ — منذ الهجرة الى واقعة الخندق سنة ٥ هـ

٢ — ما بين السنة الخامسة وفتح مكة سنة ٨ هجرية فغزوة تبوك

٣ — في غزوة تبوك وبعدها

فرسائل الدور الاول خلو من التاريخ وكلها سياسية لان مركز النبي في السنين الاولى من الهجرة كان شاقاً وكان جلّ ما يصبو اليه محالفة القبائل ليستعين بهم على اضعاف قوّة قريش . ولذلك نراه يعقد المعاهدات معهم وهم على حالهم من الاشراك . ومن رسائل هذا الدور ما يلي : —

الى نُعيم بن مسعود الاشجعي

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما حالف عليه نُعيم بن مسعود بن رُخيلة الاشجعي . حالفه على النصر والنصيحة ما كان أُحُد مكانه . ما بلّ بحر صوفة و كتب علي »[2] فليس في هذا العهد ما يشير الى الاسلام وانما هو معاهدة حربية يراد بها تقوية مركز المسلمين ازاء مشركي قريش . ومثله العهد التالي

---

(١) للمستشرق الالماني « Sperber » في ذلك بحث في الالمانية لخصه لنا عن Mittei lungen des Seminars für Orientalische Sprachen XIX الدكتور قسطنطين زريق وهو « اي المستشرق » يجعل الرسائل في اربعة ادوار ونحن وان خالفناه في عدد الادوار نجاريه في اوصافها العامة

(٢) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٦

وترى فيه قبول النبي بمساواة المسلمين بغير المسلمين واليك نصه كما ورد في الطبقات[١] — «قالوا وكتب رسول الله (صلعم) لبني غِفار — انهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عَلَى المسلمين وان النبي عقد لهم ذمّة الله وذمة رسوله على اموالهم وانفسهم وله النصر على من بدأهم بالظلم وان النبي اذا دعاهم لينصروه اجابوه وعليهم نصره الاّ من حارب في الدين — ما بلّ بحر صوفة — وان هذا الكتاب لا يحول دون اثم»

وعلى منواله ما كتبه الى بني ضُمرة بن بكر بن مناة بن كنانة[٢] — «انهم آمنون على اموالهم وانفسهم وانّ لهم النصر على من دهمهم بظلم وعليهم نصر النبي(ص) ما بلّ بحر صوفة الاّ ان يحاربوا في دين الله وان النبي اذا دعاهم اجابوه — عليهم بذلك ذمّة الله ورسوله ولهم النصر على من برّ منهم واتقى»

وهناك عدّة رسائل اخرى تنحو هذا النحو في مهادنة غير المسلمين او الارتباط معهم بعهود الدفاع والمناصرة وهي بلا شك من اقدم ما كتب الرسول . واكثرها قصير كقوله لبني زُرعة وبني الرَّبعة من جهينة انهم آمنون على انفسهم واموالهم وانّ لهم النصر على من ظلمهم او حاربهم الاّ في الدين والاهل ولأهل باديتهم من برّ منهم واتقى ما لحاضرتهم والله المستعان»[٣] ومثل ذلك ما كتبه الى بُدَيل وبُسر وسَرَوات بني عمرو قال[٤] «اما بعد فاني لم آتم مالكم ولم اضع في جنبكم . وإن اكرم اهل تهامة عليّ واقربهم رحماً مني انتم ومن تبعكم من المطيّبين[٥] . اما بعد فاني قد اخذت لمن هاجر

---

(١) ج ١ قسم ٢ ص ٢٦ (٢) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٧ (٣) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٤ (٤) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٥ (٥) المطيبون هم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو الحارث بن فهر وتيم بن مرة واسد بن عبد العزّى

منكم مثل ما اخذت لنفسي ولو هاجر بارضه — الاّ ساكن مكة الاّ معتمراً او حاجاً — فاني لم اضع فيكم منذ سالمتُ . وإنكم غير خائفين من قِبلي ولا مُحصَرين . اما بعد فانه قد اسلم علقمة بن عُلاثة وابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة وان بعضنا من بعض في الحلال والحرام واني والله ما كذبتكم وليجبّنكم ربكم » .

وقس على ما ذكر غير ذلك من هذه العهود السياسية —

اما الاسلام فلم يجعل شرطاً الاّ بعد ان استتبّ امر النبي والمسلمين في المدينة وبعد ان اصبحوا في حالة من القوّة الحربية والمالية تساعدهم على نشر الدعوة الدينية بين القبائل . كما سنرى في رسائل الدور الثاني —

الدور الثاني

بعد السنة الخامسة للهجرة اخذ نجم المكيين بالافول . وما زالوا كذلك حتى وقعت مكة في ايدي المسلمين . — في هذا الطور نرى صاحب الدعوة الاسلامية اقوى مركزاً وانفذ كلمة . فان ما كان يتجلى لنا في كتبه الأُوَل من الميل الى محالفة المشركين او قل من ضعف مركزه الحربي حل محله الان ثقة القائد الكبير والزعيم القوي واصبح في اكثر العهود يشترط الاسلام على القبائل المهادنة . على انه لم يشدّد في ذلك قبل فتح مكة كما نستدل من ملاينته لقريش عام الحديبية (٦ هـ) فقد عقد مع زعيمهم عهداً هذا نصه[1] —

باسمك اللهمّ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم

(١) تاريخ الطبري الجملة الاولى ج ٣ ص ١٥٤٦

عن بعض . على انه من اتى رسول الله من قريش بغير اذن وليّه ردّه عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم تردّه عليه . وانّ بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من احبّ ان يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه »

فمن هذا الكتاب ترى ان الرسول يوادع قريشاً ويجاريهم رغبة في صرف جهوده عنهم الى جهة اخرى . وقد اخذ بعد ذلك يبعث السرايا والرسل الى القبائل قريبها وبعيدها وفي كتبه اليهم تراه ذا القوة النافذة والكلمة العليا وترى الناس بعدها يدخلون في دين الله افواجاً . واليك مثلاً يوضح ذلك قال ابن سعد ان العرَني اتاه كتاب رسول الله (صلعم) فرقع به دلوه فقالت له ابنته ما اراك الاّ ستصيبك قارعة اتاك كتاب سيد العرب فرقعت بدلوك فمرّ به جيش لرسول الله (صلعم) فاستباحوا كل شيء له فاسلم واتى النبيّ (صلعم) فاخبره فقال له رسول الله ما اصبت من مال قبل ان تقسمه المسلمون فانت احقّ به »[1] .

ومن الكتب التي ارسلها في هذا الدور ما يلي —

لبني الجرمز بن ربيعة وهم من جهينة — « انهم آمنون ببلادهم ولهم ما اسلموا عليه و كتب المغيرة[2] ومنها — الى هَوذة بن علي صاحب اليمامة و كان نصرانياً « من محمد رسول الله الى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخفّ والحافر فأسلم تسلم وأجعلُ لك ما تحت يديك[3] » .

ومنها — الى بني الجُلندى ملكي عمان — « من محمد رسول الله الى

---

(١) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٣١ (٢) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٤

(٣) صبح الاعشى ٦ — ٣٧٩

جيفر وعبدٍ ابني الجلندى سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني ادعوكما بدعاية الاسلام . أَسلما تسلما فاني رسول الله الى الناس كافة لأُنذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين . وانكما ان اقررتما بالاسلام ولّيتكما وان ابيتما ان تُقِرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوّتي في ملككما . وكتب أُبيّ بن كعب[١] » . ومثل ذلك كتابه الى اهل نجران وهذا نصه[٢] — « بسم الله الرحمن الرحيم اله ابراهيم واسحق ويعقوب اما بعد فاني ادعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان ابيتم فالجزية . فان ابيتم فقد اذنتكم بحرب والسلام » . وكتابه الى المنذر بن ساوى العبدي قال الطبري وفيها (سنة ٨) بعث اليه رسول الله (صلعم) العلاء بن الحضرمي وكتب اليه كتاباً يقول « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله الى المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو اما بعد فانّ كتابك جاءني ورسلك وانه من صلّى صلاتنا واكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فانه مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ومن ابى فعليه الجزية » قال فصالحهم رسول الله (ص) على ان على المجوس الجزية لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم[٣] .

وفي السنة ٩ هـ وفد اهل الطائف على النبي يريدون البيعة والاسلام فابوا ان يحيُّوه الا تحيَّة الجاهلية وطلبوا منه ان يدع اللات ثلاث سنين وان يعفيهم من الصلاة[٤] لكن النبي ابى ذلك وبعد لأْي اسلموا فكتب لهم كتاباً

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٣٨٠

(٢) صبح الاعشى ٦ — ٣٨١

(٣) الطبري الجملة الاولى ٣ — ١٦٠٠ ويروى على شكل آخر في صبح الاعشى ٦ — ٣٦٨ (٤) الطبري الجملة الاولى ١٦٩١

يقول فيه[١] — انّ لهم ذمة الله وانواديهم حرام عِضاهه وصيده وظلم فيه · وان ما كان لهم من دَين الى اجل فبلغ اجله فانه لِياط مبرّأ من الله ورسوله وان ما كان لهم من دَين في رهن وراء عكاظ فانه يقضى الى رأسه ويلاط بعكاظ » · وفي رواية اخرى[٢] « قالوا وسأل وفد ثقيف رسول الله (ص) ان يحرّم لهم « وجا » فكتب لهم — « هذا كتاب من محمد رسول الله الى المؤمنين ان عضاه وجٍّ وصيده لا يعضد فمن وُجد يفعل ذلك فانه يؤخذ فيبلغ النبي · وهذا امر النبي محمد بن عبد الله رسول الله · و كتب خالد بن سعيد بامر النبي محمد بن عبد الله فلا يتعدينّه احد فيظلم نفسه فيما امر به محمد رسول الله[٣] »

فترى من هذه الرسائل وسواها ان الاسلام او الجزية اصبح شرطاً من شروط المعاهدات واصبح الرسول بعد ان توطد امر المسلمين في المدينة منصرفاً الى نشر دعوته بين القبائل · وقد كان لفتح مكة اثر شديد في هذه الحركة فتعاظم شأنها وازدادت صولة النبي فتهافتت القبائل على اعتناق الاسلام واصبحت المدينة اهم حواضر الجزيرة العربية اليها تقبل الوفود ومنها تصدر الاحكام · ومن هنا نصل الى القسم الثالث من العهود النبوية وهو الذي كتب بالاكثر في السنتين الاخيرتين من العهد النبوي ولا سيما بعد غزوة تبوك وفيه كما نرى بلغ الرسول اعلى درجات القوّة واخذ يستغلّ مركزه الحربي والديني فصار لا يكتفي بقبول الاسلام او الجزية بل ذهب الى ابعد من ذلك ففرض الزكاة على القبائل التي حالفت على اساس الاسلام

---

(١) العقد ١ — ١٣٥ (٢) الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٣٣

(٣) العضاه نوع من الشجر — وجّ اسم مكان · يعضد يقطع · واللياط الربا ويلاط بعكاظ اي يلحق به

وبعث العمال او الامراء على الصدقات[١] . ومن هذه الكتب ما ذكره الطبري في اخبار السنة التاسعة وقد قدم على رسول الله كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ورسولهم اليه باسلامهم الحارث بن عبد كلال (ويسمي جماعة غيره) فكتب اليهم رسول الله (صلعم) كتاباً قال فيه بعد البسملة والحمدلة[٢]

اما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم مُقفلَنا من ارض الروم فلَقينا بالمدينة فبلّغ ما ارسلتم وخبّر ما قِبلكم وانبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهدايته . ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم من المغانم خمسَ الله وسهم نبيّه وصفيّه وما كتب على المؤمنين من الصدَقة » وبعد ان يفصّل في ذلك يقول — « فمن زاد خيراً فهو خير له . ومن ادّى ذلك وأشهد على اسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمّة الله وذمة رسوله . وانه من اسلم من يهوديّ او نصرانيّ فان له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن كان على يهوديته او نصرانيته فانه لا يُفتن عنها وعليه الجزية » . ويتلو ذلك تحديد الجزية ثم يذكر رسله اليهم ويختم الكتاب بقوله « وان الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لاهله انما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وابناء السبيل وان مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب وآمرُكم به خيراً . واني قد بعثت اليكم من صالحي اهلي وأُولي علمهم فآمركم بهم خيراً فانه منظور اليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

ومن هذه الكتب كتاب الى جُمّاع من تهامة كانوا قد غصبوا المارّة

---

(١) الطبري الجملة الاولى ١٧٢٢ و ١٧٥٠

(٢) الطبري الجملة الاولى ١٧١٧

من كنانة ومزينة وسواهما وهذا نصه[١] — « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العُتقاء انهم ان آمنوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حرّ ومولاهم محمد. ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها. وما كان فيهم من دم اصابوه او مال اخذوه فهو لهم. وما كان لهم من دَين في الناس رُدّ اليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان. وان لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد والسلام عليكم »

ومنها الى هَمْدان ونصه[٢] —

هذا كتاب من محمد رسول الله الى مخلاف خارف واهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشعار لمالك بن نمط ومن اسلم من قومه. ان لهم فِراعها ووِهاطها وعَزازها[٣] ما اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون عِلافها ويرعون عافيها[٤]. لنا من دفئهم وصَرامهم[٥] ما سلّموا بالميثاق والامانة ولهم من الصدقة الثّلب والناب والفصيل والفارض والكبش الحَوَري وعليهم الصالغ والقارح[٦]

وكتابه الى بني كلب[٧] —

هذا كتاب من محمد رسول الله لعائر كلب واحلافها ومن صاده الاسلام من غيرها مع قَطَن بن حارثة العليجي باقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة لحقّها في شدة عقدها ووفاء عهدها بمحضر شهود من المسلمين سعد بن

---

(١) الطبقات ج ١ ق ٢ — ٢٩ (٢) العقد (بولاق) ١ — ١٣٤، صبح الاعشى ٦ — ٣٧٤ (٣) الفراع ما ارتفع من الارض والوهاط ما اطمأن منها والعزاز الارض الصلبة الخشنة (٤) العلاف جمع علف طعام المواشي. والعافي والعفاء ما ليس لاحد فيه ملك (٥) نتاج الابل. الصرام النخل (٦) الثلب الهرم من الجمال والفارض المسنّ. الصالغ ما كمل من البقر والغنم. والقارح الفرس في الخامسة من عمرها (٧) العقد (بولاق) ١ — ١٣٤

عبادة وعبد الله بن أُنيس ودِحية بن خليفة الكلبي · عليهم في الهمولة الراعية البساطِ الظؤار في كل خمسين ناقة غير ذي عَوار[١] ·والحمولة المائرة لهم لاغية[٢] وفي الشوي الوريّ مُسِنَّةٌ حامل او حافل[٣] ·وفيما سقى الجدول من العين المَعين العشر من ثمرها مما اخرجت ارضها·وفي العِذْي شطره[٤] بقيمة الامين فلا تزاد عليهم وظيفة ولا تفرق·يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله· وكتب ثابت بن قيس بن شماس» ·

وكتابه الى أُكيدر دُومة وهذا نصه[٥] (عن صبح الاعشى ٦ — ٣٧٠)

«من محمد رسول الله لاكيدر دومة حين اجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل واكنافها ان لنا الضاحية من الضَّحل والبَور والمعامي وأَغفال الارض والحلقة والسلاح والحافر والحصن·ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور · لا تُعدَل سارحتكم ولا تعدّ فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات·تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها · عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء· شهد الله ومن حضر من المسلمين»

(وقد فسر صاحب صبح الاعشى الضاحية بالناحية البارزة ويراد بها اطراف الارض والضحل بالقليل من الماء والبور الارض التي لم تزرع والمعامي الارض التي ليس فيها اثر عمارة واغفال الارض التي ليس فيها اثر يعرف

---

(١) الابل المسيبة ليلاً نهاراً — البساط الارض الواسعة والظؤار العاطفات على ولد غيرها · العوار العيب (٢) الحمولة المائرة اي النياق الحاملة للمؤن والاحمال · لاغية ساقطة لا تجب عليهم (٣) الشوي والشِوى الغنم والوري السمين · مسنة حامل او حافل اي كبيرة حبلى او ممتلئة لبناً (٤) العذي الزرع لا يسقيه الا المطر (٥) راجع ايضاً الطبقات اق٢ — ٣٦٠ وفتوح البلاذري ٦١ والعقد ١ — ١٣٨ والصناعتين ص١١٦ وفي الروايات الخمس اختلافات غير جوهرية

والحلقه الدروع . والضامنة من النخل ما كان داخلاً في العمارة وتضمنته قراهم لا تعدل سارحتكم اي لا تحول عن المرعى ولا تعدُّ فاردتكم اي لا تضمّ الى مال الصدقة والفاردة الزائدة على الفريضة فلا تجب فيه الصدقة)

ومما يذكر في ذلك ما دار بين النبي وبني الحارث بن كعب في نجران (وذلك سنة ١٠ه) . فان النبي ارسل اليهم خالد بن الوليد يدعوهم الى الاسلام ففعل . ثم جاء بوفد منهم الى الرسول فقال لهم « لو ان خالد بن الوليد لم يكتب اليَّ فيكم انكم اسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت اقدامكم » . ثم قبل اسلامهم وولى عليهم من يأخذ صدقاتهم و كتب له كتاباً يأمره فيه بتقوى الله ويوصيه بالناس وتفقيههم في الدين وبجمع الصدقات وما الى ذلك . وهو طويل فليراجع [١] . وآخر ما نذكره هنا من هذه الكتب ما كتبه الى وائل ابن حجر واهل حضرَموت قال [٢] —

بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله الى الاقيال العباهلة [٣] من اهل حضرَموت باقامة الصلاة وايتاء الزكاة . على الثيعة الشاة [٤] والتِّيمة لصاحبها [٥] . وفي السُّيوب الخمس [٦] . لا خِلاط ولا وِراط ولا شِناق ولا شِغار [٧] . ومن أجبى فقد اربى [٨] وكل مسكر حرام »

---

(١) الطبري الجملة الاولى ١٧٢٧ (٢) الصناعتين ص ١١٦ والعقد (بولاق) ١ — ١٣٨ وفي صبح الاعشى ٢ — ٢٣٧ يروى عَلَى شكل آخر

(٣) الاقيال العباهلة الذين اقروا عَلَى الملك لا يُزالون عنه (٤) الثيعة اسم لادنى ما تجب عليه الزكاة كالخمس من الابل والاربعين من الغنم (٥) التيمة الشاة الزائدة عن الاربعين (٦) السيوب المال المدفون من الجاهلية (٧) الخلاط ان يخلط الرجل ابله بابل غيره — الوراط ان تجعل الغنم في وهدة لتخفى — الشناق ان لا تؤخذ الزيادة عَلَى الفريضة — الشغار زواج كان مألوفاً في الجاهلية (٨) اجبى اي باع زرعه قبل بدوّ صلاحه او ان يبيع من الرجل سلعة بثمن معلوم الى اجل معلوم ثم يشتريها منه نقداً بأقل من الثمن الذي باعه به . وأربى اي كان كالذي يتسلف الربى

صحة هذه الكتب

قلنا ان هذه الكتب النبوية تمثّل ما كان عليه النثر العادي عند منبثق الاسلام وبالتالي في اواخر العصر الجاهلي . على انه ليس في ايدينا منها وثائق ترجع الى ذلك العصر ولا ذكر لنا الذين رووها انهم نقلوها عن وثائقها الاصلية . فكيف اذن نعتمدها في الحكم على ما كان عليه النثر في ذلك العهد وجوابنا على ذلك انه لا بدّ لنا من مجاراة النقّاد الحديثين في الشكّ ببعض هذه الكتب استناداً على مبادئ التجريح التاريخي . ومن موجبات الشك عندهم التردد في قبول كل ما فيه اثر لدعاية دينية او قومية ما لم يقم دليل صريح على ثبوته . كالذي روي انه بعث به الى ملك الروم او ملك الفرس فانهم يستبعدون ان يكون العرب قد بلغوا من البسطة والمناعة وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذٍ على نحو ما نراه في قوله الى ملك الروم[1]

« من محمد رسول الله الى صاحب الروم . اني ادعوك الى الاسلام فان اسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم وان لم تدخل في الاسلام فاعط الجزية فان الله تعالى يقول — وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون — والاّ فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه او يعطوا الجزية »

فما نقله الطبري نجد ان النبي في السنة ٦ هـ فرّق رسله الى الامصار الى اليمامة والبحرين وعمان والى المقوقس بالاسكندرية وقيصر الروم هرقل والى كسرى ملك فارس والنجاشي والحبشة وسواهم . ولكن النبي لم يكن قد

(١) صبح الاعشى ٦ — ٣٧٧

بلغ في تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام فكيف يعقل ان يهتم باخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربي له ولا طَول . ففي مثل هذه الكتب الملوكية متسع للشك لمن اراده . والذي يراجع القصة التي حيكت حول كتاب الرسول الى ملك الروم يرجح انها من قبيل الاخبار القصصية لا الحقائق التاريخية — راجع الحديث[1] . على ان ذلك لا ينفي ان يكون الكثير من تلك الكتب ان لم نقل اكثرها صحيحاً . فان هذا الاكثر انما هي عهود عادية عقدت بين النبي والقبائل . منها ما هو عَلَى اساس التعاون على العدو ومنها ما هو على اساس الاسلام او الجزية . ومن تحرّي الاحوال التي لابستها يترجح لدينا صدقها . فان اقدمها كما ذكرنا تناسب حال النبي والمسلمين في اول العهد المدني وكذلك التي تليها تناسب الظرف الذي كتبت فيه . وفي بعضها ما لا يحتمل معه ان المسلمين وضعوه اذ هو مضاد لرغباتهم وميلهم الى تعظيم رجالهم الأُول . ومن ذلك ما عقده النبي عام الحديبية لسهيل بن عمرو وقد مرَّ ذكره . ففيه من تعاظم قريش وموادعة النبي لهم ما لا يترك مجالاً للشك في صحته . بل فيه ما يدل على امانة الرواة فيما نقلوه لنا من اخبار الدولة الاسلامية في اثناء تكوُّنها ونشوئها

واذا جاز لنا الشك في الاخبار والكتب التي وضعت لدعاية دينية فلا نراه جائزاً في ما يشير الى ماجريات طبيعية واحوال عادية . كالذي نقل لنا ابن سعد من كتاب النبي الى بني اسد ونصه[2] . « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد النبي الى بني اسد سلام عليكم فاني احمد اليكم الله الذي لااله الا هو

---

(١) الطبري الجملة الاولى ص ١٥٦١ — ١٥٦٧

(٢) الطبقات ج ١ قسم ٢ — ٣٣

اما بعد فلا تقربنّ مياه طيء وارضهم. فانه لا تحلّ لكم مياههم ولا يلجنّ ارضهم الاّ من اولجوا . وذمة محمد بريئة ممن عصاه . وليقم قضاعي بن عمرو[١] »

فهنا نجد اوامر يوجهها امير الى قبيلة خاضعة وليس فيها ما هو خارج عن المعتاد او مناف لروح العصر وطبيعة الحال . و كذلك هذه الكتب التي يفرض فيها الزكاة او الصدقة على القبائل الخاضعة ففي الفاظها واسلوبها وما تحتويه من تفاصيل ما يضعف الشك فيها كقوله لبني نهد[٢] — وقد مرّ معنا امثاله

« بسم الله الرحمن الرحيم. السلام على من آمن بالله ورسوله. لكم يابني نهد في الوظيفة الفريضة[٣] . ولكم العارض[٤] والفريش وذو العنان الرّكوب والغلوّ الضبّيس[٥] .لا يُمنع سرحكم ولا يُعضد طلحكم ولا يُمنع درّكم ما لم تضمروا[٦] الإماق وتأكلوا الرباق[٧] .من اقرّ فله الوفاء بالعهد والذمّة ومن ابى فعليه الربوة »

وسنرى ان الاسلوب الانشائي في هذه الكتب مماثل لما نقل لنا من اقوال الصحابة بل مماثل للاسلوب الانشائي في الوثائق التي وصلت الينا من اواخر القرن الهجري الاول . وفي ذلك ما يحملنا على القول ان النثر العادي

---

(١) هو من عذرة وكان عاملاً عليهم (٢) العقد (بولاق) ١ — ١٤٠ وصبح الاعشى ٢ — ٢٣٤ (٣) الوظيفة النصاب في الزكاة. الفريضة الهرمة المسنة اي ان البابة المسنة لا تؤخذ في الزكاة (٤) العارض الناقة التي اتى عليها سنة . والفريش التي اتى عليها من نتاجها سبعة ايام (٥) الغلو الضبيس المهر الذي لم يُرَض

(٦) تضمروا الاماق اي تضمروا الغدر (٧) الرباق حبل يشد بها البهم. واكل الرباق كناية عن نقض العهد

اي النثر الذي لم يقصد به اظهار العواطف على شكل خاص — كالسجع او المزدوج مثلاً — لم يطرأ عليه في القرن الاول تغير يذكر وان ذلك القرن يصح ان يعد امتداداً لعهد النبي او للعصر الجاهلي المتأخر .

نظرة في لغة هذه الكتب واسلوبها

والناظر في هذه الكتب النبوية لا محيص له عن ان يرى فيها مزايا كتابية خاصة نذكر منها —

١ — الايجاز والبساطة — فكلها شاهد على الاستغناء باقل الالفاظ وعلى الخلو من الصناعة اللفظية . يكثر فيها الاشارة الى المعاني والبعد عن تكلف السجع او البديع . وهي اقرب الى لغة المحادثة والتخاطب

٢ — يكثر فيها الالفاظ المناسبة لحال المخاطب — كالعباهلة والتيمة والطلح والعارض والفريش والسيوب والوراط وعشرات غيرها من الالفاظ التي يقل او يندر استعمالها في غير ذلك . وقد تنبّه نقّاد العربية الى هذا الامر قال القلقشندي « وكانت لغة رسول الله (صلعم) التي يتكلم بها على الدوام ويخاطب بها الخاص والعام لغة قريش وحاضرة الحجاز . الاّ انه (صلعم) أوتي جوامع الكلم وجمع الى سهولة الحاضرة جزالة البادية فكان يخاطب اهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم[1] »

٣ — اوضاع خاصة تلفت النظر وقلما تعثر عليها في سوى هذه الكتب كقوله — ما كان أحد مكانه — ما بلّ بحر صوفة — اي على الدوام او الى ما لا يحدّ من الزمن

لم آثم مالكم — اي لم اجازكم على مالكم من اعمال تستوجب الجزاء

لم اضع فيكم منذ سالمت — اي لم اقم بامر فيه نقض لعهد او اساءة لكم

(١) صبح الاعشى ٢ — ٢٣٣

ان لهم سعاية — اي صدقة

وليقم فلان — اي ليتولَّ الامر او ليقم بالصلاة في الناس وجمع الصدقات

لا يحاقّه في ذلك احد — اي لا يدّعي ان له حقّا فيه

من اطلعَ اهل مقنا بخير — اي من اسدى اليهم معروفاً

الليل مدٌّ والنهار شدّ — اي يمدّه الليل (بخير) ويشدّه النهار اي لا ينقص ذلك الخير شيء

فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير ان يقتثم — اي يأكل ما اراد من غير ان يستأصل ويحمل معه .

وان الله ورسوله جارٌ عَلَى ذلك — اي حليف او مناصر

وامثال هذه الاوضاع التي تكاد تنحصر في العهود النبوية

٤ — تتابع العبارات في كثير منها بعطف او غير عطف دون تكلف التعادل بينها او صحة التقسيم فيها كقوله —

الى مسيلمة الكذّاب[1] — بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى »

وقوله[2] = « هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود ... حالفه على النصر والنصيحة ما كان احد مكانه ما بل بحر صوفة و كتب عليّ »

وقوله من كتاب الى ربيعة بن ذي مرحب الحضرمي[3] — « وانّ كل رهن بارضهم يحسب ثمره وسدره وقضبه من رهنه الذي هو فيه . وان كل

---

(١) الطبقات ج ١ ق ٢ — ٢٦ (٢) الطبقات ج ١ ق ٢ — ٢٦

(٣) الطبقات ج ١ ق ٢ — ٢١ .

ما كان في ثمارهم من خير فانه لا يسأله احد عنه . وان الله ورسوله براءٌ منه وان نصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين . وان ارضهم بريئة من الجور وان اموالهم وانفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل الى آل قيس وان الله جار على ذلك و كتب معاوية »

وقوله[1] — ان له ما اسلم عليه من ارضها واشيائها (يعني نخلها) ما اقام الصلاة وآتى الزكاة واعطى خمس المغانم في الغزو ولا عُشر ولا حَشر ومن تبعه من قومه و كتب الارقم »

وقوله[2] — هذا كتابٌ من محمد رسول لبني غاديا ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء الليلُ مدّ والنهار شدّ و كتب خالد بن سعيد »

على انك تجد في بعضها ميلاً الى التوازن او الازدواج ولكنه غير عام ومما يلفت النظر انك اذا استثنيت بعض الكتب ولا سيما التي يقال انها ارسلت الى الملوك فان الكتب النبوية عموماً خالية من الشواهد القرآنية وليس فيها ما يدل على فن كتابي خاص تعمده الرسول وانما هي كما ذكرنا تمثل لغة التعامل العادية في ذلك الوقت

---

(١) الطبقات ١ ق ٢ — ٢٢ (٢) الطبقات ١ ق ٢ — ٢٩

الاسلوب القرآني

توطئة في كيف جمع اول كتاب عربي

نزل القرآن في نحو ثلاث وعشرين سنة آية واحدة او عدة آيات حسب الحاجة ودواعي الحال . وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل منه ابتداءً من انفسهم او بامر النبي فيخطُّونه على ما اتفق لهم يومئذ من ادوات الكتابة كالعُسب واللخاف وقطع الاديم وعظام الاكتاف[١] . وعن البلاذري نقلا عن الواقدي عن اشياخه « اول من كتب لرسول الله (ص) مقدَمه المدينة أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت فكانا يكتبان الوحي بين يديه وكتبه الى من يكاتب من الناس[٢] » . وقد اختلف في عدد الذين جمعوا الآيات القرآنية على عهد النبي ويؤخذ مما ذكره ابن سعد في طبقاته انهم بين الاربعة والستة ومنهم أُبيّ ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت[٣] . اما ابن النديم فيرفع عددهم الى السبعة ويعدّ منهم الامام علياً[٤] » . ويجعلهم الحافظ الذهبي اربعة[٥] . وعلى ذلك اكثر العلماء . ويظهر انهم كانوا يعرضون على النبي ما يجمعونه فقد روى الصولي بسنده الى زيد بن ثابت قال كنت اكتب الوحي عند رسول الله (ص) وهو يملي عليّ فاذا فرغت قال اقرأه فاقرأه فان كان فيه سقط اقامه[٦] . وعن السيوطي في الاتقان ان زيداً كتب العرضة الاخيرة للقرآن وقرأها على النبي وكان يقرئ الناس بها ولذلك اعتمده ابو بكر وعثمان[٧] .

---

(١) العسب جمع عسيب وهو جريدة النخل . واللخاف حجارة بيض رقاق . والاديم الجلد (٢) فتوح البلدان ٤٧٣ (٣) الطبقات ج ٢ ق ٢ — ١١٢
(٤) الفهرست ٢٧ (٥) تذكرة الحفاظ ١ — ٢٧ (٦) ادب الكتاب ص ١٦٥ (٧) الاتقان ١ — ٥٣

على ان الجمع المعوّل عليه انما حدث اولاً في عهد ابي بكر فقد عهد الى زيد بذلك فجمع السور من المخطوطات المختلفة ومن صدور الرجال وجعلها في صحف فكانت عند ابي بكر ثم انتقلت الى عمر فحفصة ابنته[١]

وفي ايام عثمان أُعيد النظر فيه فعهد هذا الخليفة الى لجنة قوامها زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخت صحف ابي بكر في مصاحف. وقال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم فيه انتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم. فنسخ زيد بضعة مصاحف ارسل منها الخليفة مصحفاً الى كل افق وامر بكل ما سواه من القرآن ان يحرق[٢]

جُمع مصحف عثمان في سنة ٢٥ هـ وقد روعي فيه الامانة التامة في النقل ولشدّة اعتناء المسلمين بالمحافظة على صورته الاصلية اي الصورة التي نقلها زيد لعثمان لم يمسوه بادني تحوير او تبديل حتى انهم اتفقوا على صور الالفاظ التي كتبت يومئذ على غير الاصول الكتابية كرسم التاء والهمزة وزيادة بعض الاحرف وسواها[٣]. قال الزمخشري في الكشاف «وقد اتفقت في خط المصحف اشياء خارجة عن القياسات التي بنى عليها علم الخط وكان اتباع خطّ المصحف سنة لا تخالف[٤]. وقال ابن خلدون في كلامه عن صناعة الخط وانها لم تكن في عهد الصحابة بالغةً الغاية من الاحكام او الاتقان «وانظر

---

(١) الفهرست ٢٤ (٢) صحيح البخاري ٦—٩٦ والفهرست ٢٥

(٣) مثال ذلك :

نعمت وبقيت	بدل نعمة وبقية
يشعيب وسلطن	بدل ياشعيب وسلطان
يايه واليل	بدل يا ايها والليل
ادريك	بدل ادراك

(٤) الكشاف ١—١٠

ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرُّكاً[١]» . ونقل صاحب مفتاح السعادة عن البيهقي قوله . «من كتب مصحفاً فينبغي ان يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف[٢] . وكما حافظوا على رسم حروفه حافظوا على طرق ادائه واستقر من هذه الطرق سبع معينة تواتر نقلها واختُصَّت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت اصولاً للقراءة . ومع انشعاب المسلمين منذ اوائل عهدهم الى شيعة وسنة وخوارج وغير ذلك واختلافهم في بعض اجزاء القرآن او سوره كرفض الخوارج سورة يوسف وقول الشيعة انه قد سقط منه بعض آيات في الامام علي . فانهم جميعاً مجمعون على صحة روايته وصدق آياته لا يمارون في ذلك ولكنهم يتشاحنون في تفسيره وتأويله . فالحروب الشديدة التي ثارت بينهم لم تمسّ جوهر القرآن الا في اشياء زهيدة تدَّعيها هذه الفرقة او تلك . وفي ذلك ما فيه مما يؤيد اجماع الامَّة على قبول نصّه كما جمع في مصحف عثمان . ومما يدل على حرصهم الاّ يمسوه بتحوير او تبديل انهم ابقوا على ما فيه من ناسخ ومنسوخ وحروف من اللحن[٣] . فهو وثيقة ادبية تاريخية بل هو اصح ما يعتمد عليه في الرجوع الى ما كان عليه الادب العربي في بدء العهد الاسلامي . حتى ان النقاد من مستشرقي اوربا لم يستطيعوا الا الجهر بذلك . قال نولدكي في دائرة المعارف البريطانية[٤] «ان مصحف عثمان على ما فيه من غرابة في الترتيب صحيح الرواية .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٩ (٢) مفتاح السعادة ٢ — ٢٢٩

(٣) من اراد البحث في الناسخ والمنسوخ فليراجع الاتقان للسيوطي ٢ — ٢١ وفي اللحن فليراجع مفتاح السعادة ٢ — ٢٧٧ (٤) Enc. Br. - Koran

وكل محاولة من قبل علماء اوربا لاثبات زيادات لحقته في عصر متأخر لم يكن نصيبها الا الخيبة »

لغته

مما لا شك فيه ان لغة القرآن على العموم حجازية فالنبي حجازي حمل الوحي الى قريش بلسانهم . وقد اجمع المؤرخون على ان عثمان امر الذين جمعوه ان يكتبوا ما يختلفون عليه بلغة قريش . وللعلماء المتخصصين في دراسة القرآن مباحث عقدوها في تبيان غريبه . قال السيوطي في الاتقان ان خلائق لا يحصون افردوا ذلك بالتصنيف « منهم ابو عبيدة وابو عمر الزاهد وابن دريد ومن اشهرها كتاب العزيزي فقد اقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحرّره هو وشيخه ابو بكر الانباري . ومن احسنها المفردات للراغب . ولابي حيّان في ذلك تأليف مختصر في كراسين[1] » قلنا وعنهم اخذ الذين اتوا بعدهم فصنفوا ما صنفوه ومنهم السيوطي وكثيرون غيره . واذا قلنا غريب القرآن فنحن نعني بذلك احد نوعين ١ — الغريب العربي وهو ما كان من غير لغة قريش ٢ — الغريب الدخيل وهو المعرّب . نقل صاحب مفتاح السعادة عن كتاب الارشاد للواسطي قوله « في القرآن من اللغات خمسون[2] » ويعني بذلك انك تجد فيه من غريب الالفاظ ما أُخذ عن نحو خمسين قبيلة من قبائل العرب . واليك امثلة من ذلك ننقلها عن الاتقان للسيوطي[3]

ارائك	يمنية	الاسرّة	معاذير	يمنية	ستور
سامدون	〃	ساهون	زوّج	〃	نكح

(١) الاتقان ١ — ١١٨ (٢) مفتاح السعادة ٢ — ٢٦٩
(٣) الاتقان ١ — ١٤٠ و ١٤١

اللهو	يمنية	المرأة	فورهم	هذيل	وجههم
بعل	ازدشنوءه	رب	مدرار	〃	متتابع
الوزر	هذيل	ولد الولد	عيلة	〃	فاقة
ييأس	هوازن	يعلم	وليمة	〃	بطانة
يفتنكم	هوازن	يضلكم	انفروا	〃	اغزوا
بور	عمان	هلكى	السائحون	〃	الصائمون
نقبوا	يمنيه	هربوا	دلوك الشمس	〃	زوالها
يليت	عبس	ينقص	شاكلته	〃	ناحيته
المسنّاة	يمنية	مابنى للسيل	رجم	〃	ظن
المسطور	〃	المكتوب	ملتحد	〃	ملجأ
السفهاء	كنانة	الجهال	الاجداث	〃	القبور
خاسئين	〃	صاغرين	ثاقب	〃	مضيء
معجزين	〃	سابقين	دسر	〃	المسامير
الموئل	〃	الملجأ	برد	〃	نوم
مبلسون	〃	آيسون	مسغبة	〃	مجاعة
الخراصون	〃	الكذابون	الفشل	حمير	الجبن
الاسفار	〃	الكتب	زيلنا	〃	ميزنا
أقتت	〃	جمعت	عتيا	〃	نحولا
كنود	〃	كفور	الصرح	〃	البيت
الرجز	هذيل	العذاب	انكر الاصوات	〃	اقبحها
شروا	〃	باعوا	يتركم	〃	ينقصكم
آناء الليل	〃	ساعاته	راية	〃	شديدة

باءوا	جرهم	استوجبوا	تسيمون	جثعم	ترعون
كدأب	〃	كاشباه	مريج	〃	منتشر
تعولوا	〃	تميلوا	صفّت	〃	مالت
شرد	〃	نكل	شطط	〃	كذب
عصيب	〃	شديد	نحلة	قيس عيلان	فريضة
حدب	〃	جانب	حرج	〃	ضيق
الخلال	〃	السحاب	صياصيهم	〃	حصونهم
الودق	〃	المطر	تحبرون	〃	تنعمون
رِيع	〃	محل مرتفع	رجيم	〃	ملعون
ينسلون	〃	يخرجون	حفدة	سعد العشيرة	اختان
شوبا	〃	مزجا	كلّ	〃	عيال
سور	〃	الحائط	فجاج	كندة	طرق
شية	ازدشنوءه	وضح	تبتئس	〃	تحزن
العضل	〃	الحبس	اخسئوا	عذرة	اخزوا
إمَّة	〃	سنين	ربّيون	حضرموت	رجال
الرسّ	〃	البئر	دمرنا	〃	اهلكنا
غسلين	〃	الحار	لغوب	〃	اعياء
لوّاحة	〃	حرّاقة	منسأته	〃	عصاه
مقيت	مذحج	مقتدر	لا تغلوا	مزينة	لا تزيدوا
الوصيد	〃	الفناء	املاق	لخم	جوع
الخرطوم	〃	الانف	فجاسوا	جذام	تخللوا
الحقب	〃	الدهر	الجناح	حنيفة	اليد

حصرت اليمامة ضاقت	نكص سلم رجع
تبرنا سبا اهلكنا	الصاعقة عمارة الموت

وهناك الفاظ اخرى لقبائل شتى يضيق المقام عن استيعابها

الغريب الدخيل

وفي القرآن اكثر من مئة لفظة من غير لغات العرب وازاء هذه الالفاظ اختلف علماء الفقه في تفسير الآية «قرآناً عربياً غير ذي عوج»[١] والآية «ولو جعلناه قرآناً اعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته أأعجمي وعربي[٢]» . وانقسموا فئتين — فئة ترفض ان يكون في القرآن كلام غير عربي ومن هؤلاء ابو عبيدة وابن فارس والطبري والشافعي والباقلاني . وفئة تقول بوقوع غير العربي فيه . ومنهم ابن سلام وابن الجوزي والجواليقي والخفاجي[٣] والحقيقة ما ذهبت اليه الفئة الثانية . وقد احسن ابن سلام والجواليقي الجمع بين الرأيين فقال الاول «والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك ان هذه الاحرف اصولها اعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بالسنتها وحوّلتها عن الفاظ العجم فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب . فمن قال انها عربية فهو صادق ومن قال اعجمية فصادق[٤]» . وانتقد الجواليقي قول ابي عبيدة — من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية فقد اعظم على الله القول — فقال «وما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في احرف كثيرة من غير لسان العرب مثل سجّيل والمشكاة واليمّ والطور وغيرها . فهؤلاء اعلم بالتأويل من ابي عبيدة

---

(١) سورة الزمر ٢٨ (٢) سورة فصلت ٤٤ (٣) راجع تفصيل ذلك في المزهر ١ ص ١٢٩ — ١٣٦ (٤) الاتقان ١ — ١٤٣

ولكنهم ذهبوا الى مذهب وذهب هذا الى غيره. وكلاهما مصيب ان شاء الله وذلك ان هذه الحروف بغير لسان العرب في الاصل — فقال اولئك على الاصل — ثم لفظت بها العرب بالسنتها فعرّبتها فهي عربية في هذه الحال اعجمية الاصل : فهذا القول يصدّق الفريقين جميعاً »[1] ومن امثلة ذلك[2] —

اللفظة	معناها	اصلها	السورة
اباريق	اكواز	فارسية	الواقعة
استبرق	الحرير	〃	الرحمن
اوّاب	المسبِّح	حبشية	ص
الإِصر	العهد	نبطية	آل عمران
الجِبت	الشيطان	حبشية	سورة النساء
حُوب	اثم	حبشية	سورة النساء
الرقيم	اللوح والكتاب	رومية	الكهف
سجيّل	طين متحجر	فارسية	هود
الصراط	الطريق	رومية	الفاتحة
الطور	الجبل	سريانية	القصص
الفردوس	البستان	رومية	الكهف
القِط	الكتاب	نبطية	ص
قسورة	الاسد	حبشية	المدثّر
قرطاس	الورق	رومية	الأَنعام
قسطاس	الميزان	〃	الشعراء

(١) المعرب للجواليقي ص ٤ و ٥ (٢) ننقل هذه الالفاظ عن الاتقان ١ ص ١٤٣ — ١٤٧ وعن الاصل والبيان للشيخ حمزه فتح الله

الكافور	نبت طيب	فارسية	الانسان
كِفلَين	ضعفين	حبشية	الحديد
كنز	المال	فارسية	الكهف
مسك	طيب معروف	فارسية	المطففين
المشكاة	الكوّة	حبشية	النور
المُهل	الزيت	حبشية او بربرية	المعارج
ناشئة الليل	قيامة الليل	حبشية	المزمّل
يصدون	يضجون	حبشية	الزخرف
اليمّ	البحر	سريانية	طه

وقس على ما ذكر كثيراً من الالفاظ التي ذكرت في الاتقان والمعرّب وشفاء الغليل وسواها

اسلوبه

يقع القرآن في ١١٣ سورة ما عدا الفاتحة . والسور عموماً على نوعين مكيٌّ ومدني . وقد اختلفوا في تحديد كلٍّ من النوعين على انّ لهم في ذلك ثلاثة اقوال مشهورة . وهي[1] —

١ — ان المكي ما نزل قبل الهجرة . والمدني ما نزل بعدها

٢ — ان المكي ما نزل بمكة (ولو بعد الهجرة) والمدني ما نزل بالمدينة

٣ — ان المكي ما وقع خطاباً لاهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لاهل المدينة

والذي يتحرّى القرآن يجد ان من السور ما بعض آياته مدني وبعضه

(١) راجع مفتاح السعادة ٢ — ٢٣٨ و ٢٣٩

مكي وقد اشار الى ذلك السيوطي في الاتقان فليراجع[1] . فاذا جعلنا سور القرآن نوعين فانما هي قسمة اجمالية غير شاملة . وعلى هذا التقسيم نجد ان عدد السور المكية يفوق عدد المدنية بنسبة ثلاثة الى واحد على ان منها كثيراً من القصار القليلة الآيات . ولما كانت المكية عموماً اقدم من المدنية وكان موقف النبي فيها — ولا سيما فيما يرجع الى اوائل الدعوة موقف الداعية المتحمس لمبدأ روحي يرى من الواجب اعلانه والجهاد في سبيله — كانت هذه السور في اكثر مواقفها انزع الى الانقاد الخطابي واشدّ انقضاضاً على المقاومين . فهي غالباً حملات نارية يجري الكلام فيها بفقرات قصيرة رنانة يكثر فيها التسجيع . وهنا نقول ان سجع القرآن كان موضوع جدل عند الفقهاء انكره بعضهم استناداً على انه لو كان مسجّعاً لما كان خارجاً عن كلام العرب — لا سيما وان السجع مما كان يألفه كهان العرب . وخالفهم البعض الآخر واثبتوا السجع فيه مستندين الى ان ذلك مما يتبين فيه فضل الكلام[2] . والحقيقة ما ذهب اليه هؤلاء كما يتضح في الالوف من آياته . على ان القرآن لا يتقيّد بالسجع تقيد المقامات ونظائرها بل كثيراً ما ينتهي بفواصل متقاربة غير مقيدة بالقوافي

ويتوالى في كثير من السور المكية القديمة اقسام (جمع قَسَم) شديدة الوقع كقوله — « والنازعاتِ غرقا ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحا فالسابقات سبقا ، فالمدبرات امراً » . او جمل مصدّرة باذا الشرطية كقوله — « اذا الشمس كوّرت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيّرت ، واذا العشار عُطّلت ، واذا الوحوش حشرت » الى آخر الآيات . ولا تجد ذلك

---

(١) راجع الاتقان ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ وراجع ايضاً ص ٩ — ١١

(٢) راجع اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٢

عادةً في السور المدنية — لا الطويلة ولا القصيرة منها — بل ولا في السور المكية المتأخرة. واليك امثلة من الاسلوب المكيّ العام —

« كلاّ إنها لظى ، نزّاعة للشوى ، تدعو من ادبر وتولّى ، وجمع فاوعى . انّ الانسان خُلق هلوعا ، اذا مسّه الشرُّ جزوعا ، واذا مسّه الخير منوعا . الاّ المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في اموالهم حقّ معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدّقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ان عذاب ربهم غير مأمون[1] » . فاذا تأملت هذه الآيات وجدت فيها ما ذكرناه من قصر في العبارات وانقاد في الحمل على المشركين مع ازدواج او سجع يسهل على خوالج النفس الظهور بمظهر رائع موثر . ومثلها من سورة الحاقة[2] « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فاما من أُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، اني ظننت اني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئًا بما اسلفتم في الايام الخالية » ويجري الكلام على هذا الطراز من تذكير وتقريع معقودين بالسجع القصير الفقرات . وانظر الى هذا الاسلوب القديم في سورة المرسلات « والمرسلات عُرفا ، فالعاصفات عَصفا ، والناشرات نشرا فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذِكرا ، عُذراً او نذرا . انما توعدون لواقع . فاذا النجوم طُمست ، واذا السماء فُرجت ، واذا الجبال نُسفت ، واذا الرسل أُقّتت ، لايّ يوم أُجّلت ، ليوم الفصل ، وما ادراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذٍ للمكذّبين . الم نهلك الاولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذٍ للمكذبين . الم نخلقكم من ماءٍ مَهين ، فجعلناه في قرار مكين ، الى قدر معلوم ، فقدَرنا فنعم القادرون . ويل يومئذٍ للمكذبين » . واذا

---

(١) سورة المعارج ١٥ — ٢٧ (٢) الآية ١٨ — ٢٤

تتبعت السورة الى آخرها تجدها على هذا النحو من الازدواج مسجعاً او غير مسجع. وكلما ذكرت منها بضع آيات كرّرت الآية ويل يومئذ للمكذبين فكانها لازمة شعرية او خطابية تربط الايات وتوجه النظر الى الغاية منها

على ان السور المكية الطولى لا تتقيد بقصر الفقرات ولكنها كالقديمة يسود فيها النفس الخطابي ونزعة الحمل على المقاومين او المشركين. وقلما يُعمد فيها الى الاسلوب الجدَلي او التشريعي الذي نراه في كثير من الآيات المدنية ففي المدنية وُضعت انظمة الحياة الاسلامية. وفيها احتكّ الاسلام باهل الكتاب (اليهود) احتكاكاً عنيفاً فتحوّل الانقضاض على مشركي مكة وآلهتهم الى نوع من الارسال البرهاني، اذ كان القصد اخذهم بالحجة واظهار ضلالهم بالتدليل واحياناً بالتقريع. ولا يعني ذلك ان بلاغة الآيات في السور المكية تختلف عنها في السور المدنية اختلافاً يسيغ لنا ان نجعل بين هذين القسمين حداً فاصلاً او تخماً واضحاً، بل ان الاحوال التي نزلت فيها الواحدة لم تكن نفس الاحوال التي نزلت فيها الاخرى. واذا صحّ ان نجعل حداً فاصلاً فانما يكون ذلك بين المكية القديمة والمدنية. اما المكية المتأخرة فصلة وصل بينهما وهذا الاختلاف الواضح في الاسلوب بين السور في عهد مكة الاول وما نزل منها في المدينة راجع بالاكثر الى مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ولذلك قد ترى في بعض مواقف السور المدنية ما يندفع فيه الكلام اندفاعاً خطابياً مماثلاً لما نراه في السور المكية. فما الفرق بينهما الا فرق اجمالي ولكنه يلفت نظر المتأمل. واليك امثلة توضح ما نقصد اليه —

« ان الدين عند الله الاسلام. وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب الاّ من بعد ما جاءهم العلم بَغياً بينهم. ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجُّوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتّبعني. وقل للذين اوتوا الكتاب

والامّيين أأسلمتم . فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »[١]

وفي الآية ٦٥ — ٦٧ « يا اهل الكتاب لِمَ تحاجُّون في ابراهيم وما أُنزلت التوراة والانجيل الاَّ من بعده افلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تحاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . ان أَولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين »

فانك ترى عند قراءة هذه الآيات ومقابلتها بالآيات المكية القديمة انك انتقلت من حال الى حال — لا من حيث التركيب البياني ولكن من حيث انفعال النفس وحرارة العبارة . وانظر الى هذه الآية[٢] « الم ترَ الى الذي حاجّ ابرهيم في ربه أَنْ آتاه الله المُلك اذ قال ابراهيم ربيَ الذي يحيي ويميت . قال انا أُحيي وأُميت . قال ابرهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهتَ الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين » كيف تتخذ طريق البرهان الحسي اقحاماً للخصم ومثلها كثير في السور المدنية ولا تجد ذلك في المكية القديمة او هو نادر جداً هناك ومثلها من السورة نفسها (الآية ١٩) « واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم . قل فلِم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » . والآيتان ٩٤و٩٥ — « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنَّوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنَّوه ابداً بما قدّمت ايديهم والله عليم بالظالمين »

---

(١) آل عمران الآية ٢٩ و٣٠ (٢) سورة البقرة ٢٥٧

ولو قابلت السور المكية الصغرى بامثالها من المدنية لرأيت ما نقصد اليه من تغير النفس بتغير المكان والحال. ولا يتسع المقام لضرب الامثلة على ذلك فنرجع الباحث الى هذه السور ليحكم بنفسه على ما نقول. وهذا ابو هلال العسكري يشير الى هذا الفرق وانه ناجم عن حال المخاطَب. فقد قال في باب الاطناب من كتابه الصناعتين[1] «قد رأينا ان الله تعالى اذا خاطب العرب والاعراب اخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي واذا خاطب بني اسرائيل او حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً. وقلما تجد قصة لبني اسرائيل في القرآن الا مطوّلة مشروحة، ومكرّرة في مواضع معادةً لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم». وعلى ذلك قال الصولي في ادب الكتاب[2] «فاذا احتيج الى الاكثار جيءَ بما لا بدّ منه. واكثر ما يقع ذلك في الرغبة والرهبة. الا ترى الى كتاب الله عزّ وجل وكلامه المعجز كيف يكون فيه ذكر الجنة والنار وقصة الانبياء (عم) والنقمة ممن كذبهم بالاعتبار بما نزل بهم. فكانت الحكمة تقرير ذلك» ... الى ان يقول «ولان الانسان قد يقرأ بعض القرآن ويحفظ شيئاً منه دون شيء فلم يخلِ الله عزوجل كل موضع منه من ترغيب وترهيب واذكار واعتبار تفضلاً منه على عباده واستدعاءً لطاعتهم ونهياً عن عصيانهم. فوقع التكرير لذلك»

وقال ابن قتيبة[3] — «وهذا (اي الايجاز) ليس بمحمود في كل موضع ولا بمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال ولو كان الايجاز محموداً في كل الاحوال لجرده الله في القرآن ولم يفعل الله ذلك ولكنه اطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرّر تارة للافهام»

---

(١) الصناعتين ١٤٤ (٢) ادب الكتاب ص ٢٢١

(٣) ادب الكاتب ٩

ظواهر بلاغية

من العبث ان نلمّ هنا بكل ضروب البلاغة التي تتجلى في القرآن . ففي بلاغته وضع كثير من الكتب ، بل هو العامل الدافع لما صنفه العلماء من علوم المعاني والبيان والصرف والنحو ناهيك بكتب التفسير واللغة والتشريع وسواها . وقد اوجب العلماء على من يتعرّض لدرس القرآن وتفسيره لا اقلّ من ١٥ علماً [١] . وعدّوا منها المعاني والبيان والبديع او علوم البلاغة وهي عندهم من اعظم اركان المفسّر ، لانه لا بدّ له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وانما يدرك بهذه العلوم . الأ ان مِلاك الامر فيه اما السليقة كالاعراب الخلّص ومن يحذو حذوهم ، او الذوق الذي هو آلة في اكتساب البلاغة ولا يمكن تحصيلها بدونه . قال السكاكي في حق المعاني والبيان « فالويل كل الويل لما تعاطى التفسير وهو فيهما راجل [٢] » . وقد افردوا في بدائع القرآن مصنفات عديدة وعددوا من تلك البدائع اكثر من مئة نوع . فلتراجع في مظانها الخاصة . على انه لا يسعنا ان نمرّ باول كتاب عربي دون ان نلمّح ولو تلميحاً الى بضع من اعمّ الظواهر البلاغية فيه مستندين في ذلك الى ما اختبرناه لدن قراءته . وسنقتصر منها على اربعة انواع —

١ — الاحتباك ودقة الاشارة . ومعنى الاحتباك الشدُّ والإحكام وتحسين اثر الصنعة في الثوب بسدّ ما بين خيوطه من الفرَج ، واحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع بقاء الحسن والرونق . وهو يتناول في الكلام احكام الانشاء بحيث لا يتراخى او يضعف لحذف او ذكر او تقديم وتأخير وما

---

(١) راجع تفصيل ذلك في مفتاح السعادة ١ — ٤٢٧ و ٤٢٨

(٢) راجع تفصيل ذلك في مفتاح السعادة ١ — ٤٢٨

شا كل من ضروب المعاني . واما دقة الاشارة فهو الايجاز او عرض المعنى باقل ما يكون من الالفاظ او العبارات كالآية — « افمن شرح صدره للاسلام فهو على نورٍ من ربه فويل للقاسية قلوبهم[1] » . فالمحذوف هنا خبر من (كالقاسية قلوبهم) وقد اشارت اليه الآية اشارة غريبة . ومثلها الآية[2] « افمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » . فانظر الى الايجاز في تقدير الخبر (كمن هو آمن منه) ومن ذلك الآية ٤٨ من سورة الشورى « فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليك الا البلاغ . وإنّا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدّمت ايديهم فان الانسان كفور » . والاحقاف ٤ « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض . ام لهم شركٌ في السموات . ائتوني بكتابٍ من قبل هذا او أثارة من علم ان كنتم صادقين » . اي بكتاب او بقية من علم الاولين تشير الى استحقاقها للعبادة .

وعلى هذا النمط الدقيق الآية ٢٩ من سورة الفتح يتكلم عن المؤمنين «سيماهم في وجوههم من اثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار . » وطه ٦٦ « قال القوا فاذا حبالهم وعصيّهم يخيّل اليه من سحرهم انها تسعى »

فتأمل الحذف او التقدير في كل من هذه الآيات تفهم ما نقصد بدقة الاشارة واحتباك العبارة . وقس على ذلك من آي الكتاب ما يتعذر احصاؤه في هذا المقام

---

(١) الزمر ٢٢ (٢) الزمر ٢٤

٢ — حسن الايقاع

ويراد به رصف الكلام رصفاً متناسب الاجزاء . ويحصل من تلاؤم الالفاظ والعبارات تلاؤماً ترتاح اليه النفوس . والقرآن بما فيه من رنة مطربة سواء كان ذلك في فواصله او اسجاعه (ويظهر سجعه في نحو ٦٢٠٠ آية) او اتّساق الالفاظ في آياته يعدّ انموذجاً في الادب العربي . فاذا نظرت فيه عبارةً عبارة رأيت قوة السبك (الاحتباك) مقرونة بما يناسب شعور النفس من عنف حين العنف ورقّة في موقف الرقة . ويغلب على اسلوبه الروعة الخطابية والوثبات العاطفية ولذلك يكثر فيه التفخيم والتكرير والتمثيل وسواها من ضروب البلاغة . كل ذلك بايقاع خاصّ عرف به القرآن ويكثر في تركيبه الانشائي تقديم القيود على المقيدات والصفات على الموصوفات مما يلائم اتقاد الشعور ووثبات الخيال

وللشيخ شمس الدين بن الصائغ كتاب سماه (إحكام الراي في أحكام الآي) اشار فيه الى تناسب العبارات القرآنية والى انه قد تُوخي فيها اوضاع خاصة مراعاة لهذا التناسب . قال « وتتبعت الاحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف واربعين حكماً » وقد نقل هذه الاحكام جميعها صاحب مفتاح السعادة[1] فليراجعها من اراد . على اني اجتزئ هنا منها بما يلي اظهاراً لما نرمي اليه —

تقديم ما هو مؤخر في الزمان نحو : فلله الآخرة والاولى

تقديم الصفة الجملة عَلَى الصفة المفرد نحو : ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا

---

(١) مفتاح السعادة ٢ — ٣٤٦ — ٣٤٩

تقديم الضمير على ما يفسره نحو فاوجس في نفسه خيفةً موسى

ايثار تذكير اسم الجنس 〃 اعجاز نخل منقعر

〃 تأنيث 〃 〃 〃 اعجاز نخل خاوية

ايراد احد القسمين غير مطابق للآخر نحو : وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (لم يقل الذين كذبوا)

ايثار اغرب اللفظين نحو : قسمة ضئزى (لم يقل جائرة)

حذف اسم المفعول 〃 ما ودعك ربك وما قلى

الاستغناء بالافراد عن التثنية نحو : فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (بدل فتشقيان)

اجراء غير العاقل مجرى العاقل نحو: رأيتهم لي ساجدين (عن القمر والنجوم)

العدول عن الماضي الى الحاضر نحو: فريقا كذبتم وفريقاً تقتلون

تغيير بنية الكلمة نحو : طور سينين (بدل سيناء)

وقوع اسم المفعول بدل الفاعل نحو : حجاباً مستورا (بدل ساترا)

الى آخر هذه الاحكام التي تدل على مراعاة التنزيل للوزن وحسن الوصف وجمال الايقاع .

٣ — روعة الانتقال

ويراد بها الوثوب من معنى الى معنى او من حالة الى حالة وثوباً يحرّك النفس ويزيد في روعة المعنى .وا كثر ما يكون ذلك فيما يطلق عليه العلماء اسم الالتفات وهو الخروج من صيغة الى صيغة واليك امثلة عليه —

« ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يُلقى في النار خير ام من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير [1] فقد انتقل

(١) فصّلت ٤٠

من الخبر الى السؤال الى الامر انتقالاً زاد تأثير الكلام . ومن ذلك « فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم . واضلّ فرعونُ قومهُ وما هدى يا بني اسرائيل قد انجينا كم من عدوّ كم وواعدنا كم جانب الطور الايمن ونزّلنا عليكم المنّ والسلوى [1] . والانتقال هنا من الخبر الى النداء

ومن الالتفات « هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة . وقُضيَ الامر والى الله ترجَع الامور [2] »

ومنه — « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل اناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تَعثَوا في الارض مفسدين [3] » ومنه — وقيل يا ارض ابلعي ماءك . ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الامر ، واستوت على الجُوديّ ، وقيل بعداً للقوم الظالمين »

وذكر الصفدي في « الغيث المنسجم في شرح لامية العجم » نوعاً آخر من الالتفات سماه الالتفات من اسلوب الى اسلوب او الخروج من نوع الى نوع وسلوك سبيل بعد سبيل حتى عدّ التخلصات الشعرية منه [4] . فاذا التفتنا الى القرآن نجد هذا النوع من الالتفات عاماً فكثيراً ما ينتقل في السورة الواحدة من قصة الى قصة ومن موقف الى موقف انتقالاً فجائياً قد يجد فيه القارئ او السامع تطرية لنشاطه .

واذا دققنا النظر في الالتفات وبحثنا في الغاية من العدول عن صيغة الى اخرى او عن موقف الى آخر وجدنا ان ذلك لا يكون الاّ لخصوصية بلاغية كالتعظيم او التحقير او التوكيد او الايضاح وهو يعدّ لذلك من اوجه

---

(١) طه ٧٩ و ٨٠ (٢) البقرة ٢٠٩

(٣) البقرة ٦٠ (٤) الغيث المنسجم ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

البلاغة بل من اركانها الرئيسية . ولقد يتجلى ما نقصد اليه في ما يلي من سورة الكهف يصف يوم الحساب «ويوم نُسيّر الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا وعُرضوا على ربك صفًّا . لقد جئتمونا كما خلقناكم اوّل مرّة بل زعمتم أَلّنْ نجعل لكم موعدا . ووُضِع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ احصاها . ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احدا »

فانظر كيف تواثب من المضارع الى الماضي ومن المعلوم الى المجهول ومن الغائب الى المخاطب ثم الى الغائب فالمخاطب فالغائب فالمخاطب تواثباً يجعل للكلام من جلال الوصف وتعظيم الحال ما ينفرد به هذا النوع من ضروب البلاغة .

٤ — جمال التمثيل

ويراد بالتمثيل تفسير المعاني الموهومة بالصور المشاهدة او كما قال بعضهم ابراز المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقّن والغائب كانه مشاهد وهو يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه . قال السيوطي « ولذلك اكثر الله تعالى في كتابه الامثال[1] »

وامثال القرآن قسمان قسم على سبيل التشبيه الظاهر كقوله من سورة البقرة في المنافقين — « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون » . وقوله « او كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف ابصارهم كلّما اضاء لهم مشوا فيه

(١) الاتقان ٢ — ١٣٦

واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيءٍ قدير » ومن سورة الرعد « قل هل تستوي الظلمات والنور ام جعلوا لله شركاء خلَقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيءٍ وهو الواحد القهّار . انزل من السماء ماءً فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقِدون عليه في النار ابتغاءَ حلية او متاع زبدٌ مثلهُ . كذلك يضرب الحق والباطل َ فاماّ الزَّبد فيذهب جُفاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال » اي كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جفاءً لا ينتفع به ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن اهله . وكما مكث هذا الماء في الارض فامرعت واخرجت نباتها و كذلك الذهب والفضة حين ادخل النار فذهب خبثه كذلك يبقى الحق لاهله .

ومن هذا الطراز العالي ما جاء في سورة الكهف . « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدرا » . ومن سورة النور « الله نور السموات والارض . مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح . المصباح في زجاجة ، الزجاجة كانها كوكبٌ دريٌّ يوقَد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسهُ نار ، نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم »

ويجيء التمثيل الظاهر في القرآن عن سبيل القصص وهو كثير :

ومن التمثيل القرآني ما لايظهر عن سبيل التشبيه او القصص ولكنه يجيء امثالاً ترسل في الناس حكماً بالغة . وهي كثيرة نعد منها ولا نعددها كقوله :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

الآن حصحص الحق

قُضي الامر الذي فيه تستفتيان

أليس الصبح بقريب

لكلّ نبأ مستقرّ

قل كلٌّ يعمل على شاكلته

وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

كلُّ نفس بما كسبت رهينة

ما على الرسول الا البلاغ

كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرة

ولا ينبئك مثلُ خبير

لا يكلّف الله نفساً الا وسعها

قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث

واما الزّبد فيذهب جُفاءً

وقس على ما ذكر مئات من جوامع الكلم وفيه تتجلى متانة الاحتباك مع بلاغة الايجاز . وليس ما ذكرناه من ضروب البلاغة في اول وثيقة عربية الا قطرة من بحر عباب . وليس على الباحث الا ان يرجع اليه ويطالع اقوال الشراح فيه ليعرف دقائق بلاغته ويتفهم اسرار لغته .

راي نولدكه في اسلوبه

لهذا المستشرق الكبير بحث ضاف في دائرة المعارف البريطانية[1] عالج فيه القرآن من كل وجوهه معالجة الخبير المدقق على انه في الكلام على اسلوبه القصصي ذكر ما تراءى له كاوجه ضعف في ذلك الاسلوب[2] . واهمها

---

(١) راجع تحت لفظة Koran - Encyc. Brit. Edition 11

(٢) راجع كلامه في نفس المقال تحت عنوان Stylistic weakness

عنده — النقص في التسلسل — ويقصد بذلك ان القصة لا تروى في طريقة خبرية منظمة بل يعتريها التقطيع والتشويش حتى يصعب جداً فهمها على من لم يطّلع عليها في مصدر آخر . ومما انتقده تكرير بعض الالفاظ او العبارات تكريراً لا مبرّر له (عنده) و كثرة الانتقال في سياق الكلام من صيغة الى صيغة او من حال الى حال . ويقول ان كل عالم اوربي يقرأ الكتاب بروح الانصاف يرى رأيه . اما المتمسكون من اهل الاسلام فينكرون هذا الكلام ويرمون صاحبه بالالحاد .

ومن الانصاف هنا ان نقول ان نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقد الاسلوب القرآني . اذ لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب باسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما . ففي التوراة عدا اسفار الانبياء والامثال والاناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري فيه الاخبار مجراها الواضح العادي ، اما القرآن فجملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيها القصة تذكيراً او تهويلاً . ولذلك ترد مراراً بحسب ما يقتضيه الكلام و كثيراً ما تروى عن سبيل الاشارة والتلميح — والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف — . واما الالتفات فقد تقدم معنا الكلام عليه وانه من ضروب البلاغة ويصعب ادراك كنهه على غير ابناء اللغة الواقفين على اسرارها

الحديث النبوي

ومقامه في تاريخ النثر

ليس من شأننا ان نتناول الحديث من الوجهة الفقهية فلذلك علماء تخصصوا في دراسته واليهم يُرجع في روايته ومعرفة اسانيده . على انه لا يسعنا ونحن ندرس النثر العربي ونحاول ان نتتبع مجاريه في التاريخ الاّ ان نقف قليلاً لدى هذه المجموعة الادبية الخطيرة ، لاسيما وان ارباب القول فيها يرجعونها الى عهد النبي ويضعونها في المقام الاعلى بعد القرآن.

نقل القلقشندي عن كتاب حسن التوسّل « لا بدّ للكاتب من حفظ الكثير من الاحاديث النبوية والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم وخصوصاً في السير والمغازي والاحكام وتأمُّل فصاحتها والنظر في معرفة معانيها وغريبها » الى ان يقول « فانها بعد كتاب الله في كلام من أُوتي جوامع الكلم وقال انا افصح من نطق بالضاد » ثم قال :

والذي اشار اليه ابن قتيبة في ادب الكاتب « ان الاحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الاحاديث المتعلقة بالفقه واحكامه » قلت (اي القلقشندي) والتحقيق ان حاجة الكاتب لا تختص باحاديث الاحكام ودلائل الفقه بل تتعلق بما هو اعم من ذلك خصوصاً الحِكم والامثال والسير وما اشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه [1]

فهي تهم الباحث في تاريخ الادب العربي . ولكن الى اي حدّ يجوز اعتمادها و كيف ندلج في ظلمات البحث متلمّسين صحيحها ، ذلك ما نرجو بسطه في هذا المقام .

---

(١) ملخصة عن صبح الاعشى ٢٠١—٢٠٤

وضع الاحاديث

لا مراء في ان الحديث لا يجوز اعتبار مجموعه وثيقة من الوثائق النثرية فقد كثر فيه الوضع حتى لفت نظر الباحثين قديماً وحديثاً. وعلى ذلك قول ابن القطّان «لم تر اهل الخير في شيء اكذب منهم في الحديث[١]». وقد هبّ العلماء منذ دُوّن الحديث الى درسه وتجريحه وتعديله، ولهم في ذلك كتب واقوال كثيرة نذكر منها عدا الصحيحين جامع الاصول لابن الاثير وكتاب الموضوعات لابن الجوزي وتذكرة الحفاظ للذهبي وجامع الجوامع للسيوطي وما الى ذلك من مؤلفات يتعذر حصرها هنا. وفي جميعها يعنى لمؤلفون بذكر الحفاظ والمحدثين وتعيين درجاتهم والتنويه بحسناتهم وسيئاتهم وقد قادهم ذلك الى تنويع الاحاديث وغربلتها والنظر في اسانيدها وشروطها فطرحوا منها الالوف الكثيرة كما فعل الامامان محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجّاج في صحيحيهما. فاننا اذا اعتبرنا الاحاديث المكررة في صحيح البخاري مثلاً وجدنا انه لم يثبت من ستمئة الف حديث مروية في زمانه الاّ اقل من اربعة آلاف حديث ومثل ذلك صحيح مسلم[٢]. قال ابن خلدون «واعلم ان الائمة المجتهدين تعاونوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فابو حنيفه[٣] (رضه) يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً ومالك انما صحّ عنده ما في كتاب الموطّأ وغايتها ثلاثمئة حديث او نحوها[٤]». وروى

---

(١) صحيح مسلم ١ — ١٣ ويروى ايضاً لعاصم (٢) قال مسلم صغت الصحيح من ٣٠٠٠٠٠ حديث مسموعة — ابن خلكان ٢ — ١٣٣ راجع ايضاً مفتاح السعادة ٢ — ٥ (٣) هو من التابعين ولقي عدة من الصحابة (الفهرست ٢٠١) (٤) المقدمة ص ٤٤٢. وعن المنار مج ٣ ص ٧٥٧ ما نصه «وقد روي عن الامام مالك (رضه) انه كان قد كتب كتابه الموطأ حاويًا اربعة عشر الف حديث عن النبي (صلعم) فلما سمع حديث قد كثرت عليّ الكذابة الخ عاد الى تحرير كتابه فلم يثبت له من الاربعة عشر الفًا اكثر من الف»

السمعاني عن ابن راهويه وهو احد الحفاظ المشهورين قال الاحاديث الثابتة عن رسول الله (صلعم) في الاحكام ثلاثة آلاف حديث خمسمائة منها مدارها على ابي هريرة[1] » . وقد اشار الى وضع الاحاديث الامام مسلم بن الحجاج فقال في مقدمة صحيحه[2] « فلولا الذي رأينا من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدّثاً فيما يلزمهم من طرح الاحاديث الضعيفة والروايات المنكرة، وتركهم الاقتصار على الاحاديث الصحيحة المشهورة مما نقله الثقات المعروفون بالصدق والامانة ، بعد معرفتهم واقرارهم بالسنتهم ان كثيراً مما يقذفون به الى الاغبياء من الناس هو مستنكر ومنقول عن قوم غير مرضيين — فممن ذمّ الرواية عنهم ائمة اهل الحديث مثل مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج وسفيان بن عُيينة ويحيى بن سعيد القطّان وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من الائمة — لما سهل علينا الانتصاب لما سألت من التمييز والتحصيل » الخ الكلام . ويثلوه باب الكشف عن معايب رواة الحديث ونقلة الاخبار وقول الائمة في ذلك . وللقدماء اقوال كثيرة في هذا الباب اما من اقوال المحدثين فقد اخترنا ما اورده المنار للشيخ محمد عبده اذ قال[3] — « لم يرزأ الاسلام باعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه وما احدثه الغلاة من المفتريات عليه فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين واساء ظنون غيرهم فيما بني على الدين . وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى حتى عُرف ذلك في عهد الصحابة (رض) . بل عهد الكذب على النبي (ص) في حياته حتى خطب في الناس قائلاً — ايها الناس قد كثرت علي الكذابة . ألا من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار — الاّ ان عموم البلوى

(١) مفتاح السعادة ١ — ٤٠٧ (٢) صحيح مسلم ١ — ٦ (٣) المنار مج ٣ ص ٧٥٥—٧٥٧

بالاكاذيب حقّ على الناس بلاوءه في دولة الامويين فكثر الناقلون وقلّ الصادقون وامتنع كثير من اجلّة الصحابة عن الحديث الا لمن يثقون بحفظه خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم حتى سئل عبد الله بن عباس (رض) لِمَ لا تحدّث فقال لكثرة المحدّثين. ثم اتّسع شرّ الافتراء وتفاقم خطب الاختلاق وامتدّ بامتداد الزمان الى ان نهض ائمة الدين من المحدّثين والعلماء العاملين ووضعوا للحديث اصولاً وشرطوا في صحته شروطاً وبيّنوا درجات الرواة واوصافهم ومن يوثق به ومن لا يوثق به منهم. وصار ذلك فناً من اهم الفنون سمّوه فنّ الاسناد، واتبعوه بفنّ آخر سموه فنّ مصطلح الحديث. فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد، وامتاز الحق من الباطل، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها » الخ .

فلا ريب ان الوضع في الحديث كان شائعاً منذ صدر الاسلام واسبابه مختلفة جعلها ابن الجوزي في كتاب الموضوعات خمسة. وهي الغباوة، والغفلة عن التمييز، وطلب المال والجاه، والتدليس تشيعاً لاحد المذاهب، والزندقة قصد افساد الشريعة وايقاع الشك في قلوب العباد . وقد اضاف الى ذلك صاحب مجلة المنار اسباباً اخرى لا تخرج عند التحقيق عما ذكره ابن الجوزي[1]

نقد الحديث

وقد اهتم العلماء قديماً بنقد الاحاديث عن طريق الاسناد وعُنوا بذلك عناية خاصة فكان لنا من ذلك، الاحاديث الثابتة في الصحيحين وقد حملهم التدقيق في نقد الاسناد وتجريحه الى جعل الاحاديث درجات متنوّعة قد

(١) المنار مج ٣ ج ٢٣ و ٢٤

تبلغ الخمسين يجمعها انواع ثلاثة هي الصحيح والحسن والضعيف واهم مايلفت نظرنا منها ما يلي : —

المرفوع (والمسند) — وهو ما رُفع الى النبي قولاً او فعلاً او تقريراً كأن يقال مثلاً حدّثنا فلان حدّثنا فلان حدّثنا فلان عن ابي هريرة ان النبي قال او فعل او كان كذا وكذا فاذا كان الرفع متصل السند من راويه الى النبي لا يتخلله انقطاع سمّي مسنداً

المُسَلسل — وهو المسند الذي فيه دلالة على اتصال السمع وعدم التدليس كقولهم سمعت فلاناً قال سمعت فلاناً قال سمعت فلاناً وهو اول حديث سمعته . او دخلت على فلان يأكل تمراً او حدّثنا وهو قابض على لحيته

العزيز — وهو الذي يرويه اثنان او ثلاثة عن اثنين او ثلاثة

الغريب — وهو الذي يرويه راوٍ فقط منفرداً بروايته

الموقوف — ما اضيف الى الصحابة وقصر عليه فلم يرتفع الى النبي

المدلَّس — هو الذي يُتلاعب باسناده فيسقط الضعيف منه

المضطرب — ما اضطرب فيه الاسناد فروي على اوجه مختلفة

المنكر — هو الذي لا يعرف متنه من غير جهة راويه . وراويه غير معروف بالعدالة

الموضوع — هو المكذوب الذي وُضع ولا اصل له .

. . . .

على ان النظر في الاسناد وحده لا يكفي فلا بدّ لنا في التنقيب عن الوثائق او الاشكال النثرية الاصلية من اعتبار متن الحديث ، والنظر فيه من حيث علاقاته بالاحوال السياسية والدينية . فاذا رأينا مثلاً حديثاً يروى عن

المهلّب بن ابي صفُرة يضعّف به امر الخوارج تردّدنا في قبوله او رفضناه مهما بلغت صحة اسناده ، وجارينا في ذلك ابن خلكان اذ قال متابعاً المبرّد « وكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ به امر المسلمين ويضعف به امر الخوارج[1] ». وكذلك اذا كان الحديث عن شيعي يطعن في الاموبين او العباسيين ، او عن اموي وعباسي يطعن في العلوبين . وقس على ذلك احاديث الخوارج والزبيرية من الفرق السياسية والمعتزلة والجبرية والقدرية وغيرهامن الفرق الدينية .

وكذلك لا بدّ في درس الحديث من النظر في شكله اللغوي والانشائي فاذا رأيناه مثلاً متبسطاً كثير الازدواج ، او راينا فيه من المفردات او المصطلحات الفنية ما لا يجوز نسبته الى عهد النبي، وقفنا ازاءه وقفة المشكك او الرافض وسيأتي شرح ذلك بعد . ومما يجب اعتباره موقفه ازاء القرآن والتاريخ والعقل وعلاقته بما سبق من اقوال الامم الاخرى واقاصيصها . ففي كل ذلك ما يقتضي الحذر ودقة النظر . والباحث المنقب في تاريخ النثر العربي ليس له ان يستند الاّ الى النص الصحيح او الى ما لا يخالف المنطق مما اجمع اهل الاسناد على صحته .

وتوصلاً الى ذلك رأينا ان نقرن صحة الاسناد كما نص عليها علماء الحديث الموثوق بهم باحكام نقدية عامة قد تدنينا من محجة الصواب فنقف بها على احاديث اقلُّ ما يقال فيها انها تمثل الاسلوب النثري في العهد النبوي واهم هذه الاحكام ما يلي —

١ — الاغضاء عن كل حديث يشتمّ منه دعاية ما (سياسية او اقليمية او دينية او قومية او شخصية)

---

(١) وفيات الاعيان ٢ — ٢١٥

٢ — الاغضاء عن كل حديث مناقض لروح القرآن والاسلام

٣ — الاغضاء عن كل حديث مناقض للتاريخ او العقل

٤ — الاغضاء عن كل حديث يشتبه في لغته او اسلوبه الانشائي

٥ — الاغضاء عن كل حديث يرجّح انه مأخوذ عن امم اخرى

٦ — الاغضاء عن كل حديث مناقض لحديث آخر

فاذا قرنّا هذه الاحكام العامة بامانة النقل وصحة الاسناد وطبقناها على الحديث، لم يكن من المستبعد ان نصل الى ضالتنا المنشودة. وليست غايتنا في ذلك نقد الحديث من حيث هو اساس للسنة المرعية. فما ذلك — كما صرّحنا قبل — من شأننا. وانما نحن ننشد ما يصح اعتباره نموذجاً للنثر في العهد النبوي فلا باس من مجاراة النقادين الحديثين من مستشرقين وسواهم او على الاقل مراعاة ما يذهبون اليه من تجريح المتن، لا لاعتقادنا باصابتهم في كل ما يذهبون اليه، ولكن لكي نرسم لانفسنا في البحث دائرة علمية ضيقة نحصر فيها ما يقبله الجميع من مجرّح وغير مجرّح، ثم نتخذ هذا المُجمع عليه ونجعله اساساً لما نقصد اليه

وقد ورد في مجلة المنار مقال بقلم «الناصح الامين» ذكر فيه اسباب الوضع، ووضع للحديث الموضوع علامات رأينا ان نذكرها هنا تتمة للفائدة — وهي[1]

١ — المجازفات التي لا يقول مثلها الرسول (ص) مثل «من قال لا اله الا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون الف لسان الخ».

٢ — تكذيب الحسّ له كحديث «الباذنجان شفاء من كل داء» وحديث «ان القمر دخل في جيب النبي (ص) وخرج من كمه» وحديث «ردّ الشمس الى علي بن ابي طالب»

---

(١) المنار ج ٢ ص ٣٩ — ٣٩٦

٣ — سماجة الكلام وكونه مما يسخر منه كحديث « لو كان الرزّ رجلاً لكان حليماً ما اكله جائع الا شبعه » وحديث « قدّس العدس على لسان سبعين نبياً آخرهم عيسى عليه السلام »

٤ — مناقضته لما جاءت به السنّة الصريحة فمن ذلك احاديث من اسمه محمد او احمد وان كل من يسمى بهذا الاسم لا تمسّ جسده النار اذ المعلوم من الدين ان النار لا يجار منها بالاسماء والالقاب الخ

٥ — قيام الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عناق من ان طوله ٣٣٦٠ ذراعاً الخ

٦ — مخالفته لصريح القرآن كحديث مقدار الدنيا وانها سبعة آلاف سنة وان الذاهب منها كذا فان ذلك يدل على علم الساعة مع انه تعالى يقول « قل انما علمها عند الله »

٧ — اقترانه بما يبطله كحديث وضع الجزية عن اهل خيبر لانها لم تكن نزلت اذ ذاك وانما نزلت بعد عام تبوك الخ

٨ — مناقضته للفضيلة كالاحاديث الدالة على الشره كوصفهم اكله (ص) العنب بما لا مساغ لذكره الخ

٩ — مناقضته للعقيدة كحديث « لو احسن احدكم ظنه بحجر لنفعه » الخ

ومن الاحاديث التي لا اصل لها احاديث الحمام واتخاذ الدجاج وذم الاولاد والتواريخ المستقبلة وفضائل السُوَر ومدح العزوبة والنهي عن الطعام في السوق وفضائل الازهار والحناء وغير ذلك مما يطول ايراده اه .

تطبيق هذه الاحكام على احاديث شتى

١ — حديث البلخي عن أنس قال قال رسول الله « الورع سيد العمل

من لم يكن له ورع يردّه عن معصية الله اذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً وذلك مخافة الله في السر والعلانية ، والاقتصاد في الفقر والغنى ، والصدق عند الرضا والسخط . ألا وان المؤمن حاكم على نفسه يرضى للناس ما يرضى لنفسه . المؤمن حسن الخلق وأحبّ الخلق الى الله عزّ وجل احسنهم خُلقا ينال بحسن الخلق درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه لانه قد رُفع لقلبه عمل فهو يشاهد به القيامة . يعدّ نفسه ضيفاً في بيته وروحه عارية في بدنه » الخ الحديث [1]

فالناظر في اسلوبه الانشائي يراه بعيداً عن اسلوب العصر النبوي وعن البلاغة المعهودة فيه اذ ينقصه الاحتباك وجودة السبك . والاشبه ان يكون من اقوال بعض الزهّاد في عصر متأخر . وقد قال فيه ابن عساكر انه منكر بمرّة واسناده لا تقوم فيه حجة

٢ — حديث ابن التمار يسنده الى ابن عمر قال : قال رسول الله « ان العربية كلام اهل الجنة ، والعربية كلام اهل السماء ، وكلامهم اذا وقفوا بين يدي الله عزّ وجلّ في الموقف [2] » . ففي هذا الحديث عدا التكرار غير المفيد حرب على الشعوبية او دعاية قومية لغوية والوضع فيه ظاهر .

٣ — حديث الذئب للجبيلي رواه باسناده عن كعب الاحبار قال « خرج بنو يعقوب فرأوا ذئباً فساقوه وقالوا يا ابانا هذا الذي اكل اخانا . فقال لهم حلّوا كتافه عنه ثم قال له يعقوب أأنت اكلت حبيبي يوسف ، فقال معاذ الله يا نبي الله ألست تعلم ان لحوم الانبياء محرّمة علينا قال صدقت فمن اين جئت قال من مصر . قال والى اين تريد قال الى خراسان . قال وفيماذا تسافر قال في زيارة اخ لي قال وما بلغك فيه قال حدّثني ابي

(١) ابن عساكر ٢ — ٦٢ (٢) ابن عساكر ٢ — ٨٢

عن جدّي عن الانبياء السالفين انه من زار اخاً له في الله كتب الله له الف الف حسنة ومحا عنه الف الف سيئّة . فقال يعقوب لبنيه اكتبوا هذا الحديث » الخ[١] وهذا الحديث قصة موضوعة مما كان يدور على السنة القصّاص وقد تناول واضعها خبر الذئب في قصة يوسف وحوّله على هذه الطريقة الخيالية، وانطق الذئب بالحكمة التي تراها في هذا الحديث . فلا بدع ان يقول فيه ابن عساكر « وهذا مما تلوح فيه لوائح الكذب »

٦ — حديث الدينوري « خير كم في المائتين المؤمن الخفيف الحاذّ »[٢] (اي الذي لا اهل له) فهذا مناف لسيرة الرسول ولروح الاسلام . قال ابن عساكر وهذا الحديث فيه ما فيه

٧ — « الخلافة في امتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك[٣] »

فالحديث نبوءة سياسية وضعت على لسان النبي بعد انقضاء خلافة الراشدين وقيام الدولة الاموية ، وهو موضوع للطعن في الامويين وانكار حقهم بالخلافة

٨ — « لكل امة مجوس ومجوس امتي الذين يقولون لا قَدَر ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم[٤] » . وفي هذا الحديث تلمس الخصومة بين القدرية والجبرية . ولا مراء في انه موضوع لنصرة القدرية وتحقير شأن خصومهم

٩ — حديث حِمير — عن ابي هريرة كنت جالساً عند النبي (ص) فجاء رجل فقال يا رسول الله إلعن حمير . فأعرض عنه . ثم جاءه من ناحية

---

(١) ابن عساكر ٢ — ٨٥ (٢) ابن عساكر ٢ — ١٠٤
(٣) تيسير الوصول ١ — ٣٢٢ (٤) مسند احمد ٢ — ٨٦

اخرى فاعرض عنه وهو يقول العن حمير . فقال رسول الله رحم الله حمير افواههم سلام ، وايديهم طعام ، اهل امن وايمان[١] »

وهو يشعرنا بما كان بين اليمنية والمضرية من التنافس ايام الامويين والمعقول انه نشأ عن ذلك ووضع تعزيزاً لشأن اليمنية

١٠ — عن عبد الله بن عمرو « قال رسول الله اطّلعت في الجنة فرأيت اكثر اهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت اكثر اهلها الاغنياء والنساء[٢] »

واكبر الظن انه من اوضاع بعض الزهاد .

١١ — عن عائشة قالت فزعت ذات ليلة وفقدت رسول الله فمددت يدي فوقعت على قدمي رسول الله وهما منتصبتان وهو ساجد وهو يقول اعوذ برضاك من سخطك واعوذ بمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك لا احصي ثناء عليك . انت كما اثنيت على نفسك[٣] » والكلام في هذا الحديث اشبه بكلام المتصوّفة او الزهاد في العصر العباسي المتأخر ولسنا نرى في كلام النبي والصحابة ما يماثل العياذ برضى الله من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه الخ .

١٢ — عن مكحول قال رسول الله (ص) « من اقتراب الساعة اذا رأيتم الناس اضاعوا الصلاة واضاعوا الامانة واستحلوا الكبائر واكلوا الربا واخذوا الرشا وشيدوا البنى واتبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا واتخذوا القرآن مزامير واتخذوا جلود السباع صفافا والمساجد طرقا والحرير لباسا وكثر الجور وفشا الزنا وتهاونوا بالطلاق (.. الى ان يقول) . وامراء فجرة ووزراء كذبة ، وامناء خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقلت العلماء ، وكثرت القراء ،

---

(١) مسند احمد ٢ — ٢٧٨ (٢) المسند ٢ — ١٧٣

(٣) المسند ٦ — ٥٨

وقلت الفقهاء الخ الحديث » وهو حديث طويل [١] وكله على هذا النسق من الترادفات المتزنة والمعاني المكرّرة مما يستبعد ان يكون لعهد النبي فضلاً عما في الحديث من اوضاع متأخرة كالعلماء والفقهاء والوزراء مما يحمل العقل على رفضه مهما كان اسناده . وقس على هذه الاحاديث القليلة الوفاً مثلها

تطبيقها على بعض احاديث الصحيحين

اجمع العلماء على ان اصح الاحاديث ما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ثم ما انفرد به البخاري ثم مسلم ، ويلي الصحيحين الموطّأ وسنن ابي داود (٢٨٥هـ) فجامع الترمذي (٢٧٩) فسنن ابن ماجه (٣٠٣) وسنن النسائي (٢٨٣)

فمعوّلنا اذن في درس الحديث وتطبيق احكام النقد عليه كوثيقة نثرية انما هو فيما اتفق عليه الصحيحان . ذلك هو الاساس الذي يجب ان يبنى عليه التجريح توصلاً الى الحقيقة او ما يدانيها . فانه مع كل ما طرح العلماء من الاحاديث ومع كل ما لا يزال في الصحيحين مما يمكن الاغضاء عنه او الشك فيه ، لا نرى محيصاً عن القول ان طائفة من الاحاديث صحيحة ان لم يكن بنصها الحرفي ففي معناها ومبناها . اذ لا يعقل اجماع جمهرة العلماء على ما ليس له اصل البتة واعتباره اساساً لسنّهم واحكامهم . ويميل بنا الى هذا القول ما نلاحظه في اخبار رواة الحديث من ان التدوين كان معروفاً عند المحدثين الاوَل بل عند الصحابة انفسهم . فقد نقل عن ابي بكر قول عائشة جمع ابي الحديث عن رسول الله (ص) وكانت خمسمائة حديث ، فبات ليلته يتقلب كثيراً . قالت فغمني ، فقلت أتتقلب لشكوى او لشيء بلغك . فلما اصبح قال اي بنية هلمي الاحاديث التي عندك فدعا بنار فاحرقها الخ الحديث [٢] .

وعن الزهري وهو من اهل القرن الاول قال ابو الزناد كنا نطوف مع الزهري

---

(١) راجع كنز العمال فصل الاشواط الصغرى للقيامه (١) تذكرة الحفاظ ١ — ٥

على العلماء ومعه الالواح والصحف يكتب كما سمع[١] . وقد نقل ابن سعد في طبقاته عن صالح بن كيسان ان الزهري كان يكتب السنن[٢] . وروي عن ابي هريرة قوله « ما اجد من اصحاب رسول الله اكثر حديثاً مني الاّ ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب . وقال عبد الله كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله (ص) اريد حفظه[٣] . وكان يسمي صحيفته الصادقة[٤] .

واذا قيل ان هذه الصحف الاولى فقدت فلا يمكن التثبت منها وانّ المحدثين نقلوا عنها قلنا ذلك صحيح ، ولكننا اذا قرنّا ما روي لنا من تدوين الحديث او بعضه بما ثبت لدينا من قِدم التدوين — تدوين القرآن مثلاً — كان من المعقول ان نميل الى تصديق ما رووه من ذلك (وان نعتقد ان بعض ما وصل الى العصر الاموي فالعباسي منقول عن اصول قديمة فقدت مع الزمان) . ولما كان الوصول الى هذه الاصول القديمة متعذراً علينا عن سبيل اثبات النصوص، فانه لا بد لنا من اعتماد الاستدلال العقلي في الحصول على نموذج من الحديث يصحُّ لنا ان نقول انه يرجع حقاً الى العهد النبوي . وطريقتنا في ذلك ان نختار من المتفق عليه في الصحيحين طائفة من الاحاديث التي يجب على مؤرخ الادب التحرُّج في اعتمادها (لاسباب سنبينها) ، ثم نختار طائفة اخرى مما لا نرى بأساً في قبوله فنتذرّع بذلك الى رسم تلك الدائرة الضيقة التي سبقت الاشارة اليها ، لنحصر فيها ما يجوز ان نعدهُ وثيقة نثرية او نموذجاً انشائياً للعهد الذي نؤرخه . ونكرر اننا لا نقصد بهذا التحرُّج الزائد تضعيف ماورد في الصحيحين . فهو باجماع العلماء كما ذكرنا آنفاً اصح

---

(١) تذكرة الحفاظ ١ — ٩٦ (٢) الطبقات ج ٢ قسم ٢ ص ١٣٥
(٣) تذكرة الحفاظ ١ — ٣٦ (٤) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٢٥

ما يعتمد عليه بعد القرآن في درس السنَّة ، وانما غرضنا ان نقيّد انفسنا حتى لا نخرج عن الراهن الراهن ، او حتى نصل الى الأُسّ الصخري الراسخ الذي يصحّ ان نبني عليه احكاماً معقولة . ولو كانت غايتنا الرئيسية دراسة الحديث ونقده لعمدنا فيما يلي الى التبسط في ذكر الاسباب السياسية والمذهبية واللغوية والعقلية والتاريخية واتينا بالشواهد العديدة على كل منها . ولكن ذلك يخرجنا عن سبيلنا العام وهو النظر في الحديث من حيث هو وثيقة نثرية . فنكتفي هنا بعرض بعض الامثلة على ما يجوز وما لا يجوز اعتباره كذلك ليقيس عليها الباحث ما شاء — واليك امثلةً مما يجب عند النقادين المتحرّجين الاغضاء عنه وان صحَّ اسناده :

١ — اتاكم اهل اليمن هم ارقُّ افئدةً والين قلوباً . الايمان يمان والحكمة يمانية ، والفخر والخيلاء في اصحاب الابل ، والسكينة والوقار في اهل الغنم

٢ — الايمان يمان . ألا ان القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين عند اصول اذناب الابل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر [1]

وهذان الحديثان يشعران بما كان بين اليمنية والمضرية من النزاع فليس من الغريب ان يروّجهما ويروج امثالها اهل العصبية اليمنية اظهاراً لفضلهم وحطاً من شأن خصومهم . وفي الاحاديث كثير مما يرجع الى خصومة سياسية او عصبية بدوية

٣ — « اتدرون ما هذان الكتابان — هذا كتاب من رب العالمين فيه اسماء اهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ابداً . هذا كتاب رب العالمين فيه اسماء اهل النار واسماء

---

(١) البخاري ومسلم باب الايمان . ويقصد بالفدّادين طائفة الجمالين والبقارين والرعيان الخ

آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ابداً . سدّدوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل اهل الجنة وان عمل ايّ عمل وانّ صاحب النار يختم له بعمل اهل النار وان عمل ايّ عمل . فرغ ربكم من العباد . فريق في الجنة وفريق في السعير[1] » . وامثال هذا الحديث كثيرة وكلها تشير الى النزاع بين الجبرية والقدرية وهذا الحديث مرويّ لنصرة الجبرية التي كانت تقول بان كل شيء مقدر على الانسان . وقد تغالوا في ذلك وراحوا يدعمون قولهم باحاديث يرفعونها الى النبي كالحديث التالي[2] « احتج آدم وموسى فقال موسى انت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته واسكنك جنته ، اخرجت الناس من الجنة بذنبهم واشقيتهم . فقال آدم يا موسى انت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وانزل عليك التوراة ، اتلومني على امر كتبه الله عليّ قبل ان يخلقني فحجّ آدم موسى »

٤ — اذا اتيت مضجعك فتوضأ وُضوءَك للصلاة ثم اضطجع على شقّك الايمن ثم قل اللهمّ اسلمت وجهي اليك ، وفوّضت امري اليك ، والجأت ظهري اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك . « آمنت بكتابك الذي انزلت ونبيك الذي ارسلت . فان متّ من ليلتك فانت على الفطرة واجعلهنّ آخر ما تتكلم به[3] »

ويتراءى للناظر في لغة هذا الحديث واسلوبه انه بعيد عن المعهود من لغة النبي في رسائله حيث يتجلى الايجاز والبساطة والمتانة . والاشبه ان يكون من قول بعض الزهاد في عصر متأخر فان هذه التكرارات التي نراها فيه

---

(١) بخاري باب الايمان والادب . ومسلم باب الايمان والتوبة (٢) زاد المسلم ١ — ٩
(٣) البخاري ومسلم عن البراء — زاد المسلم ١ — ١١

تكثر في كلامهم وقلما نراها في نثر الصدر الاول . وعلى نمطه الحديث التالي —[١]

« اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا وعن يساري نورا ، ومن فوقي نورا ومن تحتي نورا ومن امامي نورا ومن خلفي نورا ، واجعل لي في نفسي نورا وأعظِم لي نورا »

. . . . .

٥ — « ارسل ملك الموت الى موسى فلما جاءه صكّه ففقأ عينه ، فرجع الى ربه فقال ارسلتني الى عبد لا يريد الموت . فردّ الله اليه عينه وقال ارجع اليه وقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطّت يده بكلّ شعرة سنة . قال اي ربّ ثم ماذا ؟ قال ثم الموت ، قال فالآن . فسأل الله ان يدنيه من الارض المقدسة رميةً بحجر . فلو كنتُ ثمّ لأريتكم قبره الى جانب الطريق تحت الكثيب الاحمر[٢] » .

ويلوح في هذا الحديث خيال القصة . فهو شبيه باقوال بعض القصاصين الذين كانوا يحدّثون الناس بامور الدين ويقصون لهم القصص المنزلة وسواها والى خيال القصاصين يستطيع المشككون المتحرّجون ان يرجعوا كثيراً من الاحاديث ، كالذي رواه الامامان عن ابي هريرة عن النبي قال[٣] « اسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت اوصى بنيه فقال اذا متُّ فاحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في البحر ، فوالله لأن قدر عليّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذّبه احداً ففعلوا ذلك به . فقال الله للارض أدّي ما اخذتِ ، فاذا هو قائم . فقال ما حملك على ما صنعت . قال خشيتك يارب . فغفر له بذلك » . راجع ايضاً من

---

(١) البخاري ومسلم عن ابن عباس — زاد المسلم ١ — ٣٤ (٢) البخاري ومسلم عن ابي هريرة — زاد المسلم ١ — ٢٧ (٣) زاد المسلم ١ — ٢٩

امثال هذه الاحاديث حديث الابرص والاقرع والاعمى وهو طويل[١]

٦ — ان الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى اذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فافتوا بغير علم فضلُّوا واضلوا[٢]. »

والمتأمل يرى ان طبقة العلماء والمفتين لم تتعين ايام النبي فمن المستبعد ان يشير اليها في حديثه، ويميل بالمتحرّج الشكّ الى ان صاحب هذا الحديث احد الفقهاء وضعه لتعظيم شأن العلم وعلماء الدين

٧— حديث الشفاعة رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة[٣] اوله — « انا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك. يجمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم فيبلغ الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض الا ترَون ما قد بلغكم، الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض ائتوا آدم (او عليكم بآدم) الخ » وهو طويل. وخلاصته ان الناس يستشفعون بآدم ثم بنوح فابراهيم فموسى فعيسى، فيقول كلٌّ منهم « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله » ثم يذكر معاصيه. حتى اذا جاءوا النبي انطلق بهم الى العرش فيقال له ارفع رأسك سل تعطَ واشفع تشفَّع، فيشفع بامته فيدخلهم الله الجنة ». والحديث طريف ولكن النقد الحديث يرى خطأ او صواباً وضعه في باب الدعايات الشخصية

٨ — « آية المنافق بغض الانصار وآية المؤمن حبّ الانصار[٤] » وهو

---

(١) البخاري كتاب بدء الخلق في باب ما ذكر عن بني اسرائيل — ومسلم في كتاب الزهد (٢) زاد المسلم ١ — ٤٢ (٣) البخاري — فتن. ومسلم — فضائل النبي (٤) تجد الحديثين في البخاري ومسلم — ايمان

من المتفق عليه في الصحيحين . والاغضاء عن مثله اسلم لما فيه من اميال حزبية ظاهرة

٩ — « قمت على باب الجنة فاذا عامة من دخلها المساكين ، واذا اصحاب الجدّ محبوسون الاّ اصحاب النار ، فقد أُمر بهم الى النار . وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء [١] »

وهو شديد الشبه باقوال بعض الزهاد المتنسكين في العصر العباسي وقد طما سيل الترف على الناس في بغداد لكثرة الاموال واسباب الرفاه

١٠ — « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » (يعني فارس) [٢] والدعاية الشعوبية في هذا الحديث ظاهرة

١١ — « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء اقوام تسبق شهادة احدهم يمينَه ويمينُه شهادَته [٣] » (اي يروّجون شهادتهم بالكذب لقلة مبالاتهم بالدين)

وهذا إخبار بالغيب وضع على ما يظهر تعظيماً لشأن الصحابة والتابعين ، ومع موافقته للواقع فانه لا يتخذ حجة او وثيقة نثرية اذ المعقول انه متأخر عن ذلك العهد

١٢ — « لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان [٤] » وهو من قبيل الدعوة لقريش ولعله نشأ على اثر حركة الخوارج في العصر الاموي او ما بعده

ولو دققنا النظر في سائر ما ورد في الصحيحين لرأينا كثيراً من الاحاديث

---

(١) البخاري كتاب النكاح ، ومسلم كتاب الرقاق (٢) البخاري في اول تفسير سورة الجمعة ، مسلم في آخر كتاب فضائل الصحابة (٣) البخاري كتاب الشهادات ، مسلم فضائل الصحابة (٤) البخاري احكام ، مسلم امارة

التي مع صحة اسنادها يجمل بمؤرخ الآداب عدم اعتمادها في تقرير ما كان عليه النثر ايام النبي. ومن ذلك كتاب فضائل الانبياء والصحابة ومناقب قريش والمدن المقدسة وتفسير الآيات واحاديث الجن واستماعهم للقرآن وما قالوا وما فعلوا، وحديث القرآن وداود وما الى ذلك مما قد لا يستسيغه النقد الدقيق. ففي امثالها ما يحمل المحقق على اخراجها من الحلقة الضيقة التي يجب ان يرسمها لنفسه (وان يكن في ذلك الاخراج شيء من الخطأ او التطرّف.) ونظيرها الامثال والقصص المماثلة لما هو في التوراة او الانجيل، كحديث «مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث اصاب ارضاً الخ[1]. فهو شبيه بمثل الزارع الذي روي في الانجيل. وعلى نمطه حديث سارة والجبار[2]، وحديث المسلمين واليهود والنصارى وان مثلهم مثل رجل استأجر قوماً يعملون له[3] الخ. فهو اشبه بمثل الكرم والفعلة في حديث المسيح. وحديث النبي الذي غزا ووقف الشمس[4]. وهذه الاحاديث قد تكون صحيحة ولكن لا بأس على طريقة التحرج العلمي من ان نضعها خارج الحلقة المنشودة

على ان من الاحاديث ما قد لا تنكر صحته او ما يجوز قبوله انموذجاً نثرياً. وها نحن نعرض بعضه هنا ليقاس عليه —

---

(١) راجع نصه في التجريد الصريح للزبيدي ١ — ١٩
(٢) » » » » » ١ — ١٧٢
(٣) » » » » » ١ — ١٧٥
(٤) » » » » » ٢ — ٣٥

احاديث يجوز لمؤرخ الادب قبولها او قبول امثالها

وهي التي صح اسنادها وليس ما يدعو خاصةً الى تجريحها او رفضها وقد اعتمدنا في نقلها كتاب « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم »

١ — « اظنكم قد سمعتم ان ابا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين فابشروا وامِّلوا ما يسرّكم. فوالله ما الفقر اخشى عليكم ولكن اخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما اهلكتهم[١] »

هذا الحديث يشير الى حادثة تاريخية وليس فيه ما يدفعنا الى الشك، فان النبي شعر بشيءٍ من الطمع في نفوس البعض، وهو طبيعي في مثل هذه الحال كما انه من الطبيعي ان يعظهم بما وعظهم به .

٢ — « ان من الشعر حكمة »[٢] . عُرف عن النبي انه وقف من شعراء العرب وقفة الخصم. وقد نقلوا له في ذلك الحديث « لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً يريه خير له من ان يمتلئ شعراً[٣] » . على انه اثنى على حسان واقرانه. فمن المعقول في مثل هذين الموقفين المختلفين ان نرى له مثل هذا الكلام الناصع تبريراً لموقفه الثاني

٣ — « ايها الناس لا تتمنّوا لقاءَ العدوّ واسألوا الله العافية، فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف . اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الاحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم[٤] »

ويتراءى لنا ان هذا الحديث قيل في المدينة يوم لم يكن قد بلغ الاسلام

---

(١) زاد المسلم ١ — ٣١ (٢) زاد المسلم ١ — ٦٣
(٣) » » ٢ — ٥٥ (٤) » » ١ — ٩٥

ما بلغه بعدئذ من القوة والشأن . فالنبي يدعو المسلمين الى عدم التعدي ولكنه يخشى لقاءَ العدو اياهم فيدعو الله ان ينصرهم ويهزم اعداءَهم

٤ — « لأنْ يأخذ احدكم حبله ثم يغدو الى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من ان يسأل الناس[١] »

٥ — « لِينصر الرجل اخاه ظالماً او مظلوماً . ان كان ظالماً فلينهه فانه له نصر ، وان كان مظلوماً فلينصره[٢] » . وهو يدلّ على روح الاخوّة الشديدة في الاسلام . وهذا النصر في كلتا الحالتين ضروري في مثل الظروف التي كان فيها الاسلام ايام النبي

٦ — « ما اصاب بحدّه فكلْه وما اصاب بعَرضه فهو وقيذ[٣] » . والهاء في حدّه راجعة الى المِعراض وهو خشبة ثقيلة او عصا في طرفها حديدة . والمراد ما اصبته من صيد بحدّه جاز لك اكله لانه كالمذبوح ، واما ان قتلته بصفحته فهو ميت لا يجوز اكله . وهذا الحديث تفسير طبيعي لبعض نواهي الدين

٧ — « ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول هذا لك وهذا لي[٤] . فهلاّ جلس في بيت ابيه وامه فينظر أيُهدى له ام لا . والذي نفسي بيده لا يأتي بشيءٍ الاّ جاءَ به يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيراً له رغاءٌ او بقرة لها خوار او شاة تيعر[٥] . (ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي ابطيه) . ألا هل بلغت ثلاثاً[٦] » .

والظاهر ان بعض العمال كانوا ايام النبي يطمعون بما يجيئهم من هدايا

---

(١) زاد المسلم ٢ — ٥٢ (٢) زاد المسلم ٢ — ٢٤٢

(٣) » » ٣ — ١٧ (٤) هذا لك اي هذا من مال الجباية وهذا لي اي هذا أهدي لي (٥) تيعر اي تصوّت صوتاً شديداً (٦) زاد المسلم ٣ — ٣٥

ورأى النبي ان هدية العامل حرام . والاشارة كما في الصحيحين الى رجل من بني اسد كان النبي قد استعمله على صدقة

٨ — « ما حديث بلغني عنكم » ؟ (اي الانصار) . فقال فقهاء الانصار اما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، واما ناس منا حديثة اسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فقال النبي — « فاني أُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر اتألّفهم . أما ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون بالنبي . الى رحالكم ! فوالله لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به » . قالوا يا رسول الله قد رضينا ، فقال لهم النبي « ستجدون أثرةً شديدةً فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فاني على الحوض[1] » وهذا الحديث يشير الى ما جرى في غزوة حُنين من كسر هوازن وما افاء الله على المسلمين من اموالهم . والظاهر ان قريشاً نالت اكثر تلك الاموال فتجهم الانصار لذلك حتى كان ما كان من هذا الحديث .

٩ — « ما يكن عندي من خير فلن ادّخره عنكم . ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغنِ يُغنه الله ، ومن يتصبّر يصبّره الله ، وما أُعطي احد عطاءً خيراً واوسع من الصبر[2] »

١٠ — « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس[3] »

والاشارة الى يوم الاحزاب وقد شغله كفارهم بالحرب عن الصلاة

١١ — « ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني في ان يُنكحوا ابنتهم عليّ ابن ابي طالب . فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، الاّ ان يريد ابن ابي طالب ان

---

(١) زاد المسلم ٣ — ٥٩ (٢) زاد المسلم ٣ — ١٣٩

(٣) » » ٣ — ١٧٧

يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم ، فانما هي بضعة مني يَريبني ما ارابها ، ويؤذيني ما آذاها [1] »

واكثر هذه الاحاديث التي ذكرناها في هذا الباب مما له علاقة طبيعية بدعوة النبي . فهي تعكس لنا ما كان يجري بينه وبين رجاله ، او بينه وبين خصومه دون ان يتكلف فيها الدعاية او التحيز

ومن الاحاديث المقبولة كثير من الحكم وجوامع الكلام ولا سيما المبنيّ منها على الحياة العادية في ذلك العهد كقوله

— لا يؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه (بخ ادب ، مسلم ايمان)

—ايا كم والجلوس على الطرقات فان ابيتم الا المجالس فاعطوا الطريق حقها ، غضّ البصر ، و كفّ الاذى ، وردّ السلام ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (بخ مظالم ، مسلم اللباس)

— بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك عَلَى الطريق ، فاخّره فشكر الله له ، فغفر له (بخ مظالم ، مسلم البر)

—حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره (بخ الرقاق ، مسلم بالجنة)

— الحرب خدعة (بخ جهاد ، مسلم فضائل)

— الظلم ظلمات يوم القيامة (بخ مظالم ، مسلم البر والصلة)

— ليس الشديد بالصُّرَعة (اي الكثير الصرع للناس) انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب (بخ ادب ، مسلم البر)

—ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورّثه (بخ ادب ، مسلم بر)

—مطل الغنيّ ظلم فاذا أُتبع احدكم على ملِيٍّ فليتبعْ (بخ حوالات ، مسلم بيوع)

= ان الله تعالى ليُملي للظالم حتى اذا اخذه لم يُفلِتْه (زاد المسلم ١ — ٤١)

---

(١) زاد المسلم ١ — ٥١

انما الطاعة في المعروف (زاد المسلم ١ — ٦٧)

انما اهلك الله الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحدّ (بخ ومسلم كتاب الحدود)

الخلاصة

قال صاحب زاد المسلم في اول صفحة من كتابه « عدد احاديث هذا الكتاب الف ومائة حديث متصلة الاسناد اتفق عليها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وبهذين الشرطين كان تأليفي هذا هو اصح كتاب في الحديث » وقد اتخذنا هذه الالف ومائة حديث اساساً لبحثنا عن الاسلوب النثري في ادب الحديث وطبّقنا عليها ما ذكرناه آنفاً من احكام التجريح نخلص لنا جملة من النصوص يصح ان يقال فيها انها اما اصلية لاتبديل فيها، او قريبة من الاصلية فاذا بالغنا في الغربلة والنخل، ثم تحرّينا الخلاصة الصافية من كل ذلك، تبين لنا ان اسلوبها يطابق ما ذكرناه وما سنذكره ايضاً في الكلام عن نثر صدر الاسلام، وتبرز فيها مزاياه العامة وهي :

البساطة — او البعد عن تكلف السجع والبديع (١)

الايجاز — او حبك الكلام حبكاً يقل فيه الحشو والزوائد

التلميح — وهو الاشارة الى المعنى دون التبسط في ايضاحه

فما ذكرناه عن اسلوب الرسائل النبوية يصدق على الحديث ايضاً. ولا بدع فانهما يجريان من معين واحد هو لغة التخاطب التي كانت شائعة في العهد النبوي. ولما كانت لغة الحديث لا تخرج عن الاسلوب العام السائد في القرن الاول، فاننا تجنباً للتكرار سنرجىء البحث في ذلك الى الفصل التالي

---

(٢) قال ابن عباس « اياك والسجع في الدعاء فاني شهدت النبي واصحابه لا يفعلون ذلك » — نهاية الارب ٥ — ٢٨٥

الامثال القديمة ولغتها

نقل عن العرب الاقدمين في الجاهلية وصدر الاسلام كثير من الحكم والامثال . وقد ذهبوا الى ان هذه الامثال تنقل بالحكاية ، اي انها كما قال ابو هلال العسكري، تضرب على ما جاءت من العرب لا تغيَّر صيغتها فتقول للرجل « الصيفَ ضيَّعتِ اللبن » وهو في الاصل خطاب لامرأة ولكنهم ابقوه على حكايته[١] . وقال جلال الدين السيوطي ان العرب كانت تجري الامثال على ما جاءت ولا تجري بها الاعراب[٢] (وان كانت ملحونة)

ولقد يخيّل الينا اذا استعرضنا جميع الامثال القديمة ونظرنا في اسلوبها ولغتها انه لا مناص لنا من القول باحد امرين — ١ . اما ان لغة العرب التي رويت لهم الامثال كانت عادة صحيحة وانها تمثل اسلوب التخاطب العادي عندهم — ٢ . واما ان الرواة هذّبوا هذه الامثال القديمة واقاموا أَودها الاعرابي فوصلتنا لا كما نطق بها الاقدمون تماماً ولكن كما هذبها الرواة . على ان هناك سبيلاً آخر نستطيع سلوكه فنقول ان هذه الامثال ترجع عموماً الى ثلاثة مصادر رئيسية

(١)— الشعر القديم (٢) الانشاء العالي (٣) لغة العامة

فمن امثلة الشعر القديم

ان الحديد بالحديد يفلح — وهو من باب الرجز

---

(١) راجع مقدمة كلامه في كتابه جمهرة الامثال على حاشية مجمع الامثال للميداني ص ٥ المطبعة الخيرية ١٣١٠ (٢) المزهر ١ — ٢٣٥

ايّ الرجال المهذّب — وهو جزء من بيت للنابغة يقول فيه

ولست بمستبق اخاً لا تلمّه على شعث اي الرجال المهذّب

خلا لك الجوّ فبيضي واصفري — وهو من شعر لطرفة اوله

يا لك من قبّرة بمعمر

رضيت من الغنيمة بالاياب — من بيت لامرئ القيس وهو

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

الشرّ اخبث ما اوعيت من زاد — من بيت اوله

الخير يبقى وان طال الزمان به

وعند جهينة الخبر اليقين — من بيت اوله تسائل عن حصين كل ركب

عند النطاح يغلب الكبش الاجمّ — من الرجز القديم

عُثَيثةٌ تقرم جلداً املسا — ⏑ ⏑ ⏑ ⏑

نفس عصام سوّدت عصاما — ⏑ ⏑ ⏑ ⏑

البس لكل حالة لَبوسها — ⏑ ⏑ ⏑ ⏑

وقس على ذلك عدداً وافراً من الامثال

. . . . .

ومن باب الانشاء العالي كل ما ورد من امثال القرآن والحديث النبوي وما نقل عن ألسنة الخطباء والحكماء، وهو مشهور متداول، وما روي باسلوب انشائي فني وان لم يعرف قائله كقولهم — عِيصك منك وان كان أشِبا — اي منك اصلك . وان كان اقاربك على خلاف ما تريد فلا بدّ لك من الصبر عليهم

وقولهم — ربّ عجلة تَهب ريثا ، وربّ فَروقة يدعى ليثا — قيل قاله مالك بن عمرو الشيباني (عن الضبي ٦١)

وقولهم — عرض عليَّ الامرَ سومَ عالَّة — اي عرضاً ضعيفاً كما يعرض الماء على الابل التي نهلت وعلّت (عن الميداني ١ — ٣٠٩)

وقولهم — أطرِق كرا ان النعامة في القرى — (ميداني ١—٢٩٣) والكرا ترخيم كروان وهو طائر معروف ويضرب لمن لا غناء عنده ويشكلم

وقولهم — سقُوا بكأسِ حَلاق — وحلاق اسم للمنية اي استوصلوا بالموت (ميداني ١—٢٣١)

وقولهم — دع المعاجيل لِطملٍ أَرَجل — المعاجيل الطرق المختصرة والطمل اللص الخبيث والارجل الصلب. اي تباعد عن مواضع التهم لاصحابها (ميداني ١—١٨٢)

وقولهم — قتلُ ما نفسٍ مخيّرها — يضرب في الشره والجشع

وقولهم — المرء توّاق الى ما لم ينل (ميداني ٢—١٥٨)

فاذا تأملت هذه الامثال ونظائرها وجدت فيها من اثر الصنعة الكلامية ما لا يصدر عادة الا عمن مارسوا فنّ الكلام وعرفوا مداخله

بقي ما نقل لنا من اقوال العامة وهو جزء ليس بيسير ولا نستطيع تحرّيه بالضبط لان منه ما هذّب مع الزمان فاصبح من الانشاء العالي ولعلنا نتبينه في مثل الامثلة التالية —

شُخب في الاناء وشُخب في الارض — (ميداني ١—٢٤٣) لمن يخطئ مرة ويصيب اخرى

صَنَعه من طَبّ لمن حَبّ . (اشهر الامثال ٣٥) اي صنعة حاذق لمن يحب يضرب في التنوق في الحاجة واحتمال التعب فيها

مالي سارحة ولا رايحة (اشهر الامثال ٦٥) اي ما له شيء

تسمع بالمُعَيدي خير من ان تراه (الضبي ٩) يضرب لمن خبره خير من مرآه والمعيدي اسم مغن قبيح المنظر

بقل شهر وشوك دهر — (الميداني ١—٦٥) لمن يقصر خيره ويطول شرّه

برّزْ نارك وان هزلتَ فارك — (الميداني ١—٦٧) اي آثر الضيف بما عندك وان نهكت جسمك او افتقرت

شرّ الناس من ملحه على ركبته — (ميداني ١—٢٥٠) يضرب للنزيق السريع الغضب

قرّب الحمار من الردهة ولا تقل له سأُ — (ميداني ٢—٢٧) الردهة مستنقع الماء ، وسأسأت بالحمار اذا دعوته ليشرب — اترك الامر لعارفه

كل كلب ببابه نبّاح — (ميداني ٢—٥٤) وهو مفهوم

لولا الحَسّ ما باليت بالدسّ — (ميداني ٢—١٠٧) عن لسان الخبزة — الحسّ ان يردّ النار عليها بالعصي لتنضج · ويضرب لمن تكرر عليه البلاء

لا ينبت البقلة الا الحقلة — (ميداني ٢—١٢٠) يضرب للكلمة الخسيسة من الرجل الخسيس

فهذه الامثال ونظائرها اقرب الى اوضاع العامة وليس فيها من آثار الصنعة اللغوية والانشائية ما نراه للتي مرّ الكلام عليها · على اننا نتعرّف منها اسلوب كلامهم في المحادثة · وعند التدقيق لا نراه بعيداً عن الاوضاع النثرية التي نشأت في الاوساط الادبية · ولا ينكر انه كان هناك لغة عامية ينطق بها الناس في حياتهم العادية ، ولكنها لم تكن بعيدة عن اللغة الفصحى بعدها اليوم او بعدها بعد ان اختلط العرب بالاعاجم بعد خروجهم من الجزيرة وانسياحهم في البلاد ، وبعد ان اصبحت العربية لغة الامم المغلوبة

ولما كان غرضنا الرئيسي هنا البحث في منشأ النثر وتطوّره وعلاقة المثل

به كان لا بدّ لنا من النظر في الامثال الفصيحة ولغتها، لانها او لان قسماً منها راجع الى العهود الاولى. ودليلنا على ذلك ما يلي —

١ — ان بعض هذه الامثال مما اقتبسه او فاه به الخطباء والشعراء في القرن الاول، كقول الحجاج في خطبته المشهورة (بالكوفة)

هذا اوان الشد فاشتدّي زِيمْ . يضرب لمن يؤمر بالجدّ في امره[١]

وقول الكميت :

قالوا اساء بنو كُرز فقلت لهم عسى الغُوَير بابآس واغوار

وفيه اشارة الى المثل عسى الغوير ابؤساً — قال الاصمعي اصله انه كان غارٌ فيه ناس فانهار عليهم فصار مثلاً لكل شيء يخاف ان يأتي منه شرّ[٢]

وقول كعب :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها الا الاباطيلُ

فهو يشير الى المثل — امطل من عرقوب

وقول الشاعر في مروان بن الحكم :

لحا الله قوماً ملّكوا خيط باطل على الناس يعطي من يشاء ويمنع

وفيه اشارة الى المثل — ادقّ من خيط باطل[٣]

وقال ابو الاسود الدؤلي :

وآليت لا اسعى الى ربّ لقمة اساومه حتى يؤوب المثلّمُ

اشارة الى مثل من امثال اهل البصرة . والمثلّم رجل قتله الخوارج[٤]

وقال الفرزدق :

وكنا كاصحاب ابن مامة اذ سقى اخا النمِر العطشان يوم الفجاعم

---

(١) اشهر الامثال ٧٠ (٢) اشهر الامثال ٧٠

(٣) الميداني ١ — ١٨٣ (٤) الميداني ١ — ١٤٥

يشير الى حادثة كعب بن مامة واسقائه رجلاً من النَّمِر . والمثل الذي ضرب في ذلك اسق اخاك النمري يصطبح[١]

٢— ان رواة هذه الامثال واهمهم المفضّل الضبي (المتوفى ١٦٨) وابوعبيدة (٢١١) والاصمعي (٢١٣) هم من رجال القرن الثاني للهجرة . وليس من الطبيعي ان يتصدّى جماعة لجمع الامثال او لروايتها الاّ بعد ان تكون قد جرت على السنة الجمهور زمناً طويلاً، حتى اصبحت شائعة معروفة فليس من المجازفة ان نقول ان ما نقل لنا عن هؤلاء الرواة يرجع الى القرن الهجري الاول ، وان بعضه اعرق من ذلك في القدم

وهذه الامثال عادة قصيرة حسنة المبنى وفي سبكها ما يسهّل على الذاكرة حفظها وانتقالها من جيل الى جيل، على نحو كثير من الامثال العامية اليوم التي يرجع عهدها الى اكثر من قرنين او اكثر كقولنا « راحت السكرة واتت الفكرة » فانه مذكور في فاكهة الخلفاء لابن عربشاه من اهل القرن التاسع الهجري[٢] . ولعله اقدم من ذلك

٣— انها ضربت لما له علاقة بحياة العرب القدماء وعاداتهم كقولهم — تجاوزت شبيباً والاحصّ وهما ماءان لجساس[٣]

احْلَبتْ ناقتك ام اجلبت — اي انتجت اناثاً فتحلبها ام ذكوراً فتجلبها للبيع[٤]

رحلٌ يعضُّ غارباً مجروحاً — الغارب اعلى السنام يضرب لمن هو في ضيق فيلقي غيره عليه ثقله[٥]

ضوارب بُسَّتْ لعَرفٍ باليد — الضوارب النياق التي تضرب حالبها

---

(١) الضبي ٦١ (٢) فاكهة الخلفاء ص ٣٥

(٣) الضبي ٥٦ (٤) الميداني ١ — ١٣٥ (٥) الميداني ١ — ٢١٠

والعرف قروح تخرج باليد . اي نياق سيقت لذي قروح بيده ليحلبها . يضرب لمن كلّف ما يعجز عنه[١]

قُدّتْ سيوره من اديمك — الاديم الجلد . يضرب للشيئين يستويان في الشبه

كمستبضع التمر الى هجَر — قال ابو عبيدة وهو من الامثال القديمة . وقد اقتبسه النابغة الجعدي فقال :

وان امرءًا اهدى اليك قصيدة كمستبضع تمراً الى ارض خيبرا[٢]

لا آتيك حتى يؤوب القارظان — وهما رجلان خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا . قال ابو ذؤيب :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينُشر في القتلى كليب بن وائل

عجعج لمّا عضّه الظِّمان . عجعج اي صاح والظعان نسع يشدّ به الهودج يضرب لمن يضجّ اذا لزمه الحق[٣]

كَدادة تُعيي صليبَ الاصبع — الكدادة ما لزق باسفل القدر فلا تقدر الاصبع وان كانت صلبة ان تنزعه ، يضرب للبخيل الذي لا يستخرج منه شيءٌ الاّ بكدّ[٤]

لا في العِير ولا في النَّفير — اول من قاله ابو سفيان يضرب لمن يحطّ امره[٥] ويصغر قدره

لا تشمِ الغيث فقد اودى النَقَد — النقد صغار الغنم اي لا تطلب الغيث فقد هلك الغنم ، يضرب لمن حزن على ما فات[٦]

لم يجد لمِسحاتة طيناً — يضرب لمن حِيل بينه وبين مراده[٧]

---

(١) الميداني ١ — ٢٨٦ (٢) الميداني ٢ — ٦٦ (٣) الميداني ١ — ٣٢١ (٤) الميداني ٢ — ٧٥ (٥) الميداني ٢ — ١١٥ (٦) الميداني ٢ — ١٣١ (٧) الميداني ٢ — ٩٨

فهذه الامثال وكثير غيرها نشأت في البادية او في بيئة عربية قديمة ، واذا اضفنا هذه الحقيقة الى ما ذكرناه من ورود بعضها في اقوال الشعراء او الخطباء من اهل القرن الاول ، ثم الى قدميّة رواتها وما يقتضيه سير المثل من الزمن، ترجح لدينا صحة الكثير من هذه الامثال وانه يجوز اعتبارها وثائق نثرية يستنير بها مؤرخو الآداب .

ومن النظر فيها يتضح لنا ما يكاد يكون فطرياً في امثال الامم جمعاء نعني : الاقتضاب وبعد الاشارة

فجميعها من قبيل الكلام المخطوم الشديد الايجاز ، يكثر فيها الحذف والايماء وتتصف عموماً بمتانة السبك وجودة التقسيم ، مع الميل الى النسق الانشائي العالي من تقديم القيود عَلَى المقيدات والمسند على المسند اليه . ومع انها ليست الا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الانشائي في ذلك العهد فاننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوي او ما قبله من التطور في بناء الجمل وتركيب الالفاظ ، ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد . وقد اخترنا عدداً من هذه الامثال المشهورة نعرضها هنا لمن اراد ان يطبق اسلوبها على ما مر بنا من وصفها

نخبة من امثال العرب

ملخصة عن الميداني

ضِغث على ابّالة — الضغث العود والابالة الحزمة · يضرب لزيادة الشرّ

اندم من الكُسَعيّ — رجل من كُسع رمى حمراً وحشية وظن انه لم يصبها فكسر قوسه ثم وجد انه اصابها فندم اشد الندم

انجز حرّ ما وعد — قاله الحارث بن عمرو الكندي لصخر بن نهشل

اسعد ام سعيد — هما اخوان ارسلا في حاجة فنجح الاول وهلك الثاني فصارا مثلاً للنجاح والفشل

ان الحديث ذو شجون — ذو مذاهب كثيرة · قاله رجل كان قد فقد ابنه ثم اجتمع بقاتله عن غير علم ومن الحديث فهم انه قاتله فقتله ثائراً

سبق السيف العذل — قاله لما قيل له انقتله في الشهر الحرام

اهدى من القطا — لكمال المعرفة · والقطا طير معروف

أضئ لي اقدح لك — يضرب في المكافأة بالاعمال · او بين لي حاجتك فاسعى فيها ·

انت في واد ونحن في واد — يضرب للتباعد والاختلاف

هذا ولمّا تَردي تهامة — عن الاصمعي يضرب لمن يجزع قبل وقت الجزع

خرقاء وجدت صوفا — للمفسد يقع في يده مال فيعيث فيه

اعذر من انذر — لمن يتخلص من المسؤولية لقيامه بواجب النصيحة

انقى من مرآة الغريبة — الغريبة التي تتزوج في غير قومها فهي ابداً تجلو مرآتها لتحسن التزين

الايناس قبل الابساس — الابساس ان يسكّن الناقة ليحلبها اي لا بد من اللطف قبل نيل الغرض

ان البلاء موكل بالمنطق — كقولنا آفة الانسان اللسان

ان مع اليوم غدا — في تنقل الحالات

بلغت القلوب الحناجر — يضرب لشدة الخوف

بلغ السيل الزبى — لما تجاوز الحد · والزبى حفر في الروابي لصيد الاسود

البطنة تأفن الفطنة — تذهب بالفطنة · من افن الفصيل ما في ضرع امه

تريني السهى واريها القمر — لاختلاف النظر في شيء

تضرب في حديد بارد — لمن يطمع في غير مطمع

ثالثة الاثافي — هو ثالثة الاثافي اي اثقل القوم ، لان ثالثة الاثافي هي الجبل ، واما الاثنتان الاوليان فهما الحجران اللذان يوضعان للموقدة ويسندان الى الجبل او النجوة وما شاكل · ويضرب ايضاً لآخر المكروه

جدح جوين من سويق غيره — لمن يتبرع بمال غيره · جوين اسم شخص

عند جهينة الخبر اليقين — جهينة اسم خمار تقاتل عنده اثنان فقتل احدهما · يضرب للخبير بالشيء العارف باسراره

احشفاً وسوءَ كيلة — الحشف التمر الردي · يضرب لاجتماع السيئين

حسبك من شر سماعه — قالته ام الربيع بن زياد العبسي

الخلّة تدعو الى السلة — الحاجة او الفقر تدعو الى السرقة

دون ذلك خرط القتاد — يضرب لصعوبة الشيء · والقتاد شوك قاس

يعلم من اين تؤكل الكتف — يضرب لمن يأتي الامور من مآتيها

رجع بخفَّي حنين — حنين اسكاف احتال على اعرابي فسلبه ناقته وترك له بدلها خفين · يضرب لمن يرجع خائباً

ركب جناحي نعامة — في الجدّ والسعي الى الامر

تسمع بالمُعَيدي خير من ان تراه — المعيدي من احسن المغنين ولكن من اقبحهم وجهاً . وقد مرَّ ذكره

سحابة صيف عن قليل تقشَّع — يضرب لسرعة الزوال

صرّح الحق عن محضه — في ظهور الامر غب استتاره

طويته على غِرّهِ — طويت الثوب على تكسره — اي تركته كما كان دون ان انظر فيه او اغيره .

عند الصباح يحمد القوم السرى — قاله خالد بن الوليد . يضرب لتوطين النفس على الشيء حتى تحمد عاقبته

على اهلها جنت براقش — براقش كلبة نبحت جيشاً قصدوا الغارة على قومها وقد خفي على الجيش امرهم فعرفوا مكانهم من نباحها . يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره عليه

على الخبير بها سقطت — لمالك بن جني من حكماء العرب

قلب له ظهر المجنّ — للعداء والمنازلة لان ظهر الترس تدار للالتقاء

لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع — لمن لا يتساهل معه

ليس من العدل سرعة العذل — للتأني في الحكم او الملام

مأرب لا حفاوة — فعلت ذلك لحاجتك اليَّ لا حفاوة بي

من الخواطئ سهم صائب — لمن يعطي احياناً مع بخله

من سلك الجَدَد أَمن العثار — لا كثم صيفي . من سلك الطريق الحميدة أَمن العثار

المكثار كحاطب ليل — اي ان كثير الكلام قد يلاقي حتفه

ما يوم حليمة بسرّ — هو من ايام العرب . ويضرب للشهرة

ومن يشابه أبه فما ظلم ·

المنيَّة ولا الدنية — لاوس بن حارثة

المرء باصغريه — اي قلبه ولسانه · قاله احد العرب للمنذر

نفس عصام سوَّدت عصاما — عصام حاجب النعمان · يضرب لمن يحرز المكان الرفيع بجده وعزمه لا بشرف آبائه

لا يعرف الحيّ من الليّ — اي الحق من الباطل · لمن لا يحسن التمييز

ما حكّ جلدك مثل ظفرك — للاعتماد على النفس

ليس بعشّكِ فادرجي — لمن يتعاطى ما لا ينبغي

لا تقرع له العصا — للمجرّب المحنَّك · وكانت العصا تضرب لعامر بن الظرب عند ما كبر وزاغ عقله ليهتدي

لا ناقة لي فيها ولا جمل — للتبرؤ من الشيء

لا تعدم الخرقاء علة — الخرقاء هي التي لا تحسن صنعة ولا لها رفق · وهو كقولنا الحاذق يعمل والجاهل يدبر الاعذار

افعل هذا وخلاك ذم — قاله قصير مولى جذيمة لما طلب ان يقطع انفه اي افعل هذا الامر ولا لوم عليك

ان دواءَ الشق ان تحوصه — يضرب لرتق ما يفتق

لقيت منه عرق القربة — يضرب لمشقة النفس في تكلف امر شاق

اليوم خمر وغدا تمر — يضرب للتسويف وعدم الاهتمام

ان غداً لناظره قريب — اي ان الغد قريب لمنتظره ·

بحث عن حتفه بظلفه — كبش بحث برجله في التراب فظهرت مدية ذبح بها · يضرب لمن يكون سبباً في هلاك نفسه

كل الصيد في جوف الفرا — للحاجة العظيمة تقضى بها كل الحاجات

كالمستجير من الرمضاء بالنار — لمن يطلب النجاة فيقع في شر مما هرب منه

لا عِطر بعد عروس — عروس رجل مات فتزوجت امرأته رجلاً كرهته ولم تعد لذلك تتطيب ·

استنسر البغاث — يضرب للحقير يتعاظم او للصغير يصبح كبيراً

اعط القوس باريها — سلم الامر لمن يحسنه

ان الشراك قدّ من اديمه — يضرب للشيئين بينهما قرب وشبه

اذا عزّ اخاك فهن — يضرب للمسالمة والموادعة

ان كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً — يضرب للكبير امام من هو اكبر منه

هل يدرك الظالع شأو الضليع — الظالع الاعرج والضليع القوي · يضرب للضعيف يسابق القوي

القى الحبل على غاربه — الغارب سنام الجمل او ظهره · يضرب لترك الشيء ونفض اليد منه

تفرقوا ايدي سبا — يضرب للتشتت

وافق شِنّ طبقه — يضرب لتمام الوفاق والوئام

المزايا الانشائية العامة

في

عصر الفتوح

تناولنا في الفصول السابقة ما رواه لنا الرواة من النثر في العهد النبوي وما قبله وحاولنا ان نتوصل عن طريق النقد والتجريح الى ما يجوز اعتماده من تلك الروايات وما لا يجوز . وها نحن ننتقل الآن الى ما نقلوه لنا من النصوص النثرية في عصر الفتوح . وليس هذا العصر من الوجهة الانشائية مستقلاً عما سبقه بل هما عند التحقيق عصر واحد — هو عصر صدر الاسلام — . ولهذا العصر طابع انشائي خاص عرف به في تاريخ الادب، ولم يصبه على ما يظهر شيء من التطور الاّ بعد ايام الوليد بن عبد الملك . قال القلقشندي « ولم يزل امر المكاتبات في الدولة الاموية جارياً على سنن السلف الى ان ولي الوليد بن عبد الملك ، فجوّد القراطيس وجلّل الخطوط وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك، الاّ عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد، فانهما جريا في ذلك على طريق السلف . ثم جرى الامر من بعدهما على ما سنه الوليد الى ان صار الامر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم، وكتب له عبد الحميد بن يحيى، وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره فاطال الكتب واطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والاطناب فيها، حتى يقال انه كتب كتاباً عن الخليفة وقرّ جمل واستمر ذلك فيما بعده[1] »

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٣٩١

فعبد الحميد اذن إمام طور جديد في الانشاء كان الوليد فاتحته. على ان هذا الانتقال من طريقة صدر الاسلام الى طريقة عبد الحميد لم يكن فجائياً بل جرى على سنن الطبيعة. وقد ساعد على هذا الانتقال تجويد القراطيس واتساع رقعة المملكة وازدياد عمرانها، بعد ان مهد لها عبد الملك بن مروان ورجاله السبل الى ذلك

قلنا ان لهذا العصر طابعاً انشائياً خاصاً، ولو اردنا ان نصفه بكلمة عامة لقلنا هو طابع «البساطة المحكمة» ومن مزاياها —

١ — الجزالة. وهي كما قال ابن الاثير ان يكون الكلام متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع[1]. وقد عبّر القلقشندي عن آراء الادباء في نثر صدر الاسلام فقال «ولتحرّي الصدر الاول من الكتاب ايقاع المناسبة بين كتبهم وبين الاشياء المتقدمة الذكر (اي ما يقتضيه المقام من احوال المخاطبين) استعمل كتاب الدولة الاموية من الالفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية، لان كتاب الدولة الاموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها، والامكنة التي نزلها ملوكهم من بلاد العرب والرجال الذين كانت الكتب تصدر اليهم، وهم اهل الفصاحة واللسن والخطابة والشعر[2]». ومن امثلة جزالتهم الخطابية ما نقله المبرّد من حديث معاوية وابن الزبير واليك نصه[3] — «ولما نازع ابن الزبير مروان عند معاوية قال ابن الزبير يا معاوية لا تدعْ مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه[4]، ويضرب صفاتهم بمعاوله. ولولا مكانك لكان اخف على رقابنا

(١) المثل السائر ١٠٠ (٢) صبح الاعشى ٦ — ٢٩٧
(٣) البيان والتبيين ٢ — ٧٢ (٤) المشاقص النصال العريضة

من فَراشة واقلّ في نفوسنا من خشاشة . ولئن ملك اعنّة خيل تنقاد له ليركبنّ منك طبقاً تخافه . قال معاوية ان يطلب هذا الامر فقد طمع فيه من هو دونه[١] ، وان يتركه يتركه لمن هو فوقه[٢] ، وما اراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ولا يذكركم عند ملمة ، يسومكم خسفاً ويوردكم تلفاً . قال ابن الزبير والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرَجل الجراد حافاتها الاسل لها دوي كدويّ الريح ، تتبع غطريفاً[٣] من قريش لم تكن امه براعية ثلة[٤] . قال معاوية انا ابن هند اطلقت عقال الحرب فاكلت ذروة السنام وشربت عنفوان المكرع ، وليس للآكل الا الفلذة[٥] ولا للشارب الا الرَّنَق[٦]

وامثال ذلك كثيرة في اقوالهم كما سنرى بعد

٢ — **عدم التصنع الانشائي** . ذكر ابو هلال العسكري (المتوفى ٣٩٥ هـ) في كلامه على البديع خمسة وثلاثين باباً . ثم قال فهذه انواع البديع التي ادّعى من لا روية له ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما اراد ان يفخم امر المحدّثين . لان هذا النوع من الكلام اذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة[٧] » على ان دفاع العسكري عن القدماء (ومراده بذلك اهل الصدر الاول) لا يعني ان البديع كان عندهم طريقة فنية متّبعة كما كان في زمانه وفيما تلاه من الازمنة . فان ما دوّن لنا من آثارهم الادبية — وان كان لا يخلو من كثير من انواع البديع — لا ترى فيه ميلاً الى تكلف ذلك ولا الى

---

(١) يعرّض بعبد الله بن الزبير (٢) يريد يزيد بن معاوية (٣) الغطريف السيد ويريد نفسه (٤) يعرّض بام مروان (٥) القطعة من كبد البعير
(٦) الماء الكدر (٧) الصناعتين ٢٠٥ والعقد ٢ — ١٩٣

الاكثار منه ونظرة واحدة الى خطب صدر الاسلام ورسائله ترينا الفرق العظيم الذي بينها وبين الخطب والرسائل في العصر العباسي، ولا سيما القرون الاخيرة منه . وسنرى ذلك في كثير من النصوص التي سننقلها لهم ونجتزئ هنا على سبيل المثال بخطبة عُتبة بن ابي سفيان في مصر، وكان قد غضب لامور بلغته عن اهلها فصعد المنبر مغضباً وقال[1] —

اياحاملين ألأم انوف ركّبت بين اعيُن ، انما قلّمت اظفاري عنكم ليلين مسّي اياكم، وسألتكم صلاحاً لكم اذ كان فسادكم راجعاً عليكم . فاما اذ ابيتم الا الطعن في الولاة والتنقص للسلف، فوالله لاقطعنّ على ظهوركم بطون السياط . فاذا حَسَمَتْ داءكم ، والا فالسيف من ورائكم . فكم من موعظة منا لكم مجّتها قلوبكم ، وزجرةٍ صمّت عنها آذانكم ، ولست ابخل عليكم بالعقوبة اذ جدتم لنا بالمعصية ، ولا أُويسكم من مراجعة الحسنى ان صرتم الى التي هي ابرّ وانقى »

ففي هذه الخطبة شيء من البديع كقوله قلمت اظفاري عنكم ، ومجتها قلوبكم ، والسيف من ورائكم . ولكنه بديع فطري لم يتكلف اصطناعه الخطيب . واين هذا من صناعة المترسلين في ابان عهد السجع والبديع . وسنرى ذلك في حينه

٣ — **الايجاز** . سئل ابن المقفع ما البلاغة قال « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة » — وبعد ان يعدّد تلك الوجوه . يقول « فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة[2] » . وقال المبرّد « من كلام العرب الاختصار المفهم والاطناب المفخم وقد يقع الايماء الى الشيء فيغني عند ذوي الالباب عن كشفه كما

(١) الامالي ١ — ٢٤٥ (٢) البيان والتبيين (١٣١١) ١ — ٤٩

قيل لمحة دالة [١] » . ولو لم يُقحم عبارته لفظة (الاطناب المفخم) لكان كلامه ادلّ عَلَى ما وصف به نثر ذلك العصر . ولعلماء البلاغة اقوال كثيرة يمدحون بها الايجاز والكلام الذي هو كالوحي والاشارة ، ويتمثلون لذلك بما جاء من اقوال الصدر الاول .وقد اندفع بعض متحمسي النقاد الى قرن الاكثار بضعف الخلق . ومما نقله الجاحظ عن العرب « وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة،والتحبير والبلاغة ، والتخلص والرشاقة ، فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذَر ، والتكلف والاسهاب والاكثار ، لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر، و كانوا يكرهون الفضول في البلاغة . . . ولقد دعا عبادة بن الصامت بالطعام بكلام ظن انه ترك فيه المحاسبة فقال اوس بن شداد انه قد ترك فيه المحاسبة ، فاسترجع ثم قال «ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله (ص) الا مزمومة مخطومة [٢] » . هذا الاسلوب الموجز المخطوم الالفاظ هو الذي عرف به نثر القرن الاول واهم مزاياه —

١— الاستغناء عن كل لفظة او الفاظ لا تزيد المعنى وضوحاً او تقريراً

٢— الميل الى التلميح دون التصريح والى التقدير والابهام دون الذكر والتفسير — الا اذا ادّى ذلك الى الالتباس والتعمية

٣— قلة تفاريع الكلام وتجنب الاسهاب والتبسط في عرض الفكر

وايضاحاً لهذه المزايا التي تكوّن الطابع الانشائي في صدر الاسلام نثبت هنا بعض ما نقلته لنا كتب الادب من نثر ذلك العصر —

قام قتيبة بن مسلم خطيباً بخراسان حين خلع فقال [٣] « اتدرون من

---

(١) الكامل ١—١٧ (٢) البيان والتبيين (١٣١١) ١— ٧٩

(٣) خمس رسائل للثعالبي ٢١٢

تبايعون . تبايعون يزيد بن ثروان (ويروى مروان) . كاني بامير خادعكم (ويروى من حاء وحكم وهما قبيلتان) قد اتاكم يحكم في اموالكم . . وابشاركم » ثم قال « الأعراب . ومن الأعراب ؟ جمعتكم كما يجمع قزع الخريف من منابت الشيح والقيصوم [١] والفلفل ، تركبون البقر وتاكلون القصب ، فحملتكم على الخيل والبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد وافاء بكم الفيء [٢] » فانظر بلاغة الايجاز في ذكر خصمه وفي تقريع المخاطَبين والتنويه بفضله بكلام محكم لا حشو فيه ولا تكلف . ومثل ذلك في حسن الاشارة والمبنى ما ذكروه من حديث معاوية وعائشة بنت عثمان قالوا [٣] :

قدم معاوية المدينة فدخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان وا ابتاه ! وبكت (تثير معاوية على قتلة ابيها) . فقال معاوية « يا ابنة اخي ان الناس اعطونا طاعة واعطيناهم اماناً واظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه ، وهو يرى مكان انصاره . وان نكثنا نكثوا بنا ، ولا ندري اعلينا يكون ام لنا . ولأنْ تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عِراض المسلمين »

والمتأمل في كلام معاوية وفي موقفه الدقيق يرى ما نقصد اليه من قولنا « طابع صدر الاسلام » فهو يجمع برشاقة خلاّبة بين الايجاز والاحكام جمعاً مفحماً ، ولا نزال الى الآن نعجب به ونعدّه من امثلة الادب العالي

ومن هذا الطراز المحكم ما روي عن الامام عليّ حين ثار عليه طلحة والزبير فارسل عبد الله بن عباس الى البصرة وقال له [٤] « إئتِ الزبير ولا

---

(١) القزَع ما تناتف من الشجر وسواها . والشيح والقيصوم نباتان (٢) اي جمع بكم الغنائم . ويروى في العقد ٢ — ١٨٩ والبيان والتبيين ١ — ١٩٨ مع بعض الاختلافات (٣) خمس رسائل ١٢٩ (٤) خمس رسائل ٢٢٦

تأتِ طلحة ، فان الزبير اسهل . وانك لتجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعوبة ويقول هي اسهل . فاقرئه السلام وقل له يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ »

وقد ذكر المبرّد حديثاً جرى بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان وفيه من جودة التلميح وبعد الاشارة ما يمثل لنا تماماً اسلوبهم النثري — قال[1] « يروى ان عبدالله بن يزيد بن معاوية اتى اخاه خالداً فقال يا اخي لقد هممتُ اليوم ان افتك بالوليد بن عبد الملك . فقال خالد بئس والله ما هممتَ به في ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين . فقال ان خيلي مرّت به فعبث بها واصغرني . فقال خالد انا اكفيك . فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يا امير المؤمنين . الوليد بن امير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين مرّت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد ، فعبث بها واصغره — وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه ، وقال « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » . فقال خالد « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فقال عبد الملك أفي عبدالله تكلمني والله لقد دخل عليّ فما اقام لسانه لحناً . فقال خالد أفعلى الوليد تعوّل ؟ فقال عبد الملك ان كان الوليد يلحن فان اخاه سليمان . فقال خالد وان كان عبد الله يلحن فان اخاه خالد . فقال له الوليد اسكت يا خالد فوالله ما تعدّ لا في العير ولا في النفير[2] . فقال خالد اسمع يا امير المؤمنين ، ثم اقبل عليه وقال ويحك فمن العير والنفير غيري ؟ جدي ابو سفيان صاحب العير ، وجدّي

---

(١) الكامل (مصر (١٣١٨) ١ — ١٩٦ و ١٩٧ (٢) العير هي عير قريش التي اقبل بها ابو سفيان يحمل التجارة من الشام فنهد اليه الرسول والمسلمون . واما النفير فهم من نفر من قريش ليدفع عن العير وكان شيخهم عتبة المذكور

عتبة بن ربيعة صاحب النفير. ولكن لو قلت غُنيمات وحُبيلات والطائف[١] ورحم الله عثمان، لقلنا صدقت»

وقد اورد العسكري هذا الحديث مثلاً على جودة الحذف. قال ومثل هذا كثير في كلامهم ولا وجه لاستيعابه[٢]

وكما تجد ذلك في خطبهم واحاديثهم تجده في كتبهم ورسائلهم وعلى ذلك الامان الذي كتبه عمرو بن العاص لاهل مصر عند فتحها ونصه بعد البسملة[٣]. —

هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم وملتهم واموالهم وكنائسهم وصُلبهم وبرّهم وبحرهم. لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، ولا تسا كنهم النُّوبة. وعلى اهل مصر ان يُعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف. وعليه ممن جنى نصرتهم، فان ابى احد ان يجيب رُفع عنهم من الجزى بقدر ذلك. ومن دخل في صلحهم من الروم والنُّوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم، ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا. وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كلّ ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً، على ان لا يُغزَوا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة»

ولو قابلته بما كان يعطى من ذلك في العصر العباسي لظهر لك الفرق بين

---

(١) يشير بذلك الى ان النبي كان قد طرد جد عبد الملك فلجأ الى الطائف يرعى غنمات ويأوي الى كرمة. ورحم الله عثمان لرده اياه (٢) الصناعتين ١٤٠

(٣) راجع صبح الاعشى ١٣ — ٣٢٤

الاسلوبين، ففي امان عمرو يجري الكلام مجرى طبيعياً لا يتكلف فيه ازدواج او اطناب او بديع

ومع استمرار هذا الاسلوب الى اوائل العصر العباسي اخذ الكتاب عموماً يعدلون عنه وسنرى ذلك في كلامنا على الترسل في ذلك العصر

ومما يوضح لنا اسلوبهم الكتابي العام ما كتبه يزيد بن معاوية الى اهل المدينة النبوية وقد بلغه خلافهم عليه — قال[1] — « اما بعد فان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم. واذا اراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال. اني والله قد لبستكم فاخلقتكم، ورفعتكم على رأسي ثم على عيني ثم عَلَى فمي ثم على بطني. وايم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لاطأنكم وطأةً أُقِلُّ بها عددكم، واترككم بها احاديث تنسخ منها اخباركم كاخبار عاد وثمود »

تلك كانت طريقتهم في التعبير عن خوالج انفسهم، وفي عرض افكارهم نتثبتها في رسائل الصحابة والتابعين ، وفي خطب العصر الاموي وعهوده. واذا اعترض ان ما نقل لنا من منثور ذلك العصر انما نقل على السنة الرواة فلا يصح اتخاذه اساساً لحكم عام، قلنا ان لدينا ما نعارض به اقوال الرواة وهو بعض وثائق نثرية وصلتنا من القرن الاول الهجري مدوّنة على البردي. ففي اسلوبها ومبناها ما يشهد بصحة ما نحاول تقريره من نثر صدر الاسلام. وها نحن نعرض على سبيل المثال وثيقة مثأكلة من مخطوطات دار الكتب المصرية[2]. وهي بقية من رسالة طمس فيها اسم مرسلها والمرسَل اليه وقد تمكنا من قراءتها ، واتماماً للفائدة اضفنا اليها ما تراه بين قوسين —

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٣٩٠

(٢) عن مصوَّر مورتز Moritz ١٩٠٥

(احمد اليك الله الذي لا اله الا) هو

اما بعد فان هشام بن عمر كتب اليَّ يذكر جالية له بارضك وقد تقدَّمت الى العمال و كتبت اليهم الاَّ تُؤوا جاليا . فاذا جاءك كتابي هذا فادفع اليه ما كان له بارضك من جالية ولا . (الكلام هنا مطموس) ... ما رددت رسله ، او كتب اليَّ يشتكيك . والسلام على من اتبع الهدى . و كتب بذلك في جمادى الآخرة سنة ٩١ »

ومثلها بقية وثيقة بردية ترجع (الى القرن الاول) نشرتها دائرة المعارف الاسلامية [1] وقد قرأنا منها ما يلي — ويظهر انه كتاب الى احد العمال — وهو —

« ... قد جمعت من جزية كورتك واردت ان ارفق بهم واتجاوز عنهم بما قد قبضت منهم، على نحو الذي كانوا يؤدون في بيت المال كل سنة . ولا اظن كتابي هذا قادماً عليك ان كان فيك خير الا وقد بعثت بالذي جمعت من جزية كورتك ... »

وبين مخطوطات دار الكتب المصرية بضع من هذه الوثائق التي ترجع الى القرن الاول ، وهي شديدة التماثل في مبناها للرسائل التي نقلها لنا قدماء المؤرخين كالطبري والواقدي وابن سعد، او رجال الادب كالجاحظ والمبرّد والقالي واضرابهم

وللموازنة بين ما نقل لنا وبين الوثائق التي وصلتنا نثبت هنا الكتابين التاليين —

كتاب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب [2]

« لعبد الله امير المؤمنين — سلام عليك . فاني احمد اليك الله الذي

---

(١) Encyc. of Islam 1913 - Arabia (١) صبح الاعشى ٢ — ٤٧٧

لا اله الا هو . اما بعد فانه اتاني كتاب امير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي ، وانه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي . واني أُعلم امير المؤمنين انني ببلد السعر فيه رخيص ، واني اعالج من الزراعة ما يعالجه الناس ، وفي رزق امير المؤمنين سعة . ووالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك . فأقصر ايها الرجل فان لنا احساباً هي خير من العمل لك ، ان رجعنا اليها عشنا بها . ولعمري ان عندك من لا يَذُمّ معيشته ، ولا تُذَمّ له . فان كان ذلك فلم يفتح قفلك ولم يشر كك في عملك »

فاذا قابلت هذا الكتاب بما نقلناه آنفاً رأيت اوجه الشبه من حيث نفس الكلام ، فان العبارات في كلتيهما مخطومة محكمة والطابع الانشائي البسيط واحد . ومثله ما كتبه معاوية الى عليّ وقد وجه اليه عليٌّ رسولاً يأخذه البيعة له . قال بعد البسملة[1]

« من معاوية بن صخر الى عليّ بن ابي طالب . اما بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وانت بريء من دم عثمان كنت كابي بكر وعمر وعثمان (رض) ، لكنك اغريت بعثمان المهاجرين وخذّلت عنه الانصار ، فاطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف . وقد ابى اهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . ولعمري ما حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزُّبير لانهما بايعاك ولم ابايعك . وما حجتك على اهل الشام كحجتك على اهل البصرة ، لان اهل البصرة اطاعوك ولم يطعْكَ اهل الشام . واما شرفك في الاسلام وقرابتك من رسول الله (ص) او موضعك من قريش فلست ادفعه »

. . . . .

(١) الكامل ١ — ١٩١

وسنرى في الكلام على الانشاء الديواني في العصر العباسي وما بعده ان سنّة الكتّاب فيه، ولا سيما في وصف الفتوح، هي الاسهاب والتبسط، ولم يكن ذلك معروفاً قبل عبد الحميد الكاتب. وهاك انموذجاً من رسائل الفتح في الصدر الاول ما بعث به المهلّب الى الحجاج يصف له ظفره بالخوارج — قال فيه بعد توطئة قصيرة:

— اما بعد فقد كان من امرنا ما اغنت جملته عن تفصيله، وكنّا نحن وعدوّنا في مدة هذا التنازع على حالتين مختلفتين، يسرُّنا منهم اكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منا اكثر مما يسرّهم، على شدة شوكتهم واجتماع كلمتهم وانزعاج القلوب لمخافتهم، حتى نوّم بذكرهم الرضيع واصمّ لخوفهم السميع. فانتهزت منهم الفرصة عند امكانها بعد ان تنظّرت وقت ابّانها، واستدعى النَّهلُ عَلَله، وبلغ الكتاب اجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[1]»

فهو برغم ما ورد فيه من السجع القليل يمثل الاسلوب الذي نحن بصدده، وسيتبين لك كيف بلغ هذا النوع من الانشاء في الدولة العباسية

. . . . .

ذكرنا اوجه التماثل بين الوثائق القليلة التي وصلتنا من القرن الاول وبين ما نقله لنا الرواة من ذلك القرن، وقلنا ان ذلك يسوّغ لنا الحكم على الاسلوب الانشائي في صدر الاسلام، ويميل بنا الى القول بصحة المرويات النثرية لذلك العهد. ويزيدنا وثوقاً بذلك قدميّة التدوين في الاسلام وانه كان معروفاً في عهد الراشدين والامويين. ذكر ابن النديم انه رأى في مكتبة عند بعضهم قِمَطراً كبيراً فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكوك

(١) ادب الكتاب للصولي ٢٣٥

وقراطيس مصرية وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم وورق خراساني وفيها خطوط بعض الصحابة . قد يقال افلا يمكن ان يكون ما رآه ابن النديم وهو من اهل القرن الرابع الهجري مزوّراً؟ قد يكون ذلك . ولكن الرجل ورّاق خبير، ثم من ينكر ما اجمع عليه كل المؤرخين من وجود الكتابة في عهد الصحابة، ومن نقل الدواوين الى العربية في عهد عبد الملك ومن نقل العلوم اليونانية بامر خالد بن يزيد بن معاوية، وغير ذلك من الحقائق التاريخية المثبتة بالاجماع . وهذا ابو عمرو بن العلاء المتوفى في منتصف القرن الهجري الثاني (١٥٤)، فقد كان في العهد الاموي وسمع جريراً والفرزدق وقال عنه ابو عبيدة الراوية المشهور « كان ابو عمرو اعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وايام الناس، وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف، وكان عامة اخباره عن اعراب ادركوا الجاهلية وفيه يقول الفرزدق

ما زلت افتح ابواباً واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمّار

افليس من المعقول ان نستنتج اذن مما بقي لنا من وثائق البردي ومما عرفناه من امر التدوين ان النصوص النثرية التي نراها في كتب الادب والتاريخ لم يُعتمد على الرواية فقط في اثباتها، بل على مخطوطات قديمة ضاعت اصولها في جملة ما ضاع من آثار الصدر الاول ؟ ومع ذلك فلا بد لنا من تحفظات نقرنها باعتقادنا صحة النصوص التي نبني عليها احكامنا منها :

١ — ان كثيراً مما نقلوه لا يخلو من التشويش والخطأ

٢ — ان بعضه وضع وضعاً لاغراض خاصة .

اما الخطأ والتشويش فنجدهما في اختلاف الروايات في النص الواحد، وذلك اكثر واوضح من ان نحتاج الى شواهد لاثباته . على اننا نثبت هنا المثلين التاليين

الاول كتاب عبد الملك الى الحجاج · فبين ما روي منه في العقد ٣ — ١٧ وما روي في صبح الاعشى ٦ — ٣٨٩ اختلاف في بعض الالفاظ والعبارات وفي احدى الروايتين زيادة لا تجدها في الاخرى · والثاني خطبة « ايها الناس انما الدنيا دار مجاز » تروى في نهج البلاغة (شرح ابن ابي الحديد ج ١٣) للامام علي ، ويرويها المبرّد في الكامل عن الاصمعي لاعرابي بالبادية ، وقسم منها يروى لاكثم · وقس على ذلك ما لا يمكن حصره هنا

واما الوضع فهو اما لاغراض سياسية او مذهبية · كما نجد في النصوص التالية —

كتاب معاوية الى يزيد ابنه

قالوا كتبه اليه وقد بلغه مقارفته اللذّات وانهماكه في الشهوات · ونصه كما في صبح الاعشى[1] · « اما بعد فقد ادّت السنة التصريح الى اذن العناية بك ما لجمع الامل فيك وباعد الرجاء منك ، اذ ملأتَ العيون بهجة والقلوب هيبة ، وترامت اليك آمال الراغبين وهمم المتنافسين وشحّت بك فتيان قريش وكهول اهلك · فما يسوغ لهم ذكرُك الاّ على الجرّة المهوّعة[2] · والكظّ الجشء · اقتحمتَ البوائق وانقدتَ للمعايير ، واعتضتها من سمو الفضل ورفيع القدر · فليتك يزيد ، اذ كنت لم تكن ! · سررْتَ يافعاً ناشئاً واثكلت كهلاً ضالعا · فواحزناه عليك يزيد ! ويا حرّ صدر المثكل بك ! ما اشمت فتيان بني هاشم واذلّ فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما افسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات خمشتِ

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٣٨٧ (٢) الجرّة ما يجتره البعير والمهوّع ما يحمل على التقيوء اي لا يذكرونك الا بكل قبيح ، ومثلها الكظ الجشء اي امتلاء الجوف بالطعام الزائد وهو النهم

الدُّربة وجه التصبر بك . وابت الجناية الاّ تحدُّراً على الالسن ، وحلاوةً على المناطق . ما اربح فائدةً نالوها وفرصةً انتهزوها ! انتبه يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ولا تكن الى سمعك اسرع من معناها الى عقلك ، واعلم ان الذي وطّأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان مما حسنَ عندك قبحه واحلولى عندك مرّه ، امرٌ شركك فيه السواد ونافسكه الاعبد ، لا لأثرة تدعيها اوجبتها لك الإمرة ، واضعتَ بها من قدرك فامكنت بها من نفسك ، فكأنك شانئُ نفسك . فمن لهذا كله ؟

اعلم يا يزيد انك طريد الموت واسير الحياة بلغني انك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى — اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون — واجهرتَ الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرا . اعلم يا يزيد ان اول ما سلبكه السكر معرفةُ مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى والفجعة الكبرى ، تركُ الصلوات المفروضات في اوقاتها وهو من اعظم ما يحدث من آفاتها . ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب واظهار العورة واباحة السرّ . فلا تأمن من نفسك على سرّك ولا تعقد على فعلك فما خير لذّة تُعقب الندم وتعفّي الكرم ؟ وقد توقف امير المؤمنين بين شطرين من امرك لما يتوقعه من غَلَبة الآفة واستهلاك الشهوة . فكن الحاكم على نفسك واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد ان شاء الله تعالى . وليبلُغْ امير المؤمنين ما يردّ شارداً من نومه ، فقد اصبح نُصب الاعتزال من كل مؤانس ، ودرأة الالسن الشامتة وفّقك الله فاحسن »

ومن قرأ سيرة معاوية وعرف حرصه على ان يجعل الخلافة في يزيد يتعذر عليه الا ان يقف موقف المشكك بل المنكر لما روي عن لسانه .

وعندنا ان الكتاب موضوع في عصر متأخر وضعه بعض اعداء يزيد ونستدلّ على وضعه مما يلي —

١— ما فيه من تكلف المجاز غير المألوف في ذلك العهد كقوله « فقد ادّت السنة التصريح الى اذن العناية » وقوله « وخمشتَ الدربة وجه التصبر بك ، وابت الجناية الا تحدّراً على الالسن »

٢— ان اكثره يجري مجرى الازدواج المتكلف مما هو اشبه بانشاء العصر العباسي

٣— ما فيه من الحمل على يزيد ووصمه بكل قبيح وقد وضع الكاتب كل ذلك عن لسان ابيه معاوية وهو الذي كان يرشحه للملك ويقدّمه الى العالم الاسلامي ولياً لعهده . ولم يتورّع واضعه عن ان يضع على لسان معاوية قوله لابنه « فليتك يزيد اذ كنت لم تكن — سررت يافعاً ناشئاً واثكلت كهلا ضالعا — فواحزناه عليك يزيد ويا حرّ صدر المثكل بك — ما اشمت فتيان ببني هاشم — فمن لصلاح ما افسدت — واجهرت الفاحشة — سلبك السكر معرفة مواطن الشكر — » وغير ذلك من الاقوال التي لا يصح ان رجلاً بدهاء معاوية يصرّح بها .

٤= هلهلة الكتاب او عدم احتباكه . فليس في نسيجه متانة الانشاء في الصدر الاول كما يتبين لك من الجمل التالية « اعلم يزيد ان ما سلبكه السكرُ » . الى آخر قوله « ما يحدث من آفاتها » . وكذلك « واعلم ان الذي وطأك وسوسة الشيطان » الى قوله « فمن لهذا كله ؟ » . فانك اذا تأملت هذه العبارات وجدت ضعفاً في الارتباط ورخاوة في التنسيق لانراهما عادة في اقوال معاوية واهل عصره . ولا ينفي ذلك ان يوجد مثل هذا الضعف في بعض اقوال ذلك العصر ولكنه قليل . فاذا قرنا ذلك بما بيناه من

الاسباب السالفة الذكر لم يكن لنا محيص عن رفض هذه الرسالة او على الاقل الوقوف ازاءها موقف الحذر والتشكيك . وكذلك يجب ان يكون موقفنا ازاء الرسالة التالية -

رسالة ابي بكر الى علي يوم نكث عن المبايعة له [1]

قالوا انه ارسلها على لسان ابي عبيدة وذكروا ما انضمّ الى ذلك من كلام عمر بن الخطاب وما كان من جواب عليّ عنها ، وقد نُقل حديثها عن لسان علي بن محمد التوحيدي وفي ذلك يقول « سمرنا ليلة عند القاضي ابي حامد احمد بن بشر ببغداد فتصرّف في الحديث كل متصرّف، وكان غزير الرواية لطيف الدراية، فجرى حديث السقيفة ، فركب كل منا مركباً وقال قولا وعرّض بشيء ونزع الى فن ، فقال (اي القاضي) هل فيكم من يحفظ رسالة لابي بكر الصديق (رضه) الى علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) وجواب عليّ عنها ومبايعته اياه عقيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة لا والله، فقال هي والله من بنات الحقائق ومخبئات الصنادق ، ومنذ حفظتها ما رويتها الا لابي محمد المهلبي في وزارته فكتبها عني بيده » .... فقال احدهم .. « ايها القاضي فلو اتممت المنة علينا بروايتها اسمعناها فنحن اوعى لك من المهلبي واوجب ذماماً ، فاندفع يحدثهم ويروي لهم ما كتب ابو بكر وسواه ويقع حديثه في عشر صفحات كبيرة فليراجع [2]

والذي يتأمل هذه الرسالة وما انضمّ اليها تأمل الناقد المدقق لا يرى

---

(١) تجدها في كتاب نهج البلاغة شرح ابن ابي الحديد مج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٧ ونهاية الارب للنويري ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٧ وصبح الاعشى ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٧

(٢) نقلنا قوله بتصرف قليل عن نهج البلاغة وصبح الاعشى

الا القول بانها موضوعة[١] . بل هي اشبه ان تكون مقامة او حكاية صنفها التوحيدي او بعض الادباء رداً على ما ذهب اليه بعضهم من اولوية عليّ بالخلافة ، وان بيعة ابي بكر وعمر فاسده . فسداها ولحمتها اثبات صحة الامر لابي بكر ودحض مزاعم المنكرين ، كقوله مخاطباً علياً « ولئن كان عرَّض لك رسول الله (صلعم) في هذا الامر فلم يكن معرضاً عن غيرك وان كان قال فيك فما سكت عن سواك . وان تلجلج في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضيٌّ . والصواب مسموع والحق مطاع . ولقد نُقل رسول الله (صلعم) الى الله عز وجل وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر ، يسرّه ما يسرّها ويسوءه ما ساءها ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما ارضاها ويسخطه ما اسخطها . اما تعلم انه لم يدع احداً من اصحابه واقاربه وسجرائه الا ابانه بفضيلة ، وخصه بمزية ، وافرده بحالة » .. الى ان يقول .. « وبعد فهذه المهاجرون والانصار عندك ومعك في بقعة واحدة ، ودار جامعة ، ان استقالوني لك ، واشاروا عندي بك . فانا واضع يدي في يدك وصائر الى رأيهم فيك . وان تكن الاخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشد لضالتهم ، والرادع لغوايتهم فقد امر الله تعالى بالتعاون على البرّ والتقوى والتناصر على الحق . ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن » الخ .

وفي الرسالة ما وضع على لسان عمر ويراد به التهجم على عليّ والتنقُّص من كرامته كقوله = « ما هذه الخُنزُوانة[٢] التي في فراش رأسك ؟

---

(١) نوّه بوضعها ابن ابي الحديد والنويري . وللاستاذ حسن السندوبي في مقدمة كتاب المقابسات ص ٤٠ — ٤٤ تعليق على الرسالة يذهب فيه هذا المذهب (٢) الكبرياء

ما هذا الشجا المعترض في مدارج انفاسك ؟ ما هذه القذاة التي تغشّت ناظرك وما هذه الوَحَرة[١] التي اكلتْ شراسيفك[٢] . وما هذا الذي لبستَ بسببه جلد النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر » ... الى ان يقول « وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ومعدن الرسالة ولا يجحد حقك فيما آتاك الله ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك ، وقربى امسّ من قربالك ، وسنٍّ اعلى من سنك ، وشيبة اروع من شيبتك وسيادة لها اصل في الجاهلية وفرع في الاسلام ، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ، ولا تذكر منها في مقدّمة ولا ساقة ، ولا تضرب منها بذراع ولا اصبع ، ولا تخرج منها ببازل ولا هُبع[٣] »

اما لغة الرسالة واسلوبها فمما عرف به العصر العباسي بعد القرن الرابع اذ يكثر فيها الازدواج والسجع والتبسط والبديع كقوله لابي عبيدة حين اوفده الى عليّ « وقل له البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجوّ اكلف ، والليل اغدف ، والسماء جلواء ، والارض صلعاء ، والصعود متعذّر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشرّ ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة » والكلام طويل وكله على هذا النمط .

وقد تأخذ الكاتب نشوة البديع فيقول — « والله ما اشتاق الى ربّه (تعالى) ولا سأله المصير الى رضوانه وقربه ، الاّ بعد ان ضرب المدى ، واوضح الهدى ، وأبان الصُوى ، وأمّن المسالك والمطارح ، وسهّل المبارك والمهابيع ، والاّ بعد ان شدخ يافوخ الشرك (باذن الله) وشرم وجه النفاق

---

(١) الوحرة نوع من الدبابات السامة ويراد بها هنا الحقد الاكال (٢) مقط الاضلاع (٣) هبع الحمار والبازل الجمل

(لوجه الله سبحانه) وجدع انف الفتنة (في ذات الله) وتفل في عين الشيطان (بعون الله) وصدع بملء فيه ويده بامر الله (عز وجل) »

والفاظ الرسالة الفاظ لغوي حفظ كثيراً من الاوضاع الغريبة فصار يتنطس في استعمالها كقوله :

فؤادك مشهوم	اي ذكي
سجراؤك	〃 اصدقاؤك
ابان الصوى	〃 علامات الطرق
ولسنا كجلدة رُفغ البعير	والرفغ اصل الفخذ من باطن
الخنزوانة في فراش الراس	مرّ تفسيرها
الوحرة التي تأكل الشراسيف	〃 〃
تخرج منها بيازل وهبع	〃 〃
يمضّ اهابك	اي يمص جلدك
هوّر ليلها	〃 قلبه وصرعه
مشدود باطراف ليطة	〃 باطراف قوس
أزَمتُ على فاسي	〃 حافظت عليها

وقس على ذلك كثيراً من هذه الاوضاع التي كان للغويين من اصحاب المقامات وسواهم ولع شديد بحفظها واستعمالها .

. . . . .

ومن امثلة هذه الكتب المشكوك فيها ما روي عن عبدالملك بن مروان وقد بلغه تعرّض الحجاج بن يوسف للامام أَنس بن مالك . فكتب الحجاج يقول[1] — « اما بعد فانك عبد طمت بك الامور فطغيت وعلوت فيها حتى

(١) العقد الفريد ٣ — ١٧ وضبح الاعشى ٦ — ٣٨٩

جزت حدَّ قدرك وعدوت طورك . وأيم الله يا ابن المستفرمة بعَجم زبيب الطائف لاغمزنَّك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولار كضنَّك ركضة تدخل منها في وجارك . اذكر مكاسب آبائك بالطائف اذ كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ويحفرون الآبار والمناهر[1] بايديهم . فقد نسيت ما كنت عليه انت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة . وقد بلغ امير المؤمنين استطالة منك عَلَى انس بن مالك خادم رسول الله (صلعم) جرأة منك على امير المؤمنين ، وغِرَّةً بمعرفة غِيرَه ونقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محجته ، ونزل عند سخطته . واظنك اردت ان تروزه بها فتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها ، فان سوَّغتها مضيت قُدما وان غصصت بها وليّت دُبرا . فعليك لعنة الله من عبد اخفش العينين ، اصكّ الرجلين ممسوح الجاعرتين[2] . وايم الله لو ان امير المؤمنين علم انك اجترمت منه جرماً وانتهكت له عرضاً فيما كتب به الى امير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك الى انس بن مالك فيحكم فيك بما احب ولم يخف عَلَى امير المؤمنين نبوءُك ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ولغة الكتاب شبيهة بما كان يكتب في العصر الاموي على اننا نميل الى الشك فيه لاسباب تاريخية سياسية . فان الحجاج كان سيف عبد الملك بن مروان بل رافع لواء الامويين وموطد ملكهم وهو الذي ذكره الوليد في بعض خطبه فقال ان امير المومنين عبد الملك كان يقول الحجاج جلدة ما بين عيني . الا وانه جلدة وجهي كله[3] . فلا يعقل ان يكتب اليه ما روي من الفاظ السباب والتحقير كقوله « قد نسيت ما كان عليه آباؤك من اللؤم والدناءة »

---

(١) العقد في (المناهل) والتصحيح من صبح الاعشى (٢) الجاعرتان مضرب الفرس بذنبه على الفخذين (٣) البيان والتبيين ١ — ١١٤

وقوله «عليك لعنة الله من عبد اخفش العينين اصكّ الرجلين ممسوح الجاعرتين» الى آخر هذه الاقوال السخيفة التي يستبعد جداً ان تصدر عن ملك الى امير جيشه. واغلب الظن انها من صنع بعض الناقمين على الحجاج كاحد الخوارج او احد صنائع سليمان بن عبد الملك ومن اليهم

ففي النثر المروي عن صدر الاسلام كثير من الخطأ والوضع والتشويش، على ان ذلك ليس من المتعذر تمييزه اذا جرينا على قاعدة النقد والتجريح فطرحنا منه ما يناقض الاوضاع التاريخية والاجتماعية والانشائية لذلك العهد، وترددنا في قبول ما يشتمّ منه رائحة التحزُّب والدعاية . واذا ذكرنا ان التدوين كان شائعاً في القرن الهجري الاول، وان الرواية متصلة بين العهدين العباسي والاموي لم يبقَ امامنا مانع كبير من قبول كثير من النصوص المتحدرة الينا من صدر الاسلام

والذي يظهر لنا من دراسة تلك النصوص ان النثر المرسل منذ انبثاق الاسلام الى عهد عبد الحميد الكاتب لم يطرأ عليه تغير يذكر . فاقوال النبي والصحابة وخطب الامويين ورسائلهم جميعها مرتبطة بمزايا لغوية متشابهة ومطبوعة بطابع انشائي عام، من ايجاز وبعد اشارة وبساطة في التركيب وعدم تبسط في المعاني . اما السجع او الازدواج فكان محصوراً في بعض مجالس الوعّاظ والقصاصين، ولم يصبح الزي الانشائي الا في العصر العباسي وما بعده وسنرى ذلك فيما نثبته هنا من نثر القرن الاول وقد اخترنا لذلك طائفة من اشهر اقوالهم وجعلناها — تتمة للفائدة — في ثلاثة ابواب رئيسية :

باب الخطب السياسية والادارية

باب الرسائل والعهود والوصايا

باب الاقوال الروحية

امثلة من الخطب

السياسية والادارية

خطبة روح بن زنباع في المدينة لما نعي اليهم معاوية وابطأ الناس في مبايعة يزيد [١] —

« ايها الناس انا لا ندعوكم الى لخم وجذام وكلب ولكنا ندعوكم الى قريش ، ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به وهو يزيد بن معاوية . ونحن ابناء الطعن والطاعون وفضلات الموت ، وعندنا ان احببتم واطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم » . — (فبايع الناس)

خطبة الامام علي بن ابي طالب

يوم اغار سفيان بن عوف الغامدي على الانبار [٢] —

« اما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة فمن تركه رغبةً عنه البسه الله ثوب الذلة ، وشمّله البلاء ، وألزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومُنع النِصف [٣] . ألا واني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً سرًّا واعلانًا ، وقلت لكم اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم الاّ ذلّوا . فثوا كلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريًا حتى شُنّت عليكم الغارات . هذا اخو غامد [٤] وقد وردت خيله الانبار

---

(١) البيان والتبيين ١ — ١٤٧ (٢) البيان والتبيين ١ — ١٧٠ وتروى في الكامل للمبرد ١ — ١٣ مع اختلافات قليلة وكذلك في العقد الفريد ٣ — ١٦٣

(٣) النصف الانصاف (٤) سفيان المذكور وهو من رجال معاوية وكان قد دفعه الى هذه الغارة

وقتل حسان (او ابن حسان) البكري ، وازال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين . وقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة فينتزع احجالها وقلبها ورعثها[1] ، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم كلما[2] . فلو ان امرءاً مسلماً مات من بعدها اسفاً ما كان عندي ملوماً ، بل كان عندي بها جديراً . فيا عجباً من جدّ هؤلاء القوم في باطلهم وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى وفيئاً ينهب يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزَون ولا تَغزُون ، ويُعصى الله وترضون . فاذا امرتكم بالسير اليهم في الحرّ قلتم حرارة القيظ امهلنا حتى ينسلخ عنا الحرّ ، وان امرتكم بالمسير في البرد قلتم امهلنا حتى ينسلخ عنا القرّ ، كل هذا فراراً من الحرّ والقر . فاذا كنتم من الحرّ والقر تفرون فانتم والله من السيف افرّ . يا اشباه الرجال ولا رجال ، ويا احلام الاطفال وعقول ربات الحجال ، وددت ان الله اخرجني من بين ظهرانيكم ، وقبضني الى رحمته من بينكم . والله لوددتُ اني لم اركم ولم اعرفكم معرفتكم . والله حرت ندما وورّيتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني الموت انفاسا وافسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوهم وهل منهم احد اشدّ لها مراساً واطول تجربة مني ؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين ، فها وقد نيفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع »

. . .

---

(١) اي الخلاخيل والاسورة والاقراط

(٢) اي ما جرح جرحاً

خطبة له بعد ما بويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصحابة لو عاقبت قوماً ممن اجلب عَلَى عثمان [١] —

« يا اخوتاه ! اني لست اجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبون [٢] على حدّ شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم، وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفّت اليهم اعرابكم ، وهم خِلالكم يسومونكم ماشاؤا وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟ وان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادّة . انّ الناس من هذا الامر — اذا حرّك على امورٍ — فرقةٌ ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مُسمِحة . فاهدأوا عني وانظروا ما يأتيكم به امري . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوّة وتُسقط منة » وتورث وهناً وذلة . وسأمسك الامر ما استمسك، واذا لم اجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ »

...

والامام علي خطب واقوال كثيرة جمعها الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة عَلَى ان البعض من اهل النقد والتجريح يرون فيها ما لا تصح روايته ، ويستندون في ذلك الى اسباب شتى من سياسية ومذهبية وانشائية ولهم في ذلك كلام لا مجال لذكره الآن . ولا بد من النظر الدقيق في مثل هذه المرويات ، فانّ الزام الناقد نفسه ما لا يلزم من التجريح هو في الغالب اسلم عاقبة من قبوله الاشياء على علاتها او من التساهل في غربلتها ونخلها

---

(١) نهج البلاغة

(٢) المجلبون عَلَى عثمان الذين اعانوا الثوار عليه

خطبة الحجاج في الكوفة يوم قدمها اميراً من قبل عبد الملك وكانت نفوس اهلها يومئذ تئز بكره الامويين — (وقد اهملنا مقدمتها الشعرية) — قال [1]:

« يا اهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى

اني والله يا اهل العراق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين . ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة . وان امير المؤمنين اطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني امرَّها عوداً واصلبها مكسراً ، فرماكم بي لانكم طالما اوضعتم في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال . والله لاحزمنَّكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فانكم لكأهل « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . واني والله ما اقول الا وفيت ، ولا أهمُّ الا امضيت ، ولا اخلق الا فريت . وان امير المؤمنين امرني باعطائكم اعطياتكم ، وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة . وأني اقسم بالله لا اجد رجلاً تخلَّف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام الا ضربت عنقه »

. . . . .

ثم التفت الى غلامه وقال يا غلام اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين فقرأه فلم يقل احد شيئاً ، فقال « أسلَّم عليكم امير المؤمنين فلم تردوا عليه ؟ والله لاؤدبنكم غير هذا الادب . إقرأ يا غلام كتاب امير المؤمنين » . فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبقَ في المسجد احد الا وقال وعلى امير المؤمنين السلام

---

(١) نلخصها عن العقد وعن البيان والتبيين (س) ٢ — ٢٤٦

وله وقد مات ولده محمد واتاه البريد بوفاة اخيه محمد ففرح اهل العراق وقالوا انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس فقال [١] —

« ايها الناس محمدان في يوم واحد . اما والله ما كنت احبُّ انهما معي في الحياة الدنيا لِما ارجو من ثواب الله لهما في الآخرة . وأيم الله ليوشكنَّ الباقي مني ومنكم ان يفنى والجديد ان يبلى ، والحيُّ مني ومنكم ان يموت وان تُدال الارض منا كما أدلنا منها ، فنأكل من لحومنا ونشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها واكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ، ثمَّ نكون كما قال الله تعالى ، « ونُفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون »

. . . . .

وله يخاطب اهل البصرة ويحضهم على طاعة عبد الملك [٢]

« اتَّقوا الله ما استطعتم فهذه لله ، وفيها مثوبة » . (ثم قال) « واسمعوا وأطيعوا ، فهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان . والله لو امرتُ الناس ان يأخذوا في باب واحد واخذوا في غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً . عذيري من هذه الحمراء يرمي احدهم بالحجر الى السماء ويقول يكون الى ان يقع هذا خير ! والله لاجعلنَّهم كأمس الدابر . عذيري من هُذيل انه زعم انه آمن عند الله ، ما هو الاَّ رجم الاعراب ! والله لو ادركته لقتلتهُ . »

. . . . .

ومن خطب الحجاج بن يوسف خطبة له في البصرة يقول فيها :

ان الله كفانا مؤنة الدنيا وامرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مؤنة الآخرة وامرنا بطلب الدنيا . مالي ارى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ، وشِرارَكم لا يتوبون ؟ مالي اراكم تحرصون على ما كُفيتم

(١) العقد ٢ — ١٨٦ (٢) العقد ٢ — ١٨٦

وتضيعون ما به أُمرتم ؟ انّ العلم يوشك ان يُرفع ، ورفعهُ ذهاب العلماء ، ألا واني اعلم بشراركم من البيطار بالفرس ، الذين لا يقرأون القرآن الاّ هُجرا[١] ، ولا يأتون الصلاة الاّ دُبرا[٢] . الا وان الدنيا عرَض حاضر ، يأكل منه البَرّ والفاجر . الا وان الآخرة اجل مستأجر يحكم فيه ملك قادر . ألا فاعلموا وانتم من الله على حذر ، واعلموا انكم ملاقوه ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين احسنوا بالحسنى . الا وان الخير كله بحذافيره[٣] في الجنة ، الا وان الشرّ كلّه بحذافيره في النار . الا إنّ من يعمل مثقال ذرّة شرًّا يَرَه ، واستغفر الله لي ولكم

كتاب الحجاج الى قتيبة بن مسلم والي خراسان[٤]

اما بعد فان وكيع بن حسّان كان بالبصرة منه ما كان ، ثم صار لصًّا بسجستان ، ثم صار الى خراسان . فاذا اتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه

كلام الاحنف الى ابي موسى الاشعري يوم التحكيم[٥]

يا ابا موسى ان هذا مسير له ما بعده من عزّ الدنيا او ذلّها آخر الدهر أُدعُ القوم الى طاعة علي ، فان ابوا فادعهم ان يختار اهل الشام من قريش العراق من احبُّوا ، ويختار اهل العراق من قريش الشام من احبوا . وايّاك اذا لقيت ابن العاص ان تصافحه بنيّة ، وان يُقعدك على صدر المجلس ،

---

(١) هجرا فحشًا او استهزاء (٢) دبرا اي آخرها
(٣) حذافيره اي بامره (٤) نهاية الارب للنويري ٦ — ٤٢
(٥) نهاية الارب للنويري ٧ — ٢٣٩

فانها خديعة ، وان يضمّك واياه بيت ، فيكمن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار ، فالباديء مُستغلَق [١] ، والمجيب ناطق »

(فما عمل ابو موسى الا بخلاف ما قال الاحنف فلقيه الاحنف بعد ذلك فقال له) « أدخَل واللهِ قدميك في خفّ واحدة »

. . . . .

خطبة زياد بن ابيه بالبصرة [٢] وهي المعروفة بالبتراء

« اما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغيّ المُوفي باهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الامور العظام ينبتُ فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما اعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الاليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفتْ عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تُسبقوا اليه من تركِكم الضعيف يُقهر ويؤخذ ماله ؟ ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة [٣] في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قرّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضّون على المختلس . كلُّ امرىءٍ منكم يذبُّ عن سفيهه صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ما انتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترَون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب .

---

(١) اي ليس له خيار في رد ما يقول (١) عن البيان والتبيين (س) ٢—٤٧ والعقد ٢ — ١٨٣ وفي الروايتين اختلاف قليل (٣) يقصد بذلك اعمال الفسق التي كانوا يأتونها . (وفي رواية والصفقة المسلوبة)

حرام عليَّ الطعام والشراب حتى اسوّيها بالارض هدماً واحراقاً . اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الاَّ بما صلح به اوّله — لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . واني اقسم بالله لآخذنَّ الوليَّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول ، انجُ سعدُ فقد هلك سعيد[1] ، او تستقيم لي قناتكم » .... الى ان يقول .. « فاياني ودلج الليل فاني لا أُوتي بمدلج الاَّ سفكت دمه ، وقد اجلّتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر من الكوفة ويرجع اليكم ، واياي ودعوى الجاهلية[1] ، فاني لا اجد احداً دعا بها الاَّ قطعت لسانه . وقد احدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرَّق قوماً غرَّقناه ، ومن احرق قوماً احرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيًّا . فكفُّوا عني السنتكم وايديكم اكفَّ عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من احد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامَّتكم الاّ ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين اقوام إحَن فجعلت ذلك دُبر اذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع من اساءته . اني لو علمت ان احدكم قتله السُّلال من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل ذلك لم اناظره . فاستأنفوا امورَكم واعينوا على انفسكم فربَّ مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس

ايها الناس إنَّا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ، ونذود عنكم بفَيء[2] الله الذي خوَّلنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ، ولكم علينا العدل فيما وُلينا . فاستوجبوا عدلنا

---

(١) اشارة الى المثل اسعد ام سعيد وقد مر ذكره في باب الامثال

(٢) اي الاعتزاء الى القبيلة والاعتزاز بها (٣) الفيء الخراج والغنيمة

وفيأنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا اني مهما قصّرت عنه فلن اقصّر عن ثلاث — لست محتجباً عن طالب حاجةٍ منكم ولو اتاني طارقاً بليل — ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه — ولا مجمراً[1] لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم و كهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم ، مع انه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله ان يعين كلاً على كلّ . واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر فانفذوه على أذلاله[2] . وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من صرعاي »

خطبة سعيد بن العاص في الكوفة

و كان قد قدمها اميراً في خلافة عثمان قال[3]

« والله لقد بعثت اليكم واني لكارهٌ ، ولكني لم اجد بدّاً اذ أُمرت ان اتمّر . ألا ان الفتنة قد اطلعت خَطمها وعينيها . والله لاضربنّ وجهها حتى اقمعها او تعييني ، واني لرائد نفسي اليوم »

خطبة عمرو بن سعيد في مجلس معاوية

يوم عقد البيعة ليزيد — قال بعد ان حمد الله واثنى عليه[4]

« اما بعد فان يزيد بن معاوية املٌ تأملونه واجل تأمنونه . ان استضفتم الى حلمه وسعكم ، وان احتجتم الى رأيه ارشدكم ، وان افتقرتم الى ذات يده

---

(١) اجمر الخيل جمعها (٢) على اذلاله . على حالة دون تبديل (٣) الطبري (الجملة الاولى) ٢٨٥٢ (٤) الامالي ٢ — ٧٣

اغنا كم . جَذعٌ قارح[١] سوبق فسبق ، ومُوجد فمجد ، وقورع ففاز سهمه ، فهو خلف امير المؤمنين ولا خلف منه »

خطبة يزيد ابن الوليد :

لما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك — قال[٢]

« ايها الناس والله ما خرجت أشراً ولا بطرا ، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك . وما بي اطراء نفسي ، واني لظلومٌ لها ، ولقد خسرت ان لم يرحمني ربي — ولكني خرجت غضباً لله ودينه ، وداعياً الى الله وسنة نبيه ، لما هُدمت معالم الهدى ، وأُطفىء نور التقوى ، وظهر الجبَّار العنيد ، المستحلُّ لكلّ حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع انه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدّق بالثواب والعقاب . وانه لابن عمي في النسب ، وكفئي في الحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله في امره وسألته ان لا يكلني الى نفسي ، ودعوت الى ذلك من اجابني من اهل ولايتي ، حتى اراح الله منه العباد وطهَّر منه البلاد ، بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي

ايها الناس ان لكم علي ان لا اضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ولا اكري نهراً[٣] ، ولا اكنز مالاً ولا اعطيه زوجاً ولا ولداً ، ولا انقل مالاً من بلد الى بلد حتى اسدَّ فقر ذلك البلد وخصاصة اهله بما يغنيهم . فان فضل فضل نقلته الى البلد الذي يليه ممن هو احوج اليه منه . وان لا أجمركم في ثغوركم فافتنكم وافتن اهاليكم ، ولا اغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ولا احمل على اهل جزيتكم ما أُجليهم به عن بلادهم واقطع نسلهم . ولكم

---

(١) الجذع الحديث السن من الجمال والقارح الكبير اي يجمع بين الفتوّة والخبرة

(٢) البيان والتبيين (س) ٢ — ١١٥ (٣) اكري اي احفر حفراً جديداً

عندي اعطياتكم في كل سنة وارزاقكم في كل شهر ، حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين فيكون اقصاهم كادناهم . فاذا انا اوفيت لكم فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكافئة، وان انا لم أُوفِ لكم فلكم ان تخلعوني الاّ ان تستتيبوني ، فان انا تبت قبلتم مني ، وان عرفتم احداً يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما اعطيتكم، فاردتم ان تبايعوه فانا اوّل من بايعه ودخل في طاعته

ايها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم »

امثلة من الرسائل

والعهود والوصايا

كتاب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بشأن ما عرضه صاحب الاسكندرية من دفع الجزية على ان تردّ لهم السبايا قال[١] —

« اما بعد فانه جاءني كتابك تذكر ان صاحب الاسكندرية عرض ان يعطيك الجزية ، على ان تردّ عليه ما أُصيب من سبايا ارضه . ولعمري لجزيةٌ قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين احبُّ اليَّ من فيءٍ يقسم ثم كأنه لم يكن . فاعرض على صاحب الاسكندرية ان يعطيك الجزية على ان تخيّروا من في ايديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه . فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على اهل دينه . فاما من تفرّق من سبيهم بارض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنّا لا نقدر على ردّهم ، ولا نحب ان نصالحه على امر لا نفي له به »

كتاب محمد بن ابي بكر الى الامام علي — قال[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عليّ امير المؤمنين من محمد بن ابي بكر سلام عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله غيره — اما بعد فاني قد انتهى اليَّ كتاب امير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه ، وليس احد من الناس بارضى مني برأي امير المؤمنين ، ولا اجهد على عدوه ولا أرأف بوليّه مني . وقد

---

(١) الطبري (الجملة الاولى) ٢٥٨٢ (٢) الطبري (الجملة الاولى) ٣٣٩٥

خرجت فعسكرتُ وآمنتُ الناس، الاّ من نصب لنا حرباً واظهر لنا خلافاً وانا متّبع امر امير المؤمنين وحافظه، وملتجئ اليه وقائم به. والله المستعان على كل حال والسلام عليك »

وصية معاوية لابنه يزيد

قيل دعا معاوية وهو على فراش الموت، وابنه يزيد غائب، مسلم بن عقبة المرّي والضحاك بن قيس الفهري، فقال ابلغا عني يزيد وقولا له[1] —

« انظر الى اهل الحجاز فهم اصلك وعترتك ، فمن اتاك منهم فاكرمه ومن قعد عنك فتعهّده . وانظر الى اهل العراق فان سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم، فانّ عزل عامل اهون عليك من سلّ مائة الف سيف ،ثم لا تدري على ما انت عليه منهم. ثم انظر الى اهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار[2] . فان رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فان اظفرك الله بهم فاردد اهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدّبوا بغير ادبهم . لست اخاف عليك غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وحسين بن علي . فاما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه[3] الورع ، واما الحسين فاني ارجو ان يكفيه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه ، واما ابن الزبير فانه خبّ ضبّ (فان ظفرت به فقطّعه اربا[4])

. . . . .

---

(١) البيان والتبيين ١ — ١٩٨ (٢) الشعار ما يلي الجسد من الثياب والدثار ما فوقه (٣) اي غلبه او جعله عليلاً (٤) ما بين قوسين فهو، كما يقول الجاحظ، من غير روايته

بين زياد و الحكم بن عمرو (١)

بعث زياد الحكم بن عمرو على خراسان فاصاب مغنماً فكتب اليه زياد :

ان امير المؤمنين معاوية كتب اليَّ يأمرني ان اصطفي له كل صفراء وبيضاء فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ما سوى ذلك !

فكتب اليه الحكم : اني وجدت كتاب الله قبل كتاب امير المؤمنين، ووالله لو ان السموات والارض كانتا رتقاً على عبد فاتقى الله تعالى لجعل الله له منها مخرجاً والسلام

ثم امر المنادي فنادى في الناس : ان اغدوا على غنائمكم ؟ فغدوا فقسمها بينهم

كتاب الحجاج الى قطري بن الفجاءة

بسم الله الرحمن الرحيم (٢)

كتب الحجاج بن يوسف الى قطري بن الفجاءة : سلام عليك . اما بعد فانك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ! قد علمت حيث تجرثمت ذلك انك عاص لله ولولاة امره، غير انك اعرابي جلف اميٌّ تستطعم الكسرة وتشتفي بالتمرة ، والامور عليك حسرة . خرجت لتنال شبعة فلحق بك طغام صُلوا بمثل ما صليت به من العيش ، يهزون الرماح ويستنشقون الرياح على خوف وجهد من امورهم ، وما اصبحوا ينتظرون اعظم مما جهلوا معرفته ! ثم اهلكهم الله بنزحتين والسلام .

---

(١) البيان والتبيين (س) ٢ — ٢٣٥ (٢) البيان والتبيين (س) ٢ — ٢٤٨

رد قطري بن الفجاءة على الحجاج

فاجابه قطري بن الفجاءة :

من قطري بن الفجاءة الى الحجاج بن يوسف : سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمه ، فالحمد لله على ما اظهر من دينه واظلع به اهل السفالة وهدى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه ، كتبتَ اليَّ تذكر اني اعرابي جلف امي استطعم الكسرة واشتفي بالتمرة ! ولعمري يا ابن ام الحجاج انك لميت في جبتك ، مطلخمٌّ[١] في طريقتك ، واهٍ في وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك . يئست واستيئست من ربك . فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقك ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذي لو شاء ابرز لي صفحتك واوضح لي طلعتك . فوالذي نفس قطري بيده لعرفت ان مقارعة الابطال ليست كتصدير المقال ، مع اني ارجو ان يدحض الله حجتك وان يمنحني مهجتك .

كتاب المهلب الى الحارث بن عبد الله[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فانا لقينا الازارقة[٣] المارقة بجدّ وجدّ فكانت في الناس جولة ، ثم ثاب اهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وابدان شداد وسيوف حداد . فاعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الامل فصاروا دريئة رماحنا[٤] ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله اميرهم ابن الماحوز ، وارجو ان يكون آخر هذه النعمة كاولها والسلام »

. . . . .

---

(١) مطلخمّ اي مضطجع (٢) الكامل ٢ — ١٩٩ (٣) الازارقة من الخوارج
(٤) دريئة الرماح حلقة تستعمل للطعان . اي صاروا مطاعن لرماحنا

كتاب سليمان بن عبد الملك الى الوليد وجواب الوليد :

قال ثعلب اشتكى الوليد بن عبدالملك وبلغه قوارص وتقريض من سليمان ابن عبد الملك وتمنّ لموته لماله من العهد بعده، فكتب الوليد اليه يعتب عليه. وهذا جواب سليمان قال [١]

« قد فهمت ما كتب به امير المؤمنين . فوالله لو كنتُ تمنيت ذلك تأميلاً لما يخطر في النفس ، اني لاول لاحق به واول منعيّ الى اهله، فعلام اتمنى ما لا يلبث من تمنّاه الا ريثَ ما يحلُّ السفر بمنزل ثم يظعنون عنه. وقد بلغ امير المؤمنين ما لم يظهر عَلَى لساني، ولم يرَ في وجهي .ومتى سمع من اهل النميمة ومن لا رويَّة له ، اسرع ذاك في فساد النيَّات والقطع بين ذوي الارحام »

فكتب اليه الوليد —

« قد فهم امير المؤمنين كتابك فما احسن ما اعتذرت به وحذوت عليه وانت الصادق في المقال الكامل في الفعال .وما شيء اشبه بك من اعتذارك وما شيء ابعد منك من الذي قيل فيك والسلام »

عهد معاوية وعمرو بن العاص [٢] (كتب سنة ٣٨ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تعاهد عليه معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس ، من بعد قتل عثمان بن عفّان وحمل كل واحد منهما صاحبه الامانة . ان بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في امر الله

---

(١) ذيل الامالي ٢٢٥ (٢) طبقات ابن سعد ج ٤ قسم ٢ ص ٢

والاسلام، ولا يخذل احدنا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة، ولا يحول بيننا ولد ولا والد ابداً ما حيينا، فيما استطعنا. فاذا فتحت مصر فان عمراً على ارضها وامارته التي امَّره عليها امير المؤمنين. وبيننا التناصح والتوازر والتعاون على ما نابنا من الامور. ومعاوية امير على عمرو بن العاص في الناس وفي عامة الامر، حتى يجمع الله الامة فانهما يدخلان في احسن امرها، على احسن الذي بينهم في امر الله الذي بينهما من الشرط في هذه الصحيفة

رسالة هشام الى خالد بن عبد الله والي العراق

(كتبها عبد الله بن سالم ١٦٩ هـ)[1] وكان قد اوغر صدر هشام عليه افراطه في الدالة واحتجان الاموال وكفر ما اسداه اليه. قال بعد البسملة —

« اما بعد فقد بلغ امير المؤمنين عنك امر لم يحتمله لك الا لما احب من رَبِّ الصنيعة قِبَلك[2]، واستتمام معروفه عندك، وكان امير المؤمنين احق من استصلح ما فسد عليه منك. فان تعد لمثل مقالتك وما بلغ امير المؤمنين عنك رأى في معاجلتك بالعقوبة رأيه. ان النعمة اذا طالت بالعبد ممتدة ابطرته فاساء حمل الكرامة واستقل العافية، ونسب ما في يديه الى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته، فاذا نزلت به الغِيَر وانكشطت عنه عماية الغي والسلطان ذلَّ منقاداً وندم حسيراً، وتمكن منه عدوه قادراً عليه قاهراً له. ولو اراد امير المؤمنين افسادك لجمع بينك وبين مَن شهد فلتات خطلك وعظيم زللك حيث تقول لجلسائك: والله ما زادني ولاية العراق شرفا، ولا ولاّني امير المؤمنين شيئاً لم يكن مَن قبلي ممن هو دوني يلي مثله: ولعمري لو ابتليتَ ببعض مقاوم الحجاج في اهل العراق في تلك المضايق التي لقي، لعلمت

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٢٤ — ٣٢٦ (٢) اتمام الاحسان اليك

انك رجل من بجيلة، فقد خرج عليك اربعون رجلاً فغلبوك على بيت مالك وخزائنك حتى قلت أطعموني ماءً، دهشاً وبعلاً[١] وجبناً، فما استطعتهم الا بامان ثم اخفرت ذمتك (منهم رزين واصحابه). ولعمري ان لو حاول امير المؤمنين مكافأتك في خطلك بجلسك، وجحودك فضله اليك وتصغير ما انعم به عليك لحلّ العقدة ونقض الصنيعة، وردّك الى منزلة انت اهلها، كنت لذلك مستحقاً فهذا جدّك يزيد بن اسد قد حشد مع معاوية في يوم صفين، وعرّض له دينه ودمه فما اصطنع الا عنده، ولا ولاّه ما اصطنع اليك امير المؤمنين وولاك، وقبّله من اهل اليمن وبيوتاتهم من قبيله اكرم من قبيلتك، من كندة وغسان وآل ذي يزن وذي كلاع وذي رُعين في نظرائهم من بيوتات قومهم، كأُبم اكرم اوليّةً واشرف اسلافاً من آل عبد الله ابن يزيد. ثم آثرك امير المؤمنين بولاية العراق بلا بيت رفيع ولا شرف قديم، وهذه البيوتات تعلوك وتغمرك، وتسكتك وتتقدمك في المحافل والمجامع عند بدأة الامور وابواب الخلفاء. ولولا ما احب امير المؤمنين من ردّ غربك[٢]، لعاجلك بالتي كنت اهلها، وانها منك لقريب مأخذها سريع مكروهها. وان الله عزّ وجلّ لما رأى احسان امير المؤمنين اليك، وسوء قيامك بشكره قلب قلبه فاسخطه عليك، حتى قبحت امورك عنده، وآيسه من شكرك ما ظهر من كفرك النعمة عندك، فاصبحت تنتظر سقوط النعمة وزوال الكرامة وحلول الخزي، فتأهب لنوازل عقوبة الله بك فان الله عليك اوجد، ولما عملت اكره، فقد اصبحت وذنوبك عند امير المؤمنين اعظم من ان يبكّتك الا راتباً بين يديه[٣]. وعنده من يقرّرك بها ذنباً ذنباً، ويبكتك بما اتيت امراً امراً، فقد نسيته واحصاه الله عليك. ولقد كان لامير المؤمنين زاجر عنك

(١) بعلاً اي خوفاً (٢) الغرب الحدة والنشاط (٣) اي منتصباً بين يديه

فيما عرفك به من التسرع الى حماقتك في غير واحدة . والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك امير المؤمنين ما افسدت من مال الله وضيعت من امور المسلمين ، وسلطت من ولاة السوء على جميع اهل كور عملك ، تجمع اليك الدهاقين هدايا النيروز والمهرجان[1] حابساً لاكثرها رافعاً لاقلها ، مع مخابث مساويك التي قد اخّر امير المؤمنين تقريرك بها ، ومناصبتك امير المؤمنين في مولاه حسان ووكيله في ضياعه واحوازه في العراق ، واقدامك على ابنه بما اقدمت به . وسيكون لامير المؤمنين في ذلك نبأ ان لم يعفُ عنك ، ولكنه يظن ان الله طالبك بامور اتيتها ، غير تارك لتكشيفك عنها ، وحملك الاموال ناقصة عن وظائفها التي جباها عمر بن هبيرة ، وتوجيهك اخاك اسد الى خراسان مظهراً العصبية بها ، متحاملاً على هذا الحي من مضر . فاذا خلوت او توسطت ملاءً فاعرف نفسك ، وخف رواجع البغي عليك وعاجلات النقم فيك ، واعلم انّ ما بعد كتاب امير المؤمنين هذا اشدُّ عليك وافسد لك . وقِبل امير المؤمنين خلف منك كثير في احسابهم وبيوتاتهم واديانهم ، وفيهم عوض منك ، والله من وراء ذلك

---

(١) النيروز والمهرجان من اعياد الفرس وقد جرت العادة ان تقدم فيها هدايا للحكام

امثلة من العظات الاخلاقية

ويظهر فيها الميل الى الازدواج

من خطبة قطري بن الفجاءة وهي طويلة نثبت منها ما يلي [1]

«اما بعد فاني احذّركم الدنيا فانها حلوة خضِرة ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وتحبَّبت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تقوم نضرتها ، ولا تؤمن فجيعتها ، غرّارة ضرّارة ، وحائلة زائلة ، ونافدة بائدة ، اكّالة غوالة » ... الى ان يقول

« فانية فانٍ من عليها ، لا خير في شيء من زادها الا التقوى . من اقلّ منها استكثر مما يؤمِّنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ويبكي عينه . كم واثق بها قد فجعته ، وذي حلم تنبَّه اليها وقد صرعته ، وذي احتيال فيها قد خدعته ، وكم ذي ابهَّة فيها قد صيرته حقيراً ، وذي نخوة ردته ذليلا »

« حيُّها بعَرَض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام وملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجارها محروب»

وذكر الذين قالوا من اشدّ منا قوّة ثم قال —

« حُملوا الى قبورهم فلا يُدعَون ركبانا ، وانزلوا فلا يُرعَون ضيفانا ، وجعل الله لهم من الضريح اكنانا ، ومن الوحشة الوانا ، ومن الرفات جيرانا

---

(١) نهاية الارب ٧ ص ٢٥٠ — ٢٥٤ وصبح الاعشي ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٥

وهم في جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، ان اخصبوا لم يفرحوا ، وان قحطوا لم يقنطوا . جَمْعٌ وهم آحاد ، جيرة وهم أبعاد ، مثناوُون لا يزورون ولا يزارون ، حلماء قد ذهبت اضغانهم ، وجهلاء قد ماتت احقادهم ، لا يُرجى نفعهم ، ولا يخشى دفعهم » — الى ان يقول — « فاحذروا ما حذَّركم الله ، وانتفعوا بمواعظه . عصمنا الله واياكم بطاعته ، ورزقنا واياكم اداء حقه »

من حكم الاحنف بن قيس [1]

« لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد . من أَمن الزمان خانه ، ومن تعظَّم عليه اهانه . دعوا المزاح فانه يورّث الضغائن

احتملوا لمن ادلَّ عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر اليكم

اطع اخاك وان عصاك ، وصله وان جفاك

واعلم ان كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم

ما اقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الودّ .

لا تكوننَّ على الاساءة اقوى منك على الاحسان ، ولا الى البخل اسرع منك الى البذل

ولما خطب زياد بن ابيه بالبصرة قام الاحنف فقال [2] —

لله الامير ! قد قلت فاسمعت ، ووعظت فابلغت . ايها الامير انما السيف بحدّه ، والقوس بشدّه ، والرجل بمجده ، وانما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، ولن نُثني حتى نبتلي ، ولا نحمد حتى نُعطى »

---

(١) الامالي ٢ — ٢٢ (٢) نهاية الارب ٧ — ٢٣٧

خطبة ابن حمزة بالمدينة واليك نخبة منها [١]

«يا اهل المدينة اوّلكم خير اوّل . وآخركم شرّ آخر . إنكم اطعتم قوّاءكم وفقهاءكم ، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، فاصبحتم عن الحق ناكبين ، امواتاً غير احياء وما تشعرون يا اهل المدينة — يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ما اصحّ اصلكم واسقم فرعكم . كان آباؤكم اهل اليقين ، واهل المعرفة بالدين والبصائر الناقدة والقلوب الواعية ، وانتم اهل الضلالة والجهالة . استعبدتكم الدنيا فاذلّتكم ، والاماني فاضلتكم . فتح الله لكم باب الدين فافسدتموه ، واغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه . سِراعٌ الى الفتنة ، بطاء عن السنة . عميٌ عن البرهان ، صمٌ عن العرفان . عبيد الطمع ، خلفاء الجزع . نِعمَ ما ورّثكم آباؤكم لو حفظتموه ، وبئسما تورّثون ابناءكم ان تمسكوا به . نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل . كان عدد آبائكم قليلاً طيباً ، وعددكم كثير خبيث . اتبعتم الهوى فاردا كم ، واللهو فاسها كم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون ، وتعبركم فلا تعتبرون »

كلمة ابن القربة في المزاح [٢]

المزاح من ادنى منزلته الى اقصاها عشرة ابواب . المزاح اوله فرح وآخره ترح . المزاح نقائض السفهاء ، كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق ، وينفّر الرفيق ، والمزاح يبدي السرائر ، لانه يظهر المعايب ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدي الخنى . لم يجرّ المزاح خيرا ، وكثيراً

(١) مجاني الادب ٦ — ٥٠ (١) مجاني الادب ٣ — ١٢٠

ما جرّ شرًّا . الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كبيره . وليس بعد الحرب الا عفو بعد قدرة . »

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال[1] « ينشّق احدكم اخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المِرجل ، ويرميه مثل الجندل . ثم يقول : انما كنت امزح .

قول ابي الدرداء لاهل الشام[2]

« يا اهل الشام مالي اراكم تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتقولون ما لا تدركون . ان الذين كانوا قبلكم بنوا مَشيدا ، واملوا بعيدا ، وجمعوا كثيرا ، فاصبح املهم غرورا ، وجمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا »

صفة الامام العادل للحسن البصري[3]

اعلم يا امير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوامَ كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصفَة كل مظلوم ، ومَفزع كل ملهوف . والامام العدل يا امير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق ، الذي يرتاد لها اطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من اذى الحر والقر

والامام العدل يا امير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح

---

(١) مجاني الادب ٣ — ١٢٠ (٢) مجاني الادب ٢ — ٢٤

(٣) بتصرف طفيف عن نهاية الارب للنويري ٦ — ٣٧

بصلاحه وتفسد بفساده — هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم . فلا تكن يا امير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله فبدّد المال وشرّد العيال فافقر اهله وفرق ماله . واعلم يا امير المؤمنين ان الله انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا اتاها من يليها وان الله انزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا امير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة اشياعك عنده وانصارك عليه فتزوّد له ولما بعده من الفزع الاكبر . واعلم — ان لك منزلاً غير منزلك الذي انت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك احباؤك . يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه . فالآن يا امير المؤمنين وانت في مهل قبل حلول الاجل ، وانقطاع الامل ، لا تحكم يا امير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمنٍ الاً ولا ذمة فتبوءَ باوزارك واوزار مع اوزارك . وتحمل اثقالك واثقالاً مع اثقالك

الاسلوب المتوازن

او

المزدوج غير المسجَّع

وهو السائد في النثر الادبي منذ عهد عبد الحميد حتى عهد ابن العميد

اي

من اوائل القرن الهجري الثاني الى القرن الرابع

و يتناول البحث فيه

١ — النثر في اواخر العهد الاموي وصدر العهد العباسي

٢ — عبد الحميد الكاتب ورسائله

٣ — الجاحظ واسلوبه

٤ — امثلة من الاسلوب المتوازن بعد عهد الجاحظ

النثر في اواخر العصر الاموي

وصدر العصر العباسي

حاولنا فيما سبق من الفصول ان نبيّن ما كان عليه نثر صدر الاسلام ، وانه ظلّ — حتى استقرت طريقة عبد الحميد — أميل الى البساطة والايجاز . ولا ينكر انه قد كان في ذلك العهد ازدواج (او سجع) كقول الحسن البصري يردّ على من هنأه بغلام وُلد له [١] —

« نحمد الله على هبته ، ونستزيده من نعمته ، ولا مرحباً بمن ان كنت غنياً اذهلني ، وان كنت فقيراً اتعبني ، لا ارضى له بسعيي سعياً ، ولا بكدي له في الحياة كدّا ، اشفق عليه من الفاقة بعد وفاتي ، وانا في حال لا يصل اليّ من همه حزن ، ولا من فرحه سرور »

وعلى هذا النمط قول الاحنف في الولد [٢] —

« هم عماد ظهورنا ، وثمرة قلوبنا ، وقرّة اعيننا ، بهم نصول على اعدائنا وهم الخلف منّا لمن بعدنا . فكن لهم ارضاً ذليلة ، وسماءً ظليلة . ان سألوك فأعطهم ، وان استعتبوك فأعتبهم . لا تمنعهم رفدك فيملّوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك »

وقول الحسن بن علي [٣] —

« اعلموا ان الحكمة زين ، والوقار مروءة ، والصلة نعمة ، والاكثار

---

(١) الامالي ٢ — ٣١ (٢) الامالي ٢ — ٤٣ (٣) الصناعتين ٣٢

صلَف ، والعجلة سفَه ، والسفه ضعف ، والغلق ورطة ، ومجالسة اهل الدناءة شَين ، ومخالطة اهل الفسوق ريبة »

وهذا الكلام من قبيل الوعظ والحكم وقد مرّ معنا ان الازدواج والتبسط يكثران في كلام الوعاظ والحكماء من اهل الصدر الاول ، على انهما لم يكونا الطابع العام الذي وسم به كلامهم

وهنا لا بد لنا من القول ان ظهور عبد الحميد لم يحوّل النثر العربي فجأة من حال الى حال ، بل ان هذا الكاتب انما اقرّ طريقة التبسط والازدواج وطبع فن الرسائل بها ، فاخذ الاسلوبان الموجز البسيط ، والمتبسط المزدوج يتنازعان السيادة ، وبقي هذا التنازع حقبة من الزمن بدليل ما نجده من الميل الى الايجاز في صدر الدولة العباسية حتى كان جعفر بن يحيى البرمكي يقول لكتّابه « لو استطعتم ان تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا »[١] .

ومن امثلة هذا الاسلوب عند كتّاب العباسيين كتاب طاهر بن الحسين قائد المأمون الى ابي عيسى ابن الرشيد ، و كان مع الامين . قال طاهر لكتّابه اكتبوا الى ابي عيسى كتاباً تتقرّبون به اليه وتتباعدون ، ولا تطمعوه ولا تؤيسوه . فقالوا ان رأى الامير ان يعلمنا كيف ذلك ويحدّه لنا فقال اكتبوا[٢]

« بسم الله الرحمن الرحيم — حفظك الله وابقاك وامتع بك : وعزيزٌ عليّ ان اكتب الى صغير منكم او كبير[٣] بغير التأمير . وقد بلغني عنك ممالأة للمخلوع[٤] . فاذا كان ذلك منك ميلاً على امير المؤمنين فقليل

---

(١) ادب الكتاب للصولي ١٣٤ (٢) ادب الكتاب ١٥١

(٣) اي من البيت العباسي المالك (٤) اي الامين

ما اكاتبك به كثير، وان كنتَ كما قال الله — الاّ من أُكره وقلبه مطمئن الى الايمان — فالسلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته »

وعلى هذا النمط ما حدّث به عبدالله بن احمد بن يوسف عن ابيه قال[١] « دخلت على المأمون وفي يده كتاب ورد من عمرو بن مَسعدة وهو يردّد النظر فيه مرّات ، ثم قال لي اظنك قد افكرت في تردادي النظر في هذا الكتاب . قلت قد افكرت في ذلك . قال اني عجبت من بلاغته واحتياله لمراده كتب « كتابي الى امير المؤمنين اعزّه الله ومن قِبلي من قوّاده واجناده في الطاعة والانقياد على احسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت ارزاقهم واختلّت احوالهم » — ألا ترى يا احمد الى ادماجه الخلة في الاجناد واعفائه سلطانه من الاكثار »

ويروي ابن خلكان خبر الكتاب مع مقدمة للرشيد في البلاغة يقول فيها : البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى[٢]

ومثله كتاب طاهر بن الحسين الى المأمون حين لقي عيسى بن ماهان وقتله ، وارسل رأسه الى المأمون قال[٣] —

« كتابي الى امير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه ، وخاتمه في يدي، وعسكره مصرّف تحت امري والسلام »

وما كتبه محمد بن عبد الملك الزيات الى عبد الله بن طاهر . قال ابن المدبّر : امره الواثق ان يتلطف بعبد الله بن طاهر ويعلمه انه صرفه عن امر الجزائر والعواصم وفوّض ذلك لابن عمه اسحق بن ابراهيم فكتب[٤] —

---

(١) ادب الكتاب للصولي ٢٣٤ (٢) وفيات الاعيان ١ — ٥٥٧

(٣) المثل السائر ٣٢٦ (٤) الرسالة العذراء ٤٤

« اما بعد فان امير المؤمنين رأى ان يخلع ما في يمينك من امر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

ومن ذلك كتاب عبدالله بن طاهر الى الحسن بن عمر التغلبي قال[١] —

« اما بعد فانه بلغني من قطع الفسقة الطريق ما بلغني ، فلا الطريقَ تحمي ولا اللصوص تكفي ، ولا الرعية ترضي ، وتطمع بعد هذا في الزيادة ! انك لمنفسح الامل . وايم الله لتكفينَّ من قبلك او لاوجهنّ اليك رجالاً لا تعرف مرة من جشم ولا عدياً من رُهم[٢] ! ولا حول ولا قوّة الا بالله .

. . . . .

فمن هذه الامثلة وسواها يتضح لنا ان طريقة عبد الحميد لم تقض حالاً على الاسلوب القديم ، بل ظلت حقبة طويلة تسير معه جنباً الى جنبب حتى استقرّت السيادة اخيراً لها واصبحت الزي الانشائي في الاوساط الادبية . ومن مزاياها الظاهرة ما يلي —

التوازن

اي تعادل الفقرات على نحو السجع ، ويختلف عن السجع بعدم التقيد بالقوافي . ويرى البيانيون ان حسنه قائم (لحسن السجع) على ما يلي —

١ — ان تكون الفواصل على زنة واحدة كقول بعضهم[٣] « اصبر على حرّ اللقاء ، ومضض النزال ، وشدة المِصاع[٤] ، ومداومة المراس » . قال العسكري « فلو قال على حرّ الحرب ومضض المنازلة لبطل رونق التوازن »

٢ — ان لا تكون فاصلة الجزء الاول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني ، فقد عيب على احد الكتبة قوله « وصل كتابك فوصل به ما يستعبد

---

(١) عن نهاية الارب ٦ — ٤٧ (٢) مرّة وجشم وعدي ورُهم من بطون العرب
(٣) الصناعتين ٢٠٣ (٤) المصاع المجالدة

الحرّ وان كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر وان كان سالف ودّك لم يبق شيئاً منه[١] » . (فالعبودية) التي هي فاصلة الجزء الاول بعيدة عن مشاكلة (منه) التي هي فاصلة الجزء الثاني

٣ — ان تكون العبارات قصيرة متساوية، والاّ فليكن الاخير اطول من الاول

وسيجيء كل ذلك معنا في الكلام على السجع .

...

وقد يسمى هذا الاسلوب الازدواج ويسميه الرمّاني السجع العاطل[٢] . ويجعله القلقشندي في مرتبتين — « الاولى ان يراعى الوزن في جميع الكلمات او في اكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً ويسمى التوازن ، وهو احسنها واعلاها[٣] كالآية : « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم »

فكل كلمة في الجزء الاول من فعل ومفعول ونعت تقابل عديلتها في الجزء الثاني

والمرتبة الثانية ان لا يراعى التوازن الا في الكلمتين الاخيرتين كالآية — « من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا ، خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حملا »

وفي التوازن يقول ابن الاثير « وللكلام بذلك طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشياء . واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان[٤] »

---

(١) الصناعتين ٢٠٣ (٢) صبح الاعشى ٢ — ٢٧٣

(٣) صبح الاعشى ٢ — ٢٧٣ (٤) المثل السائر ١٦٩

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به اقلام المنشئين في العهد الواقع بين عبد الحميد وابن العميد ان التوازن كان الطابع العام لنثر ذلك العهد . ولا يعني ذلك اننا لا نجد شيئاً من السجع او البديع فيه، بل ان السجع والبديع لم يبلغا في تلك المدّة ما بلغاه بعدها من السيادة والتحكم في الاوساط الادبية، فلم يكونا لذلك منهجاً عاماً يتقيد به الادباء ويتجارون فيه : حتى ان العسكري وهو من اهل القرن الرابع يقول « واعلم ان الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو ان تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فان جعلتها مسجوعة كان احسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد »

ولايضاح ذلك نثبت فيما يلي قطعاً شتى لبعض من كبار المترسلين في ذلك العهد . وقد تركنا الاستشهاد باقوال الثلاثة المقدّمين فيهم وهم عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ لاننا سنعرض لهم عرضاً خاصاً في غير هذا المقام .

نماذج الاسلوب المتوازن في القرنين الثاني والثالث للهجرة

من ذلك ما كتبه عبد الله بن طاهر الى اسحق بن ابراهيم من خراسان الى بغداد ان يوجه اليه باقلام قصبية قال بعد البسملة[1] —

« اما بعد : فاننا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوشي، فحلّت محل الانساب، وجرت مجرى الالقاب ، وجدنا الاقلام القصبية اسرع في الكواغد وامرّ في الجلود ، كما ان البحرية منها اسلس في القراطيس، والين في المعاطف . ونحن في بلاد قليلة القصب، رديئة ما يوجد منها، فاحببت ان تتقدم في اختيار اقلام قصبية، وتتنوّق في انتقائها

(١) ادب الكتاب للصولي ٦٩

قِبَلك ، وطلبها من مظانّها ومراميها من شطوط الانهار ، وأرجاء الكروم ، وان تتيمّم باختيارك منها الشديدة المجسّ ، الصلبة المعضّ ، النقية الجلود ، الغليظة الشحوم ، المكتنزة الجوانب ، الضيقة الاجواف ، الرزينة الوزن ، فانها ابقى على الكتاب ، وابعد من الحفاء ، وان تقصد بانتقائك الدقاق القضبان ، اللطاف المنظر المقوّمات الاوَد ، الملس العقد ، فلا يكون فيه التواء عِوج ولا امْت[1] . وضم الصافية القشور ، الخفيفة الاتن[2] ، الحسنة الاستدارة ، الطويلة الانابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، يكاد اسفلها يهتز من اعلاها ، لاستواء رؤوسها باصولها ، المستحكمة يبسا ، القائمة على سوقها ، قد تشربت الماء في لحائها ، وانتهت في النضج منتهاها ، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان ينعها ، ولم تؤخر الى الاوقات المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء ، وعفن الانداء . فاذا استجمعت عندك امرت بقطعها ذراعاً ذراعاً قطعاً دقيقاً تتحرز معه من ان تتشعث رؤوسها ، وتنشق اطرافها ، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الاوعية وعلّيتها الخيوط الوثيقة ، ووجهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وايصالها ، اذ كان مثلها يتوانى فيه لقلة خطرها . واكتب معه بعدتها واصنافها ، واجناسها وصفاتها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا توان ولا ابطاء . ان شاء الله

فاجابه اسحق — ووجه اليه بالانابيب

اتاني كتاب الامير بما امر به ، ولخصه من البعثة اليه بما شاكل نعته ، وضاهى صفته ، من اجناس الاقلام . فتيممت بغيته قاصداً لها ، واستنهجت معالم سؤاله آخذاً بها ، فانفذت منها حزماً نشأت بلطيف السقيا ، وحسن

---

(١) الامت الانخفاض والارتفاع

(٢) كذا في الاصل ولعلها المتن

التعهد والبقيا. لم تعجل بإخداجها، ولا بودرت قبل انضاجها[١]. فهي مستوية الانابيب معتدلتها، مثقفة الكعوب مقوّمتها. لا يرى فيها امت زوَر، ولا وسم صعَر. وقد رجوت ان يجدها الامير عند ارادته، وحسب بغيته. ان شاء الله

كتاب سهل بن هرون

وهو كاتب المأمون ومن ائمة هذه الصناعة — قال[٢]

« لو ان رجلين خطبا او تحدثا، او احتجا او وصفا، وكان احدهما جميلاً بهيًّا ولبّاساً نبيلاً وذا حسب شريف، وكان الآخر قليلاً قميئاً، وباذّ الهيئة دميما، وخامل الذكر مجهولا، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي درب واحد من الصواب لتصدّع عنهما الجمع — وعامتهم يقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ويشغلهم النعجب منه عن مناوأة صاحبه — ولصار التعجب على مساواته له سبباً للتعجب به والاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه، لان النفوس كانت له احقر ومن بيانه ايأس، ومن حسده ابعد. فلما ظهر منه خلاف ما قدروه وتضاعف حسن كلامه في صدورهم، كبر في عيونهم، لان الشيء من غير معدنه اغرب وكلما كان ابعد في الوهم كان اظرف، وكلما كان اظرف كان اعجب، وكلما كان اعجب كان ابدع. وانما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين فانّ استغراب السامعين لذلك اعجب، وتعجبهم منه اكثر. والناس موكلون بتعظيم الغريب. واستظراف البديع. وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي

(١) الاخداج هنا القطف قبل الاوان (٢) صبح الاعشى ١ — ٦٨

النادر الشاذّ . وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم اليهم ، ويرحلون الى النازح عنهم ، ويتركون من هو اعم نفعاً . واكثر في وجوه العلم تصرفاً ، واخف مؤونة واكثر فائدة » .

وهذا الكلام مماثل للاسلوب الذي عرف به الجاحظ ويشبه ان يكون سهل من روّاد هذه الطريقة وان الجاحظ جاراه . وسنبحث بعد في هذا الاسلوب وفي مقام الجاحظ الانشائي وعلاقته بمن سبقوه

اسلوب الحسن ابن سهل

ويقرب من اسلوب سهل بن هرون ما نقله القالي من كلام الحسن بن سهل قال[1] — كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي — « اما بعد فاني احتجت لبعض اموري الى رجل جامع لخصال الخير ذي عفة ونزاهة طُعمة ، قد هذّبته الآداب ، واحكمته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطعون في حسبه . ان اوتمن على الاسرار قام بها ، وان قُلِّد مهماً من الامور اجزأ فيه . له سن مع ادب ولسان ، تقعده الرزانة ، ويسكنه الحلم قد فرّ عن ذكاء وفطنة ، وعض على قارحةٍ من الكمال . تكفيه اللحظة وترشده السكتة . قد ابصر خدمة الملوك واحكمها ، وقام في امورهم فحمد فيها ، له اناة الوزراء ، وصولة الامراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وامارات العلم له شاهدة ، مضطلعاً بما استنهض ، مستقلاً بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتّيك »

---

(١) الامالي ١ — ٢٥٣

اسلوب احمد بن اسمعيل

ويجري احمد بن اسمعيل هذا المجرى. ومن ترسُّله ما كتبه الى بعض الكتاب وقد نال رتبة فنقص اخوانه في الدعاء[1]

« الكبر — اعزك الله — معرض يستوي فيه النبيه ذكرا ، والخامل قدراً . ليس امامه حجاب يمنعه ، ولا حاجز يحظره . والناس اشد تحفُّظاً على الرئيس المحظوظ ، واكثر اجتلاءً لافعاله ، وتتبعاً لمعائبه ، وتصفحاً لاخلاقه ، وتنفيراً عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبأ به ، وساقط لا يُكترث له ، فيسير عيبِ الجليل يقدح فيه ، وصغير الذنب يكبر منه ، وقليل الذم يسرع اليه . والحال التي جددها الله لك ، وان كنت اراها دون حقك ، وناقصة عن همتك ، وارضاً عند سمائك ، حالٌ الحاسد عليها كثير ، وآمال المنافسين اليها تسير . والمودَّة تقتضي النصيحة ، والمِقَة تدعو الى صدق المشورة . وليس يحرس النعمة ويحوطها ، ويحسم الاطماع ويصرفها ، الاَّ ترك ما اراك تستعمله في ترتيب المكاتبة ، وتمييز المخاطبة ، والمحاضة[2] في الفاظ الدعاء ، والبخل بيسير الثناء ، وتطبيق[3] اخوانك ومعامليك في ذلك ، حتى صار عندك كانه نسب لا تتعداه ، ونعت لهم لا تتخطاه . فاما اخوانك فليس من حقك ان تحطهم حال رفعتك ، وان تنقصهم دولة زادتك ، كما ليس من حقك عليهم ان يغالطوك فيمسكوا عن خطابك ، ويتحاموا عن عتابك »

. . . . .

ومما يمثل الاسلوب الكتابي في صدر الدولة العباسية ما كتبه ابراهيم بن العباس الصولي عن الخليفة المتوكل الى اهل حمص وكانوا قد وثبوا

---

(١) ادب الكتاب ص ١٥٥ و ١٥٦ (٢) كذا في الاصل (٣) اي اصابتهم

بعاملها فاخرجوه ، ثم وثبوا بعامل آخر ، فامره المتوكل ان يكتب اليهم كتاباً يحذّرهم فيه ويختصر ، فكتب[١] —

« اما بعد فان امير المؤمنين يرى حق الله تعالى فيما قوّم به من أود ، او عدّل من زيغ ، او لمّ به من شعث ، ثلاثاً يقدّم بعضهنّ امام بعض . فأولاهنّ ما يستظهر به من عظة وحجّة ، ثم ما يشفعه به من تحذير وتنبيه ، ثم التي لا ينفع حسم الداء غيرها

اناةٌ فان لم تُغن عقّب بعدها وعيدٌ فان لم يجدِ أَجدتْ عزائمه »

وعن اسحق بن ابراهيم الموصلي قال وصف رجل رجلاً فقال[٢]

« كان والله سمحاً سمحاً ، بيرٌ سهلا ، بينه وبين القلب نسب ، وبين الحياة سبب ، انما هو عيادة مريض ، وتحفة قادم ، وواسطة قلادة »

كتاب عن المعتصم الى ملوك الافاق من المسلمين

عند قبض الافشين على بابك . وهو طويل ننقل منه ما يلي[٣] —

« والحمد لله الذي توجّه لامير المؤمنين بصنعه ، فيسّر له امره ، وصدق له ظنه ، وانجح له طلبته ، وانفذ له حيلته ، وبلغ له محبته ، وادرك المسلمون بثأرهم على يده ، وقتل عدوّهم ، واسكن روعتهم ، ورحم فاقتهم ، وآنس وحشتهم ، فاصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين في ديارهم ، متمكنين في اوطانهم بعد القتل والخوف ، والتشريد وطول العناء ، وتتابع البلاء

فاما اللعين بابك وكفرته ، فانهم كانوا يَغزُون اكثر مما يُغزَون ،

---

(١) راجع ذلك في صبح الاعشى ٦ — ٣٠٨

(٢) راجع الامالي بولاق ١ — ٢٥٤

(٣) راجع نصه الكامل في صبح الاعشى ٦ ص ٤٠٠ — ٤٠٤

وينالون اكثر مما يُنال منهم ، ومنهم المنحرفون عن الموادعة ، المتوحشون عن المراسلة ، ومن أُديلوا من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبةً تدركهم ، ولا دائرة تدور عليهم . وكان مما وطّأ ذلك ومكّنه لهم انهم قوم ابتدؤا امرهم على حال تشاغلِ السلطان ، وتتابعٍ من الفتن ، واضطراب من الحبل ، فاستقبلوا امرهم بعزّة من انفسهم ، وضعف ممن باراهم ، فأجلوا من حولهم لتخلص البلاد لهم ، ثم اخربوا البلاد ليعزّ مطلبهم ، وتشتد المؤونة وتعظم الكلفة ، ويقووا في ذات ايديهم ، فلم يتوافَ اليهم قوّاد السلطان الا وقد توافت اليهم القوة من كل جانب ، فاستفحل امرهم ، وعظمت شوكتهم ، واشتدت ضروراتهم واستجمع لهم كيدهم ، وكثر عددهم واعتدادهم ، وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم ، وتحقق في نفوسهم ان كل ما يعدهم الكافر ويمنّيهم اخذٌ باليد . وكان الذي بقي عندهم منه كالذي مضى ، وبدون هذا ما يُختدع الاريب ويُستنزل العاقل ويُعتقل الفطِن ، فكيف بمن لافكرة له ولا رويّة عنده ؟

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم ، سلّطهم الله عليهم كيدٍ واحدة ، يختطفونهم بسيوفهم ، وينتظمونهم برماحهم ، فلا يجدون ملجأ ولا مهربا ، ثم امكنهم من اهاليهم واولادهم ، ونسائهم وحرمهم ، وصيروا الدار دارهم ، والمحلّة محلتهم ، والاموال قسماً بينهم ، والاهل اماء وعبيداً . وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء واعطاهم من الرحمة والثواب ، وما اعد لاولئك من الخزي والعقاب ، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتل فسلم من ذل الغلبة ، ولا فيمن نجا فعاين في الحياة بعض العِوض ، ولا فيمن أُصيب فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى اطلقه وسد مذاهبه وتركه ملدّداً بين الذل والخوف ، والغصّة والحسرة ، حتى اذا ذاق طعم

دلك كله وفهمه ، وعرف موقع المصيبة ، وظن مع ذلك كله انه على طريق من النجاة ، فاضرب الله وجهه ، واعمى بصره ، وسد سبيله ، واخذ بسمعه وبصره ، وحازه الى من لا يرقُّ له ، ولا يرثي لمصرعه ، فامتثل ما امر به الافشين (حيدر بن كاوس) مولى امير المؤمنين في امره ، فبث له الحبائل ووضع عليه الارصاد ، ونصب له الاشراك حتى اظفره الله به اسيراً ذليلاً موثقاً في الحديد ، يراه في تلك الحالة من كان يراه ربًّا ، ويرى الدائرة عليه من كان يظن انها ستكون له . فالحمد لله الذي اعزّ دينه ، واظهر حجته ، ونصر اولياءه واهلك اعداءه ، حمداً يقضي به الحق ، وتتم به النعمة ، وتتصل به الزيادة . والحمد لله الذي فتح على امير المؤمنين وحقق ظنه ، وانجح سعيه وحاز له اجر هذا الفتح وذُخره وشرفه ، وجعله خالصاً لتمامه وكماله باكمل الصنع واحسن الكفاية ، ولم يرَ بؤساً فيه مايقذي عينه ، ولا خلا من سرور يراه ، وبشارة تتجدد له عنه ، فما يدري امير المؤمنين ما متّع فيه من الامل او ما خُتم له من الظفر ، فالحمد لله اولاً ! والحمد لله آخراً ! والحمد لله على عطاياه التي لا تحصى ، ونعمه التي لا تنسى ، ان شاء الله تعالى .

من رسائل ابن المعتز [1]

لا يزال الإخوان يسافرون في المودَّة ، حتى يبلغوا الشقة ، فاذا بلغوها القوا عصا التسيار ، واطمأنت بهم الدار ، واقبلت وفود النصائح ، وامنت خبايا الضمائر ، فحلوا عقد التحفظ ، ونزعوا ملابس التخلق

وله

سار فلان في جيوش عليهم اردية السيوف ، واقمصة الحديد ، وكأن

(١) راجع زهر الاداب للحصري ج ١ ص ١٦٥ و ١٦٦ .

رماحهم قرون الوعول ، وكأنّ دروعهم زبد السيول ، على خيول تأكل الارض بحوافرها ، وتمدُّ بالنقع سرادقها ، قد نشرت في وجوهها غررٌ كانها صحائف الرق ، وامسكها تحجيل كانه أسورة اللجين ، وقُرّطت عذُراً كانها الشنف ، تتلقف الاعداء اوائله ولم تنهض اواخره ، قد صُبَّ عليهم وقار الصبر ، وهبَّت معهم ريح النصر ،

وكتب الى عبد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد :

اخَّرتني العلة عن الوزير اعزّه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني ، ويعمر ما اخلته العوائق مني ، وانا اسأل الله تعالى ان يجعل هذا العيد اعظم الاعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الاعياد المستقبلة فيما يحبُّ ويُحب له ، ويقبل ما توسل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه ، على الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ، ولباس العافية ، ولا يريه في مسرة نقصاً ، ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلني من كل سوء فداه ، ويصرف عيون الغير عنه وعن حظي منه

وله في البلاغة والقرآن [1]

البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول ، ومجلّي الشبهة ، وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرّق بين الشك واليقين ، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المستصعَب ، واستقام الأُصيدَ [2] وبهت الكافر ، وسلم الممتنع ، حتى اشِبَ الحق بانصاره [3] وخُلّي ربع الباطل من عماره ، وخير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ، ليسرع الى الفهم تلقّيه ، وموجزاً ليخف على اللفظ تعاطيه ، وفضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ،

(١) زهر الآداب ١ — ٩١ (٢) الأصيد المائل العنق كبراً (٣) أشب تجمع وقوي

وظاهر غير خفي ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ، ورهن المتكلفين ، وتحيُّر الكذابين ، وهو المبلّغ الذي لا يملّ ، والجديد الذي لا يخلُق[1] ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحي لظلم الضلال ، ولسان الصدق النافي للكذب ، ونذير قدّمته الرحمة قبل الهلاك ، وناعي الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلّدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة . ان اوجز كان كافيا ، وان اكثر كان مذكرا ، وان اومأ كان مقنعا ، وان اطال كان مفهما ، وان امر فناصحا ، وان حكم فعادلا ، وان اخبر فصادقا ، وان بيّن فشافيا ، سهل على الفهم ، صعب على المتعاطي ، قريب المأخذ ، بعيد المرام ، سراج تستضيء به القلوب ، حلو اذا تذوّقته العقول ، بحر العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم ، ونزهة المتوسمين ، وروح قلوب المؤمنين

وقد يصل به الازدواج الى السجع كقوله وهو من باب العظات[2]

وعد الدنيا الى خُلف ، وبقاؤها الى تَلف ، وبعد عطائها المنع ، وبعد امانها الفجع ، طوّاحة طرّاحة ، آسية جرّاحة ، كم راقد في ظلها قد ايقظته ، وواثق بها قد خانته ، حتى يلفظ نفسه ، ويودّع دنياه ، ويسكن رمسه ، وينقطع عن اهله ، ويشرف على عمله ، وقد رجح الموت بحياته ، ونقص قوى حركاته ، وطمس البلى جمال بهجته ، وقطع نظام صورته ، وصار نُخطٍ من رماد تحت صفائح انضاد . وقد اسلمه الاحباب ، وافترش التراب ، في بيت قد نجرته المعاول ، وفرشت فيه الجنادل . ما زال مضطرباً في اهله حتى استقر في اجله ، ومحت الايام ذكره ، واعتادت الالحاظ فقره

---

(١) زهر الاداب ١ — ١٥٨ (٢) لا يخلق لا يبلى

قلنا ان النثر العربي في هذا الطور يمتاز بميله الى التوازن . ونزيد على ذلك ان الكتّاب كانوا خلافاً لاهل اللغة ورواة الادب القديم يعنون برقة الالفاظ ودماثتها فاحدثوا في النثر العربي من اللين والرشاقة ما لفت نظر الادباء حتى قال الجاحظ « ما رأيت امثل طريقة من هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعِّراً حوشياً ولا ساقطاً سوقياً[١] » . وقد جاراه ابن الاثير فقال « ان ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار الفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منه فلم يستعملوه[٢] » . ومثل ذلك قول عبد الرحيم بن شيث القرشي « وا كثر المطبوعين يميلون الى الكياسة وهو لعمري حقيق بالميل اليه لبعده عن الكلفة[٣] »

الرسالة العذراء

ولابن المدبر رسالة تسمى العذراء « في موازين البلاغة وادوات الكتابة[٤] » حاول فيها ان يبين اصول البلاغة في كتابة الدواوين . وهي تقع في نحو ٥٠ صفحة ومعظمها من الاسلوب المتوازن كقوله في فضيلة الخط « ومن فضيلة الخط انه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الارادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحي الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومحادثة الاخلاّء على التنائي ، وانس الاخوان عند الفرقة ، ومستودع الاسرار ، وديوان الامور ، وترجمان القلوب ، والمعبر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، ومورث الآخر مكارم الاول ، والناقل اليه مآثر الماضي ،

---

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ١٢٨ (٢) المثل السائر ٤٠

(٣) معالم الكتابة ٧٤ (٤) راجع المقتبس مج ٤ وقد نشرها حديثاً الدكتور زكي مبارك (مصر ١٩٣١)

والمخلِّد له حكمته وعلمه ، والمسامر للعين بسرّ القلب، والمخاطب عن الناصت ، والمجادل عن الساكت ، والمفصح عن الابكم ، والمتكلم عن الاخرس ، الذي تشهد له آثاره بفضائله ، واخباره بمناقبه »

. . . .

تتناول الرسالة ما يجب على الكاتب ممارسته ومعرفته من اصول الكتابة وادواتها واحوال المكتوب اليهم وما الى ذلك من مطالبها . وفيها بحث في البلاغة مداره على التفنن في استعمال الالفاظ والمعاني . واهم ما في ذلك تخيُّر الالفاظ المناسبة للمقام، وانه يجب ان تكون رائعة سهلة المخرج غير حوشية او متكلفة او سخيفة ومما جاء فيها من ذلك قوله[1] —

« فاجعل هذا الاصل ميزاناً تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك ، ولا تخاطبن خاصاً بكلام عام ، ولا عاماً بكلام خاص . فمتى خاطبت احداً بغير ما يشاكله فقد اجريت الكلام بغير مجراه وكشفته . فلا تخرجنّ كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها ، ومواردها ومصادرها ، وتجنّب ما قدرت الالفاظ الوحشية ، وارتفع عن الالفاظ السخيفة ، واقتضب كلاماً بين الكلامين » وقال خالد بن صفوان[2] : ابلغ الكلام ما لا يحتاج الى كلام ، واحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب ، ولا القروي المخدج ، الذي صحت مبانيه ، وحسنت معانيه ، ودار على السن القائلين ، وخفَّ على آذان السامعين ويزداد حسناً على مرّ السنين ، بتجلية الرواة وتنقية السراة »

ومما جاء فيها[3] —

ولا يستحق (الكلام) اسم البلاغة . حتى يسابق معناه لفظَه ولفظُه معناه ، ويكون اللفظ اسبق الى الاسماع من معناه الى القلوب »

---

(١) الرسالة ٣٥ (٢) الرسالة ٣٥ (٣) الرسالة ٣٩

والمعاني وان كانت كامنة في الصدور فانها مصوَّرة فيها ، ومتصلة بها ، وهي كاللآلئ المنظومة في اصدافها ، والنار المخبوءة في احجارها ، فان اظهرته من اكنانه واصدافه تبيَّن حسنه ، وان قدحت النار من مكانها واحجارها انتفعت بها ، والا بقيتْ محجوبة مستورة . وانما يستثار الكامن منها ، ويستخرج المستسِرّ من جواهرها ، بقدر حذق المستنبط ، وصواب حركات المستخرج ، وقصد اشارته ، ولطف مذاهبه . وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب اشارته . وكلما كان الكلام افصح ، والبيان اوضح ، كان ادل على حسن وجه المعنى .

وقد شبَّهوا المعنى الخفي بالروح الخفي ، واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متَّسقاً »

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

واسلوبه

توطئة تاريخية — منشأه

يؤخذ من اقوال المؤرخين ان عبد الحميد فارسي الاصل . قال الاصطخري في عرض كلامه عن بلاد فارس[١] « واما من يصلح من الفرس للدواوين من الكتاب والعمال والادباء فانّ منهم عبد الحميد بن يحيى . وكان له في بني امية ولاء ينسب اليهم ، وكان من كتابته واستقلاله ما اغنى عن ذكره واشتهاره » . وينسبه ابن خلكان فيقول[٢] « ابو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لُؤي » ويعيّن الطبري اسم وليّه اذ يقول[٣] « وكتب لمروان عبد الحميد مولى العلاء بن وهب العامري » .

ويرجحون انه شامي المنشأ . فابن النديم يقول انه من اهل الشام[٤] وعلى ذلك زيدان[٥] . ولم يرد لذلك ذكر في اليعقوبي او الطبري والمسعودي واما ابن خلكان فغير صريح في امر منشأه ففي اول ترجمته له يتابع ابن النديم ثم يتناسى ذلك ويقول « وكان من اهل الانبار وسكن الرقة » .

---

(١) مسالك الممالك ١٤٥ (٢) وفيات الاعيان ١ — ٤٣٥ (٣) الطبري الجملة الثانية ٨٣٩ (٤) الفهرست ١١٧ (٥) تاريخ اداب اللغة ١ — ٣١٥

ولا نعلم عمن استقى ابن خلكان روايته هذه ولكننا لا نرى صعوبة في التوفيق بينها وبين ما ذكره ابن النديم بقولنا — وهو ما نرجحه — ان اصله فارسي من الانبار ثم انتقل به ذووه الى الرقة فالشام وهنا نشأ ونبغ

الديوان الذي خدمه

يقول ابن عبد ربه ان عبد الحميد — ويسميه عبد الحميد الاكبر — كتب لعبد الملك بن مروان ثم ليزيد ابنه وانه لم يزل كاتباً لبني امية الى ايام مروان بن محمد وانقضاء دولة بني امية[1]. وفي رواية ابن عبد ربه شيء من الارتباك فانه يذكر الخلفاء الذين بين عبد الملك وبين مروان ويذكر كتّابهم — كجناح كاتب الوليد، وعبد الحميد الاصغر كاتب سليمان، والليث بن رقية كاتب عمر بن عبد العزيز — ثم يعود الى عبد الحميد الاكبر في ايام يزيد وما بعده. اما غيره من الادباء والمؤرخين فيذهبون الى انه كان كاتب مروان مختصاً به والارجح انه تخرّج في الكتابة على يد سالم مولى هشام بن عبد الملك، ثم التحق بمروان ايام ولايته على ارمينيا. ولما صار مروان خليفة انتقل معه الى الشام وفي سبيله مات

وكل المصادر تصفه بكرم النفس والمروءة وحسن الرأي ولهم في ذلك حكايات فلتراجع[2]

---

(١) العقد ٢ — ٢٠٦ (٢) لتحقق ذلك راجع خبره مع مروان وابن المقفع في وفيات الاعيان ١ — ٤٣٥ و ٤٣٦ وفي الطبري الجملة الثالثة ص ٢٦ والمسعودي ٦ — ٨١

منزلته الادبية

اجمع المؤرخون على انه صاحب طريقة جديدة في الانشاء العربي . قال الطبري « وكان عبد الحميد بن يحيى من البلاغة في مكان مكين[١] » . وقال المسعودي « صاحب الرسائل والبلاغات وهو اول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده[٢] » وقال ابن النديم « وعنه اخذ المترسّلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهّل سبل البلاغة في الترسل[٣] » . وقد سبقهما ابن عبد ربه الى ذلك اذ قال « وكان عبد الحميد اول من فتق اكمام البلاغة وسهّل طرقها وفكّ رقاب الشعر[٤] » وعلى هذا الغرار جرى ابن خلكان ولكنه نقل ما قاله المسعودي فلا لزوم لاعادته .

على ان ابا هلال العسكري يأتينا بشيء جديد فيقول « ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة اخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى . ألا ترى ان عبد الحميد الكاتب استخرج امثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوّلها الى اللسان العربي[٥]

فمؤرخو الادب منذ القرن الثالث مجمعون على ان الرجل ذو طريقة في الانشاء، ويذهب بعضهم الى ان هذه الطريقة فارسية الاصل . فما هذه الطريقة

---

(١) الجملة الثانية ٨٣٩ (٢) مروج الذهب ٦ — ٨١ (٣) الفهرست ١١٧
(٤) العقد ٢ — ٢٠٦ (٥) الصناعتين ٥١ . ومما تحسن الاشارة اليه انه في نسخة اخرى من نفس الطبعة (الاستانة ١٣٢٠) تجد عبد الله بن المقفع بدل عبد الحميد ولعله خطأ تدورك على آلة الطبع

وهل هي فارسية لا تمتّ بقرابة الى النثر العربي القديم ؟ . ذلك ما نحاول الجواب عليه الان فنقول —

عاصر عبد الحميد كاتب آخر لا يقل شهرة ومكانة عنه ، وهو عبدالله ابن المقفع . وقد عرف ابن المقفع بشدة اتصاله بالادب الفارسي وكثرة نقله عنه وقد شهد له بذلك ابن النديم فقال « وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة وأحد النقلة في فن اللسان الفارسي الى العربي ، مضطلعاً باللغتين ، فصيحاً بهما [1] » . وعليه فقد كان الاولى ان يكون هو صاحب الرسوم الفارسية في الانشاء العربي ومع ذلك لم يذكر بها كما ذكر عبد الحميد . ونرجح ان ذلك ناشئ عما رأوه من الفرق في اسلوبيهما . فابن المقفع يميل في كتابته الى ارسال الكلام دون ان يتقيد بازدواج او توازن ، فلا يخرج بذلك عن الاسلوب العام في القرن الاول كما بيّنا سابقاً . واما عبد الحميد ففي طريقته يجري مجرى الازدواج والتبسط وبذلك يخرج عن مجرى الانشاء العام لعهده . واليك قطعتين لهما في معنى واحد نعرضهما للمقابلة :

قال عبد الله [2] —

«اعرف اهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة فيكونوا اهم اخوانك واعوانك وبطانتك وثقاتك ، ولا يُقذفنّ في رُوعك انك ان استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك ، فانك لست تريد الرأي للافتخار به ولكن تريد للانتفاع به . ولو انك مع ذلك اردت الذكر كان احسن الذكرين وافضلهما عند اهل الفضل ان يقال لا يتفرّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي

انك ان تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يدرك ، وما حاجتك

(١) الفهرست ١١٨ (٢) ننقل قوله من الدرة اليتيمة ١٩ و٢٠ و ٥٨

الى رضى من رضاه الجور، والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه

اذا تراكمت الاعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح في مدافعتها والروغان منها فانه لا راحة لك الا في اصدارها، وان الصبر عليها هو يخفّها، وان الضجر منها هو يراكمها عليك. فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض اصحاب الاعمال ان الرجل يكون في امر من امره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخير فيكدّر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يحكم واحداً . منها فان ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الامور ثم اختر اولى الامرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر اذا اعملت الرأي معمله، وجعلت شغلك في حقه »

وقال عبد الحميد بهذا المعنى (٢)

« ثمّ لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرّك، اهل الفِقه والورع من خاصة اهل بيتك، وعامة قوّادك، ممن قد حنّكته السنّ بتصاريف الامور، وخبطته فصالها بين فراسن البُزّل منها، وقلّبته الامور في فنونها، وركب اطوارها، عارفاً بمحاسن الامور، ومواضع الرأي وعين المشورة، مامون النصيحة، منطوي الضمير على الطاعة . ثمّ أحضِرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة، واستئناساً يعطف اليك منهم المودّة، ولا يغلبنّ عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقتطعك دون الفكر . وتعلّم انك — وان خلوت بسرّ فالقيت دونه ستورك، واغلقت

(١) صبح الاعشى ١ — ٢٠٠

عليه ابوابك — فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك ، وان استترت بريبًا ولعلّ ، وما أرى اذاعة ذلك . »

« اياك وان يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، او تضجّر ممن حضرك ، وعليك بالتثبّت عند سورة الغضب ، وحميّة الانف ، وملال الصبر في الامر لتستعجل به ، والعمل تأمر بانفاده ، فان ذلك سُخف شائن ، وخفة مُردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله »

فمن مقابلة هاتين القطعتين يتضح لك ان اسلوب عبد الحميد اكثر ميلاً الى التوازن . فهل التوازن هو الرسم الذي اخذه عن الفُرس حتى قيل فيه ما قيل ؟ يجوز ذلك اذا صح امران : ١ً — اذا كان التوازن هو اسلوب النثر الفارسي العام ايام عبد الحميد او ما قبله ٢ً — اذا كان التوازن غير معروف في النثر العربي القديم . اما الاول فليس لدينا من النصوص الفارسية القديمة ما يحملنا على القول به ، وليس فيما ذكره مؤرخو الادب الفارسي ما يشعر بوجوده

واما الثاني فغير صحيح ، لان التوازن بل الازدواج موجود في النثر العربي منذ اقدم ازمانه . فهو كثير في القرآن وفي ما روي من اقوال الجاهلية وكثير في الادب الاخلاقي في العصرين الراشدي والاموي . فعبد الحميد لم ينقل رسمه عن الفارسية ولكنه اتخذه اسلوباً عاماً لرسائله فجعله بذلك طريقة انشائية مقررة . واما الذي نقله عن الفارسية مما لم يكن شائعاً في الترسل العربي سابقاً فهو التحميدات الطويلة والتبسط في عرض الفكر . وقد اصاب الاستاذ محمد كرد علي اذ قال يصف رسائله[1]

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي مج ٩ ص ٦٠٠

« واكثر ما بدا في تضاعيفها الاطالة في غير ما املال من سجع وترصيع ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة فيما بلغنا مألوفة في عامة دور الامويين ، لان هؤلاء عرب اقحاح ، وكتّابهم على شاكلتهم يحاولون بالايجاز في مكتوباتهم ان يتركوا للقارئ شيئاً من المعاني يفسرها بما يريد »

ثم يقول :

« ومن المحقق ان عبد الحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة ، لا سيما الفرس ممن لم تكن حضارتهم ابتدائية كالعرب ، بل فيها المطوّل المسهب ، والمتشعّب المتعب . ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك الى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لبس ولا اشكال . ومن مواجب الحضارة الاسهاب ، ومن دواعي البداوة الاقتضاب . فعبد الحميد اذن تشبّع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في ايامه اعلى قممها ، ورسم ببراعته صورة ما احاط به واقتضاه الحال » . — الى ان يقول —

« فهو مخترع طريقة ، وكاتبٌ وصّاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة فعُدَّ امير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا اسلوبه المعجب المطرب »

رسائل عبد الحميد واسلوبه

يظهر مما ذكره الذين ترجموا له انه ترك رسائل كثيرة . قال ابن النديم ولرسائله مجموع في نحو الف ورقة[1] . ولم تصلنا جميع رسائله ولكن مما وصلنا نستدل ان له فيها القصير والطويل . واسلوبه العام هو الاسلوب

(١) الفهرست ١١٧

المتوازن، وقد يندفع في بعض حماساته فيسلك سبيل السجع، كقوله الى بعض من خرج عن الطاعة[١] —

اما بعد: بلغني كتابك تذكر انك تحمل المرُد على الجرُد، فسترد عليك جنود الله المقرّبون، واولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كانها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال تختضب بالجريال[٢]، رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم الا كلِب محارب، ولا ينكلون عن الاصحاب. قد ضُروا بضرب الهام، واعتادوا الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هِينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف ويخالطون الزحوف، في اعنّتهم الحتوف، يزأرون زئير الاسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم الا شاكٍ محتبك، في الحرب مجرّب، قد شرب على ناجذ[٣] الحرب واكل، ذو شقشقة وكلكل[٤]، كانما أُشرب وجهه نقيع الحنّاء، قد رِئمَ الحرب ورضعها، وغذّته والفها، فهي امه وهو ابنها، يسكن اليها ويأنس بقربها، فهو بطلبها أَرِب، وعلى اهلها حرِب[٥]، لا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان، حين يشتد الوغى، وتخطر القنا، وتقلص الشفاه، وتسفر الكماة، فعند ذلك تسلك المرد، وتُكشَف عن الجرد. فتأهَّب لذلك أُهبتك، واخطب له خطبتك، من المساكين والحوَكة، ثم كيدوني جميعاً فلا تُنظرون، فما اسرَنا اكثارُك الجموع، وحشدك الخيول فانك لا تكثّف جمعاً، ولا تسرّب خيلا، الا وثقنا بانْ سيمدّنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نصره، بما قد جرت به سنّته، وسلفت به عادته،

---

(١) صبح الاعشى ٨ — ٢٦٨ (٢) الجريال صبغ احمر ويراد به هنا الدم
(٣) ناجذ · سنّ (٤) الكلكل صدر البعير والشقشقة هديره وهو كناية عن شدة الوطأة (٥) ارب ماهر · وحرب شديد

ويقترن التوازن في رسائله عموماً بما يلي :

١ — الاطناب والتبسُّط

٢ — كثرة العطف والترادف

٣ — رشاقة الالفاظ

٤ — عدم تكلُّف السجع والبديع

وسنشرح ذلك في كلامنا على رسائله : وأهمُّها اثنتان — رسالته الى الكتَّاب ، ورسالته الى عبد الله بن مروان واليك شيئاً عنهما :

رسالته الى الكتاب

تقع في نحو اربع صفحات من كتاب صبح الاعشى[١] . وهي مجموعة وصايا بليغة يوصي بها الكتاب ، وتدور على ما يجب على الكاتب معرفته وممارسته من آداب الكتابة ، وحسن العشرة ولزوم التعاون ، والاتِّصاف بالاخلاق الحميدة . وقد اصبحت هذه الرسالة نموذجاً للآداب الكتابية . قال القلقشندي « اصل هذه الآداب التي ترجع اليه وينبوعها الذي تفجَّرت منه رسالة عبد الحميد الكاتب التي كتبها الى الكتاب يوصيهم فيها[٢] » . وقد كانت الكتابة صناعة يرتزق بها وكان ارباب طبقة خاصة تربطهم روابط الفن وآدابه . وفي صبح الاعشى فصول تقع في نحو ١٥ صفحة بسط فيها واضعها ما قيل في ذلك وهي حريَّة بان تراجع[٣] لبلاغتها ، ولان رسالة عبد الحميد كما قيل سالفاً اصلها وينبوعها ، وتتناول هذه الفصول حسن

---

(١) صبح الاعشى ١ ص ٨٥ — ٨٩ (٢) صبح الاعشى ١ — ٨٥

(٣) صبح الاعشى ١ ص ٦٩ — ٨٤

السيرة وشرف المذهب وعشرة الملوك والعظماء ومعاملة الاكفاء والنظراء .

ومن امثلة ذلك ما قيل في باب عشرة السلطان —

« فان من شروط هذه الخدمة ان يتصرّف صاحبها في كل ما يصرّف فيه ، ويسرع الانقياد الى كل ما يدعى اليه ، ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر على ما يوليه من العوارف فان مثل ذلك يستثقل »

ومنها : « ان لا يحضر سلطانَه في ملابسه التي جرت العادة ان ينفرد بها كالوشي ونحوه ، الاّ ان يكون هو الذي يشرفه بها ، وان يقتصد في لباسه فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة ، ويصرف عنايته الى التنظف والتعطُّر ، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره ، حتى لا تقع عين رئيسه على دنس في اثوابه ، ولا يجد منه كريه رائحة في حال دنوه منه ويواصل استعمال الطيب والبخور الفائق والتضمخ بالمسك ، فان الملوك ترى ان من اغفل تعهُّد نفسه كان لغيرها اشد اغفالا »

ومنها : « ان يتجنب التفاصح والتعمق في مخاطبة رئيسه ، والافتخار عليه بالبلاغة والبيان : لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام . بل يجعل ما يلقيه اليه ضمن الفاظ تدل على معانيها بسهولة مع غضٍّ من صوته ، وخفض من طرفه ، وسكون من اعضائه : لانه انما يتسامح بالاتيان بالفصاحة والذهاب بمذهب الجزالة للخطباء الذين يثنون على الملوك في المواقف العامة ضرورة احتياجهم الى استعمال الفاظ تقع في الاسماع احسن المواقع »

ومنها ما ورد في باب عشرة الاكفاء والاتباع :

« وهم وان كانوا اصحاب الكاتب ومرؤوسيه واتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم ، ومعاشرتهم داخلة في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بمحاسن الافعال ومكارم الشيم »

ثم قال بعد ذلك : « وينبغي ان يخصّهم بالنصيب الاوفر من اكرامه ، والقسم الاغزر من ملاحظته واهتمامه ، ويفرض لهم من التقديم والاختصاص وتفقُّد الاحوال والشؤون ، والذي ينتهي اليه امل المرؤوس من الرئيس : ليجعل خدمتهم له بذلك خدمة ثِقةٍ ومودة ، لا خدمة خوف ورهبة ، وان يجب خدمته اليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ، وانالتهم من الترفيه في بعض الاوقات مايجدون به السبيل الى الاخذ بنصيبٍ من لذاتهم واوطارهم التي تميل النفوس اليها ، وتتهافت عليها ، فانهم متى لحقهم التعب والنصب ، اعترضهم الضجر والملال ، فقصروا في الاعمال ، وتهاونوا بالاشغال ، فلا بدّ لهم من راحة تصفو بها اذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم في مواصلة الراحة والاخلال بما يلزمهم ، فان ذلك يحمل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه ان يحفظ لهم حقوق الصحبة والخدمة وبوجدهم من الاعانة ما فيه صلاح حالهم ، فانه يستعبدهم بذلك ويستخلص مودتهم اذ القلوب مجبولة على حب من احسن اليها »

اما رسالة عبد الحميد فيبدأها بمخاطبة الكتاب وتبيان شرف صناعتهم فيقول —

« اما بعد ، حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وارشدكم ! فان الله عزوجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم اجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين اصنافاً ، وان كانوا في الحقيقة سواءً ، وصرّفهم في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات الى اسباب معايشهم ، وابواب ارزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل الادب ، والمروءة ، والعلم ، والرواية . بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم امورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم . لا يستغني

الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ الا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون ، وايديهم التي بها يبطشون . فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم ! »

ثم يحضُّهم على الخير والمروءة وحسن النظر في الامور — فيقول

«وليس احد احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم ايها الكتاب ، اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمّات اموره ان يكون حليماً في موضع الحلم ، فهيماً في موضع الحكم ، ومقداماً في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، مؤثراً للعفاف ، والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفيًّا عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل ، ويضع الامور مواضعها ، والطوارق اما كنها . قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه ، فان لم يحكمه اخذ منه بمقدار يكتفي به . يعرف بغريزة عقله ، وحسن ادبه ، وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعدّ لكل امر عدته وعتاده ، ويهيّء لكل وجه هيأته وعادته »

وينبّههم الى ما يجب اتقانه وتجنبه — فيقول:

« ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وايام العرب والعجم ، واحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، وسفساف الامور ومحاقرها ، فانها مَذلّة للرقاب ، مَفسدة للكتاب ، ونزّهوا صناعتكم عن

الدناءات ، واربؤا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات ، وايا كم والكبر والصَّلف والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابُّوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو اليق باهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم »

. . . . .

ثم يتناول ما يجب عليهم من حسن التعاون والنصيحة ولطف السياسة وبعد النظر — فيقول :

« وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه امره ، وان اقعد احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظِّموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته . وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احفظ منه على ولده واخيه . فان عرضت في الشغل محمدة فلا يُضيفها الا الى صاحبه ، وان عرضت مذمَّة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى الفِراء ، وهو لكم افسد منه لها .

فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدبير امره ، ما هو جزاء لحقه . ويصدّق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار الى ما لديه

فاستشعروا ذلكم — وفقكم الله — من انفسكم في حالة الرخاء ، والشدة ، والحرمان ، والمواساة ، والاحسان ، والسرّاء ، والضراء ، فنِعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا ولي الرجل منكم او صُيِّر

اليه من امر خلق الله وعياله امر ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فان الخلق عيال الله ، واحبهم اليه ارفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللاشراف مكرما ، وللفيء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وعن ايذائهم متخلفا ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليما ، وفي سجلات خراجه ، واستقصاء حقوقه رفيقا . واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على مايوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة ، واجمل وسيلة . وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة اخلاقها ، فان كانت رموحاً لم يهجها اذا ركبها ، وان كانت شبوباً اتقاها من قبل يديها ، وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طريقها ، فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل ادبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه او يخاف سطوته ، اولى بالرفق بصاحبه ومداراته ، وتقويم أَوَده من سائس البهيمة التي لا تُحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله في النظر ، واعملوا فيه ما امكنكم من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة ، والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم الى الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله تعالى »

. . . . .

ويأخذ من هنا بحضهم على الاعتدال وتجنب متالف السرف — فيقول :

« ولا يجاوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون امره ، قدر حقه . فانكم مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم خَدَمة لا تُحملون في خدمتكم على التقصير ، وحَفَظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير . واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم . واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فانهما يعقبان الفقر ويذلّان الرقاب ، ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب ، وارباب الآداب ، وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلّوا على موئتنَف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة ، واصدقها حجة ، واحمدها عاقبة »

. . . .

ويتقدم اليهم بتجنُّب الاكثار من الكلام والوصف بقوله

« واعلموا ان للتدبير آفة متلفة — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره . وليضرع الى الله في صلة توفيقه ، وامداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضرّ ببدنه وعقله وادبه ، فانه ان ظنّ منكم ظانٌّ ، او قال قائل ، ان الذي برز من جميل صنعته وقوّة حركته ، انما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه او مقالته الى ان يكله الله عزّ وجل الى نفسه ، فيصير منها الى غير كافٍ ، وذلك على من تأمّله غير خافٍ »

ويختم الرسالة بهذه الكلمات البليغة في التواضع وعدم الاعتداد بالنفس

« ولا يقل احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعُجب وراء ظهره ، ورأى ان صاحبه اعقل منه واحمد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على اخيه او نظيره ، وصاحبه او عشيره ، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته »

. . . .

ومن التأمل في هذه الرسالة يُستشفُّ ما في نفس صاحبها من اخلاق كريمة، ويلاحظ ان التوازن فيها مقرون برشاقة بعيدة عن التكلف الصناعي وليس فيها من الاطناب والازدواج ما نجده في بعض رسائله الاخرى ولا سيما في رسالته الكبرى التالية :

رسالته الى عبد الله بن مروان

وقد كتبها اليه عن لسان ابيه الخليفة مروان بن محمد وكان قد ارسله لقتال الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي وذلك ١٢٩ هـ . والرسالة تقع فيما يقارب الاربعين صفحة من صفحات صبح الاعشى [1] فلا متسع لاثباتها هنا ، على اننا نلفت النظر فيما يلي الى نقاطها الرئيسية والى ما يتجلى فيها من اسلوب عبد الحميد — اما نقاطها الرئيسية فهي —

١ — وصف الخارجي واصحابه

٢ — رغبة امير المؤمنين مع علمه بمكان ولي العهد في الدين والخلق في ان يقدّم له لطائف العظات والنصائح مؤدّياً بذلك حق الله الواجب عليه في

(١) صبح الاعشى ج ١٠ ص ١٩٥ — ٢٣٣

ارشاده وقضاء حقه وما ينظر به الوالد الشفيق لولده — ومن ذلك قوله :

«وقد تقدّم امير المؤمنين اليك ، آخذاً بالحجة عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في ارشادك وقضاء حقك ، وما ينظر به الوالد المغنيُّ الشفيق لولده ، واميرُ المؤمنين يرجو ان ينزّهك الله عن كل قبيح يهشُّ له طمع ، وان يعصمك من كل مكروه حاق باحد ، وان يحصنك من كل آفة استولت على امرئٍ في دين او خلق ، وان يبلّغه فيك احسن ما لم يزل يعوّده ويريه من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك الى ذروة الشرف ، متبجحة بك بسطة الكرم ، لائحة بك في ازهر معالي الادب ، مورثة لك انفس ذخائر العزّ ، والله يستخلف عليك امير المؤمنين ويسأل حياطتك ، وان يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الارشاد فيه ، فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له الا هو »

٣ — مسالك الحكمة واخلاص تقوى الله والاعتماد عليه وقراءة كتابه والحذر من الاهواء التي هي خُدع ابليس ، وهي سبب الوهن والهلاك —

ومن قوله في ذلك :

«اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق اوائلها بمن أمّها سالكا ، وركب اخطارها قاصدا ، الى سعة عاقبتها ، وامن سرحها ، وشرف عزها ، وانها لا تُعار بسُخف الخفة ، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة »

وقوله —

«واعلم ان كل اهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك : لانها خُدع ابليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله عز وجل من شرها ، وجاهدها اذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه ، وحزم نافذ لا مثنويّة لرأيك بعد

اصداره ، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ، ومضاءة صارمة لا اناة معها ونيَّة صحيحة لا خلجة شك فيها »

الى ان يقول —

« فحاول بلوغ غاياتها محرزاً لها بسبق الطالب الى اصابة الموضع ، محصّناً اعمالك من العُجب : فانه رأس الهوى ، واول الغواية ، ومقاد الهلكة ، حارساً اخلاقك من الآفات المتصلة بمساوىء الالقاب وذميم تنابزها ، من حيث انت الغفلة ، وانتشر الضَّياع ، ودخل الوهن . فتوقَّ غلوب الآفات على عقلك فان شواهد الحق ستظهر بامارتها تصديق آرائك عند ذوي الحجا ، وحال الرأي وفحص النظر . فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدّم اليك فيه امير المؤمنين ، متحرّزاً من دخول الآفات عليك من حيث امنك ، وقلة تفقك بمحكمها »

ثم يتقدم اليه بجوامع خلال هي غاية في البلاغة

٤ — من يجب ان يكون بطانته واهل سرّه وكيف يعاملهم ويسلك معهم . ومن أهمّ ما يتصف به هنا —

ان يختارهم من اهل الورع والحنكة — ان لا يصرفه الهوى عن استشارتهم — ان يسلك امامهم مسلك الوقار والرزانة ، وضبط النفس عن الغضب ، والبعد عن المضاحك وعنفوان الحداثة والصلف والمداعبة وكثرة تحريك الجوارح ، والاقبال على اهل السعاية

٥ — « ان لا تنظر في المسائل قبل ان ترفع الى كاتبك ، وتصفّح وجوه جلسائك وتفقد مجالس قوّادك »

٦ — « لا تظهر لأحد انك بحاجة موحشة ، او انك قاصر الفهم عن تناول الامور »

٧ — « تجنب سخائف العادات والحركات (وهو بالحقيقة تابع لما ذكره قبلاً من الوقار وسكون الريح) واستكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة »

٨ — « قس بين منازل اهل الفضل وبين منازل اهل النقص وانظر بصحة ايهم تنال من مؤونة الجميل وتستجمع اقاويل العامة على التفضيل »

. . . . .

٩ — في لقاء العدو —

« حصن جندك ، واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة اعدائه ، وارجُ نصره ، وتنجزّ موعوده ، متقدّماً في طلب ثوابه على جهادهم ، معتزماً في ابتغاء الوسيلة اليه على لقائهم : فان طاعتك اياه فيهم ، ومراقبتك له ورجاءك نصره منهلٌ لك وعوره ، وعاصمك من كل سبّة ، ومنجيك من كل هوّة ، وناعشك من كل صرعة ، ومقيلك من كل كبوة ، ودارئٌ عنك كل شبهة ، ومذهب عنك لطخة كل شك ، ومقويك بكل ايد ومكيدة ، ومعزٌّك في كل معترك قتال ، وموئيدك في كل مجمع لقاء ، وكالئك عند كل فتنة مغشية ، وحائطك من كل شبهة مردية ، والله وليُّك ووليّ امير المؤمنين فيك ، والمستخلف على جندك ومن معك »

١٠ — « حاول ان تنال الظفر بحسن الحيلة دون اهراق الدماء . واعلم ان الظفر ظفران احدهما وهو اعمّ منفعةً ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة »

١١ — سياسة الجواسيس — « وأذكِ العيون على العدو متطلعاً لعلم احوالهم التي يتقلبون فيها ، ولا تبدرنّ منك فرط عقوبة الى احد من العيون بل ابسط آمالهم »

١٢ — حسن اختيار القواد والحرّاس

١٣ — حسن اختيار القضاة في العسكر

١٤ — تفويض القيادة بامر الجنود رياضة منك لهم على السمع والطاعة لامرائهم واوعز الى القواد ان لا يذللوا الجند

١٥ — تعبئة الجند للقاء العدو في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة وكيفية ذلك

١٦ — حفر الخنادق حول الجند او الحصن

١٧ — « وكّل بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً ذا ورعٍ حاجز ودين فاصل »

. . . . .

« اذا تدانى الصفان فاكثر من ذكر الله والتوكل عليه والتفويض اليه وليكن في معسكرك المكبّرون في الليل والنهار قبل المواقعة ، وقوم موقوفون يحضُّونهم على القتال ويحرّضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكّرونهم الجنة ودرجاتها ونعيم اهلها وسكانها ، ويقولون : اذكروا الله يذكركم ، واستنصروه ينصركم ، والتجئوا اليه يمنعكم . وان استطعت ان تكون انت المباشر لتعبئة جندك ، ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجال من ثقات فرسانك ذوو سنّ وتجربة ونجدة على التعبئة التي امير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك ، فافعل ان شاء الله تعالى .

« أيّدك الله بالنصر ، وغلبَ لك على القوّة ، واعانك عَلَى الرَّشد ، وعصمك من الزَّيغ ، وأوجبَ لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازلَ الاصفياء ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

مزايا الرسالة الانشائية

١ — الاطناب والتبسط

خذ القطعة التي اولها « اعلم ان للحكمة مسالك تفضي[1] » وهي سبعة اسطر في اكثر من سبعين كلمة فقد تلخص بما يلي —

اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق اوائلها الى سعة عاقبتها وقد تلقّتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، بل تأثّلت منها اكرم نبعاتها واحرزت منفس ذخائرها ، فاقتعد ما احرزت ونافس فيما اصبت

ولا يفقد الكلام بهذا التلخيص غير نخامة الاطناب . والاّ فالمعاني واحدة لم تتغير تغيراً يذكر . ومن ذلك قوله (ص ٢٠٨) في ثمانية اسطر تلخص بما يلي :

هذه جوامع خصال لخصها لك امير المؤمنين ، واهداها اليك مرشدا تخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى ، وتنل انفس الحظوظ . والله يسأل لك امير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الامل ، فانه الموفّق للخير وبيده الملك وهو على كل شيء قدير

وفي صفحة ٢٠٩ كلام يقع في نحو ١٢ سطراً ويستطاع تلخيصه في نحو اربعة او خمسة اسطر . وقل ذلك في كثير من قطع الرسالة

والتبسُّط على ما فيه من روعة وجلال ولا سيما في مثل هذا المقام يجب الاعتدال فيه ما امكن . واذا تساوت الاسباب فالايجاز ابلغ

---

(١) راجعها في صبح الاعشى ١٠ — ١٩٦ .

٢ — توازن الجمل

وهو من المزايا العامة في كلامه . فكأنه يزن عباراته وزناً تتكافأ فيه كفتا الميزان . كقوله (ص ١٩٨)

فهي واقية لك سخطة ربّك، داعية اليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك .

وقوله ص ١٩٩

من ذلك ان تملك امورك بالقصد، وتداري جندك بالاحسان، وتصون سرّك بالكتمان، وتداوي حقدك بالانصاف، وتذلل نفسك بالعدل، الخ

. . . . .

وفي الصفحة نفسها نحو ١٣ سطراً فيها نحو ١٧ عبارة على اتزان واحد . تبدأ الاولى بقوله « واناتك فوقها الملال وفوت العمل » ثم تتلوها العبارات الاخرى بين طويلة وقصيرة كلها تبدأ بالمفعول يتبعه الامر كقوله . « ومضاءتك فدرّعها روية النظر، واكنفها باناة الحلم، وخلوتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه عيّ اللفظ » . ويجري على هذا النمط فيصدّر سائر العبارات بمثل هذه الالفاظ

واستماعك — وعطاءك — وحياءك — وحلمك — وعقوبتك — وعفوك — واستئناسك — وتعهدك — وعزماتك — الى آخر الكلام — وانك لتكاد تجد ذلك عاماً في اكثر رسائله

٣ — الترادف

وهو من قبيل الاطناب كقوله (ص ٢٠١)

فاذا قُدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرّمه

وقوله (ص ١٩٧)

لانها خُدع ابليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً ،وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله عزوجل شرّها .

وقوله (ص ٢٠٠)

واياك ان يغمز فيك احد من حامّتك وبطانة خدمتك بضعفة يجد بها مساغاً الى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من لائمته ، ولا تأمن سوء الأُحدوثة فيه ، ولا يرخص سوء القالة به ان نجم ظاهراً ، او عُلن باديا

وقوله (ص ٢٠٦)

وان تريه او احداً من اهل مجلسك ان بك حاجة اليه موحشة ، او ان ليس بك عنه غنى في التدبير ، او انك لا تقضي دونه رأياً

وقوله (ص ٢٠٧)

« وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام . والترك لفضوله ، والاغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك ، من نحو اسمع وافهم عني . . . او ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة باهل العقل ، الشائنة لذوي الحجا في المنطق ، المنسوبة اليهم بالعيّ » .

. . . . .

اما ما ذكرنا لهُ من رشاقة الالفاظ وعدم تكلُّف السجع والبديع فظاهر في كلامه لا يحتاج الى اثبات او ايضاح

ترسل الجاحظ

توطئة تاريخية

ابو عثمان عمر الجاحظ شخصية بارزة في تاريخ الادب العربي . والمحققون على انه عربي من كنانة ولقّب بالجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين[١] . ولد بالبصرة سنة ١٥٠ هـ وفيها نشأ وتأدّب « وقد سمع من الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد الانصاري واخذ النحو عن الاخفش، وكان صديقه، واخذ الكلام عن النظّام وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمِربَد[٢] » . وبقي بالبصرة دهراً ثم رحل الى دار الخلافة بغداد وتصدّر مجالس الادب وكان « يثقلد خلافة ابراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل[٣] » ثم عُيّن رئيساً لذلك الديوان ولكنه لم يلبث فيه الاّ ثلاثة ايام ثم استعفى فأُعفي[٤] . ومن شهادة معاصريه ومن جاء بعده نستدل ان الرجل كان ذا منزلة ادبية عالية . ومن هذه الشهادات ما نقل عن ابي الفرج الاصبهاني في حديث له عن عبدالله بن جعفر الوكيل قال « كنت يوماً عند ابراهيم بن المدبِّر فرأيت بين يديه رقعة يردّد النظر اليها فقلت له ما شأن هذه الرقعة كأنه استعجم عليك شيء منها ؟ فقال هذه رقعة ابي عثمان الجاحظ ، وكلامه يعجبني وانا اردّده على نفسي لشدّة اعجابي[٥] »

ومن ذلك ما روي من حديث ثابت بن قرّة اذ قال[٦] « ما احسد هذه

---

(١) وفيات الاعيان ١ — ٥٥٣
(٢) معجم الادباء (ياقوت) ٦ — ٥٦
(٣) معجم الادباء (ياقوت) ٥ — ٦٢
(٤) معجم الادباء ٦ — ٥٨
(٥) معجم الادباء ٦ — ٦٧
(٦) معجم الادباء ٦ ص ٦٩ — ٧١

الامّة العربية الاّ على ثلاثة انفس اولهم عمر بن الخطاب (ويتلو ذلك وصفه) والثاني الحسن البصري (ويصفه) والثالث ابو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومِدرَه المتقدّمين والمتأخرين . ان تكلّم حكى سحبان البلاغة وان ناظر ضارع النظّام في الجدال » . الى ان يقول . . « وشيخ الادب ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة ورسائله افنان مثمرة ، ما نازعه منازع الاّ رثاه آنفا ولا تعرّض له متعرّض الاّ قدّم له التواضع استبقاءً ، الخلفاء تعرفه ، والامراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم والفطنة والعلم ، وبين الرأي والادب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلّته ووطئ الرجال عقبه ، وتهادوا اربه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أُوتي الحكمة وفصل الخطاب » .

وقال ابو الفضل ابن العميد :

« ثلاثة علوم ، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة انفس : اما الفقه فعلى ابي حنيفة ، واما الكلام فعلى ابي الهذيل ، واما البلاغة والفصاحة واللّسَن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ [1]

وقد عُرف الى كلّ ذلك بالظَّرف والمفاكهة ، واخباره في ذلك كثيرة تجدها مفصلة في معجم الادباء لياقوت وفي وفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الادباء للانباري وغيرها من كتب التراجم ، ونكتفي هنا بمثلٍ منها ننقله من معجم الادباء عن لسان رجل اندلسي قصد بغداد طالباً لقاء الجاحظ قال [2] — « خرجت لا اعرّج على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه فقيل هو بسرّ من رأى (سامرّا) فاصعدت اليها ، فقيل لي انحدر الى البصرة

(١) معجم البلدان ٦ — ٧٤ (٢) معجم البلدان ٦ — ٧٥

فانحدرت اليه وسألت عن منزله ، فأُرشدت ودخلت اليه ، فاذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحية غيره ، فدهشت فقلت ايُّكم ابو عثمان ؟ فرفع يده وحرّكها في وجهي وقال من اين ؟ قلت من الاندلس . فقال طينة حمقاء . فما الاسم ؟ قلت سلام . قال اسم كلب القرّاد — ابن من ؟ قلت ابن يزيد قال بحق ما صرت — ابو من ؟ قلت ابو خلف . قال كنية قرد زبيدة — ما جئت تطلب ؟ قلت العلم . قال ارجع بوقت فانك لا تُفلح . قلت له ما انصفتني فقد اشتملتُ على خصال اربع جفاء البلدية وبعد الشقة وغرّة الحداثة ودهشة الداخل . قال فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري ، ما كان يجب ان تعرفني بها ؟ . قال فاقمت عليه عشرين سنة »

فالجاحظ اديب فكه ، وهو فوق ذلك معتزليّ ذو طريقة خاصة في الاعتزال ، وقد طرق ابواباً شتى من العلم فالّف فيها كثيراً من الكتب والرسائل حتى بلغ فهرست مؤلفاته ما يقارب المئة والستين[1] . على ان كثيراً منها فصول كتبت في مواضيع خاصة وهي اشبه بما نسميه اليوم مقالات او رسائل — ككتاب افتخار الشتاء والصيف ، وكتاب التربيع والتدوير . وكرسائله في فضائل الاتراك ، ومدح النبيذ ، وفي الكرم ، وفي القضاة والولاة ، وفي العفو والصلح — الى غير ذلك مما لا نطلق عليه اليوم عادةً اسم الكتاب

---

(١) ذكر ياقوت له نحواً من ١٢٠ مؤلفاً في معجم الادباء ٦ ص ٧٥ — ٧٨ وفي صدر كتاب الحيوان قائمة باسماء مؤلفاته . وقد عني الاستاذ حسن السندوبي في كتابه ادب الجاحظ فجمع له قائمة كاملة في ١٥٩ كتاباً فلتراجع

مذهبه النظري في بلاغة الانشاء

ويظهر ذلك فيما يلي —

١ — **مطابقة العبارة لمقتضى الحال** . قال « ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات ، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم اقدار الكلام عَلَى اقدار المعاني ، ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات . فان كان الخطيب متكلماً (اي من اصحاب علم الكلام) تجنّب الفاظ المتكلمين ، كما انه ان عبّر عن شيءٍ من صناعة الكلام واصفاً او مجيباً او سائلاً ، كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين اذ كانوا لتلك العبارات افهم ، والى تلك الالفاظ اميل ، واليها احنّ ، وبها اشغف [١] » .

ومن قوله في ذلك « وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربيّ ، وبكلّ قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعابوا [٢] » . . ثم يقول « وانا اقول انه ليس في الارض كلام هو امتع ولا انفع ، ولا آنق ولا الذُّ في الاسماع ، ولا اشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا افتق للسان ، ولا اجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء . وقد اصاب القوم في عامة ما وصفوا ، الاّ اني ازعم ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج الى السخيف

---

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ١٢٩ (٢) البيان والتبيين (س) ١ — ١٣٣

في بعض المواضع ، وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الالفاظ الشريفة الكريمة المعاني ، كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون اطيب من النادرة الحارة جداً ، وانما الكرب الذي يخيّم على القلوب ، ويأخذ بالانفاس ، النادرة الفاترة التي لاهي حارّة ولا هي باردة ، وكذلك الشعر الوسَط والغناء الوسط . وانما الشأن في الحارّ جدًّا والبارد جدًّا .

٢ — البيان او وضوح الدلالة (١)

فمما جاء له — « قال بعض جهابذة الالفاظ ونقّاد المعاني : المعاني القائمة في صدور العباد المتصوَّرة في اذهانهم ، والمتخالّجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفيّة ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة اخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على اموره وعلى ما يبلغه من حاجات نفسه ، الا بغيره . وانما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، واخبارهم عنها ، واستعمالهم اياها . وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ، وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيَّداً ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشي مألوفا ، والغفل موسوما ، والموسوم معلوما . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة اوضح وافصح ، وكانت الاشارة ابين وانور ، كان انفع وانجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه

---

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ٧٧ و ٧٨

ويدعو اليه ، ويحثُّ عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت اصناف الاعجام .

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن اي جنس كان ذلك الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع انما هو الفهم والافهام : فبأيّ شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع »

٣ — الايجاز وعدم التكلف

قال « واحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه » .. ثم يقول .. « فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة[1] » .

وله ايضاً :

قال بعضهم وهو من احسن ما اجتبيناه ودوّناه : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه اسبق من معناه الى قلبك[2] »

وفي كلامه عن شبيب بن شيبة يقول « ويقال انهم لم يروا قط خطيباً بلديًّا ، الاّ وهو في اول تكلُّفه لتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلفاً ايام رياضته كلها ، الى ان يتوقّح وتستجيب له المعاني ويتمكن من الالفاظ ، الاّ

---

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ٨٣ (٢) البيان والتبيين (المطبعة العلمية) ١ — ٤٩

شبيب بن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره[١] »

وقد انتقد قول اياس « فالزيادة من الخير خير » بقوله « وليس كما قال (اي اياس) · للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال ، فذاك الفاضل هو الهذر وهو الخطل وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه[٢] »

انشاء الجاحظ

ولا نقصد نثره المرسل في اخباره او كتبه العلمية فهو بذلك لا يخرج عن طريقة العلماء والمؤرخين العامة، ولكننا نقصد نثره الادبي او ترسّله الذي ينصرف فيه الى التعبير عن خوالج نفسه او آرائه · وقد عرف بمزايا انشائية خاصة ، وهو ولئن لم يبتدعها صار علماً فيها ، وصارت تنسب اليه واهمها الافتنان ، والاستطراد ، والتوازن ، وقصر العبارة

كثرة الافتنان

وذلك ظاهر في رسائله المختلفة التي طرق فيها شتى المواضيع فتراه فيها يجمع بين الحقائق وشواذّ الاعراض وغرائب الاطوار ومستملح النكات ويقرن ذلك بما لا يحصى من الاستشهادات ، مما يدل على سعة اطلاع · خذ كتابه البيان والتبيين مثلاً فتراه مجموعة من الاقوال المختلفة في البلاغة والخطابة، وما الى ذلك من اخبار وشواهد وتراجم ونوادر يكثر فيها التنادر

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ١٠٦ (٢) البيان والتبيين (س) ١—٩٦

والاستطراد، فتجيء متداخلة كثيرة الفروع، كقوله تحت عنوان باب آخر[١] «وكانوا يمدحون شدّة العارضة وقوّة المُنّة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلوّ على الخصم، ويهجون بخلاف ذلك». ثم يأتي على ذلك بكثير من الشواهد الشعرية وفي احد هذه الشواهد يذكر لقمان بن عاد عرضاً فيتناوله بحديث لا دخل له بالموضوع[٢]، ويستطرد منه الى كلام آخر في انجاب الامّهات ويذكر حديث ابي حمزة الضبي. وكانه يشعر بخروجه عن الموضوع فيقول معتذراً «وهذا الباب يقع في كتاب الانسان من كتاب الحيوان وفي فضل ما بين الذكر والانثى تاماً، وليس هذا الباب مما يدخل باب كتاب البيان والتبيين، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارىء الكتاب، لان خروجه من الباب اذا طال لبعض العلم كان ذلك اروح على قلبه، وازيد في نشاطه ان شاء الله[٣]»

ولو اتسع المقام لاتينا بشواهد كثيرة من البيان والتبيين وكتاب الحيوان وسواهما على خروجه من باب البحث واستطراده في شتى الابواب. وقد اتخذ الباقلاني ذلك وسيلة لنقده فقال

«قد يزعم زاعمون ان كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه والباب الذي لايذهب عنه، وانت تجد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيباً ونطاق قوله ضيقاً، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع الى ما يوشح به كلامه من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة. واما كلامه في اثناء ذلك فسطور قليلة، والفاظ يسيرة. فاذا احوج الى تطويل الكلام — خالياً عن شيء يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره — كان كلاما ككلام

---

(١) البيان والتبيين (س) ١ — ١٥٥ (٢) البيان والتبيين (س) ١ — ١٦٢
(٣) البيان والتبيين (س) ١ — ١٦٣

غيره فان اردت ان تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن ،وفي الرد على النصارى، وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد في ذلك كله وَرَقةً تشتمل على نظم بديع او كلام مليح ؟ على ان متأخّري الكتاب قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من ابرّ عليه اذ باراه[١] » .وفي هذا الكلام مع ميل صاحبه الى تحقير شأن الاسلوب الجاحظي — تعظيماً لنظم القرآن — نرى ما اشتهر به هذا الاسلوب من الافتنان في شتى المواضيع والاستطراد الى ذكر الملح والنكات مما جعل له مقاماً خاصاً بين الكتبة . وهذا الباقلاني نفسه في مقام آخر من كتابه يذكر من برع في صنعة الرسائل وتقدّم في شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة وانشأ لنفسه منهاجاً ثم يقول « فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل[٢] » .فهو يعترف ان الجاحظ امام طريقه ليست هي طريقة المتقدمين ولا طريقة السجاعين . وهذه الطريقة على ما نرى هي التي تقرن التنادر او الافتنان عنده بعبارة قصيرة شديدة الاتزان كثيرة الاستطراد وسنرى ذلك في الكلام على رسائله —

على ان هذه الطريقة كما ذكرنا آنفاً لم يبتدعها الجاحظ بل اخذ فيها إخذ من تقدّمه من كتاب الدولة العباسية ولا سيما سهل بن هرون . وفيه يقول الجاحظ « كان سهل سهلاً في نفسه، عشيق الوجه حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة تقضي له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقّة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل التكشّف[٣] »

---

(١) اعجاز القرآن ص ١١٥ (٢) اعجاز القرآن ص ٥٨

(٣) البيان والتبيين (س) ١ — ٨٧

وكان الجاحظ في اول امره ينشئ الرسالة ويعزوها الى سهل او ابن المقفع واضرابهما ترويجاً لها[١]. وهذا دليل على تعظيمه له وتأثره منه. وقد ذكرنا في اول هذا الفصل شيئاً من نثر سهل وتبيناً فيه توازن الجمل التي عرف بها نثر الجاحظ. وزيادة للايضاح نضيف الى ما ذكرنا شيئاً من كتابه الى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وهو كتاب طويل ننقل منه ما يلي[٢]

«وعبتموني حين ختمت على سلٍّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبد نهِم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء. وليس من اصل الادب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة، ان يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فنٍّ، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس، ومواقع اسمائهم في العنوانات، وما يستقبلونه من التحيات. وكيف لا وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقده القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف. ومن شاء اطعم كلبه الدجاج المسمَّن، وعلف حماره السمم المقشَّر» فاذا تأملت هذه العبارات وقابلتها بما سننقل لك من نثر الجاحظ رأيت الشبه العظيم في تقطيع الجمل وتوازن الفقرات واشباع المعاني

ومثلها ما وصف به بلاغة يحيى بن خالد البرمكي وجعفر بن يحيى اذ قال[٣]

«ان سجّاعي الخطب، ومحبّري القريض، عيال على يحيى بن خالد بن برمك

---

(١) التبنيه والاشراف للمسعودي ٧٦ (٢) راجع العقد (بولاق) ٣ — ٣٣٥ (٣) راجع مقالة سهل بن هرون للاستاذ محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي مج ٧ ص ١٢

وجعفر بن يحيى . ولو كان كلام يتصوَّر درًّا ، ويجعله المنطق السريُّ جوهراً لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته ، وتوقيعاته في كتبه فَدْمَين عَيِيّن ، وجاهلَين أُمِّيين . ولقد عمرت معهم ، وادركت طبقت المتكلمين في ايامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تستكمل الاَّ فيهم ، ولم تكن مقصورةً الاّ عليهم ، ولا انقادت الاَّ لهم وانها محض الانام ، ولباب الكرام وملَح الايام ، عشق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهم ، والمأثور من خصالهم كثيرَ ايام سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، الى النفخ في الصور ، وانبعاث اهل القبور — حاشا انبياء الله المكرّمين ، واهل وحيه المرسلين — لما باهت الاّ بهم ، ولا عوّلت في الفخز الاّ عليهم . ولقد كانوا — مع تهذيب اخلاقهم ، وكريم اعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول فواقهم ، وبهاء اشراقهم ، ونقاوة اعراضهم ، وتهذيب اغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، الى ملء الارض مثلهم — في جنب محاسن المأمون كالنفثة في البحر ، والخردلة في المهمه القفر »

ولا يهمنا ما في هذا الكلام من المصانعة السياسية ولكن يهمنا ما فيه من المزايا الانشائية التي تبرز ايضاً في نثر الجاحظ . ولم يكن سهل السابق الوحيد للجاحظ في هذا الاسلوب : فقد رأينا في الكلام على الاسلوب المتوازن ان اكثر الكتاب ، منذ ايام عبد الحميد الى ان استقرت سيادة السجع في القرن الرابع وما بعده ، كانوا يسلكون هذا المسلك : على ان الجاحظ طبعه بطابع شخصيته الفنَّانة فلا بدع ان يكون له المقام الاول فيه .

رسائله واقواله

للجاحظ رسائل وغرر كثيرة ولا يتسع المقام للكلام على كلّ منها فنكتفي هنا برسالتين من رسائله الطولى وببعض منتخبات من بليغ اقواله التي توضح لنا اسلوبه وتعرّفنا بشخصيته .

رسالة الشكر [1]

قصد بها مدح وزير المتوكل وشكر نعمه لديه، فصدّرها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده ، وذكر له خصالاً اربع ملا بها اكثر من ثلاث صفحات وهي (١) — العلم بموقع النعمة من المنعَم عليه (٢) — الحرية الباعثة على حبّ المكافأة واستحسان المجازاة (٣) الديانة بالشكر والاخلاص للمنعِم في تصفية الود (٤) وصف الاحسان باللسان البيِّن حتى يصير حديثاً مأثوراً

واليك بعض ما قاله في الخصلة الرابعة فهو يجلو لك شيئاً من اسلوبه — « واذا لم يكن اللفظ رائعا ، والمعنى بارعا ، وبالنوادر موشّحا ، وبالملح مجلوّا ، لم تصغ له الاسماع ، ولم تنشرح له الصدور ، ولم تحفظه النفوس ، ولم تنطق به الافواه ، ولم يخلد في الكتب ، ولم يقيَّد بالدرس ، ولم يجذل به قائل ، ولم يلتذّ به سامع . ومتى لم يكن كذلك كان كلاماً ككلام اللغو ، ومعاني السهو ، وكالهُجر الذي لا يُفهم ، والمستغلق الذي لا يعلم »

ويجري على هذه الطريقة من توازنٍ وقصر عبارة فيقول وليس — ابقاك الله — شيء احوج الى الحذق ، ولا افقر الى الرفق

---

(١) راجعها في صبح الاعشى ١٤ ص ١٧٣ — ١٨٢

من الشكر النافع ، والمديح الناجع ، الذي يبقى بقاء الوشم ، ويلوح كما يلوح النجم : كما انه لا شيء احوج الى وُسع الطاقة ، والى الفضل في القوّة والى البسطة في العلم ، والى تمام العزم — من الصبر . وعلى ان الشكر في طبقات متفاوتة ، ومنازل متباينة ، وان جمعها اسمٌ ، فليس يجمعها حكم ، فربما كان كلاماً تجيش به الصدور وتمجّه الافواه ، وتجدِف به الالسنة ، ويستعمل فيه الرأي المقتضَب ، والخاطر المحتار ، والكلام المرتجل ، فيرمى به على عواهنه ، وتبنى مصادره على غير موارده ، لا يتعذّر فيه الشاكرون لانتفاع المنعمين ، كما تعذر المنعمون لانتفاع الشاكرين ، وليست غاية القائل الا ان يعدّ بليغاً مفوّها ، او يستزيد به الى نعمه السالفة نعماً آنفة ، او ليس الاّ ليغترّ كريما ، او يختدع غنياً ، لا يتفقد ساعات القول ، ولا يثعرف اقدار المستمعين ؟ وليست غايته الا الكسب والتعرّض ، والانتفاع والترنّح وعلى هذا يدور شكر المستأكلين ، واحماد المتكسّبين »

ويتناول الفرق بين الشكر اللفظي الذي لا غاية لصاحبه الاّ ان يعدّ بليغاً مفوّها ، والشكر القلبي الدالّ على صدق اللهجة وخلوص النية ، ثم يأخذ بطريقته المعهودة فيقول عن لسان حكيم يصف عمر بن الخطاب

« ولكن العجب العجيب ، والنادر الغريب ، الذي تهيّأ في عمر بن الخطاب (رضه) واتّسق له : وذلك انه غبر عشر حجج يفتح الفتوح ، ويدوّخ البلاد ، ويمصّر الامصار ، ويدوّن الدواوين ، ويفرض الفروض ، ويرتّب الخاصة ، ويدبّر العامة ، ويجبي الفَيء ، وترمي اليه الارض بافلاذ اكبادها ، وانواع زخرفها ، واصناف كنوزها ، ومكنون جوهرها ، ويقتل ملوكها ، ويلي ممالكها ، ويحلّ ويعقد ، ويولي ويعزل ، ويضع ويرفع ، وبلغت خيله افريقية ودخلت خراسان — كلّ ذلك بالتدبير الصحيح والضبط والاتقان ، والقوّة

والاشراف ، والبصر النافذ ، والعزم المتمكن » ... الى ان يقول « ثم غبر بعد ذلك سنيه كلها على وتيرة واحدة ، وطريقة مطّردة ، لا ينحرف عنها ولا يغيّرها ، ولا يسأمها ، ولا يزول عنها : من خشونة في المأكل والملبس ، وغلظ المركب ، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ، ودقيقها وجليلها ، وكلّ ما يفاخر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا حجاب ، ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط ، والدنيا تنصبّ عليه صبّاً ، وتتدفق عليه تدفقا ، والخصلة من خصاله ، والخلة من خلاله ، تدعو الى الرغبة ، وتفتح باب الالفة ، وتنقض المبرم ، وتفيد المروءة ، وتفسح المنّة ، وتحل العقدة ، وتورث الاغترار بطول السلامة ، والاتكال على دوام الظفر ، ومواتاة الايام ، ومتابعة الزمان »

ويجري في اكثر رسالته على هذا النمط لا ينفك عنه حتى يصل الى الممدوح فيقول — « فجمعتَ — والحمد لله على النعمة فيك — بين التواضع والتحبُّب ، وبين الانصاف وقلة التزيُّد ، فلا يستطيع عدوٌّ معلن ، ولا كاشح مسرّ ، ولا جاهل غبيّ ، ولا عالم مبرّز ، يزعم انه رأى في شمائلك واعطافك — عند تتابع النعم وتظاهر المنن — تغيراً في لقاء ولا في بشر عند المساءلة ، ولا في انصاف عند المعاملة ، واحتمال عند المطاولة . الامر واحد والخلق دائم ، والبِشر ظاهر ، والحجج ثاقبة ، والاعمال زاجية ، والعيون ناطقة بالمحبة ، والصدور مأهولة بالمودّة ، والداعي كثير ، والشاكي قليل »

ويتخلل الرسالة اقوال لبعض مشاهير الرجال كسهل بن هرون ويحيى بن خالد يجيء بها استطراداً او استشهاداً وقد يكون في ذلك طول لا لزوم له كقوله في ختام الرسالة « قال يحيى بن خالد لجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة وتكلف النهوض بأعباء الخلافة

« اي بنيّ ، اني احاف عليك العجز لعظيم ما تقلّدت ، وجسيم ما تحملت اني لست آمن ان تتفسّخ تحت ثقلها تفسُّخ الجمل تحت الحمل الثقيل . قال جعفر : لكني ارجو القوّة ، واطمع ان استقلّ بهذا الثقل وانا مبتهل غير مبهور ، واجيء قبل السوابق وانا ثاني . (اي : وانا ثاني عناني ، لاني لم اجهد فرسي ركضا) . قال يحيى : ان لكل رجاء سببا ، فما سبب رجائك ؟ قال : شهوتي لما انا فيه ، والمشتهي للعمل لايجد من الم الكد ما يجده العسيف الاسيف . قال يحيى : ان نهضت بثقلها فبهذا ، والا فلا . وانا اسأل الله ان يصرف شهوتك الى حب ذلك ، وهواك الى الاحتفاظ بنعمتك ، بشكر المصلحين ، والتوكل على رب العالمين »

رسالة التربيع والتدوير (١)

وهي رسالة هزلية الّفها الجاحظ سخريةً برجل اسمه احمد عبد الوهاب كان مفرط القِصر جعد الاطراف قصير الاصابع طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو الى ذلك كبير السن ومربّع الجسم ، تحسبه لسعة ما بين جنبيه واستفاضة خاصرته مدوّرا . وكان يدّعي الرشاقة والسباحة والجمال واعتدال الشباب . قال الجاحظ في مقدمتها :

« وكان ادعاؤه لاصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلُّفه للابانة عنها على قدر غباوته عنها ، وكان كثير الاعتراض ، لهِجاً بالمِراء ، شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة ، مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد . . . لا ينطق عن فكر ، وثيق باوّل خاطر ، لا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحقّ ، يعدّ اسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد

(١) راجع مجموعة رسائل الجاحظ ص ٨٢ وهي تقع في ٦٦ صفحة متوسطة

العلماء من غير ان يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الادب . فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت ان اكشف قناعه وابدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر وكل مصر ، بان اسأله عن مائة مسألة اهزأ فيها وأعرّف الناس مقدار جهله . »

ثم يخاطبه فيقول :

« اطال الله بقاءك ، واتم نعمته عليك ، وكرامته لك ، قد علمت حفظك الله انك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حَور العين وجودة القد ، وعلى طيب الاحدوثة والصنيعة المشكورة ، وان هذه الامور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج : وانما يحسد ابقاك الله المرء شقيقه في النسب ، وشفيعه في الصناعة ، ونظيره في الجوار ، على طارف قدره او تالد حظه ، او على كرم في اصل تركيبه ، ومجاري اعراقه . وانت تزعم ان هذه المعاني خالصة لك مقصورة عليك ، وانها لا تليق الا بك ولا تحسن الا فيك ، وان لك الكل وللناس البعض ، وان لك الصافي ولهم المشوب : هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه : فما هذا الغيظ الذي انضجك ، وما هذا الحسد الذي اكمدك ، وما هذا الاطراق الذي قد اعتراك ، وما هذا الهمّ الذي قداضناك »

ويستمر على ذلك ثم يقول له هازئًا —

« وقد علموا ابقاك الله ان لك ، مع طول البادّ راكبًا ، طول الظهر جالسا ، ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف ، وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل . ومن غريب ما أُعطيت ، وبديع ما أُوتيت ، انا لم نر مقدوداً واسع الجُفرة غيرك ، ولا رشيقًا مستفيض الخاصرة سواك : فانت المديد وانت

البسيط وانت الطويل وانت المتقارب ، فياشعراً جمع الاعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول »

ويندفع بهزئه اندفاع السيل ويتنادر في ذلك ويتفنن ما شاء . ومن مداعبته قوله في استدارته —

« والناس وان قالوا في الحسن كانه طاقة ريحان ، وكانه خُوط بان ، وكانه قضيب خيزران ، وكانه غصن بان ، وكانه رمح رديني ، وكانه صفيحة يمانية ، وكانه سيف هندواني ، وكانها جدل عنان — فقد قالوا كانه المشتري ، وكان وجهه دينار هرقلي ، وما هو الا البحر ، وما هو الا الغيث ، وكانه الشمس وكانها دارة قمر ، وكانها الزهرة وكانها درة وكانها غمامة وكانها مهاة : فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض باكثر مما وصفوا به القضيف والطويل »

وقال :

« وجدنا الافلاك وما فيها ، والارض وما عليها على التدوير دون التطويل كذلك الورق والتمر والحَب والثمر »

وقال :

« والرمح وان طال فان التدوير عليه اغلب لان التدوير قائم فيه موصولاً ومفصلاً ، والطول لا يوجد فيه الاَّ موصولاً ، وكذلك الانسان وجميع الحيوان

ويقول في ادعائه —

واشهد بعد انك تُخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنّي مع مخارق ، وتنكر فضل زرزور ، وتستجهل النظّام ، وتستبرد الاصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الاحنف بن قيس ،

وتبارز ابا الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه، ثم تخرج من حد الغلبة الى حد المراء، ومن حد الاحياء الى حدود الموتى. هذا وليس لك مساعد، ولا معك شاهد واحد، ولا رأيت احداً يقف في الحكم عليك، او ينظر تحقيق دعواك، ولا رأيت مبصراً يخليك من التأنيب، ولا موئباً يخليك من الوعيد، ولا متواعداً يخليك من الايقاع، ولا موقعاً يرثي لك، ولا شافعاً يشفع فيك»

ومن قوله فيه —

«واين الحسن الخالص، والجمال الفائق، والملح المحض، والحلاوة التي لا تستحيل، والتمام الذي لا يحيل، الا فيك او عندك او لك او معك، خالصةً لك ومقصورة عليك، لا تليق الا بك، ولا تحسن الا فيك، فلك منه الكل وللناس البعض، ولك الصافي وللناس المشوب. هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه، والبديع الذي لا نبلغه: لا بل اين الحسن المصمَت، والجمال المفرد والقد العجيب، والكمال الغريب، والملح المنثور، والفضل المشهور، الا لك وفيك. وهل على ظهرها جميل حسيب او عالم اديب الا وظلُّك اكبر من شخصه، وظنك اكثر من علمه، واسمك افضل من معناه، وحلمك اثبت من نجواه، وصمتك افضل من فحواه، وهل في الارض حليم سواك، وهل اظلت الخضراء ذا لهجة اصدق منك، وهل حملت النساء اجلّ منك، ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً، وحلواً مليحاً، وعثيقاً رشيقاً، وفخماً نبيلاً، ثم لا يكون موزون الاعضاء، ولا مقدود الاجزاء، وقد تكون ايضاً الاقدار متساوية، وغير متقاربة ولا متفاوتة، وقد يكون قصداً ومقداراً عدلاً، وان كانت دقائق خفية لا يراها الا الالمعي، ولطائف غامضة لا يعرفها الا الذكي: فاما الوزن المحقَّق والتعديل المصحح، والتركيب الذي لا يفضحه

التفرّس ولا يحصره التعنُّت، ولا يتعلل جادبه[1]، ولا يطمع في التمويه ناعته فهو الذي خصصت به دون الانام، ودام لك على الايام

وقوله في المزاح

« واعلم جعلت فداك اني لم ارد بمزاحك الا ضحك سنّك، ولا كانت غايتي فيك الا لانفق عندك، وقد كنت خفت الاَّ اكون وقفت على حدّه واشفقت من المجاوزة لقدره. والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان، وهو باب متى فتحه فاتح، وطُرق له مَطرق لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم في نفسه لانه باب اصل بنائه على الخطأ، ولا يخالطه من الاخلاق الا ما سخف، ومن شأنه التزيُّد وان يكون صاحبه قليل التحفظ، ولم نرَ شيئاً ابعد من شيء، ولا اطول له صحبة، ولا اشد خلافاً ولا اكثر خلطاً من الجدّ والمزاح والمناظرة والمراء »

اما السؤالات التي يطرحها عليه فتتناول كل انواع المعلومات من تاريخية وجغرافية وفلكية وادبية وطبيعية وعقلية وفقهية وسحرية وسواها مما يدل على واسع اطلاعه. وفي كلها ترى السخرية اللاذعة — واليك ما قاله له بعد ان غمره بسيول سؤالاته

« وقد تعجّب ناس من اطالتي، ومن كثرة مسألتي، وتعجبي من تعجبهم اشد والذي كان من افكارهم اعظم، ولو رغبوا في العلم رغبتي، ورأوا فيه مثل رأيي وكانوا قرأوا كتابي اليك في شبيبتي وايام شباب رغبتي لاستقلوا من ذلك ما استكثروا، ولاستقصروا منه ما استطالوا: فان اذنت لي اظهرته وان تجد عليّ اعلنته. وستقول ما دعاك الى التنويه بذكري، وتعريف الناس مكاني

(١) ذامّهُ

وقد تعرف حشمتي وانقباضي، وتفردي واستيحاشي؟. ولولا انك — جعلت فداك — مسؤول في كل زمان، والغاية في كل دهر، لما تفرّدتك بهذا الكتاب ولما اطمعت نفسي في الجواب، ولكنك قد كنت اذنت في مثلها لهرمس ثم لافلاطون ثم لارسطاطاس، ثم اجبت معبد الجهني وغيلان الدمشقي وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وابراهيم بن سيّار وعلي بن خالد الاسواري، فتربية كفِّك والناشئ تحت جناحك[1] احق بذلك واولى، وقد كان يجب ان تكون على ذلك احرص، وبه اعنى »

وقوله في الصفحات الاخيرة من الرسالة .

« وقد اختلفوا في العقل باكثر من اختلافهم في العلم، فمنعني من ذكره لك غموضه عليك واستتاره عنك، وعلمت اني لا اقدر ان اصوّره لك دون دهر طويل، ولا اضمُّك معناه دون تربيب كثير : هذا الكتاب مُرضٍ مع ما فيه من الاخلاط من اشكال واضداد، ومن الجد والهزل، ومن الحطة والاطلاق ومن الاستئناف والقطع، ومن التحفظ والتضييع، ومن التثبيت والتهاون اذا اريد به تقريع معجب، او تكشيف مموّه، او امتحان مشكل، او تخجيل وقاح او قمع ممار، او ممازحة ظريف، او مساءلة عالم، او مدارسة حافظ، او تنبيهاً على الطريق، او تجديداً للذهن . والعقل حفظك الله اطول رقدة من العين، واحوج الى الشحذ من السيف، وافقر الى التعهد واسرع الى التغير، ودواؤه اقتل واطباؤه اقل وعلاجه اعضل : فمن تداركه قبل التفاقم ادرك اكثر حاجته، ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته . ومن اكثر اسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب، ثم في الخواطر الغث والسمين والفاسد والصحيح، والمسرع اليك، والبطيء عنك والدقيق الذي لا يكاد يفهم، والجليل الذي

(١) اي الجاحظ نفسه

لا يلقى الفهم . والمطالب طرق ، ولدرك الحقائق ابواب ، فمن اخطأ فانتظر كان أسوأ حالاً ممن لم يخطئها ولم ينتظر . وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر ، وعلى قدر التفرغ تكون البيّنة

والكَيْس كلّ الكيس ، والحذق كلّ الحذق ان لا تعجل ولا تبطىء وان تعلم ان السرعة غير العجلة ، وان تعلم ان الاناة خلاف الابطاء ، وان تكون على يقين من درك الحقّ اذا وفيته بشرطه ، وعلى ثقة من ثواب النظر اذا اعطيته حقّه

هذه جملة العذر في هذه الرسالة ، وجملة الحجة فيما قدّمنا من الافتنان والاطالة : فان كنا اصبنا فالصواب اردنا ، والى غايته اجرينا ، وان كنا قد اخطأنا فما ذلك عن فساد من الضمير ، ولا عن قلة احتفال بالتقصير : ولعلّ طبيعة خانت ، او لعلّ علة حدثت ، او لعلّ سهواً اعترض ، او لعل شغلاً منع

لمع من غرر اقواله

في الالفاظ والمعاني[١]

« ومتى شاكل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه ، واعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع ، واجدر ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العيّابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة .

ومتى كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه متخيّراً في جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حُبّب الى النفوس ، واتصل بالاذهان والتحم بالعقول ، وهشّت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخفّ على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريّض

فان اراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعمّ ولا يخصّ وينصح ولا يغشّ ، وكان مشغوفاً باهل الجماعة ، شنِفاً[٢] لاهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من اقطارها ، وسيقت اليه القلوب بازمّتها ، وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته ، وجبلت على تصويب ارادته ، ومن اعاره الله من معرفته نصيباً ، وافرغ عليه من محبته ذَنوباً[٣] حنت اليه المعاني . وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع من كدّ التكلف ، واراح قارئ الكتاب من علاج التفهّم .

---

(١) البيان والتبيين (س) ٢—٦ (٢) الشنف المبغض المتكرّه
(٣) الذنوب الدلو الملأى

ولم اجد في خُطب السلف الطيّب، والاعراب الاقحاح الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديًّا، ولا قولاً مستكرهاً. واكثر ما نجد ذلك في خطب المولَّدين البلديين، المتكلفين ومن اهل الصنعة المتأدبين. وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، او كان من نتاج التخيُّر والتفكر»

الخطابة عند العرب (١)

«وكل شيء للعرب فهو بديهة وارتجال وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة ولا استعانة، وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام، او حين يمتح على رأس بئر، او يحدو ببعير او عند المقارعة والمناقلة، او عند صراع او في حرب، فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الالفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرّسه احد من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر، وهم عليه اقدر واقهر، وكل واحد في نفسه انطق، ومكانه من البيان ارفع، وخطباؤهم اوجز، والكلام عليهم اسهل، وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ، او يحتاجوا الى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا الا ما علق في قلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب»

---

(١) البيان والتبيين (س) ٣ — ٢٠

وصف قريش[1]

«قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها، وكيف ايجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة احلامها اذا خف الحليم، وحدّة اذهانها اذا كلّ الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها اذا استحسن الغدر، وكيف جودها اذا حُبَّ المال، وكيف ذكرها لاحاديث غد، وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف اقرارها بالحق، وصبرها عليه، وكيف وصفها له، ودعاؤها اليه، وكيف سماحة اخلاقها، وصونها لاعراقها وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف اشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل سلامة صدر احدهم، الاّ عَلَى قدر بعد غوره؟ وهل غفلته الا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه الا كيقين غيره؟»

ومنها:

«بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها، وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سرْوها ونجابتها، وكيف بيانها وجهارتها، وكيف تفكيرها وبداهتها فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشم سرُّها ولبُّها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وهاشم ملح الارض وزينة الدنيا، وحي العالم، والسنام الاضخم، والكاهل الاعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم، وثهلان[2] ذو الهضاب في الحلم، والسيف الحسام في العزم مع الاناة والحزم، والصفح بعد المقدرة، وهم الانف المقدّم

---

(١) زهر الاداب ١ — ٥٣ و ٥٤ (٢) اسم جبل

والسنام الاكرم ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، وكالذهب الذي لا يعرف بالنقصان » . . . . وبعد ان يعدّد جماعة من اهل المآتي الشهيرة فيهم يقول —

« والانصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر اليهم او معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواريُّ حواريُّهم ، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ، ولا خير الا لهم او فيهم او معهم ، او يضاف اليهم . وكيف لا يكون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الاولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يتم لنبي نبوّة الا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، واظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون »

وصف الكتاب (١)

« الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة . . والكتاب وعاءٌ ملىء علما ، وظَرف حشي ظَرفا ، واناءٌ شحن مزاحا . ان شئت كان اعيى من باقل ، وان شئت كان ابلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرّتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ ملهٍ ، وبناسك فاتك ، وناطق اخرس ، ومن لك بشيءٍ يجمع الاول والآخر والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ؟ . وبعد فما رايت بستاناً يحمل في رُدن ، وروضة تنقل في حجر ،

(١) المحاسن والاضداد ٤

ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء : ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الارض ، واكتم للسر من صاحب السرّ واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة ؟

ولا اعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً انصف ، ولا رفيقاً اطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية وعناية ، ولا اقل املالاً ولا ابراما ولا ابعد من مراء ، ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكفّ عن قتال ، من كتاب : ولا اعمّ بياناً ولا احسن موأتاة ولا اعجل مكافاة ، ولا شجرة اطول عمراً ولا اطيب ثمراً ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكاً ولا اوجد في كل إبّان ، من كتاب : ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يَقليك ، والرفيق الذي لا يملُّك ، والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يستبطئك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق »

نماذج من الاسلوب المتوارث

بعد عصر الجاحظ

تقدّم معنا ان الجاحظ كان امام هذا الاسلوب وان لم يكن السابق الى ابتداعه . ونضيف الى ذلك انه لم يكن آخر من استعملوه في ترسلهم . فقد جرى مجراه فيه جماعة من كتاب العصر العباسي نذكر منهم **محمد بن يحيى الصولي** (المتوفى ٣٣٥ هـ) صاحب كتاب ادب الكتّاب فهو اذا ترك العنان لنفسه في الترسّل جرى ترسّله في هذ الاسلوب كقوله[1]

«وليس هذا الكتاب والفوائد فيه معمولاً لتابع غير متبوع ، ولا خامل دون نبيه ، ولا محروم دون محظوظ ، ولا ينبغي لمن رفعته حال ، وساعده جدّ ، وهو يؤنس من نفسه تقصيراً في الادب ، وتخلّفاً عن صناعة الكتابة ، ان يغترّ بحظه ، واقبال الايام عليه في وقت ، فانها دول متقلّبة ، واحوال متصرّفة . وليتلافَ ما ضيّع ، ويستدرك ما فرط ، ولا يتكلْ على كفاءته ، مشتغلاً بلذّاته ، ومريحاً قلبه وجسمه ، مستعيراً[2] في كل وقت عليهم ، ومتكلاً على كفاءتهم ، ينام ويسهرهم ، ويفرغ ويشغلهم: فان هذا الفعل انما يحسن بالرؤساء اذا اشرفوا على العلم ، واستقلّوا بالصناعة ، وعرفوا ما يحتاجون اليه من امر الكتبة وحفظوه . »

« وقد قال بعض الحكماء : كل شيء يمكن ان يستعار الا اللسان »

---

(١) ادب الكتاب ٢٥ (٢) كذا في الاصل ولعلها مستعزًّا

وقال —

« من خدم السلطان بلا علم واستقلال ، وتجربة وكمال ، كان بمنزلة راكب فيل صعب ، وسابح في بحر قد جفّ : ومع ذلك فان الأتباع اذا احسّوا من الرؤساء بتفويضٍ اليهم ، على قلة علم منهم ، واضطرار الى كفاءتهم ، ولم يحس الاتباع منهم حسن مجازاة على جميل افادتهم ، وسوء مكافاة على قبيح افعالهم ، حتى يستوي عندهم محسنهم ومسيئهم ، وخائنهم وامينهم ، وكافئهم وعاجزهم ، انتقل الامين عن مرّ الوفاء الى حلاوة الخيانة ، وازداد الخائن بصيرة فآثر الاضرار ، وقصّر الكافي عن اتعاب النفس وكدّ الانتصاح ، فقد يرى الامين صنيعة فيخون ، ويرى الخائن جرماً فيعفّ ، فيضطرب عند ذلك الحبل ، وينشر الامر ، وتنعكس مساوئ قوم محاسن آخرين »

ومنهم **علي بن عبد العزيز الجرجاني** المتوفى ٣٩٢ هـ ففي كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ينزع هذا المنزع واليك امثلة منه — قال في كلامه على رشاقة الالفاظ في الشعر المحدث[1] —

« ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختيار ، وابعثه على التطبّع ، واحسن له التسهيل ، فلا تظنّن اني اريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنّث ، بل اريد النمط الاوسط ، ما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي الوحشي ، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ، ولم يبلغ تعجرف همیان[2] بن قحافة واضرابه : نعم ولا آمرك باجراء انواع الشعر كله مجرى واحداً ، ولا ان تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل ارى لك ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك

(١) الوساطة ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ (٢) نصر وهميان كاتبان

كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدّك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتّب كلاً مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف اذا تغزّلت، وتفخّم اذا افتخرت، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه: فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام: فلكل واحد من الامرين نهج هو املك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه

وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة، ولا بمختصّ بالنظم دون النثر، بل يجب ان يكون كتابك في الفتح او الوعيد، خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك اذا حذّرت وزجرت، انخم منه اذا وعدت ومنيّت، فاما الهجو فابلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه، واسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فاما القذف والافحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن، وتصحيح النظم. واذا اردت ان تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفّح شعر جرير وذي الرمة في القدماء والبحتري في المتأخرين، وتتبع نسيب مثيّمي العرب، ومتغزّلي اهل الحجاز كعمر وكثيّر وجميل ونصيب واضرابهم، وقسهم بمن هو اجود منهم شعراً وافصح لفظاً وسبكاً ثم انظر واحكم وأنصف

وملاك الامر، في هذا الباب خاصة، ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنّب الحمل عليه والعنف به. ولست اعني بهذا كل طبع، بل المهذّب الذي قد صقله الادب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور امثلة الحسن والقبح »

وقال في اختياره لغرر المتنبي[1]

« قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا وبرأنا اليك مما يوجبه عقد الكفالة ، وافضلنا ولم تكن بغيتنا استيفاء الاختيار ، واستقصاء الانتقاد فيقال هلاَّ ذكرت هذا فهو خير مما ذكرت ، وكيف اغفلت ذاك وهو مقدم على ما اثبتّ ، وانما دعوناك الى المقاصَّة ، وسمناك في ابتداء خطابك المحاجَّة والمحاكمة ، فلزمنا طريقة العدل فيها ، والتقطنا من عروض الديوان ابياتاً لم نذهب ان شاء الله في اكثرها عن جهة الاصابة ، فان وقع في خلالها البيت والبيتان ، فلأن الكلام معقود به المعنى لا يتمُّ بدونه ، وما يتقدمه وما يليه مفتقر اليه ، او لغرض لا تعظم الفائدة بذكره ، ويضيق هذا القدر من الخطاب عن استقصاء شرحه ، او لسهو عارض التمييز ، وغفلة لابست الاختيار وقد جعلنا لك ان تحذف منه ما احببت ، وابحنا لك ان تسقط ما اردت ، فان الذي يفضل نقدك منه ، ويوافقنا رأيك عليه ، ينجز وعدك ، ويبلغ غايتك وبقي ما وقعت الموافقة عليه بيننا وبينك ، ثم طالع بقية شعره وتصفح فضالة ديوانه ، لتعلم انَّا لم نقصد استيعاب عيوبه ، واخذ صفوته ولبابه ،

ولعلك اذا رأيت هذا الجد في السعي ، والعنف في القول ، تقول انما وقفت موقف الحاكم المسدّد ، وقد صرت خصماً مجادلا ، وشرعت شروع القاضي المتوسط ثم اراك حربا منازعا ، فان خطر ذلك ببالك ، وحدَّثتك به نفسك فاشعرها الثقة بصدقي ، وقرّر عندها انصافي وعدلي ، واعلم اني رسول مبلغ وسامع مؤدٍّ ، واني كما اناظرك اناظر عنك ، وكما اخاصمك اخاصم لك ، فان رأيتني جاوزت لك موضع حجة ، فردَّني اليها ، ونبّهني عليها ، فما ابرئ نفسي من الغفلة ، ولا ادّعي السلامة من الخطأ »

---

(١) الوساطة ١٣٩ و ١٤٠

وفي ذكره ما انكروه من شعر المتنبي يقول[1]

فقال الخصم قد خلط هذا الرجل في احتجاجه ، وجمع بين امور مختلفة ودلّنا على بعده عن تحصيل المعاني ، وذهابه عن مقاييس النحو ، واجرى كلامه الى غاية توجب قلب اللغة ، ونقض مباني العربية ، لانه جعل الشعراء بزعمه امراء الكلام ، واباح لهم التصرّف على غير ضرورة . وهذه القضية ان سيقت على اطّراد قياسها ، زال نظام الاعراب ، وجاز للشاعر ان يقول ما شاء ، وان يتناول ما اراد عن قرب ، فيثقل كل مخفّف ، ويخفف كل مثقل ، ويحذف ويزيد ، ويغيّر الجموع ، ويتحكم في التصريف ، ويتعدّى كل ذلك الى حركات الاعراب ، ويتجاوزه الى ترتيب الحروف . فاذا كان هذا ممتنعاً محظوراً ، ومتعذّراً محجوراً ، فلا بد من حد يقف عنده الشاعر ، وينتهي اليه الفرق بين النظم والنثر ، فيزول هذا الاساس الذي مهّده ، والاصل الذي قرّره ، ويرجع الى ما قالت العلماء فيه ، وما اجيز للمضطرّ من التسهيل ، وفضل به النظم من التسامح : وهو ابواب معروفة ، ووجوه محصور اكثرها ، ومعظم ما يوجد فيها ردّ الكلمة الى اصلها ، والى ما اوجب القياس الاعمّ لها مثل صرف ما لا ينصرف ، ومثل قصر ما يُمدُّ ، ومثل اظهار التضعيف ، ونحو هذا وشبهه . وقد يجيء عن العرب شواذّ لا تجعل اصولاً ، ولا يلزم لها قياس ، لان ذلك لو ساغ واستمرّ لانقلبت اللغة ، وانتقضت الحقائق : وهم الى الحذف فيه اميل ، وبالتخفيف اولع »

والكتاب معظمه من هذا الاسلوب —

---

(١) الوساطة ٣٣٩ و ٣٤٠

وعلى هذا النمط يجري معاصره **ابو هلال العسكري** المتوفى ٣٩٥ هـ . فالتوازن بارز في كتابه « الصناعتين » ولا سيما اذا تبسط مترسّلاً كقوله — يصف الكلام الجيد [١]

فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التاليف ، وبعدَ عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب ، قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب ، استوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسي البشع ، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه ، وتنفر عما يضادّه ويخالفه . والعين تألف الحسن ، وتقذى بالقبيح ، والانف يرتاح للطيّب ، وينغر للمنتن ، والفم يتلذّذ بالحلو ، ويمجّ المرّ ، والسمع يتشوّق للصواب الرائع ، وينزوي عن الجهير الهائل ، واليد تنعم باللاّين ، وتتأذّى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ، ويسكن الى المألوف ، ويصغي الى الصواب ، ويهرب من المحال ، وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافي الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب ، الاّ الفهم المضطرب والرّوية الفاسدة »

ففي هذا الوصف تجد تعادل الفقرات والاطناب على اتمهما . وكل الترسُّل في الصناعتين على هذا النمط ، بل كل قول للكاتب غير منقول عن سواه لا نستثني من ذلك تعريفه للاشياء كقوله في التوشيح [٢] —

« وهو ان يكون مبتدأ الكلام يبنى عن مقطعه ، واوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد لعجزه ... وخير الشعر ما تسابق صدوره واعجازه ، ومعانيه والفاظه ، فتراه سلساً في النظام ، جارياً على اللسان ، لا يتنافى ولا يتنافر ،

---

(١) الصناعتين ٤١ (٢) الصناعتين ٣٠٢

كأنه سبيكة مفرغة ، ووشيٌ منمنم ، او عقد منظَّم ، من جوهر متشاكل ، متمكن القوافي غير قلقة ، وثابتة غير حرجة ، الفاظه متطابقة ، وقوافيه متوافقة ، ومعانيه متعادلة : كل شيءٍ منه موضوع في موضعه ، وواقع في موقعه . فاذا نُقض بناؤه ، وحلَّ نظامه ، وجُعل نثراً ، لم يذهب حسنه ، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه ، فيصلح نقضه لبناءٍ مستأنف ، وجوهره لنظام مستقبل »

ومن اقواله التي تدلّ على اسلوبه الانشائي ما كتبه في فصل الى بعض اهل الادب قال[1] —

« قُربكَ احبُّ الى الحياة في ظلّ اليسر والسعة ، ومن طول البقاء في كنف الخفض والدّعة ، ومن اقبال الحبيب مع ادبار الرقيب ، ومن شمول الخصب بعد عموم الجدب ، وأقرُّ لعيني من الظفر بالبغية بعد إشرافي على الخيبة ، وأسرُّ لنفسي من الأمن بعد الخوف ، والانصاف بعد الحيف ، واسأل الله ان يطيل بقاءك ، ويديم نعماءك ، ويرزقني عدلك ووفاءك ، ويكفيني نبوّك وجفاءك »

. . . . .

ومما رواه لغيره كتاب لبعضهم يصف رجلاً قال[2]

« اما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه ، او حدّثت نفسك بالوفود اليه ، فلا تفعل . فان حسن الظن به لاينفع الاّ بخذلان الله تعالى ، وان الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب الاّ بسوء التوكل على الله تعالى ، والرجاء لِما في يديه لا ينبغي الاّ بعد اليأس من رحمة الله تعالى : لا يرى الاّ ان الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير

(١) الصناعتين ٢٨٩ (٢) الصناعتين ٢٨١ و ٢٨٢

الذي يعاقب عليه ، والاقتصاد الذي امر به هو الاسراف الذي يغضب منه وان الصنيعة مرفوعة ، والصلة موضوعة ، والهمة مكروهة، والثقة منسوخة والتوسُّع ضلالة ، والجود فسوق ، والسخاء من همزات الشياطين ، وان مؤاساة الرجل اخاه من الذنوب الموبقة ، وإفضاله عليه احدى الكبائر المرهقة ، وان الله تعالى لا يغفر ان يؤثر المرءُ على نفسه[1]، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن آثر على نفسه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيناً ، كأنه لم يسمع بالمعروف ، الاَّ في الجاهلية الذين قطع الله دابرهم ، ومحا معالمهم ، ونهى المسلمين عن اتّباع آثارهم ، وحظر عليهم ان يختاروا مثل اختيارهم . يظن ان الرجفة لم تأخذ اهل مَدْيَن الا لسخاء كان فيهم ، ولم تهلك عاداً بالريح العقيم الاّ لتوسُّع كان فيهم ، فهو يخشى العقاب على الانفاق ويرجو الثواب على الامساك ، ويعذر نفسه في العقوق ، ويلوي ماله عن الحقوق ، خيفة ان ينزل به قوارع العالمين[2]، ويأمرها بالبخل خشية ان يصيبه ما اصاب القرون الاولين، فأقم رحمك الله من مكانك ، واصطبر على عسرتك ، عسى الله ان يبدلنا واياك خيراً منه زكاةً ، واقرب رحماً

. . . . .

ومن هذه الطبقة **ابو حيان التوحيدي** (توفي في مستهل القرن الخامس) — وهو من كبار الادباء ، وقد اصاب الاستاذ السندوبي اذ قال فيه[3] —

« وكان من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيءٍ مطبوعاً على ذلك الى الحد الاقصى . غير انه أُولع بوضع الاحاديث والاسماء ووقائع التاريخ في الصورة الروائية ، فلا يكتفي بايراد الحادث على ما عُرف وتناقله

---

(١) اي يؤثر احداً على نفسه (٢) القوارع جمع قارعة وذلك الامر العظيم ينزل بالانسان فيهلك (٣) كتاب المقابسات ١٧

الرواة ، بل يعرض له ويرسل صيّباً مدراراً من فائض بلاغته ، وزاخر بيانه ، فاذا هو قصّة ذات وقائع واشخاص وابطال ، تروع اذا مُثّلت ، وتروق اذا قرئت ، وتملك المشاعر والقلوب اذا استمعت . ومع ما يدخله عليها من أصباغ ، وما يطليها به من الوان ، فهو لا يعدو في النتيجة ان يمثل الحقيقة في اصدق مظاهرها . فهو الكاتب القصصي الماهر الذي اهدته الينا الأعصار الاول . وله طبع دافق ، وفكر سابق ، وعقل فياض بالحكمة وفصل الخطاب . ومن اخصّ مزاياه انه يمزج الادب بالحكمة ، والتصوّف بالفلسفة . ويولد من بين هذا المزيج مذهباً خاصاً له لم يسبق اليه » .

وفي كتاب النثر الفني للاستاذ مبارك بحث ضاف في نفسية التوحيدي وادبه . ويصف اسلوبه عرضاً فيذكر من صفاته الازدواج على طريقة الجاحظ والاستطراد الممتع كما تراه في كتاب الصداقة والصديق[1]

فالرجل كان يجري على طريقة الجاحظ ومن ادلة ذلك رسالته الى ابي الفتح ابن العميد ومنها[2] — « اقول وخير القول ما عقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن الشكر ، وخير الشكر ما بدا عن اخلاص ، وخير الاخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق —

« لما رأيت شبابي هرَماً بالفقر ، وفقري غنىً بالقناعة ، وقناعتي عجزاً عند اهل التحصيل ، عدلتُ الى الزمان اطلب اليه مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه نابيا ، وعنانه عن رضاي منثنيا ، وجنانه في مرادي خشنا ، وارتفاقي في اسبابه سببا ، والشامت بي على الحدثان متماديا ، طمعت في

(١) النثر الفني ١ — ١٣٨ و ١٣٩ (٢) كتاب المقابسات ١٠٥

السكوت تجلدا ، وانتحلت القناعة رياضة ، وتألّفت شارد حرصي متوقفا ، وطويت منشور آمالي متنزّها ، وجمعت رجائي ساليا ، وادّرعت الصبر مستمرّا ولبست العفاف ضنًّا ، واتخذت الانقباض صناعة ، وكنت بالعلاء مجتهدا . هذا بعد ان تصفحت الناس فوجدتهم احد رجلين : رجلاً ان نطق نطق عن غيظٍ ودِمنة ، وان سكت سكت عن ضغن وإحنة ، ورجلاً ان بذل كدّر بامتنانه بذله ، وان منع حسن باحتياله بخله ، فلم يطل دهري في اثنانه متبرّحاً بطول الغربة ، وشظف العيش ، وكلب الزمان ، وعجف المال ، وجفاء الاهل ، وسوء الحال ، وعادية العدو ، وكسوف البال ، متحرّقاً من الحنق على لئيم لا اجد مصرفاً عنه ، منقطعاً من الشوق الى كريم لا اجد سبيلاً اليه ، حتى لاحت غرّة الاستاذ فقلت » —

ويأخذ هنا بوصف ابي الفتح والاسهاب بذكر محامده والتفنن في التزلّف اليه فيمزج بين السجع والازدواج ويلفّق من صنوف العبارات ما لا يتسع له هذا المقام

ويلتزم التوحيدي هذا الاسلوب المزدوج في اكثر كتاباته القصصية والفلسفية والوصفية كقوله في الناموس الالهي ووضعه بين الخلق[1] — قال « لا بدّ في وضع الناموس الالهي الذي يتوجه به افاضة الخير ، وترتيب السياسة وما يورث سكون البال ، ويحسم مواد الشرّ ، ويوطّد دعائم السنن ويبعث على تشريف النفوس وتزيين الاخلاق ، ويقرّب الطريق الى السعادة المطلوبه ، ويواصل اسباب الحكمة ، ويشوق الارواح الى طلب الحق ، وايثار العقد ، ويقدّم دواعي العدل والنصفة والرحمة والمكرمة ، من الاخبار التي تنقسم بين ما هو صدق محض ، وبين ما هو صدق ممزوج ، وتكون

(١) المقابسات ١٤٢

الالفاظ التي تدور بها ، واللغات التي ترجع اليها ، كثيرة الوجود ، سمحة عند التأويل . وانما وجب ذلك لان الناس في اصل جبلتهم ، وبدء خلقهم واوّل سنخهم ، قد افترقوا مجتمعين ، واجتمعوا مفترقين ، واختلفوا مؤتلفين وائتلفوا مختلفين ، وأحساسهم متوقدة ، وظنونهم جوّالة ، وعقولهم متفاوتة واذهانهم عاملة ، وآراؤهم سانحة ، وكلّ منهم منفرد بمزاج وشكل وطباع وخلق ونظر وفكر ، واصل وفرع واختبار ، والف وعادة ، وضراوة ونفرة واستحسان واستقباح ، وتوق ووقفة ، واقدام وجسارة ، واعتراف وشهادة وبهت ومكابرة »

وعلى هذا النسق من الاستطراد والازدواج تجد القصص والاسمار التي وضعها على لسان غيره ، كحديث ابي بكر وعلي وقد مرّ ذكره ، وحديث الهندسة والزندقة ، والمنطق اليوناني والنحو العربي وما الى ذلك من طرائف الاخبار

. . . . .

والذي يظهر مما ذكرناه من الامثلة ان السجع على تعاظم شأنه وسيادته في القرن الرابع الهجري لم يقض على الازدواج غير المسجع (الاسلوب المتوازن) ، بل تجاريا معاً في حلقات الادب حتى الى ما بعد ذلك القرن . فهذا الثعالبي (المتوفى ٤٢٥) تجده في كتابه يتيمة الدهر[1] على ميله الى التأنق السجعي لا يتقيد به دائماً بل يعتمد احياناً الاسلوب الآخر كاقواله التالية

---

(١) هو كتاب تراجم لمشاهير اهل عصره ومن تقدمهم قليلاً ويقع في اربعة اجزاء وبعد من كتب الادب النفيسة والمراجع الثمينة

في ابي فراس (١)

كان فرد دهره ، وشمس عصره ، ادباً وفضلاً ، و كرماً ونبلاً ، ومجداً وبلاغة، وبراعة وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف ، وعزّة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله الاّ في شعر عبدالله بن المعتز : وابو فراس يعد اشعر منه عند اهل الصنعة ونقدة الكلام »

في ابن لنكك ابي الحسن البصري (٢)

فرد البصرة ، وصدر ادبائها ، وبدر ظرفائها ، في زمانه ، والمرجوع اليه في لطائف الادب وظرائفه طول ايامه ، و كانت حرفة الادب تمسّه وتجشمه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه . واتفق في ايامه هبوب الريح للمتنبي وعلو رتبته ، وبعد صيته ، وارتفاع مقدار ابي رياش اليمامي ، وسمو نجمه ، ونفاق سوقه ، وفوزهما بالمراتب والحظوظ دونه ، وسعادتهما من الادب بما شقي به . وحصل ابو الحسن على ثلبهما ، والتشفي بذمّهما . وا كثر شعره ملح وظرف ، خفيفة الارواح . تأخذ من القلوب بمجامعها ، وتقع من النفوس احسن مواقعها ، وجلُّها في شكوى الزمان واهله ، وهجاء شعراء اهل عصره »

في ابي القاسم الاصبهاني (٣) :

« شاعر ملء ثوبه ، محسن ملء فمه ، مرغوب في ديباجة كلامه ، متنافس في سحر شعره ، ولم يقع اليَّ ديوانه بعد ، وانما حصلت من افواه الرواة على قطرة من سبَج غرره ، وغيض من فيض مُلَحه »

---

(١) اليتيمة ١ — ٢٢ (٢) اليتيمة ٢ — ١١٦ (٣) اليتيمة ٣ — ١٤٦

في ابي بكر الخوارزمي [1] :

« باقعة الدهر ، وبحر الادب ، وعَلَم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظَّرف وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ، ويحاضر باخبار العرب وايامها ودواوينها ، ويدرّس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ويأتي بكل فقرة ودرّة ، ويبلغ في محاسن الادب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن ، بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ، ونعمة نعمته ، وبراعة جدّه ، وحلاوة هزله »

في بديع الزمان الهمذاني [2] :

يترجم له في نحو ثلاث صفحات يجمع فيها بين نوعي الازدواج المسجَّع وغير المسجع جمعاً يدل على ما اشرنا اليه من ان الاسلوب الاخير بقي يجاري الاول الى اوائل القرن الخامس . قال :

« هو احمد بن الحسين بديع الزمان ، ومعجزة همذان ، ونادرة الفلك وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلقَ نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته ، ولم يرَ ولم يروَ ان احداً بلغ مبلغه من لب الادب وسره ، وجاء بمثل اعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي اكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ، ويؤديها من اولها الى آخرها لا يخرم حرفاً ، ولا يخل معنى »

---

(١) اليتيمة ٤ — ١١٤ (٢) اليتيمة ٤ ص١٦٧—١٦٩

ثم يقول :

« وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ناصع الطرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة ، وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة ، وهو مقتبل الشبيبة غض الحداثة وقد درس على ابي الحسين بن فارس واخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه ، واستنزف بحره ، وورد حضرة الصاحب ابي القاسم فتزوّد من ثمارها ، وحسن آثارها ، ثم قدم جرجان واقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية ، والتعيش في اكنافهم ، والاقتباس من انوارهم »

ويجري على هذا النمط الى ان يقول :

« وتصرّفت به احوال جميلة ، واسفار كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الاّ دخلها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ولا امير ، ولا وزير ولا رئيس الاّ استمطر منه بنوءٍ ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القِسَم ، والقى عصاه بهراة واتخذها دار قراره ، ومجمع اسبابه ، وما زال يرتاد للوصلة بيتاً يجمع الاصل والفضل والطهارة والستر ، والقديم والحديث حتى وفق التوفيق كله وخار الله له في مصاهرة ابي عليّ الحسين بن محمد الخشنامي وهو الفاضل الكريم الاصيل الذي لا يزاد اختبارا ، الا زيد اختيارا ، فانتظمت احوال ابي الفضل بصهره وتعرّفت القرّة في عينه ، والقوّة في ظهره ، واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ اشدّه واربى على اربعين سنة ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه ، في سنة ثمان وتسعين وثلثماية ، فقامت عليه نوادب الادب ، وانثلم حد القلم ، وفقدت عين الفضل قرّتها ، وجبهة الدهر غرّتها

وبكاه الافاضل مع الفضائل ، ورثاه الاكارم مع المكارم ، على انه مامات من لم يمت ذكره ، ولقد خلد من بقي عَلَى الايام نظمه ونثره ، والله يتولاه بعفوه وغفرانه ، ويحييه بروحه وريحانه : وانا كاتب من ظرف ملحه ، ولفظ غرره ، ما هو غذاء القلب ونسيم العيش ، وقوت النفس ، ومادة الانس»

. . . . .

والذي يتحرّى المصنَّفات الادبية ما بعد القرن الخامس الهجري يرى انه برغم سيادة السجع التي امتدّت الى عهد قريب منا ، وبرغم ما ظهر في النهضة الاخيرة من اندحاره امام بساطة النثر المُرسل ، لا يزال الازدواج المطلق حيًّا ، وكثيراً ما يظهر في اقوال الخطباء والمترسلين . نعم فَقدَ ما كان له من السيادة في صدر الدولة العباسية ولم يُتح له بعد ذلك ان يكون اسلوب الترسُّل العام ولكنك تجده في كل قرن وفي كثير من حلقات النثر المرسل ولا سيما اذا فاضت عواطف الفؤاد واتَّقدت فتطلَّبت الاتزان في العبارات والتعادل في المعاني

وفي ترسُّل ادبائنا المتأخرين شواهد كثيرة على توازن العبارات او ازدواجها وسنتناول ذلك في كتاب خاص نعرض فيه المناحي النثرية في الادب الحديث

الاسلوب المسجع

---

١ — نظرة خاصة في خصائصه ومواطنه

٢ — الرسائل الديوانية ورجالها

٣ — الرسائل والمصنَّفات الادبية

٤ — المقامات والخطب الروحية

الاسلوب المسجع

نظرة عامة في خصائصه

السجع ومنزلته عند القدماء

عرفنا ان السجع قديم يرجع الى العهود الجاهلية وانه لم يخلُ منه عصر من عصور الادب ولا نستثني من ذلك عصر صدر الاسلام . الاّ ان اهل ذلك العصر لم يبلغوا به حدّ الصناعة المحكمة الاصول ، ولم يجعلوه منهاج الترسّل العام كما فعل الادباء في القرن الرابع الهجري وما بعده

ففي القرن الرابع اخذ هذا الاسلوب الانشائي يسيطر على الادب المنثور واقترنت سيطرته بسيطرة البديع فكانت البلاغة العربية منذ ذلك الحين الى عهد غير بعيد عنا عبارة عن حسن التسجيع مقروناً بالتوفُّر على المحسنات اللفظية والمعنوية . وعلى ذلك قال ابو هلال العسكري[1]

« لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاماً لا يخلو من الازدواج ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لانه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في اوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه » . . .

« واما ما زوّج بينه بالفواصل فهو كثير مثل قوله تعالى — فاذا فرغتَ فانصَب ، والى ربِّك فارغب — وقوله سبحانه — فامّا اليتيمَ فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر — » . .

---

(١) الصناعتين ٢٠٠

ثم يذكر السجع في كلام النبي وكرهه لكلام الكهان ويعلق على ذلك بان النبي لم يكره السجع لكونه مسجعاً وانه هو استعمله في كلامه « بل ربما غيَّر الكلمة للموازنة بين الالفاظ واتباع الكلمة اخواتها كقوله (ص) — اعيذه من الهامَّة ، والسامَّة ، وكل عين لامَّة — وانما اراد ملمة

وقوله — ارجعن مازورات ، غير ماجورات وانما اراد موزورات من الوزر قال العسكري « واذا سلم (اي السجع) من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام احسن منه »

ويجري ضياء الدين بن الاثير مجري العسكري في التدليل على فضل السجع وانه اعلى درجات الكلام ويستند في ذلك الى القرآن والحديث ويا تي بكثير من الامثله فليراجعها من اراد[1]

وشروط السجع البليغ عنده ما يلي[2] —

١ — ان تكون الالفاظ حلوة حادَّة طنَّانة رنانة لا غثَّة ولا باردة

٢ — ان تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلَّت عليه اختها

ويتَّفق جميع البيانيين على ان افضل السجع هو القصير الفقرات المتساوي الفصول، ويتلوه ما كان الفصل الثاني اطول من الاول طولاً لا يخرج به عن حدّ الاعتدال . ويعيب ابن الاثير ما كان فيه الفصل الثاني اقصر من الاول[3] . والحقيقة ان هذا العيب نسبيّ فاذا لم يخرج عن حدّ الاعتدال لم يعدّ عيباً . وقد استشهد العسكري على ذلك بما جاء في الحديث النبوي — رحم الله من قال خيراً فغنم او سكت فسلم — وقوله (ص) للانصار —

(١) و (٢) المثل السائر ص ١١٤ — ١١٨ وص ١٤٧ — ١٥١

(٣) المثل السائر ص ١٥٠

«انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع[١] وجاراه القلقشندي[٢] واستشهد من القرآن بالآيتين — «اذ يُريكَهمُ الله في منامك قليلاً ولو اراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكنَّ الله سلَّم انه عليم بذات الصدور. واذ يُريكموهمْ اذ التقيتم في اعينكم قليلاً ويقلّلكم في اعينهم ليقضي الله امراً كان مفعولا والى الله تُرجع الامور» . فالاولى عشرون كلمة والثانية تسع عشرة .

وقد اعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم وسمَّى اهل الصنعة هذا النوع من الشعر المرصَّع[٣]

اقتران السجع بالبديع

والبديع كالسجع قديم في النثر العربي، على انه لم يجعل فناً الا في صدر العصر العباسي. وقد رافق الاسلوب المسجع واقترن به فصار السجاعون يفتنّون في غرائبه افتنان الشعراء . ولايضاح ذلك نثبت هنا ما استخرجه عبد الرحمن بن علي اليزدادي من هذه الغرائب البديعية في رسائل الامير شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى ٤٠٣ . قال :

«ثم استخرجت من هذه الرسائل انواعاً لم يكن وجدها قُدامة فيما فتّش من كلام الفصحاء وتوليّت تسميتها بما شاكلها من النعوت وعددها اربعة عشر وهي[٤]

المجمع — كقوله : صام عن جواب ما نفذ اليه ، ونام عما لزمه في حق

---

(١) الصناعتين ٢٠٢ (٢) صبح الاعشى ٢٠ — ٣٧٨
(٣) الصناعتين ٢٠٣ (٤) كمال البلاغة ص ١٩ — ٢٢

الاعتماد عليه ، و كذلك : قد طال مقام فلان فتجاوز كل طول ، وأقفل باب رجوعه فلا يرجى له قفول .

المتزاوج — كقوله : فاني مؤمّل غمام ، غير جهام ، ومعمل حسام غير كهام ، و كذلك : فمن مرّ على ارجاء بحره الهيّاج ، ونظر في لألاء بدره الوهّاج .

المتمثل — كقوله : وراض صعباً ساء خالقه ، وانهض صبحاً تبلّد فلقه ، وحلّ عقداً تولى الدهر شدّه ، وشب ضراماً أصلد الزمان زنده ، و كذلك يخال انه مكتفٍ بجاهه وعِرضه ، ومتعزّز بسمائه وارضه ، ولا يشعر اني كلٌّ لبعضه ، وطول في عرضه .

المبالغة — كقوله : فانه معتكف مقيم ، على ضامن كريم ، والكريم اذا ضمن لم يخلف ، واذا نهض لفضيلة لم يقف ،

ابداع القرائن — كقوله : لا سيما اذا كان فيما بدر منه ساهيا ، ولما كتب عليه سوء الانفاق ماحيا ، و كذلك : فافاض في وصف ما تلألأ من غرر افعاله ، وابرّ على كل جميل بجماله

المجانس — كقوله : وكيف يعرض عمن تعرِض رفاهة العيش باعراضه ، وتنقبض الارزاق بانقباضه ، واضاء نجم الاقبال اذا اقبل ، وأهلّ هلال الجدّ اذا تهلل .

المضادّ — كقوله : من اقعدته نكاية الايام ، اقامته اغاثة الكرام ، ومن ألبسه الليل ثوب ظلمائه ، نزعه النهار عنه بضيائه .

المتوائم — كقوله : قاصم الاصلاب ، وقاسم الاسلاب ، و كذلك خالمت خيله ، وسالمت سيله .

المخجل — كقوله : اثّرت فيه خجلة العثار ، ونهكته ذلة الاعتذار

المردد — كقوله : ومن رام ان يفري فيها كما يفري ، ويسري بنجومها كما يسري .

المتشابه — كقوله : وهاجر بهجره ، واصرَّ على صرمه ، ومال الى الملال ، ولم يصلَ نار الوصال

مشابهة الصورة — كقوله : التردُّد بين الرخاء والبأس ، والرجاء واليأس ، و كقوله : اذا حالف ، فاحسبه قد خالف ، واذا اعار ، فاحسبه قد اغار

المعكوس — كقوله : شيمته رفع الخامل الوضيع ، ووضع الفاضل الرفيع ، وقوله : فاعلم انه لا يسوؤني ما يسرُّك ، ولا يسرُّني ما يسوؤك واني لا اكره ما تحبه ، ولا احب ما تكرهه

. . . . .

وذكر عبد الرحيم بن شيت القرشي في كتابه معالم الكتابة القاب السجع فعدَّد منها نحو ثلاثين نوعاً نذكر منها ما يلي[1] —

الرصع — وهو كل كلمتين جاءتا على صيغة واحدة في اللفظ والخط لا تخالف احداهما الاخرى الا باول الحروف او بترتيب الحروف كقوله تعالى « ويل لكل هُمَزة لُمَزة » . وكقول القائل : الدنيا دار ممر والآخرة دار مقرّ . و كقولهم فلان ارفع القوم عمادا وافرعهم معادا

الترصيع — ومنه ترصيع اللغو وهو كل كلمتين جاءتا في النثر على صورة واحدة لا يفرق بينهما الا بالشكل والنقط كقوله وانا فيما فعلته نابغ لا تابع ، وعائد لا عائذ ، وحابس لا خائس

الالمام — وهو ان يلم الكاتب في صدر كلامه بكلمة فيبني عليها فصلا

(١) معالم الكتابة ٦٨ — ٨٥

ثم يعكس هذه الكلمة في اول الفصل التالي كقوله — افاض الله عليك نعمه واضاف اليك قِسمه

التوشيع — كقوله ان فلاناً يميل الى الخير واتيانه ، وعن الشر واستحسانه (فلفظ يميل يحتمل ان يكون الى الشيء وعنه وهذا هو التوشيع)

التتميم — كقوله فلان عالٍ عالم ، وقاضٍ قاضب ، وغالٍ غالِب

التكرير — ومنها تكرير القافية كقوله — لا زال عالي المنار ، حامي الذمار ، عزيز الجار ، هامي النعم : وافي المجد ، نامي الحمد ، جديد الجدّ ، وافر القسم

او تكرير اللفظة كقوله : باسم الايام ، باسم الايادي ، باسم الخدام ماضي الامر ، ماضي العزم ، ماضي الحسام

الهدم — ان تنقض صفة بصفة اخرى على طريق الاستدراك كقوله هو سبط الخلائق الا انه جعد الانامل

الجحد — وهو ان تنكر شيئاً لا تحقق فيه الانكار بل هو على حكم المبالغة — مثاله : وقلبي قلق لِما بلغني من تألمك ، ولا و الله مالي بقلبي منذ بلغني ذلك عهد : وعندي من الالم ما لا استطيع التعبير عنه ، ولا والله ما اعرف الالم بعدم الاحساس بالحال التي احدثها عندي الوجد

التفسير : ان يكون في صدر الكلام جملة يفسرها ما بعده — كقوله قد جعلت لك عيني وقلبي حرساً وسكناً ، ومع ذلك فما اجد عليك شيئاً عندي موئتمناً .

الاستخدام — وهو ان تكون الكلمة تقتضي معنيين فتستخدم فيهما جميعاً كقوله : انا على عهدك الذي تعلمه لم احلّ من امرك عقداً ، ولا مكاناً آنس منك فيه فقداً — (فقد استعمل احلّ في المعنيين)

الاستطراد — وهو ان يكون في قضية فيخرج منها الى اخرى ويفيد بذلك معنى من مدح او ذم كقوله : ادام الله سعادة الحضرة حتى يوجد لها سبب في الفضائل ، وحتى يقلع فلان عما فيه من الرذائل . وفي قلبي من حرّ الشوق اليها ما يقع ذكرها منه موقع الماء الزلال ، وفي حشاي من الوجد بها ما في صدر فلان من الغيظ عند التماس النوال

التعليق — هو ان يعلّق معنى بمعنى ومثاله : وانت ابداً تردّ على قولي حتى كأني الومك فيما طُبعت عليه من النوال ، او اسومك ان تكون وانت من سادات الكرام من البخّال

الترديد — هو ان تردّ آخر الكلام على اوله ومثاله : وسيدنا سريع الى من يحدّثه الى الخير ، متقاعد عن الانحدار الى الشر غير سريع ، مَريع الجانب للآوي اليه وللواشي منيع غير مريع .

وهناك الاحتراس والتورية والمقابلة والموازنة والتقسيم والاعتراض وسواها ، ناهيك بالاستعارة والجناس والطباق من انواع الصناعة البيانية المشهورة التي اولع بها الادباء والتي نراها مفصلة في كتب البيان والبديع .

. . . .

والمهمّ هنا ان نعرف ان صناعة السجع وصلت في العصر العباسي الى حدّ عظيم من التأنق واصبحت في ذلك العصر وفي العصور التي تلته الزي الانشائي العام فسيطرت الاناقة البديعية على دواوين الانشاء في الدول المختلفة واصبحت المقياس الاعلى في حلقات الادب بل تعدّت ذلك الى التاريخ والعلم كما سنرى بعد .

وعلى هذا المقياس تناول القلقشندي وهو من منشئي القرن التاسع

الهجري خمس نسخ او رسائل من « تذكرة اللبيب » لمحمد بن المكرّم وانتقدها فقال [1]

« وليس منها ما هو حسن الترتيب ، رائق الالفاظ ، بهج المعاني ، بليغ المقاصد ، غير النسخة الاخيرة المعقودة بين الملك الاشرف وبين الملك « دون حاكم » . اما سائر النسخ المتقدمة فانها مبتذلة الالفاظ ، غير رائقة الترتيب ، لا يصدر مثلها من كاتب عنده ادني ممارسة لصناعة الكلام . والعجب من صدور ذلك في زمن « الظاهر بيبرس » و « المنصور قلاوون » وهما من هما من عظماء الملوك ! وكتابة الانشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس ارباب البلاغة . ولعلّ ذلك انما وقع ، لان الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام ، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصلٍ فصل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بالفاظ مبتذلة غير رائقة ، طلباً للسرعة ، الى ان ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي ، الى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسوّدة ، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج . اذ لو عدل فيها كاتب السلطان الى الترتيب ، وتحسين الالفاظ وبلاغة التركيب ، لاختلّ الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج اولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون انه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب الى ابقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسوّدة . وبالجملة فانما ذكرت النسخ المذكورة — على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها — لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله يحضر بباله من مقاصد المهادنات ، اغنانا الله تعالى عن الحاجة اليها » .

---

(١) صبح الاعشى ١٤ — ٧٠

وممن شعروا بوطأة هذا الاسلوب المتكلّف فثاروا عليه الكاتب المشهور ابن خلدون فقال[1] — « وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه، لم يفترقا الا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة، واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وسلطوا الاساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتّاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه » . ثم ينتقد ابن خلدون هذا الاسلوب وينعته بالبعد عن البلاغة وانه غير مطابق لمقتضيات الحال . الى ان يقول :

« وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلفّقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك »

وقد نشأ ابن خلدون في القرن الثامن الهجري وتوفي في مستهل القرن التاسع . ومن كلامه يدرك الباحث ما بلغه السجع من التأثير في الاسلوب الانشائي . وليس غرضنا هنا ان نحلل انتقاد ابن خلدون ونرى اوجه الصواب والخطأ فيه ولكن ان نشير الى حالة النثر في ايامه

ولم تكن ثورة هذا المؤرخ والاديب الكبير كافية للقضاء على سيطرة السجع : فان المترسلين الذين نشأوا بعد ابن خلدون جروا على منهاج اسلافهم

(١) المقدمة ٥٦٧ و٥٦٨

فدخل العصر العثماني وقد اتسعت الشقّة بين هذا الاسلوب الترسّلي المتكلف وبين ما كان عليه الانشاء (رسائل وخطباً) في صدر الاسلام . وسنرى فيما نعرضه من نصوص النثر العباسي وما تلاه ، ان الترسّل العربي اخذ لتحكّم الصناعة فيه تضعف روحه وفارقته تلك المزايا القديمة وهي — الايجاز ، والإحكام ، وارسال الكلام على السجية ، وانصرف الكتاب عن ابتكار المواضيع التي توحيها الى الادب مشاهد الطبيعة وحركات الحياة والعمران ، الى ابتكار المعاني البيانية والتنافس في نسج الحلل اللفظية

وكرّت القرون على الانشاء وهذا حاله : الخلف يقلد السلف متقيداً بما وضع له من قواعد لغوية وبيانية ، جارياً وعيناه الى الوراء في سبيل الحياة الادبية . وزاد الطين بلّة انهيار العنصر العربي في الشرق وتتابع دول اعجمية لم يكن لها من علاقة بالادب العربي الا ما كانت تقتضيه الغيرة الدينية او المصلحة السياسية ، حتى قامت الدولة العثمانية فاعتمدت لسانها التركي : ومع انها ظلت على احترامها الديني للغة العربية فقد اخذت هذه اللغة في ايامها تضعف واخذ الانشاء ينحطّ ، فلم يكد يدخل القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد حتى اصبح الترسل رث الديباجة ركيك العبارة

واتصل هذا الضعف بكتب العلم والتاريخ والادب لم ينج منه الا افراد قلائل ممن عنوا بدراسة الادب القديم وحافظوا على تراثهم اللغوي المجيد

وصحب ذلك انحطاط عام في المعرفة وفي اسباب العمران . ولا ينكر ان الانحطاط بدا قبل العصر العثماني ، ولكن الدولة العثمانية كانت جوًّا ملائماً له فاتسعت دائرته حتى وصل الادب العربي فيه الى احط دركاته

. . . . .

وسنرى كيف حدثت النهضة الاخيرة في الانشاء حتى بلغ ما بلغه في القرن العشرين ، و كيف غلب السجع والتأنق البياني على امرهما بعد سيادة مئات من السنين

مواطنه

يظهر السجع في الادب العربي في اربعة مواطن رئيسية وهي :

١ — الرسائل الديوانية اي المنشورات الاميرية وما اليها

٢ — الرسائل الادبية — ويدخل فيها النفثات الادبية الخاصة من اخوانيات ومناظرات واوصاف وخطب وحكايات وما يجري مجراها

٣ — المقامات — وهي معروفة

٤ — مقدمات الكتب

وقد تجد السجع عاماً في بعض كتب التاريخ والاخبار والتراجم كاليتيمة للثعالبي

واليميني للعتبي

وقلائد العقيان للفتح بن خاقان

والخريدة للعماد الاصبهاني

وريحانة الالبّاء للخفاجي

وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه

وسلك الدرر للمرادي

فلنتقدم الآن الى البحث في كل باب من هذه الابواب

الرسائل الديوانية

ويمتاز الانشاء فيها ببسط الكلام · وهو يتناول التهنئات بالنصر وتقليد الوظائف ومكاتبات العمال والملوك والامراء وما الى ذلك · ويختلف اسلوبها بحسب اغراضها

ففي التهنئات مثلاً يذهب الكاتب الى بسط الكلام في شكر الله وتعظيم النصر وذكر ما يتّصف به الممدوح من عزم واقدام وجَلَد ، ووصف جيشه وعدّته وعدده والتهويل بذكر العدوّ ووصف جمعه وعدده وغير ذلك مما تقتضيه عظمة النصر وحال الممدوح

وفي تقليد وظيفة تعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب ويراعى فيه امور عامّة ، منها — الاستهلال بذكر الرتبة او الحال وقدر النعمة ولقب صاحب التقليد واسمه · جاء في كتاب حسن التوسُّل في صناعة الترسُّل[1] — « ويحسن ان يكون الكلام منقسماً في التقليد على اربعة اقسام متقاربة المقادير —

فالربع الاول : الخطبة (اي مقدّمه الرسالة)

والربع الثاني : ذكر موقع الإنعام في حقّ المقلَّد وذكر الرتبة وتفخيم امرها

والربع الثالث : في اوصاف المقلَّد وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدلٍ وسياسة ومهابة وبُعد صيت وسمعة وشجاعة الخ

والربع الرابع : في الوصايا —

وسترى امثلة ذلك كله في الكلام على المنشئين · ولكي تعلم الفرق بين

---

(١) حسن التوسل ١٥٦ و ١٥٧

الايجاز الكتابي وبين الانشاء الديواني ننقل لك مرّة اخرى كتاب طاهر الى المأمون لنقابله بما هو في معناه من انشاء ضياء الدين بن الاثير وقد كتبه لاظهار الفرق بين الايجاز والاطناب

قال طاهر — « كتابي الى امير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه وخاتمه في يدي وعسكره مصرّف تحت امري والسلام »

فتوسع به ابن الاثير وقال :

« اصدر كتابه هذا وقد نُصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وانقلب باليد الملأى والعين القريرة ، وكان انتصاره بجدّ امير المؤمنين لا بجدّ نصله — والجدّ اغنى من الجيش وان كثرت أمداد خيله ورَجله — وجيء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسدٍ غير جسده ، وليس له قدم فيقال انه يسعى بقدمه ، ولا يدٌ فيقال انه يبطش بيده . ولقد طال وطَوله مؤذن بقصر شأنه ، وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه . واحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان يجري على نقش اسطره ، وكان يرجو ان يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنيّة دون مصدره . وكذلك البغي مرتعه وبيل ، ومصرعه جليل ، وسيفه وان مضى فانه عند الضرب كليل : وقد نطق الفأل بانّ الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه . وهذا الفتح اساس لما يُستقبل بناؤه ، ولا يستقرّ البناء الاّ على اساسه والعساكر التي كانت على امير المؤمنين حرباً صارت له سِلْماً ، واعطته البيعة عِلماً بفضله وليس من تابع تقليداً كمن هو تابع عِلما . وهم الآن مصرّفون تحت الاوامر ، ممتحَنون بكشف السرائر ، مطيفون باللواء الذي خصّه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر . وكما سرَت خطوات القلم في اثناء هذا

(١) المثل السائر ٣٣٩

القرطاس ، فكذلك طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس . وليس في البلاد ما يغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر نقاباً . وعلى الله اتمام النعم التي افتتحها ، واجابة امير المؤمنين الى مقترحاته التي اقترحها والسلام » .

وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى الا انه فصّل ذلك الاجمال . والذي نراه ان تفصيل ابن الاثير او اطنابه نموذج لما وصل اليه الانشاء الديواني بعد ان ساده التأنق البيانيّ وانصرف الكتاب الى المحسّنات اللفظية

. . . . .

وقد اصبح للانشاء البياني مع الزمان قواعد مقرّرة منها ما يلي (ملخصة عن صبح الاعشى الجزء السادس)

١ — براعة الاستهلال او التحميدات « بان يأتي في صدر المكاتبة بما يدلّ على عجزها . فان كان الكتاب بفتح اتى في اوّله بما يدلّ على التهنئة ، او بتعزية اتى في اوله بما يدلّ على التعزية ، او في غير ذلك من المعاني اتى في اوّله بما يدلّ عليه ليعلم من مبدإ الكتاب ما المراد منه . وفضلاء الكتاب وائمتهم يعتنون بذلك كل الاعتناء[1] »

٢ — ان يأتي الكاتب في المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدّمة تكون بساطاً لما يريد فاذا كان الكلام في الجهاد او الفتح او جباية الخراج او غير ذلك كانت المقدمات مشتملة على الغرض المطلوب . اما الامور التي لا تشتمل عَلَى المقاصد الجليلة كرقاع التحف والهدايا فلا يجعل لها مقدّمة تكون امامها[2]

٣ — ان يراعي مواقع آيات القرآن وابيات الشعر في المكاتبة وليس

(١) صبح الاعشى ٦ — ٢٧٦ (٢) صبح الاعشى ٦ — ٢٧٨ و ٢٧٩

لهم في ذلك قاعدة خاصة ، بل مذاهبهم مختلفة ومقاصدهم متباينة بحسب الاغراض[١]

٤ — ان يراعى في المكاتبات ما يعمل فيه على الايجاز او على التبسط والاطناب ، ولذلك اماكن معروفة عند الكتاب ذكرها القلقشندي في صبح الاعشى[٢]

٥ — استعمال البديع او المحسّنات اللفظية والمعنوية وقد مرّ معنا شيء مما ذكروه من هذه البدائع الفنية فلا لزوم لاعادتها هنا .

. . . .

وقد نقل ابن عبد ربه في العقد الفريد كلاماً للشيباني في ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز، وهو يجمع بين مراعاة طبقات المخاطبين وبين ما يجب استعماله او تجنبه من الالفاظ والعبارات . واكثره داخل في باب البلاغة فنقتصر هنا على الاشارة اليه[٣]

ومن الكتب التي تبحث في قواعد الكتابة الديوانية كما كان يفهمها كتاب العصر العباسي وما بعده — « معالم الكتابة » وقد مرّ ذكره و« حسن التوسل في صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبي . و« موادّ البيان » و « التعريف بالمصطلح الشريف » وسواها . وكل هذه الكتب مما اعتمد عليه صاحب صبح الاعشى وهي حرية بالمراجعة والدرس

وقد كانوا في العصر العباسي يتخيّرون للانشاء الديواني بلغاء الكتاب لما يترتب عليه من التبعات الجسيمة . وكان لاولئك الكتاب منه رزق واسع وجاه عريض فاقبلوا عليه وتغالوا في الافتنان به . ولا يظهر انه طرأ على

---

(١) راجع ذلك في صبح الاعشى ٦ ص ٣٠٦ — ٣١٢ (٢) راجع تفصيل ذلك في صبح الاعشى ٦ ص ٣١٥ — ٣٢٢ (٣) العقد ٢ — ٢١٣ و ٢١٤

الاسلوب الديواني بعد العباسيين تغير يذكر . فقد ظلت اللغة العربية طيلة العصر المغولي لغة السياسة والعلم والدين، فنبغ في اثنائه جملة صالحة من اشهر حملة الاقلام . وكانت حواضر مصر والشام مراكز العلوم والآداب العربية فتكاثرت فيها المدارس . وفي هذا العصر وضع عدد من اهم الكتب اللغوية والتاريخية والادبية والموسوعات العامة يضيق المقام عن استيعاب اسمائها فلتراجع في مظانّها . والذي يهمنا هنا ان نلفت النظر الى ان الانشاء العربي ظل في كل ذلك العهد ، بل والى ما بعده ، بقليل ، على مكانته التي كانت له قبلاً ويكفيك للدلالة على ذلك ان نذكر بعضاً من مشاهير ادبائه ومجيدي الانشاء فيه — فمنهم

ابن خلكان — (المتوفى ٦٨١ هـ) وقد اشتهر بكتابه وفيات الاعيان

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (المتوفى ٦٩٢) وهو مؤرخ وكان مترسلا على طريقة القاضي الفاضل

ابن الطقطقي — (المتوفى ٧٠١) صاحب كتاب الفخري

جمال الدين الوطواط (٧١٨) « غرر الخصائص الواضحة ، ومباهج الفكر وله رسائل طبعت بمصر ١٣١٥

ابن فهد — (٧٢٥) صاحب ديوان الانشاء عند الظاهر بيبرس

عمر بن الوردي (٧٤٩) وهو الاديب الشاعر المعروف

صلاح الدين الصفدي (٧٦٤) صاحب الوافي بالوفيات وغيره وقد تولى ديوان الانشاء في صفد ومصر ثم في حلب وهو من اعظم الكتاب

لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦) اديب الاندلس ومن اشهر مؤرخيها وستأتي ترجمته بعد

ابن خلدون (٨٠٨) وهو اشهر من ان يعرَّف

ابو العباس القلقشندي (٨٢١) صاحب صبح الاعشى واحد كبار المنشئين

تقي الدين بن حجة الحموي (٨٣٧٠) كان رئيس ادباء عصره وقد تولى الانشاء في مصر وله مؤلفات نثرية وشعرية

ابن عربشاه (٨٥٤) صاحب (عجائب المقدور) و (فاكهة الخلفاء) وقد تولى ديوان الانشاء لمحمد الاول العثماني في آسيا الصغرى

شمس الدين النواجي (٨٥٩) صاحب حلبة الكميت

. . . . .

وجاء العصر العثماني وحال الانشاء كما ذكرنا لكن الدولة العثمانية احتفظت عموماً بلسانها التركي للمخاطبات والمكاتبات فأدّى ذلك مع الزمان الى ضعف الانشاء العربي في دواوين الحكومة حتى في البلدان العربية. ولا ينكر ان العثمانيين كانوا احياناً يقرّبون العلماء وينشطونهم ، وقد ظهر من هؤلاء جماعة تذكر في ميادين العلم والتاريخ والادب مثل :

ابن اياس	٩٣٠ هـ	صاحب بدائع الزهور
طاش كبري زاده	٩٦٨ ″	مفتاح السعادة
العاملي	١٠٠٣ ″	الكشكول
الحسن البوريني	١٠٢٤ ″	تراجم الاعيان وشرح ابن الفارض
المقَّري	١٠٤١ ″	نفح الطيب
حاجي خليفه	١٠٦٨ ″	كشف الظنون
الخفاجي	١٠٦٩ ″	طراز المجالس ، وشفاء الغليل

البديعي	١٠٧٣هـ	صاحب الصبح المنبي
المحبّي	١١١١	〃 خلاصة الأثر
عبد الغني النابلسي	١١٤٣	الاديب الرحالة المشهور
الزَبيدي	١٢٠٥	صاحب تاج العروس
المرادي	١٢٠٦	〃 سلك الدرر

وكثيرين سواهم —

. . . .

ولكن ذلك لم يَحُلْ دون تدرُّج الانشاء الديواني نحو الضعف الذي استولى عليه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما سنرى فيما نثبته من منثور ذينك القرنين. وهذا الضعف يظهر في وجهين :

١ — في تكلف السجع والبديع تقليداً لمن تقدّم من كبار المترسلين

٢ — في الركاكة والاسفاف الى دركة العامية

وتأييداً لذلك نثبت النصوص التالية وما هي الاَّ نماذج لمئات غيرها من مخلّفات القرنين الماضيين تجدها في مظانّها التاريخية [1]

---

(١) من احب الاطلاع عليها فليراجع الكتب التالية — تاريخ الامير حيدر ، تحقيق الاستاذين اسد رستم وفؤاد بستاني — الاصول التاريخية للدكتور اسد رستم — المجلة البطريركية السورية — كتاب الانس المفيد نشر دي ساسي — كتاب الشيخ ظاهر العمر لمخايل الصباغ — محررات سياسية لفيليب وفريد الخازن — وسواها

امثلة من الرسائل الديوانية

في العهد العثماني المتأخر[1]

١ — تعريف السلطان مصطفى بولادة ابنه سليم

سنة ١١٧٥ هـ او ١٧٦١ م

« دستور مكرّم ، مشير مفخّم ، لنظام العالم ، مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهمات الانام بالرأي الصايب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد اركان السعادة بالاجلال ، المتحُوف بعواطف الملك المتعال ، وزيري والي صيدا نعمان باشا ادام الله تعالى اجلاله ، وقدوة القضاة والحكام ، معدن الفضل والكرم ، مولانا قاضي صيدا زيد فضله

وبعده نعلمكم في هذا التوقيع الرفيع السلطاني الواصل اليكم ، بان حضرة واهب الوجود ، تقدّست ذاته عن الوالد والمولود ، بارادته الالهية ، ومشيئته الازلية : فمن عطاياه السنية جعل برسم العادة ان تكون من هذه الدولة سلاطين عظام ذو انصاف وخواقين كرام ، وزيّنها بنقش الزينة الزايدة وعلى تخت سلطنتها وتاج مجدها يتزايد الامن والامان ، والحماية الى عباد الرحمن . وجعله وسيلة في قطع عروق ارباب البغي والطغيان ، باتصال جوهر نسبها الجليل ، وبزود سلالتها الطاهرة بالتناسل السليل ، مستلزماً في ذلك ترتيب نظام العالم ، ومستحكماً رباطات سعود بني آدم ، ومن حين ما تيسر جلوسنا على هذا التخت المانوس العالي القوى السلطاني الى الان

نعم ان العطايا كيف كانت فهي من الرب الكريم « يهب لمن يشاء

---

(١) نثبت هذه الرسائل بنصوصها الاصلية دون تجوير ما في اللغة والعبارة

الاناث[1] ويهب لمن يشاء الذكور » . فقبل الآن نلنا من مواهبه الربانية هبة الله ، والآن اشرق في طالع سلطنتنا نجلاً طالعه في كوكب السعادة والاقبال ، التي كانت ساير الاقطار تسترصد موقعه ، وتترقب ظهوره ومرتعه ، فالآن انارت نوراً ، واشرقت العطية السبحانية ، وتلالت انوار المنحة الصمدانية في اليوم السابع والعشرين من جماد الاول . نهار الخميس المبارك بزغ الكوكب المنير من سلالتنا سلطان سليم ، اقرن الله تعالى شانه في البقاء والتكريم ، وجعله متعافياً في مهده ، راضعاً حليب المسرة من نهده ، فاقتضى اننا اشهرنا ، واظهرنا بشاير البهجة والافراح ، وعلايم السرور والانشراح الى جميع من هم تحت ذرى حمايتنا وسلطنتنا داخل وخارج مملكتنا ، وقد اشهرنا هذه المسرات العظيمة اولاً في مقر تختنا وعتبتنا العلية واجرينا مراسيمنا في علايم الافراح الى جميع ممالكنا المحروسة ، ومسالكنا المانوسة ، والى كافة العباد ، بانهم يمجدون الله تعالى على هذه النعمة الكبرى والعطية المفتخرة ، كون انها نعمة من باري جليل ، يجب لها انواع المسرات والتبجيل ، فلزم اصدار بشارتنا لكم عن يد افتخار الاماجد والاكارم قبجي باشى دام مجده ، ففي وصوله اليكم تعملون دعا في دوام سلطنتنا ، وامتداد عمر سلياتنا ، انتم وساير العباد والزهاد ، وتشهرون ذلك في المحافل والمساجد بالدعا على المعتاد القديم ، وتزينوا الاسواق والمصادر ، والحصون والقلاع ، وتشهروا ذلك باطلاق المدافع والشنك بالبندق واظهار انواع المسرات من غير اذية ولا مضرّة على الرعية ، واتبعوا مضمون فرماننا هذا واعتمدوا عليه غاية الاعتماد[2] »

---

(١) كذا وفي الآية اناثاً (٢) راجع الرسالة في تاريخ الامير حيدر ٥٥

٢ — كتاب السلطان عبد الحميد الاول الى امارة البندقية

سنة ١١٨٧ هـ او ١٧٧٣ م

— قال بعد مقدمة يصف فيها عظمته وسعة املاكه [1] —

« انا الشاه العالي السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد بن السلطان الشريف احمد خان من ذرية السلطان عثمان شاه ، جلّ الاله الذي علاه وولاه ، قد ابرزت هذا الدستور المكرم الى فخر الامراء المسيحيين الذي اليهم تلتجي بالصحيح ، اشراف واعيان عبادة المسيح ، السادات الشريف قدرهم ، والجليل ذكرهم ، العالي مقامهم ، والجليل احترامهم ، اليے امرآ البندقية ، جعل الله لهم النهاية السعيدة ، والهداية المفيدة ، على سبيل الخلاص الى الحياة العتيدة

اما بعد فاننا نوضح اليكم بانه قد درج بالوفاه ، الى سعادة مولاه ، السيد العظيم اخي الاكبر السلطان مصطفى ، تغمده الخالق بنور مجده الفايق ، واسبغ عليه انعامه الالهية ومراحمه الازلية ، فبموجب حقوق الخلافة المستقيمة ، والقوانين القديمة ، والعهود المستديمة ، ارتقينا بالاختيار ، بكل عدل واختيار ، الى سدة العز وتخت الانتصار ، في نهاية الجمعة السعيدة في عاشر ذي القعدة سنة ١١٨٧ اي في ستة ايام خلت من كانون الثاني سنة ١٧٧٣ مسيحية ، دُرج اسمنا في السكة الملوكية ، وانذرنا في جميع حدود حكمنا في قيامنا وعدلنا ورفعنا الظلم الكليم الكثيف ، باشراق حلمنا اللطيف وبموجب العوايد الاقدام ، المحفوظة من سلفاينا الكرام ، وجب اننا نعلن

---

(١) الامير حيدر ١٠١

جلوسنا السعيد على سدة الملوكية ، باصحاب الدولة العلية ، المرتبطون معنا بالصداقة الحقيقية ، بكتاباتنا الى السيد المعظم ، والامير المفخم ، المشهور بالعز واليقين ، بين دول المسيحيين ، اعني به بولص دينارخان ، والى امرا البندقية ذو المناقب الملوكية ، ختم الله نهاية حياتهم النقية ، بالسعادة الابدية ، والى ساير الاراكنة الاكرام ، صاحب الدولة المشهورة ، في البلدة المذكورة ، لكي يحصلوا على افراح جلوسنا السعيد ، وقيامنا المجيد ، وكما يقتضي لناهجهم الحميد ، بموجب العهدنامات الاتفاقية ، والشروط القانونية ، المرتبطة مع بلاطنا الملوكي في بابنا العالي ، يقدروا يوضحوا سرورهم ، ويشهدوا حبورهم الى ارباب الدول التي في حكمهم ، لكي يثبتوا على حفظ العهود والشروط ، وعلى اتصال العمل بها ، وقيام جميع الشرطنامات القديمة من كل حكمنا السعيد ، ولا يبدي من طرفهم شيء يفسد السلامة ، ومن جلالتنا الملوكية لا يمكن اننا نضع شيئاً حديثاً ضد ما ذكر ، ومهما كان قليلاً ، وذلك ان لكي المحبة والصداقة الخالصة ، المستحيلة من الطرفين تنما وتزداد دايماً لاجل رد الراحة والطمانينة لرعايا الجهتين »

٣ — فرمان السلطان الى الشيخ ضاهر العمر [1]

سنة ١١٨٨ه او ١٧٧٤ م

« قدوة الاماجد والاعيان الشيخ ضاهر العمر زيد قدره نعرفك بعد وصول امر همايوننا هذا يكون معلومك بانك من قديم الزمان من المتنعمين بنعيم الدولة العلية ، ومحقق صدق عبوديتك ببرهان الخدامات الصادقة ، وكنت صاحب الشهرة والشان بصدق النية وخلوص الطوية ، يشار اليك

(١) الامير حيدر ١٠٧

بالبنان ، و كنت تؤدّي الاموال الميرية قبل كل انسان ، وقطّ ما عرّجت عن صدق الخدامة ، وطرق الاستقامة ، الاّ منذ ازمنة قريبة لحدوث بعض اسباب ، وبحسب البشرة لاجل حفظ النفس اظهرت خمس سنوات التردد والوحشة . ولكن في هذا الوقت وصل الى سدتنا الملوكية عرض حالك بواسطة دستور مكرم ، مشيّد مفخم ، نظام العالم ، ناظم منظم الامم ، المدبر الجمهور بالفكر الثاقب ، ومتمم مهمات الانام بالراي الصايب . ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد اركان السعادة والاجلال ، مرتب مراتب الكرام ، مكمل ناموس السلطنة العظام ، المتحوف بعواطف الملك العلام ، الصدر الاعظم قوي الهمم ، دام الله اجلاله ، وضاعف بالتأييد اقتداره ، واقتباله

وكان مفهوم عرض حالك لسدتنا الملوكية بانك اذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات الغير مستحسنة صرت منظور بنظر الرحمة ، وملحوظ بعين الشفقة . فتضع قلادة الطاعة في رقبة العبودية ، فبناء على شوايع اطاعتك وثبوت عبوديتك (واتباعاً) لقوله تعالى « فمن عفا واصلح اجره على الله[1] » ، واقتداءً للحديث النبوي « فمن اقال نادماً اقاله الله يوم القيامة » وحبذا هذا كونه من الشيم السلطانية ، والسجايا الملوكية ، بشرط ان تسلك من بعد الآن سلوك الطاعة والعبودية ، ولا تنحرف عن منهج الاستقامة المرضية ، ولو باقل الامور واصغرها ، ولا تصرف وجهك عن تنظيم قطر الرعية وتحصيل الاموال الميرية سابقاً ولاحقاً ، ومن كل الوجوه اصرف سعيك في تحصيل رضانا ، الكاين عنه النمو والسعادة

---

(١) الآية « فمن عفا واصلحَ فأجرُه على الله »

فعلى هذه الشروط المذكورة اجرينا قلم مضى ما مضى عن صفايح ذنوبك الى يومنا هذا كل شيء صدر منك ومن ارفاقك . ومن توابعك ولواحقك وعشايرك ، فصاروا مشمولين بالعفو السلطاني ، فاشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون ، واعدوا هذه الرحمة السلطانية من النعم العظيمة ، وقدموا شكراً الى يوم القيامة . وان دمت على طاعة الاحكام الجليلة السلطانية ، قايماً بالخدمة المرضية مظهراً حسن الصداقة والطوية ، فلا تشاهد من طرفنا السلطاني الا اللطف والعناية ، وكن امين البال ، مطمان الاحوال ، وهمايوننا هذا اربطه على عضدك الايمن ، والاظهار بانعطافنا نحوك ارسلنا هذا الخط الهمايوني صحبة افتخار الاماجد الكرام ، قبوجيلار كتخواسينا احمد هاشم دام مجده ، وليكن معلوماً عند الجميع ان سلطنتنا المخلدة البنيان ، المشيدة الاركان ، قايمة على اساس الرحمة . فان صدر بحسب البشرية اجرا الذنوب من البيوت العتق واتبعوه بالتوبة والاتابة ، وتعلقوا باذيال المغفرة ، فالعفو عنهم من خصايص جدادنا الكرام ، ونحن اقتداءً بهم قد عفونا عن ذنوبك لكبر سنك وشيخوختك ، وشفقة منا على الرعايا والبرايا ، فعليك راى الله وامانه وراى الرسول وراينا السعيد ، فاحفظ همايوننا هذا قرط جوهر في عنقك ، واعتمد على علاماتنا السلطانية ، والحذر ثم الحذر من الخلاف »

٤ — من محفل الديوان الخصوصي بمصر

الى الاقاليم المصرية[1] سنه ١٢١٤ هـ او ١٧٩٩

« النصيحة من الايمان ، قال الله تعالى في محكم القرآن : فلا تتبعوا خطوات الشيطان : وقال تعالى : لا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في

---

(١) الامير حيدر ٢٦٩

الارض ولا يصلحون : فعلى العاقل ان يدبر الامور قبل وقوع المحذور ، نخبركم يا معشر المؤمنين انكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، وقد حضر الى محروسة مصر المحمية امير الجيوش الفرنسوية حضرة ابونابارته محب الملة المحمدية ، ونزل بعسكر في العادلية ، سليماً من العطب والاسقام ، شاكراً لله موحداً للملك العلام ، ودخل الى مصر من باب النصر يوم الجمعة عاشر محرم سنة ١٢١٤ من هجرته عليه السلام ، في موكب كبير عظيم بشنك جليل فخيم ، وعسكر كثير جسيم ، وصحبته العلما الازهرية والسادات البكرية ، والعنانية والدموراشية ، والخضوية والاحمدية ، والرفاعية ، والقادرية ، والوجاقات السبعية السلطانية ، وارباب الاقلام الديوانية واعيان التجار المصرية . وكان اليوم يوماً مشهوداً عظيماً لم يقع نظيره في المواكب السابقة قديماً ، وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقاته فوجدوه هو الامير الاول ابونابارته بذاته وصفاته وظهر لهم ان الناس يكذبون عليه ، وشرح الله (صدره للاسلام) ، ونظر الله بعين لطفه اليه والذي اشاع عنه هذه الاخبار الكاذبة العربان الفاجرة والغز الهاربة . ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعية ، وتدمير اهل الملة الاسلامية ، وتعطيل اموال الديوانية : لا يحبون راحة العباد . قد ازال الله دولتهم من شدة ظلمهم وقد بلغنا ان الالفي توجه الى الشرقية ، مع بعض المجرمين من عربان والقبائل الفجرة المفسدين يسعون في الارض بالفساد وينهبون اموال المسلمين ، ان ربك لبالمرصاد ، ويزورون على الفلاحين مكاتيب الكاذبة ، ويدعون ان عساكر السلطان حاضرة ، والحال انها ليست بحاضرة ، فلا اصل لهذا الخبر ولا صحة (له ولا اثر) . وانما مرادهم وقوع الناس في الهلاك والضرر ، مثلما يفعل ابراهيم بيك في غزه ، حين كان يرسل فرمانات بالكذب والبهتان

ويدعي انها من طرف السلطان ، ويصدقوه اهل الارياف خسفا العقول ، ولا يقرون بالعواقب فيقعون بالمصايب » — الخ الكتاب وهو طويل —

. . . . .

فمن الرسائل المار ذكرها يتضح ما كان عليه الانشاء العربي الديواني في القرن الثامن عشر . وهو عادة عبارات ركيكة التسجيع واهية التركيب وكثيراً ما تُسفّ الى دركات العامية ، كرسائل فخر الدين المعني الى دوق تسكانا[١] ، ورسالة عثمان باشا للامير يوسف بالعفو عن الشيخ ظاهر العمر[٢]

ولم تنحصر هذه الركاكة في مصر وسوريا وما اليهما من الاقطار العربية التي كانت تحت تأثير تركيا المباشر ، بل تعدّتهما حتى الى الاقطار النائية كما تشهد بذلك مراسلات سلطان مراكش وامام عمان وشريف مكة واليك امثلة منها[٣] —

كتاب سلطان مراكش

الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر[٤]

« صدر هذا المكتوب العلي الامامي الكريم المرواني الخليفي الهاشمي الفاطمي الحسني عن الامر النبوي الشريف العلوي الذي دانت لطاعته الكريمة ممالكه الاسلامية وانقادت لدعوته الشريفة الاقطار المغربية وخضعت لاوامره العلية جبابرة الملوك السودانية واقطارها القاصية والدانية الى الملك

---

(١) راجع المجلة البطريركية السنة ٧ ج ٦ و٧ (٢) راجع كتاب ظاهر العمر لمخائيل الصباغ ص ١٦٤ — ١٦٧ (٣) تجد هذه المراسلات في الانس المفيد (لدي ساسي) مج ١ ص ٤١٣ — ٥١٤ (٤) الانس المفيد ٤١٣

الذي له بين ملوك النصرانية والملل المسيحية الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة السامية المعظم سلطان فرانصة السلطان لويز بن السلاطين الكبار الذين لهم المكانة السامية المنار

اما بعد حمد الله مولى الحمد ومستحقه والصلاة والسلام على افضل البرية من خلقه والرضى عن آله الباذلين بمهجهم في نصرتهم والقيام بحقه ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الامامي المرواني العلوي الحسني النبوي بنصر متصل الدوام دايم الاتصال وتأييد كفيل بالسعد المتوالي في الحال والاستقبال

فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية مدينة مراكش المحروسة بالله المحمية ولا زايد بحمد الله الا ما سناه لايالتنا الشريفة من عوايد النصر والاقبال وصنايع الله الجميلة المفعمة السجال المتثالة في البكر والآصال لله المنة والشكر

هذا موجبه اليكم التعريف انه لما ورد خديمكم المرعي الملحوظ الرزيلي علي مرسي ثغر أسف المحروس بالله واسلم كتابكم المصحوب معه لخدّامنا الذين بالثغر بادروا بوصوله الينا في الفور فوقفنا منه على جميع ما اودعتم فيه من تقرير المحبة وتأسيس الهدنة بين الجانبين الى ما اشرتم اليه في شأن الاسارى الفرانصيين الذي رغبت من مقامنا العلي تسريحهم فاخذنا في ذلك اتم الاخذ واكمله الى ان استوفى ذلك على احسن وجه واجمله واجبناكم عن فصول كتابكم كلها فوجهنا به وبالنصارى المذكورين صحبة خديمنا الوجيه الاثير النفيل النبيه القايد يحيى بن محمد الجناتي قصد ان يلتقي مع خديمكم المذكور ان تأتّى له الاجتماع معه في البر، وان تعذر عليه ذلك يبعث لخديمنا من يقوم مقامه ممن هو مثله وبمثابته في اغراضكم ليسلم له النصارى المذكورين ويتكلم معه في اغراض الجانبين. ثم ان خديمنا المذكور لما بلغ الثغر اسف حرسه الله

فقد خديمكم من المرسي فسال عنه فقيل له قد اقلع منذ اربعة ايام فاقتصّ بعض الخدام اثره في البحر فلم يجد له اثراً. هذا وقد كان خديمكم على علم ويقين ان خديمنا المذكور قادم اليه وفي اثناء الطريق فقلق قبل وصوله والخديم الذي يكون بصدد اغراض ضيفه لا يستفزه شيء عن قضاياها ولا ينبغي له الانزعاج قبل استيفايها. فعرفنا كم بالواقع لتوقنوا اننا لم نقصر في اغراضكم المتلقاة لدينا بالقبول وبه وجب الكتب اليكم »

ومثله في الركاكة الكتب المتأخرة التي صدرت من مراكش الى لويس السادس عشر [1]

كتاب امام عمان الى قنصل فرنسا في بغداد [2]

سنة ١٢٠٠

« اشرف ما تتهاداه اهل الوداد واكمل ما تتعاطاه اهل المحبة والاتحاد دعاء لا تحصيه الاقلام وتحيات على ممر الدهور والاعوام يهدى ويتحف ويجلى ويزف بانواع المعالي والتحف الى جناب العالي الجاه والجناب محبنا ومودّنا الاكرم المكرم المحتشم سلمه الله تعالى من شر المحن وكفاه الله شر ما ظهر وبطن بجاه محمد سيد اهل المنن. ثم ان تحرك الخاطر العاطر بالسؤال عن حال من لا حال عن المحبة والاتحاد فمن حمد الله وكرمه في نهاية الاعتدال كثيرون السوال عنكم وعن احوالكم لا زلتم سالمين بجاه رب العالمين

ثم في ابرك الساعات واشرف الاوقات ورد علينا مشرفكم الشريف الحاوي المعنى اللطيف فاسر الخاطر وابهج الناظر حيث انه انبأ عن صحة ذاتكم واعتدال

---

(١) راجعها في الانيس المفيد ٤٤٠ — ٤٤٧ (٢) الانيس المفيد ٤٤٨

اوقاتكم وحمدنا الله سبحانه وتعالى على سلامتكم وما ذكرتم صار عندنا مفهوماً ومعلوماً وعنما ذكرتم لما كنتم في حضرة السلطان المعظم بالولاية وبلغكم ما وقع وصار علينا من امر المركب ولا جاز له هذا الامر ونحنا نعرف يقيناً بان لا يجوز اليه ولا يعجبه الامور التي تصدر على غير الحساب وجنابكم لما تكلمتم في حقنا بكلام الحسن الجميل الطيب فذلك من حسن سجيتكم وطيب مرضعكم فجزاكم الله عنا كل الخير. وانتم غير خفي عليكم محبتنا مع الفرنس من قديم الزمان في الحال والمال والرجال والبنادر كلها واحدة والقلوب شواهد. وانشاء الله تعالى متى وصلت مراكب السركار الى بندرنا المعمور عرفنا الوكيل خلفان بن محمد بانه يقوم لهم بجميع اللوازم الذي يحتاجون اليه من قليل او جليل . ولا يحتاج الى توصية. وبحول الله وقوته ما تسمعون من جنابنا الا الاخبار اللتي تسر الخاطر. وعنما ذكرتم ان السلطان المعظم امر بتوصيل المركب الموشور الجديد مع لوازمه. فيا عزيزنا انه الى هذا الآن بعده لم يصل وانشاء الله تعالى متى وصل بالسلامة فهو مقبول ونجعله علماً بين العدوّ والصديق. ولا كان يحتاج الى كل هذا التصديع حيث ان المال والحال واحد والضرر والنفع واحد، ولكن ما نحسبه على باب التصديع بل اننا نحسبه على باب المحبة والشفقة، ولا زلتم محضراً لكل خير انشاء الله تعالى . ونحنا عرفنا وذكرنا الى الوكيل خلفان بن محمد عن الرجل المتوفي بمسقط ولا بد ان يذكر لكم. والمرجو ان لا تقطعونا من اخبار سلامتكم واخبار السركار ومن عندنا الاولاد يقرونكم الدعاء . والسلام خير ختام »

كتاب شريف مكنة غالب الى مدير الحدود العامة بمصر (١)

سنة ١٢١٣

« . . وبعد فانه وصل الينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك مما ذكرت من وصول قنجتنا وانك ارسلت هجاناً برفع العشور عن البنّ وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه فهذا ما نؤمله من حميد الحركات ووفا المصادقات، فاوجب ذلك عندنا وافر السرور ومزيد الود والحبور. وتأملنا في كتابك فوجدنا من صدق مقاله ما اوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد عن تموُّه غياهب الشك في كل مراد

ووجب الآن علينا تكوين اسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمّات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة وشهّلنا الان الى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الاوان، ولا امكن لنا خروج هذا المقدار الا باشد علاج مع سلب اطمينان التجار لان كثرة اكاذيب الاخبار اوجبت لديهم مزيد الارتياب والاعذار بحيث ما بيننا وبينكم الا العربان المختلفة زواياتهم على ممر الازمان. واما نحن فقد جاتنا منكم قبل هذا المكاتيب التي اوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والاكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمانينة من قبلكم لما ثبت عندنا من الفاظ كتبكم »

والكتاب طويل وكله على هذا النسق العامي الذي يدلّ على ما بلغته لغة الدواوين من الانحطاط، بعد ان كان رجالها في العصور السابقة ينتخبون من امهر الكتاب

---

(١) الانيس المفيد ٤٩٩

ظلت هذه الركاكة عامّة في كثير من الدواوين الاميرية حتى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد : يدلك على ذلك مكاتبات ابراهيم باشا المصري وسائر الحكام الذين كانوا في مصر وسوريا في النصف الاول من القرن المذكور[١]

. . . . .

اما تكلُّف السجع فقد تأخر الى عهد اسماعيل باشا المصري فكانوا يلتزمونه في الاوامر الرسمية والمنشورات الدورية وسواها واليك امثلة منها :

رد مجلس الشورى على خطبة العرش

في ٢٦ نوفمبر ١٨٦٦ . وعباراته كما يقول ناشره[٢] —

« تعطينا صورة من الروح التي تسود المجلس ومن اسلوب الكتابة في ذلك العصر وما تحويه من العبارات الطويلة والسجع المتكلّف والتملّق البالغ لولي الامر » . ومن فقراته ما جاء في وصف اسماعيل باشا —

« ونفحتنا النفحات الالهية ، واسعفتنا العناية الربانية ، بالحضرة الاسماعيلية واعطى القوس باريها ، لطفاً من الله بهذه الديار ومن فيها ، وتولاّها العزيز ابن العزيز ذلك الجناب الافخم ، والداوري الاكرم ، فقام بتنظيم امورها على ساق وقدم ، وشمّر عن ساعد الجدّ والاجتهاد في تجديد ما انهدم ، واحياء ما انعدم ، واخذ يداوي تلك العلل ، ويبيد ما تخلّل بعد ابيه من الخلل ، وسعى في مقاصد ابيه وجدّه ، باذلاً في موجبات التقدّم والتمدّن الوطني غاية جهده »

---

(١) تجد امثلة كثيرة من هذه المكاتبات في الاصول التاريخية للدكتور اسد رستم وفي محررات سياسية لفيليب الخازن وسواها (٢) الرافعي في مجلة الهلال مج ٤٠ ص ٧٠٠ وهو منقول عن مضبطة المجلس

ومنها ذاكراً حسنات الخديوي في انشاء مجلس الشورى —

« لما يعلمه من ان جمع الآراء في امور العالمين ، والمداولة في مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين ، من مقتضيات حسن النظام ، وموجبات كمال الالتئام وتمام ، راحة الانام »

وختم الجواب بالشكر —

« لتلك الحضرة العلية ، والتباهي بتلك المنقبة البهية ، ورفع اكفّنا آناء الليل واطراف النهار بالدعوات ، في اجلّ الاوقات واسعد الحالات ، ان يخلد عزّ قطرنا هذا بدوام سعود افندينا الافخم ، وولي عهده حضرة محمد توفيق باشا الاعزّ الاكرم ، وكذا بقية الانجال الفخام ، ولا يحرم جمعنا من حسن انظارهم ، ونفائس محاسن افكارهم ، بجاه خاتم الرسل الكرام ، عليه افضل الصلاة وأتم السلام »

. . . .

على ان هذا السجع المتكلف لم يلبث ان ضعف امره وذلك ان البلدان العربية كانت قد بدأت بنهضة اجتماعية علمية انتهت باحياء الاسلوب المرسل والقضاء على ما كان يسود الانشاء من تكلف لفظي وتنميق بديعي . واذا قابلت رد المجلس الذي مر ذكره بردّ المجلس نفسه بعد ١٣ سنة (اي ١٨٧٩) اتضح لك ما نذهب اليه — واليك هذا الردّ [1]

« نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة ، نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عُنيت بتشكيل مجلس شورى النواب . الذي هو اساس المدنية والنظام . وعليه مدار العمران ، وهو السبب

(١) الهلال مج ٤٠ ص ١٢٥٦

الموجب لنوال الحرية ، التي هي منبع التقدّم والترقي ، وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف »
... الى ان يقول ...

« ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا ، وكمال ابتهاجنا بما تشرّفت به مسامعنا من خطاب جلالتكم الذي انبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزي الى اصلاح الامة المصرية ، والرغبة الخالصة في صعودها على معارج التقدّم ، وترقيها الى ذروة السعادة ، ونيلها الحرّية في تصرّفاتها قولاً وفعلاً ، حيث ابانت عظمتكم ان الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم في المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال الداخلية .

فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، واحيا آمال هذه الامة التي لا تزال راجية ان تنال شرفها التليد ، الذي شهدت به التواريخ وانبأت به الآثار ، بمساعي الحضرة الخديوية وهممها العالية

وانّا لا نألو جهداً في دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة ، قياماً باداء واجباتنا التي هي في الحقيقة مقاصد ولي النعم

فليحيَ الخديوي المعظم ، وانجاله الكرام ، ولتحيَ الحرية تحت ظلّ رعايته وحمايته آمين »

. . . . .

وهذا التحسن في عبارة الانشاء الديواني اخذ يعمّ جميع الاقطار العربية حتى اصبح اليوم لا يختلف عن الانشاء العام في الاوساط الادبية

نخبة من امراء الانشاء الديواني

ظهر في تاريخ الادب عدد كبير من كتاب الدواوين الذين اشتهروا باناقة الانشاء كابن العميد ، والصاحب ، والصابي ، والببغا ، وقابوس ، والثعالبي ، والخوارزمي ، والقاضي الفاضل ، وعماد الدين الاصبهاني ، وابن الاثير ، وابن نباتة ، وسواهم ممن تقدم ذكرهم في الفصل السابق [١]

ولما كان الانشاء الديواني في كل القرون على نسق واحد لم يتغير تغيراً يذكر الاَّ في عصر الانحطاط اللغوي الذي مرَّ معنا ذكره [٢] رأينا ان نختار من مشاهير رجاله اربعة يمثلون هذه الطبقة خير تمثيل ، وهم

ابن العميد	من اهل القرن الرابع	وزير بني بويه في فارس
الصابي	〃 〃 〃 〃	كاتب الخلافة في بغداد
القاضي الفاضل	〃 〃 〃 السادس	وزير الدولة الايوبية بمصر
ابن الخطيب	〃 〃 〃 الثامن	وزير غرناطة واديب الاندلس

وسنترجم لهم ونحاول عرض مزاياهم واثبات نصوص وافية من آثار اقلامهم

وقد مرَّ معنا انه نشأ بعد هؤلاء جملة من مشاهير الكتاب ولكنهم انما جروا على منهاج من تقدَّمهم ، وليس في الترجمة لهم والاستفاضة في ذكر آثارهم الاّ الاطالة التي لا فائدة منها

---

(١) راجع ص ٢٣٤ و٢٣٥ (٢) اي العهد العثماني المتأخر راجع ص ٢٣٦ وما بعدها

ابو الفضل ابن العميد

توفي ٣٦٠ هـ

توطئة تاريخية

يرجع ابن العميد الى اسرة فارسية من مدينة قُمّ . وكان ابوه وزيراً وكاتباً فنشأ الولد في بيت ادب و كتابة . قال الثعالبي[1] « ولم يرث ابن العميد الكتابة عن كلالة بل كان كما قال ذو الرمّة في وصف صيّاد حاذق

— الفى اباه بذاك الكسب يكتسب —

لان اباه ابا عبد الله الحسين في الرتبة الكبرى من الكتابة ورسائله مدوّنة بخراسان . وذكر ابو اسحق الصابي في الكتاب التاجي ان رسائل عبد الله لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه ابي الفضل . وعندي ان هذا الحكم من ابي اسحق فيه حيف شديد على ابن العميد والقاصّ لا يحبّ القاصّ » اه .

وفي سنة ٣٢٨ هـ تولى الوزارة لركن الدولة البويهي فحمل عنه اعباء الادارة وخاض معه غمرات السياسة والحرب . وبقي كذلك حتى توفّاه الله وذلك سنة ٣٦٠ هـ

. . . . .

وقد اجمع الذين ترجموا له على الاشادة بفضله وتعظيم فنه : نذكر منهم قيّم كتبه مسكويه صاحب تجارب الامم ، وابا منصور الثعالبي صاحب يتيمة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ — ٣

الدهر، وابن خلكان صاحب وفيات الاعيان، حتى ان ابا حيّان التوحيدي — وهو الذي الّف فيه وفي الصاحب ابن عبّاد كتاباً سماه مثالب الوزيرين ضمّنه معايبهما[1] — لم يتمالك عند ما قارب الفراغ من كتابه عن ان يقول فيهما[2] «ولولا ان هذين الرجلين كانا كبيري زمانهما، واليهما انتهت الامور، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا، والقبيح يوئر عنهما اثرا، لكنت لا اتسكّع في حديثهما هذا التسكع، ولا انحي عليهما بهذا الحدّ، ولكن النقص مما يدّعي التمام اشنع، والحرمان من السيد المأمول فاقرة، والجهل من العالم منكر» الى ان يقول — «ولو اردت مع هذا كله ان تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد».

. . . . .

ولا يسعنا — برغم التحرّس الذي لابدّ منه ازاء مايذكرونه من مناقب العظماء — الاّ ان نرى في حياته ما يلي —

١ — انه كان بعيد النظر حسن التدبير. وتتبين حسن تدبيره فيما رووه من اعماله الوزارية وخدماته السياسية، كالذي ذكره صاحب تجارب الامم من حديث السلاّر المرزبان يوم اسره ركن الدولة ودفعه الى ابن العميد ليحتفظ به: وكان ابن العميد قد تحقق ان الديلم يراسلون المرزبان وقد اعدّوا العدّة لتحريره من ايدي آسريه، فاحبط بدهائه عملهم. واليك وصفه هو لهذه الحادثة قال[3] —

«لما كنا بين الريّ واصبهان تحقق عندي مراسلة الديلم اياه واجتماعهم

(١) وفيات الاعيان ٢ — ٨٨ (٢) معجم الادباء (ياقوت) ٢ — ٣٠٢ و٣٠٣
(٣) تجارب الامم مجلد ٢ ص ١٣٣ — ١٣٥

على ان يأخذوه قهراً ويحلّوا قيوده ويفتكوا بي، وظهر ذلك حتى كادت المكاشفة تقع. فلما خفت فوت التدبير سايرته وهو في عمارته وحادثته، وهو ينتظر في ذلك اليوم ان يتم له ما يريد، وجعلت اقاربه والينُ له فاظهر التوجع والتألم مما حصل فيه. فلما اطمعته في نفسي (وكان لا يطمع في ذلك من قبل) أمال اليَّ رأسه وقال: انت مقبل فان كنت صادقاً فابدأ بحل قيودي وعليَّ لك كيت وكيت. وضمن الضمانات التي تبذل في مثل ذلك الوقت. فاوهمته اني لا اعرف شيئاً من مواطأة الديلم له وقلت: اخشى الاّ يساعدني من معي على ذلك. فقال: غفر الله لك انت لا تعرف الصورة. جميع من معك قد عملوا على فك قيودي والفتك بك، وانا اريد ذلك الساعة ان شئت. فقلت: يكفيني ان اثق بذلك ثم انا اول عبد خدمك وناصحك وتابعك حتى يتم لك ما تريده»

ثم يأخذ في سرد ما قاله وفعله حتى حصل على ثقة السلاّر الى ان يقول «وقمت عنه وليس عنده شك في حصول الملك له بمواطأتي، انه قد اقبل جدُّه وتمَّت سعادته بتمام تدبيري. وشاع في اصحابه ومن كان واطأه انَّا في تدبير، فسكنوا بعد ان كانوا همُّوا بما هموا به. وسرت آمناً حتى حصلت باصبهان فلما تمكنت من الرجال والتدبير بدأت بالقبض على اولئك القوّاد واستظهرت على المرزبان بثقاتي حتى خصلته في القلعة بقيوده»

. . . . .

ومما يدلّ على بعد نظره ما رواه، بعد ان زار اذربيجان وتفقَّد احوالها ورأى زكاء ارضها وكثرة ريعها واحتمالها للعمارة وسوء تدبير متوليها ابرهيم السلار، فكتب الى ركن الدولة بالواقع وطلب منه عزل ابراهيم عنها لكن

ركن الدوله ابى لغرض في نفسه فكظم ابن العميد الامر واخذ يحدّث مسكويه بالشدّة التي قاساها هو وعسكره في سفرته وقلة جدواها وثمرتها ثم قال[1]

« ولكني ساضرب لك مثلاً لما نحن فيه وتأمّله الآن لتتذكّره فيما بعد. اما شهدت من يغزل الابريسم ويفتله بالمغازل الكثيرة المعلقة بالصنّارات على شبيه الصوالجة من الزجاج ؟ قلت : بلى . قال : اما تعلم ان الصانع انما يتعب حتى ينصب هذه الآلة وينظمها ثم يكفيه بعد ذلك ان يتتبع اذناب تلك المغازل ويتعاهدها بالفتل؟ فنحن قد احكمنا الآلة. والمغازل دائرة، والابريسم ممدود ، والفتل مستمر به ، فاذا فارقنا الموضع ابتدأت القوّة التي في الدوران تضعف وليس لها من يمدها بحركة ، فيبتدئ في الاسترخاء وتضعف سرعة دوران المغازل ، ثم تبتدئ في الانتكاس وتنقلب راجعة بعكس ما كانت تدور، ثم لا تجد ايضاً من يتعاهدها فيتساقط اولاً اولاً حتى لا يبقى منها شيء »

قال مسكويه :

« فكأنّ هذا المثل كان وحياً فانه ما اخطأ شيئاً من صورة ابراهيم بعد خروجنا وانتهى امره بعد ذلك النظم الذي نظم له الى ان طمع في ملكه حتى انسلخ منه شيئاً بعد شيء الى ان اسر وحبس في بعض تلك القلاع كما سنحكيه فيما بعد ان شاء الله »

وقد وصف حسن تدبيره في فصل سابق فليراجع[2]

٢ — سعة معارفه

كان ابن العميد مغرماً باقتناء الكتب شديد الحرص على مطالعتها

(١) تجارب الامم ٢ — ٢٣٠ (٢) تجارب الامم ٢ — ٢٨٠ و ٢٨١

ذكر مسكويه ان الخراسانيين ثاروا على ركن الدولة وهاجموا الري فدافعهم ابن العميد مدة ثم تقهقر الى دار الامارة فدخلوا المدينة ينهبون. قال[1]:

« واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة جامعة الى ان اتى الليل وانصرفوا. وكان اليّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرّض لها. فلما انصرف الى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء، فانفذ اليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة. واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء اعزّ عليه منها، وكانت كثيرة فيها كل علم، وكل نوع من انواع الحكم والاداب يحمل على مائة وقرٍ وزيادة. فلما رآني سألني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسّها يد. فسرّي عنه وقال: اشهد انك ميمون النقيبة. اما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها. ورأيته قد اسفر وجهه وقال: باكر بها في غد الى الموضع الفلاني، ففعلت. وسلمت باجمعها من بين جميع ماله »

وفي ثفنته العلمي يقول المؤرخ المذكور[2] —

« ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدّعيها احد كعلوم الحِيل التي يحتاج فيها الى اواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مراكز الاثقال، واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة الى الفعل، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون وحيل في الحروب مثل ذلك، واتخاذ اسلحة عجيبة وسهام تنفذ امداً بعيداً وتوثر آثاراً عظيمة، ومرائي تحرق على مسافة بعيدة جداً، ولطف كفٍّ لم يسمع بمثله ومعرفة بدقائق علم التصاوير وتعاط له بديع. ولقد رايته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته واهل انسته التفاحة وما يجري مجراها، فيعبث بها ساعة

(١) تجارب الامم ٢ — ٢٢٤ (٢) تجارب الامم ٢ — ٢٧٨

ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطّها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدّة وفي الايام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتّى له مثلها »

وله فصل في جملة فضائل ابن العميد جاء فيه[1]

« ومن ذلك انه كان اكتب اهل عصره واجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداء الى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام . ولقد حدثني ابو الحسن علي بن القاسم رحمه الله قال : كنت اروي ابي ابا القاسم القصائد الغريبة من دواوين القدماء لان الاستاذ الرئيس كان يستنشده اذا رآه ، وكان لايخلو اذا انشده من ردٍّ عليه في تصحيف او لحن مما يذهب علينا ، فكان ذلك يشق عليّ واحب ان تصحّ له قصيدة لا يعرفها الاستاذ الرئيس »

ثم يقول :

« فاما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الامصار فكان منه في ارفع درجة واعلى رتبة . ثم اذا ترك هذه العلوم واخذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيها احد . فاما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منها خاصة فما جسر احد في زمانه ان يدعيها بحضرته الا ان يكون مستفيداً او قاصداً قصد التعلم دون المذاكرة . وقد رأيت بحضرته ابا الحسن العامري رحمه الله ، وكان ورد من خراسان وقصد بغداد وعاد وعنده انه فيلسوف تام وقد شرح كتب ارسطاطاليس وشاخ فيها ، فلما اطلع على علوم الاستاذ الرئيس وعرف اتساعه فيها وتوقّد خاطره وحسن حفظه للسطور برك بين يديه واستأنف القراءة عليه . وكان يعدّ نفسه في منزلة من يصلح ان يتعلم منه ، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ودرّسه اياها

(٢) تجد الفصل في تجارب الامم ٢ ص ٢٧٥ — ٢٨٢

ونحا نحو مسكويه في ذلك الثعالبي فوصفه بالضرب في الآداب بالسهام الفائزة، والاخذ من العلوم بالاطراف القاصية، وقال يدعى الجاحظ الاخير والاستاذ الرئيس[١]

وجاراهما ابن خلكان فقال في ترجمته وكان متوسعاً في علوم اللغة والنجوم . ولما مدحه المتنبي ضرب على هذا الوتر نفسه فقال من قصيدة معروفة —

من مبلغُ الأَعراب اني بعدهم شاهدت رسطاليسَ والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارسَ كتبه متملكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيت كلّ الفاضلين كانما ردّ الاله نفوسهم والاعصرا
نُسقوا لنا نسق الحساب مقدّماً واتى فذلك اذ اتيت مؤخّرا
قطف الرجال القول وقت نباته وقطفتَ انتَ القول لما نوّرا

٣ — منزلته الادبية والاجتماعية

لابن العميد في عالم الادب والاجتماع منزلة عالية لا تنكر : على ذلك اجمع الادباء من مقرّظ كمسكويه والثعالبي، وغير مقرّظ كابي حيّان التوحيدي . ولم يكن ذلك فقط لنفوذه السياسي والاداري : فكم من وزير او امير مات وادرج في مطاوي النسيان : بل لانه قرن المركز العالي بأدب عالٍ دفع معاصريه الى ان يلقبوه بالاستاذ الرئيس، بل دفع الثعالبي الى القول انه اوحد العصر في الكتابة[٢] . وقال مسكويه

« واما كتابته فمعروفة من رسائله المدوّنة . ومن كان مترسّلاً لم يخف عليه علوّ طبقته فيها، وكذلك شعره الذي جدّ فيه وهزل فانه في اعلى درجات

(١) اليتيمة ٣—٢ (٢) اليتيمة ٣ — ٢

الشعر[١] . ويخطو ابن خلكان خطوة اخرى فيقول «واما الادب والترسل فلم يقارنه فيه احد في زمانه ، وكان كامل الرياسة جليل القدر من بعض اتباعه الصاحب بن عباد» . ويدلُّك على منزلته وفود الادباء والعلماء عليه من مختلف الاقطار . قال ابن خلكان

«وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة ومدحوه باحسن المدائح[٢]» . ويكفيك من ذلك ان المتنبي قصده ومدحه ولم يكن بعد اتصاله بسيف الدولة يقصد غير الامراء ، وقد ابت عليه انفته ان يقصد الصاحب او يهتم بالوزير المهلّبي ، وهما من هما في الادب والرئاسة

وكما ان للادب العالي يداً في اعلاء المقام الاجتماعي كذلك للاخلاق والعادات . وقد ذكرنا شيئاً من دهاء ابن العميد السياسي وحسن تدبيره ، على ان عارفيه ينعتونه ايضاً بمناقب تحببّه الى الناس وتحملهم على احترامه . فمن ذلك ما ذكره مسكويه اذ قال[٣] —

«وكان الاستاذ الرئيس (رضه) قليل الكلام نزر الحديث الا اذا سئل ووجد من يفهم عنه ، فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره مع عبارة فصيحة والفاظ متخيّرة ومعان دقيقة لا يتحبّس فيها ولا يتلعثم . ثم رأيت بحضرته جماعة ممن يتوسل اليه بضروب من الآداب والعلوم فما احد منهم كان يمتنع من تعظيمه في ذلك الفن الذي قصده به . واطلاق القول بانه لم ير مثله ولا ظن انه يخلق . وكان رحمه الله لحسن عشرته وطهارة اخلاقه ونزاهة نفسه ، اذا دخل اليه اديب او عالم متفرد بفن ، سكت له واصغى اليه واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه الا قدر ما يفهم به

---

(١) تجارب الامم ٢ — ٢٧٧ (٢) الوفيات ٢ — ٨٣

(٣) تجارب الامم ٢ — ٢٧٧ و٢٨٢

ما يورد عليه . حتى اذا طاوله واتت الشهور والسنون على محاضرته، واتفق له ان يسأله عن شيء او يجري بحضرته نُبذ منه فرغب اليه في اتمامه، تدفق حينئذٍ بحره وجاش خاطره وبهت من كان عند نفسه انه بارع في ذلك الفن والمعنى وما اكثر من خجل عنده من المعجبين بانفسهم، ولكن بعد ان يمدّ لهم في الميدان، ويرخي من اعنتهم ويمسك عنهم مدة، حتى ينفد ما عندهم ويجزل لهم العطاء عليه »

ويختم قوله فيه بهذه العبارة — ولعلّ من يطلع على هذا الفصل من كتابنا ممن لم يشاهده يظن انا عرناه شهادة او ادّعينا له اكثر من قدر علمه ومبلغ فضله : لا والذي انطقنا بالحق، واخذ علينا الاّ نقول الاّ به »

فنه الانشائي

ابن العميد من اهل القرن الرابع الهجري وهو قرنٌ اخرج نخبة شهيرة من ارباب الاقلام كابي اسحق الصابي وابي بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني وابي هلال العسكري وابي حيّان التوحيدي وابي الفرج الببغا وقابوس بن وشمكير وابي الفضل الميكالي وسواهم . وقد نبغ فيه من اهل اللغة والادب والتاريخ والعلم في الشرق وفي الاندلس اعلام لا يتسع المقام لذكرهم

ويمتاز هذا القرن عما سبقه باستقرار السجع في الانشاء الديواني وشيوعه في حلقات الادب حتى اصبح الزي الانشائي السائد . على ان هذه السيادة لم تكن فجائية، وليس هناك حدّ زمني فاصل بين عهدي الازدواج المسجّع والازدواج غير المسجّع، ولكن لفتةٌ عمومية الى الرسائل الديوانية والادبية

في هذا القرن ، واليها في القرون السابقة، كافية لاثبات ما يتجلى لنا من غلبة السجع وشيوعه بين منشئي القرن الرابع

في هذا القرن اصبح الانشاء الادبي فنًّا ذا اصول . واهمُّ مزاياه كما هو معروف التزام السجع والبديع والتأنق في تحليته بالشعر والامثال . ويظهر انه كان لابن العميد يد تذكر في ذلك حتى عدّه البعض امام الكتاب في عصره[١] (ذكرنا آنفًا طرفًا من اقوالهم فيه فليراجع) . وقد ذهب الزمان باكثر رسائله فلم يبق لنا منها الا نتف مبثوثة في كتب الادب ، وليست وحدها كافية لتقديمه على سواه . على ان الذي اهاب بنا الى ذلك امورٌ منها :

١ — ان المؤرخين القدماء من معاصرين وغير معاصرين قد اجمعوا على تقديمه

٢ — ان نثره صلةُ وصلٍ بين عهد السجع المتأنق والعهد الذي سبقه

. . . . .

اما النقاد الحديثون فعلى اختلاف بيّن في الحكم عليه . فمنهم من يرى فيه الصنعة والتزويق وان الادب في نظره ضرب من ضروب التسلية والتلهّي والترفيه واظهار البراعة والغلوّ والاغراق والبعد عن الحقيقة في التصوير والامعان في التزويق[٢] » ، ومنهم من يرى عكس ذلك فيقول[٣] : « فاننا حين نقرأ نثره نجد انفسنا امام عظمة عقلية يخرّ لها الجبابر ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنّه كما كان يفعل معاصروه ، وانما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كلّ كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق او روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفًا برّاقًا يلهو به ولا ثروة لغوية

---

(١) عنوان المرقصات والمطربات ٦ (٢) ابن العميد (مردم) ص ٤٨

(٣) النثر الفني في القرن الرابع ١ — ٢٠٢

يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية او وجدانية يرمي بها كما يرمي البركان باقباس الهلاك . وقد يرقّ فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل . وهو في رقته وجزالته وغضبه وحنانه عبقريّ لايعبث برجع الحديث المعاد ، وانما يجدّ بابداع الرأي الصائب والقول الرصين »

فالمتأمل يرى بين النقدين بوناً شاسعاً يتعذر معه التقريب بينهما . ولعل ذلك لما فيهما من الاندفاع الى ابداء حكم عام . فلنترك ذلك لهما ولنتقدّم الى درس رسائله الديوانية والادبية وفي دراستها نرى ما يلي —

١ — انه على تصنُّعه معتدل يبرز السجع في كلامه لكنه لا يتقيد به دائماً تقيد المتأنقين الذين عاصروه او اتوا بعده ، بل قد ترى في رسائله احياناً ما يذكرك باسلوب العهد السابق كقوله[1] في شهر رمضان —

« اسأل الله ان يعرّفني بركته ، ويلقّيني الخير في باقي ايامه وخاتمته ، وارغب اليه في ان يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ، ويرد عليّ غرّة شوال ، فهي اسنى الغرر عندي ، واقرها لعيني ، ويطلع بدره ، ويريني الايدي متطلّبة هلاله ببشر ، ويسمعني النعي لشهر رمضان ، ويعرض علي هلاله اخفى من السحر ، واظلم من الكفر ، وانحف من مجنون بني عامر ، وابلى من اسير الهجر ، واستغفر الله جلّ وجهه مما قلت ان كرهه ، واستعفيه من توفيقي لما يذمه ، واسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يوسعه : انه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور »

فهو يمزج السجع بغير السجع مزجاً معتدلاً[1] . اما سجعه فاكثره من القصير الفقرات الحسن الازدواج

(١) زهر الاداب ٢ — ٢٤٤

وهاك قوله من رسالة كتبها الى بعض اخوانه : ففي القسم الاول منها يأخذ بالسجع لا يحيد عنه ، ثم لا يلبث ان يمزج السجع بغير السجع فيجري فيهما بين قوافٍ وفواصل حتى يصل الى آخر الرسالة . وفي هذه الرسالة يكثر من الطباق والاطناب مع شيء من الاستعارة والتشبيه ، ولكن اين ذلك من اسراف الصاحب وقابوس والمعرّي والقاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني ولسان الدين بن الخطيب وسواهم من السجّاعين الذين قرنوا السجع بالبديع قرناً خرجوا به عن حدّ الاعتدال وتجاوزوا فيه مطالب البلاغة ؟ — قال[1] :

« انا اشكو اليك جعلني الله فداك دهراً خؤوناً غدوراً ، وزماناً خدوعاً غَروراً ، لا يمنح ما يمنح الاّ ريثَ ما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب الا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض ، وكنا نلبسه على ما شرط ، وان حاف فيه[2] وقسط ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستثمّ بقصده وظلمه ، ونعتدّ من اسباب المسرّة ان لا يجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه سنّة مبتدعة ، وشريعة متّبعة ، واعدّ لكل صالحة من الفسادِ حالا وقرن بكل خلة من المكروه خلالا

وبيان ذلك جعلني الله فداك انه كان يقنع من معارضته الإلفَين ، بتفريق ذات البين ، فقد اثنى ممنوًّا فيك بجميع ما اوغره ، وما اطويه من البلوى منك اكثر مما انشره ، واحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ،

(١) زهر الاداب ٢ — ٢٤٤ (٢) في الاصل خاف منه

والزمته جرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي اليه ، ولو انك اعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخلق وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم اعرضت عني اعراض غير مراجع ، واطّرحتني اطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك اهلاً للجميل حين لم تجدني هناك ، وانفذت من حل ما عقدت من غير جريمة ، ونكث ما عهدت من غير جريرة . فاجبني عن واحدة منهما

ما هذا التغالي بنفسك والتعالي على صديقك ، ولم نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القذاة ؟ ولم تلفظني من فيك ، وتمجّني من حلقك ، وانا الحلال الحلو ، والبارد العذب ؟ وكيف لا تخطرني ببالك خطرة ، وتصيرني من اشغالك مرة ، فترسل سلاماً ان لم تجشم مكاتبة ، وتذكرني فيمن تذكر ان لم تكن مخاطبة ؟ واحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر : فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك تتعجب من طمعي فيك وقد توليت ، واستمالتي لك وقد ابيت ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو اقسى منك قلباً فيعود الى الوصال »

٢ — يتكلف البديع احياناً كقوله[1] :

« وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، واوقفني مستريح الاعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ، فان الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الاحوال ، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الاشكال ، واعتقني من مخالّتك عتقاً لا تستحق به ولاه ، وابرأني من عهدتك

(١) زهر الآداب ٣ ص ٢٣٤ و ٢٣٥

براءة لا تستوجب معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عنقي ربقة الذل في اخائك ، بيدي جفائك ، ورشّ على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلوّ ، وشنّ على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس ، » ... الى ان يقول :

« وكشف عن عيني ضبابات ما القاه الهوى على بصري ، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظري ، حتى حُدر النقاب عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليقتك ، فلم اجد الا منكراً ، ولم القَ الا مستكبراً ، فوليت منها فراراً ، وملئت رعباً ، فاذهب فقد القيت حبلك على غاربك ، ورددت اليك ذمم عهدك »

وله من هذه الرسالة

« واما عذرك الذي جزمت بسطه فانقبض ، وحاولت تمهيده وتقريره فاستوفز واعرض ، ورفعت بضبعه فانخفض ، وقد ورد ولعثبه وجه يؤثر قبوله على رده ، وتزكيته على جرحه ، فلم يف بما بدلته من نفسك ، ولم يقم عند ظنك به . انى وقد غطّى التذمّم وجهه ، ولف الحياء راسه ، وغض الخجل طرفه ، فلم تتمكن من استكشافه ، وولى فلم تقدر على ايقافه ، ومضى يعثر في فضول ما يغشاه من كرب حتى سقط »

٣ — يتغارب في اشاراته التاريخية واللغوية والعلمية ولكن تغاربه في الرسائل التي وصلت الينا قليل بالنسبة الى تغارب سواه . ومن هذا النمط رسالة بعث بها الى ابي العلاء السروي في شهر رمضان قال فيها [1]

« كتابي جعلني الله فداك وانا في كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفي

(١) يتيمة الدهر ٣ — ٨ وقد ذكر بعضها قبلاً

جهد ونصب من شهر رمضان ، وفي العذاب الادني دون العذاب الاكبر من الم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعف حرور لو ان اللحم يصلى ببعضها غريضا اتى اصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد اوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء عن التحنُّف ويزويه عن التبصر ، يقبض يده عن امساك ساق وارسال ساق : وممنوّ بايام تحاكي ظل الرمح طولا ، وليالٍ كابهام القطاة قصرا ، ونوم كلا ولا قلّة ، وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة ، وكتصفيقة الطائر المستحرّ خفة ، واحمد الله على كل حال واسأله ان يعرفني فضل بركته ، ويلقيني الخير في باقي ايامه وخاتمته ، وارغب اليه في ان يقرّب على القمر دوره ، ويقصر سيره ويخفف حركته »

الى ان يقول :

« ويريني مغمور النور مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقضّ من اطرافه كما تنقض النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الارَضة ، ويهدي اليه السوس ، ويغري به الدود ، ويبليه بالفار ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ويجتحفه بالذرّ ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمي به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالالوان ، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق اذا افتضح بضوئه ، وتهتك بطلوعه (ويرحم الله عبداً قال آمينا) . واستغفر الله جل وجهه مما قلته ان كرهه ، واستعفيه من توفيقي لما يذمه ، واسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يسيغه ، وحالي بعد ما شكوته صالحة ، وعلى ما تحب وتهوى جارية »

وله في ذلك فصل من رسالة الى احدهم قال فيه وقد ذكر دعواه في العلم[1]

« وهبْك افلاطون نفسه فاين ما سننته من السياسة فقد قرأناه فلم نجد فيه ارشاداً الى قطيعة صديق ؟ فاحسبك ارسطاطاليس بعينه : اين ما رسمته من الاخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نر فيه هداية الى شيء من العقوق

واما الهندسة فانها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه، وقدر الحق عليه وله ، بل لك في روءساء العربية منا ريح ومضطرَب ، ولسنا نشاحّك ، لكن اتحب ان تتحقق بالغريب من القول ، دون الغريب من الفعل ؟ وقد اغتربت في الذهاب بنفسك الى حيث لاتهتدي للرجوع عنه واما النحو فلن ترفع عن حذق فيه ، وبصر به ، وقد اختصرته اوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، ويرضى بك اسوة ، فقلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحبهما مخفوض

وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضاً يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضي ذي اللهجة فاعرف قدر حذقك فيه ، الا اني لا اراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت في بحر المجتثّ حتى تخرج منه الى شط المتقارب »

. . . .

وفي رسائله الديوانية ما يُشعر بثقته بنفسه وحنكته في مخاطبة الملوك وسواهم . واليك بعضها —

(١) زهر الاداب ٣ — ٢٣٧

رسالته الى ابن بلكا

عند استعصائه على ركن الدولة [١]

«كتابي وانا مترجّح بين طمع فيك ، ويأس منك واقبال عليك واعراض عنك فانك تُدلّ بسابق حرمة ، وتمتّ بسالف خدمة ، ايسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية : وادنى ذلك يحبط اعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك

لا جرم اني وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، اقدّم رجلاً لصدمك ، واؤخر اخرى عن قصدك ، وابسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، واثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، واتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتك وانصرافك ورجاء لمراجعتك وانعطافك : فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يُستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة الى رخاء ، وكل غمرة فالى انجلاء

وكما انك اتيت من اساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك فلا بدع ان تأتي من احسانك ، بما لا ترتقبه اعداؤك . وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب ان تُنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت . وسأقيم على رسمي في الابقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء والمطاولة ما امكن طمعاً في انابتك وتحكيماً لحسن الظن بك ،

---

(١) نثبت هنا منها ما نقله الثعالبي في يتيمة الدهر ٣ — ١٠ و١٢

فلست اعدم فيما اظاهره من اعذار ، وارادفه من انذار ، احتجاجاً عليك واستدراجاً لك فان يشاء الله يرشدك ، ويأخذ بك الى حظك ويسددك : فانه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير »

ومنها :

« وزعمت انك في طرف من الطاعة بعد ان كنت متوسطها واذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها . فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك ، كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت اليه ؟ ألم تكن من الاول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عديّ ، وماء رويّ ، ومهاد وطيّ ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ؟

عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وايسرت بعد العسرة ، واثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ووطئ عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر ويكاثر بك ، وتشير ويشار اليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك . ففيم الآن انت من الامر ، وما العوض عما عدّدت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين اخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ، وما الذي اظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ اظلّ ذو ثلات شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، قل نعم كذلك ، فهو والله اكشف ظلالك في العاجلة ، واروحها في الآجلة ، ان اقمت على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود »

ومنها :

« تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحسّ ؟ واجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتّش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلي بصدرك ان تظفر بفوت سريح ، او موت مريح ؟ ثم قس غائب امرك بشاهده وآخر شأنك بأوّله

. . . . .

ومن دراسة هذه الرسالة يتبين لك فيها اهم مزاياه الانشائية وهي :

١ — عدم التقيد بالسجع مع شيوعه فيها

٢ — ميله فيها الى الترادف والاطناب كقوله

« فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللبّ ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح » — وغير ذلك

٣ — لهجته الخطابية البليغة كقوله سائلاً — كيف وجدت ما زلت عنه و كيف تجد ما صرت اليه ، ألم تكن من الاول في ظل ظليل ونسيم عليل الخ ... — وكقوله آمراً —

« تأمل حالك ، والمس جسدك ، وانظر هل يحسّ ، واجسس عرقك هل ينبض الخ الكلام

٤ — طلاوتها وقصر فقراتها — قال ابن سعيد : —

« هذه الرسالة وان اطنبوا فيها وجعلها الثعالبي واسطة لعقد ترسُّل ابن العميد فانها من طبقة المقبول ، ولكن قد خامرها من تغاغل الفكر في ترصيفها واثارت ما انطوت عليه من المقاصد الماثلة بالاسماع ما يعلق باهداب المطرب[1] »

---

(١) عنوان المرقصات والمطربات ٧

رسالته الى عضد الدولة

وهي تدلّ على تلطف في اداء المعنى وبراعة في سلوك المقاصد ومنها [١]

« وقد يعدّ اهل التحصيل في اسباب انقراض العلوم وانقباض مددها ، وانتقاض مِررها ، والاحوال الداعية الى ارتفاع جلّ الموجود منها ، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء ، والموَتان العارض من هجوم الاوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء ، فان كل ذلك يختزم العلوم اختراما ، وينتهكها انتهاكا ، ويجتثّ اصولها اجتثاثا ، وليس عندي الخطْب في جميع ذلك ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فان البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته . والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل ، كالامير الجليل ، الذي احله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها وهي نور ، نوافر مما لاقت حتى تصير اليه ، وشرَّد نوازع حيث حلّت حتى تقع عليه ، تتلفّت اليه تلفُّت الوامق ، وتتشوّف نحوه تشوّف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة المضاع ، وحيرة المرتاع »

رسالته الى عضد الدولة يهنئه بولدين [٢]

وفيها يظهر اسلوبه المسجع القصير الفقرات

اطال الله بقاء الامير الاجل عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوّه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده ، وهناه ما احتظاه به على قرب البلاد ، من توافر الاعداد ، وتكثر الامداد ،

---

(١) اليتيمة ٣ — ١٢ (٢) زهر الآداب ٤ — ١٨٠

وتثمّر الاولاد ، واراه من النجابة في البنين والاسباط ، ما اراه من الكرم في الآباء والاجداد ، ولا اخلى عينه من قرّة ، ونفسه من مسرّة ، ومتجدّد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادة في عدده ، وفسح في امده ، حتى يبلغ غاية مهله ، ويستغرق نهاية امله ، ويستوفي ما بعد حسن ظنه : وعرفه الله السعادة فيما بشّر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحفّا بسريره ، وجعل وفدهما متلائمين ، وورودهما توأمين ، بشيرين بتظاهر النعم ، وتوافر القِسم ، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرق الفضا[1] ويشرق بنورهم افق العلا ، وينتهي بهم امد النماء الى غاية تفوت غاية الاحصاء ، ولا زالت السبل عامرة ، والمناهل غامرة ، يصافح صادرهم بالبشر وآملهم القاصد بالنيل[2]

---

(١) كذا في الاصل ولعله يعني الفضاء الواسع

(٢) في الاصل (بصفائح صادرهم بالبشر وآملهم بالنيل القاصد) وليس لدينا رواية اخرى نعارضه بها فصححناه كما ترى اعلاه

ابو اسحق الصابي

٣١٣ — ٣٨٤ هـ

نشأته ونبوغه

لا نعرف عن حداثة هذا الكاتب المشهور الاّ انه لما ادرك سنّ العلم صرفه والده — وكان طبيباً — الى درس الكتب الطبية . وكان غرضه ان يخرجه طبيباً يعيش من هذه المهنة . لكن الفتى (ابرهيم) لم يكن ميالاً الى الطب ميله الى الادب، فاضطرّ والده بعد لأيٍ ان يجاريه في ذلك الميل . وفي ذلك يحدّثنا الصابي عن نفسه قال[1] —

« كان والدي ابو الحسن يلزمني في الحداثة والصبى قراءة كتب الطبّ والتحلّي بصناعته ، وينهاني عن التعرّض لغير ذلك . فقويتُ فيها قوّة شديدة وجُعل لي برسم الخدمة في البيمارستان عشرون ديناراً في كل شهر . وكنت اتردد الى جماعة من الرؤساء خلافةً له ونيابة عنه . وانا مع ذلك كاره للطب ، ومائل الى قراءة كتب الادب كاللغة والشعر والنحو والرسائل والادب . وكان اذا احسّ بهذا مني يعاتبني عليه وينهاني عنه ويقول يا بنيّ لا تعدل عن صناعة اسلافك . فلما كان في بعض الايام ورد عليه (والد المترجم) كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن اشياء كثيرة كلفه اياها ومسائل في الطب وغيره سأله عنها . وكان الكتاب طويلاً بليغاً وقد تأنق منشئه وتغارب . فاجاب عن تلك المسائل وعمل جملاً لما يزيده وانفذها على

---

(١) راجع الحديث في معجم الادباء ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠

يدي الى كاتب لم يكن في ذلك العصر ابلغ منه ، وسأله انشاء الجواب عنه قال (صاحب الترجمة) فمضيت وانشأت انا الجواب واطلته وحرّرته وجئت به اليه . فلما قرأه قال يا بنيّ سبحان الله ما افضل هذا الرجل وابلغه ! قلت له هذا من انشائي . فكاد يطير فرحاً وضمّني اليه وقبّل بين عينيّ وقال قد اذنت لك الآن فامضِ فكن كاتباً »

ويؤخذ ضمناً من هذا الحديث ان الكتابة حتى المراسلات العادية بين الخاصة كانت قد اصبحت في زمن الصابي صناعةً يتولاّها طائفة من المنشئين ويجرون فيها على قواعد واصول متعارفة . والا فما الذي اضطرّ والده ان يعهد بالجواب الى منشئ معروف يدبج له الاجوبة التي اعدّها لترسل الى الوزير الخراساني ؟

على اثر تلك الحادثة تحوّل كاتبنا عن الطب وحصر مجهوده في صناعة الكتابة فاتقنها اتقاناً لفت نظر الخاصة في ذلك الحين . ويزيد على ذلك القفطي انه كان له يد طولى بالرياضيات ولا سيما الهندسة والهيئة[1]

واتصل — وهو لا يزال حدثاً — بالوزير المهلّبي وكان الوزير ادبياً وله مجلس انس يحضره الادباء . وهناك ظهرت براعته حتى قدّمه الوزير . وقد نقل ياقوت عن المحسّن (ابن صاحب الترجمة) حديثاً لا بأس من ايراده هنا وخلاصته — ان الوزير كان في مجلس انس له ، وعنده جماعة من الكتّاب والادباء يشربون ، اذ حضر رسول الامير معزّ الدولة وطلب من الوزير ان يكتب عنه كتاباً الى صاحب كرمان يخطب فيه ابنته لبختيار ابن الامير . فالتفت الوزير الى كتّابه وكان السُّكر قد فعل فعله فيهم فلم يتمكّنوا من كتابته . قال الصابي «ورآني الوزير مصغياً متشوّفاً . فقال تكتبه يا ابا اسحق ؟

(١) اخبار الحكماء ٥٤

قلت نعم. قال افعل. فقمت الى صُفَّةٍ يشاهدني فيها واستدعيت دواتي ودرجاً منصورياً و كتبت الكتاب والجميع يلاحظونني ويعجبون من إقدامي . فلمّا فرغت حملته اليه فوقف عليه ووجهه متهلّل . وقال للجماعة هنا كتاب حسن دالٌّ على الكفاية المبرّزة . قم يا ابا اسحق من موضعك واجلس هنا حيث اجلستك الكفاية. واومأ الى جانب ابي الغنائم ابنه » . الخ الحديث[1]

من تلك الساعة اخذ نجمه بالصعود وصار من المقرّبين عند الوزير حتى حسده سائر الكتاب والادباء . وما زال يرتقي حتى قلّد دواوين الرسائل والمظالم تقليداً سلطانياً كتب به عن المطيع لله الى اصحاب الاطراف

ولا يذكر ياقوت السنة التي نبغ فيها الصابي وعُهد اليه بالديوان ولكننا نستدلّ من ابن خلكان انه تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ اي وهو في السادسة والثلاثين من عمره . ويظهر لنا من اخباره ان المهلّبي اصطنعه حدثاً فقرّبه اليه وما زال في خدمته حتى قلد ديوان الرسائل ففاز بتلك المكانة العالية التي كان يتشوّف اليها كبار المنشئين . ومما يدلّ على تفوّقه ان الرجل كان صابئاً مستضعفاً في جوٍّ مسلم قويّ . وكان بين المسلمين في ذلك العهد كثيرون من ارباب الاقلام واللغة فلم يلبث برغم ذلك ان بزّ معاصريه حتى شهدوا له، وسلّمه الخليفة ديوانه. ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة مشهورة مطلعها

أَعلمتَ من حملوا على الاعوادِ أَرأَيت كيف خبا ضياء النادي
جبلٌ هوى لو خرّ في البحر اغتدى من وقعه متتابع الازباد
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى ان الثرى يعلو على الاطوادِ

فعاتبه الناس لكونه شريفاً يرثي صابئاً . فقال انما رثيت فضله[2]

---

(١) راجع تفصيله في معجم الادباء ج ١ ص ٣٤٢ و ٣٤٣ (٢) وفيات الاعيان ١ — ١٨

وقال الثعالبي فيه — « اوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة[١] ».

و كان الصاحب بن عبّاد — وهو من هو في الجاه والادب — يحبه اشدّ الحبّ ويتعصب له ويتعهده على بعد الدار بالمُنح . و كان (الصاحب) يتمنى ان يَقدُم ابو اسحق اليه بعد ان نُكب وينحاز الى جنبه فيكفل له الرغائب، ولكنّ الصابي ذهب مذهب المتنبئ فلم يتواضع للاتّصال بحلقة الصاحب على انه مع انفته ان يصبح تابعاً لمن كان قبلاً من نظرائه لم يظهر التشامخ والاستكبار كالمتنبي بل قرن رفضه باللّين والدّعة و كان يمدح الصاحب — عن بعد ويعظمه ويقبل منه الصِّلات . وقد نقل الثعالبي فصلاً من كتاب في ذكر صلةٍ وصلت منه اليه، وفيه يظهر لينه وحسن موٴاتاته قال —

« ورد — اطال الله تعالى بقاء سيدنا ومولانا — ابو العباس احمد بن الحسين وابو محمد جعفر بن شعيب حاجّين فعرّجا اليّ مليين ، وعاجا عليّ مسلّمين . فحين عرفتهما، وقبل ان اردّ السلام عليهما مددت اليد اليهما كما مدّها حسّان بن ثابت الى رسول جبلة بن الأيهم ثقة منه بصلته ، وتشوّقاً الى تكرمته ، واعتياداً لاحسانه ، وإلفاً لموارد إنعامه ، وتيقّناً ان خطوري بباله مقرون بالنصيب من ماله ، وانّ ذكراه لي مشفوعة بجدواه . وقمت عند ذلك قائماً وقبّلت الارض ساجداً . و كرّرت الدعاء والثناء مجتهداً . وسألت الله تعالى ان يطيل له البقاء كطول يده بالعطاء ، ويمدّ له في العمر ، كامتداد ظله على الحُرّ ، وان يحرس هذا البدَد ، القليل العدد ، من مشيخة الكتاب ومتحلي الآداب ما كنفهم به من ذراه ، وافاء عليهم من نداه ، واسامهم من مراتعه واعذب لهم من شرائعه[٢] ».

---

(١) اليتيمة ٢ — ٢٣ (٢) اليتيمة ٢ — ٢٧

ومما يظهر لك ما بلغه الصابئ في اول عهده انه لما مات والده جاءه الوزير المهلّبي معزّياً . قال الصابي « فحين عرفت قدومه بادرت لتلقّيه . واستعفيته من الصعود . فامتنع من الاجابة الى ذلك وجلس ساعة يخاطبني فيها بكلّ ما يقوّي النفس ويشرح الصدر ، ويصف والدي ويقرّظه لي ثم نهض واقسم علينا ان لا يتبعه احد منا ، وانفذ اليّ في بقية ذلك اليوم خمسة آلاف درهم . ولم يبق احد من اهل الدولة الا جاءني بعده معزياً[1] »

وقد اتصلت شهرته بسيف الدولة ابن حمدان وكان له كما لسواه من الامراء رغبة في ان يمدحه كبار الادباء . فارسل اليه بذلك رسولاً ووصله واضاف الى ذلك رسماً كان ينفذه كل سنة[2] .

وله مع المتنبي حديث ذكره ولده قال نقلاً عن لسان والده[3] . « راسلت ابا الطيب المتنبي في ان يمدحني بقصيدتين واعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسّطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار . فقال (اي المتنبي) قل والله ما رأيت بالعراق من يستحقّ المدح غيرك ، ولا اوجب عليّ في هذه البلاد احد من الحقّ ما اوجبت ، وان انا مدحتك تنكّر لك الوزير يعني ابا محمد المهلّبي وتغير عليك لانني لم امدحه . فان كنت لاتبالي هذه الحال فانا اجيبك الى ما التمست وما اريد منك منالاً ، ولا عن شعري عوضاً

قال والدي فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت انه قد نصح فلم اعاوده »

---

(١) معجم الادباء ١ — ٣٢٨

(٢) معجم الادباء ١ — ٣٢٩

(٣) راجع معجم الادباء ١ — ٣٤٦

افول نجمه ونكبته

وظلّ الصابئ ينقلّب في النعماء ، مكرّماً من الامراء والوجهاء حتى سنة ٣٥٢ وهي السنة التي مات فيها وليّ نعمته الوزير المهلّبي . فاعتقل في جملة عمّال المهلبي ، ثم أُطلق سبيله وأُعيد الى عمله . ولم يزل « يطير ويقع » — كما قال الثعالبي — « وينخفض ويرتفع الى ان دفع في ايام عضد الدولة الى النكبة العظمى والطامّة الكبرى » . كان ذلك في السنة ٣٦٧ وهو في الرابعة والخمسين من عمره وكان بين عضد الدولة البويهي امير فارس وبين بختيار بن معزّ الدولة صاحب الامر في بغداد منافسات على الرئاسة . وكان بختيار قد حمل الخليفة الطائع لله ان يجدّد له الامر فانشأ لذلك الصابي كتاباً قال فيه —

« وقد جدّد له امير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي السوامق التي تلزم كل دانٍ وقاص ، وعام وخاصّ ، ان يعرف له حقّ ما كرم به منها ، ويتزحزح عن رتبته المماثلة فيها » .

فلما اطلع عضد الدولة على هذه الجملة الاخيرة لم يشكّ في التعريض به فنقم ذلك واسرّها في نفسه الى ان ملك بغداد وسائر المشرق . فلما استقرّ فيها امر الصابي بتأليف كتابٍ في اخبار الدولة الديلمية يشتمل على ذكر قديمه وحديثه وشرح سيره في حروبه وفتوحه . فامتثل واخذ بتصنيفه ، ولكن بعضهم وشى به ورفع الى عضد الدولة ان الصابي سئل عن هذا الكتاب فقال — « اباطيل أُنمّقها واكاذيب أُلفّقها » . فحرّك ذلك كوامن الحقد في قلب عضد الدولة وامر بان يُلقى تحت ارجل الفيلة . فاستشفع اليه بعض الوجهاء في امره وتلطّفوا في استيهاب دمه حتى استحياه وامر باعتقاله

واستصفاء امواله . وبقي في السجن نحو اربع سنوات . ثم خرج وقد رزحت حاله ، وتهتّك ستره[١] . ويذكر ياقوت هذا الخبر مفصلاً ومطوّلاً مع شيء من الاختلاف ولكن مجمل الحديث واحد[٢] . ويؤيد كل ذلك كتاب كتبه للصاحب بن عبّاد يشكو فيه حاله وما اصابه فيه[٣] ... ومنه ... .

« فان نوَب الدهر تتردّد منذ سنون عليّ وعلى اهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ، منيخة بنوازلها ، ملقية بكلاكلها ، كالحة بوجوهها ، كاشرة عن انيابها ، لتعاقب الايدي الوالية علينا ، وتدرُّجها في الاساءة الينا ، وتزايدها في الفظاظة بنا ، وتجاوزها المنزلة الى المنزلة في الاستئصال لاحوالنا ، وقد توفّر قسطي في تأثيرها بحسب ظني بعِرضي ، وصوني نفسي ، وبذلي دونها مالي ووقايتي اياهما بما ملكت يدي ، حيث لم اسئل المعونة احداً ولا سمحت ان استميح مسوّداً ولا سيداً ، راجعاً الى شيء مما يرجع اليه الناس من موروث تالد ، ومكتسب طارف ، ، حتى انتهت مغارمي الى نحو خمسمائة الف درهم لم يبق لي بعدها ضيعة ، ولا منزلة ، ولا باطن ولا ظاهر . فلما صارت صروف الدهر تتوغّل بعد التطرُّف ، وتجحف بعد التحيُّف ، وصادف ما تجدّد عليّ منها في الوقت اشلاءً منهوكة ، واعظماً مبريّة ، وحشاشة مُشفية ، وبقيّة مودية ، فارقت الايثار ، وأطعت دواعي الاضطرار ، وجعلت اختار الجهات ، واعتام الجنبات ، لأنحو منها ما لا يعاب سائله اذا سأل ، ولا يخيب آمله اذا امل ، فكان سيدي ادام الله عزه اولها اذا عددت ، واولاها اذا اعتمدت »

---

(١) راجع اخبار نكبته في اليتيمة ٢ — ٢٧

(٢) معجم الادباء ج ١ ص ٣٣١ — ٣٣٦

(٣) رسائل الصابي ص ٢٨١

اخلاقه

من ينعم النظر في اخلاق الصابي وامياله النفسية يتراءى له من بينها مزيّتان بارزتان هما تمسكه بمعتقده ، وحسن تأدّبه في معاشرته . وتظهر المزية الاولى فيما رواه الثعالبي من « ان الخلفاء والوزراء ارادوه كثيراً على ترك مذهبه واعتناق الاسلام ، واداروه بكل حيلة وتمنية جليلة : حتى ان عزّ الدولة بختيار عرض عليه الوزارة ان اسلم فلم يهده الله تعالى للاسلام[1] » وقد روى ذلك ايضاً ياقوت في ما كتبه عنه[2] ، وابن خلكان[3] في الوفيات . والجميع مجمعون على ثباته في معتقده برغم ما كان يلوح له من المجد في تركه واعتناق مذهب الدولة . وذكره القفطي بالغيرة عَلَى مصلحة اهله وطائفته[4]

بل قد ذهب المؤرخون الى تشدّده في تعاليم دينه وتعففه عن محرّماته . ولولا انه عُرف في ذلك لما ذكروه ذكراً خاصاً حتى قيل بذل له عزّ الدولة بختيار الف درهم على ان يا كل الفول — وهو محرّم على الصابئة — فلم يفعل . وفي اليتيمة[5] —

« سمعت ابا منصور سعيد بن احمد ببخارى يقول ان ابا اسحق الصابي كان من نسّاك اهل دينه والمتشدّدين في ديانته في تصوّنه عما يدعو اليه الهوى » . وفيها عن ابي نصر سهل بن المرزبان قال « بلغني ان الصابي حضر يوماً مائدة المهلّبي فامتنع عن الاكل لباقلاء كانت عليها ، لانه محرّم على الصابئة كيف ما كان — مع السمك والخنزير ولحم الجمل وفراخ الحمام والجراد — فقال له المهلّبي لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء . فقال ايها الوزير لا اريد

---

(١) اليتيمة ٢ — ٢٤ (٢) معجم الادباء ١ — ٣٢٤ (٣) وفيات الاعيان ١ — ١٧
(٤) اخبار الحكماء ٥٤ (٥) اليتيمة ٢ — ٢٤

ان اعصي الله في مأكول. فاستحسن ذلك منه » . ولا يستدلّ مما ذكروه ان الرجل كان يفعل ذلك رياءً او لغرض شخصي: فان مقامه في دار الخلافة والوزارة — محاطاً بكل المغريات له على تغيير دينه، او اقله على عدم التشدّد فيه، ثم اباؤه ذلك — لدليل على ما في نفس الرجل من انفة مذهبية و كرامة شخصيه تنزّهانه عن التساهل بمبدأ يدين به (خطاء او صواباً) للحصول على منافع ماديّة. والذي يذكر انه لم يلقَ من جراء ذلك غير اكرام الناس له واحترامهم شخصيته

وقد قرن تلك المزية بمزية اخرى قد تظهر لاول وهلة مناقضة لها اعني ما ذكرناه من حسن تأدّبه في مجاراته من يعيش معهم. ونعلم ذلك مما ذكره الذين دوّنوا سيرته. فقد ذكروا لنا انه مع محافظته على دينه يعاشر المسلمين احسن عشرة ويخدم الاكابر ارفع خدمة حتى كان يشاركهم في صيام رمضان[1] . ولما عطف عليه الوزير المهلّبي (كما ذكرنا سابقاً) وقدّمه على من عنده من شيوخ الكتّاب والمتأدّبين نقموا ذلك ولزم بعضٌ منهم منزله وجداً وغضباً واظهر بعضهم التعالل. قال الصابي « فلم ازل اتلطف واداري وأغضي على قوارص تبلغني حتى صارت الجماعة اخواني واصدقائي[2] » .

فالرجل قد قرن في نفسه الانفة بدماثة خلق متناهية اكسبته مودّة الصغير والكبير وقرّبت اليه العدوّ والحسود. كان صبوراً على الاذى بعيداً عن التشامخ صادق الخدمة ناعم اللسان، فنال بهذه الصفات وما يقترن بها من حذق فنيّ ما ناله من المنزلة الرفيعة. ولو اردنا ان نجمع ظواهر تأدّبه في كلمة واحدة لقلنا هي حسن المداراة او القوّة على التكيّف وملاءمة البيئة.

(١) اليتيمة ٢ — ٢٤ ووفيات الاعيان ١ — ١٧ (٢) معجم الادباء ١ — ٣٤٢

واذا روعي فيها الاعتدال ورجاحة الخلق كانت صالحة لصاحبها ولسواه وجاءت منطبقة على قول زهير

ومن لا يصانع في امور كثيرة يضرَّسْ بانياب ويوطأ بمنسمِ

والا فهي الرياء والمداجاة وما اليهما من تراخي الاخلاق وضعف الارادة. ولم يكن صاحبنا كذلك بدليل ما اثبتناه من تعففه عن المنافع المادية يكتسبها بنبذ ما يعتقد صوابه.

كان الصابي حكيماً مدارياً يضع الامور مواضعها فاذا نطق بلسان رؤسائه احلّ نفسه محلّهم متناسياً امياله النفسية واغراضه الذاتية. ومن ذلك ما نراه في رسائله من مدح الاسلام وذم اعدائه كقوله من رسالة عن لسان المطيع الى ركن الدولة بخبر اسر الدمستق قائد الروم سنة ٣٦٢ — قال[1] « وامتثل (اي عزّ الدولة) امر امير المؤمنين في انجاد ابي تغلب بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم، وبالابطال المختارة من طوائف الاعراب والاكراد » — الى ان يقول — « وتوكلوا عَلَى ربّ العالمين، واستنجحوا بشعار امير المؤمنين، واثّروا في الطغاة الكفرة، والبغاة الفجرة اثراً بعد اثر. وظفروا بهم ظفراً بعد ظفر »

ثم يقول في موضع آخر من الكتاب نفسه »

« ووردوا ظاهر آمد فعرفوا صحة خبر الدمستق — لعنه الله — وحصوله على افواه الدروب في خمسين الف رجل. وتلوّم اصحابنا بها يريحون، والكفرة على مسافة منهم مقيمون. مرّة تقدم بهم الآجال، ومرّة تحجم بهم الاوجال. ثم تداني الفريقان، والتقت حلقتا البطان، في يوم الجمعة الذي ختم الله به شهر الصيام، وحتم فيه بالظهور للاسلام.

(١) رسائل الصابي ص ٤٨.

فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم ، ومحاماةً عن صاحبهم وعظيم كفرهم » — وهنا يصف الملحمة وصفاً شائقاً ويردف ذلك بقوله « واستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الحتوف . واخذ المسلمون منهم الثار ، وعجل الله بارواحهم الى النار » .

فانت ترى انه في هذا الكتاب الذي يصف فيه انهزام الروم وهم يومئذ اعداء المسلمين يضع نفسه موضع المسلم الحقيقي . وهو يقف هذا الموقف في الكثير من رسائله كما كتب عن لسان بعض الامراء واصفاً النبيّ العربي ورسالته قال[1] —

فكان آخرهم في الدنيا عصرا ، واولهم يوم الدين ذكرا ، وارجحهم عند الله ميزاناً ، واوضحهم حجة وبرهانا ، وابعدهم في الفضل غاية ، وابهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلّم تسليما ، الذي اتخذه الله صفياً وحبيبا ، وارسله الى عباده بشيراً ونذيرا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للارحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم : انوفهم في المعاصي حميّة ، ونفوسهم في غير ذات الله ابيّة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون اليه الاكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنهم شيئاً . فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقذف في اسماعهم فضائل الايمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم الى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدا ، وبالعنف لما وجد انصارا وجنودا ، لا يرى للكفر اثراً الا طمسه ومحاه ، ولا رسماً الا ازاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة الا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة الا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع باوضاحه

(١) الرسائل ص ١٥ — ١٧ اراجع مثل ذلك ايضاً ص ٤٤ و ٨٢ و ١١٨ و ١٥٧ و ١٦١ وسواها

اسلوبه الانشائي وادبه

ظهر الصابئ في عصر نبغ فيه ابن العميد والصاحب بن عبّاد ، وهما من هما في الكتابة والوجاهة ، فعرف الادباء والامراء فضله وعهد اليه كما ذكرنا سابقاً بديوان الانشاء في بغداد . قال الثعالبي في اليتيمة « ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء وسار ذكره في الآفاق ، ودوّن له من الكلام البهي النقيّ ما تتناثر درره وتتكاثر غرره » . وهذا الوصف العام قد يصدق على كل كاتب كبير : على ان للصابي على ما يظهر منزلة ممتازة ولا سيما في السلطانيات . وفي ذلك يقول ابن الاثير في المثل السائر [1]

« وكيف اضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه . ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد اجاد في السلطانيات كل الاجادة واحسن كل الاحسان . ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عزّ الدولة بختيار بن بويه الى سبكتكين عند خروجه عليه ومحاصرته اياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدُّم . وكيف وله من السلطانيات ما اتى فيه بكل عجيبة ، لكنه في الاخوانيات مقصّر ، وكذلك في كتب التعازي »

. . . .

ولقد حاول ابن الاثير نقد الصابي فضعّفه في وجهين — تكرار العبارات وعدم ملائمة التحميد لغرض الكتاب . فالاول كقوله :

« ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها »

وقوله عن النبي :

« لم يرَ للكفر اثراً الاّ طمسه ومحاه ، ولا رسماً الاّ ازاله وعفّاه »

وقوله في الدولة العباسية ، ولم تزل على سالف الايام وتعاقب الاعوام

(١) المثل السائر ١٤٨

تعتلُّ طوراً، وتصحّ اطوارا ، وتلتاث مرّة وتستقل مرارا ، من حيث اصلها راسخ لا يتزعزع، وبنيانها ثابت لا يتضعضع

ومثل ذلك كثير في كلام الصابي : فقرات متساوية المعاني يؤتى بها لاطّراد الكلام او لاقامة الوزن . وقد اصاب ابن الاثير في انتقاده لكن الصابئ لم ينفرد بتكرير الاسجاع بين المنشئين . واذا رجعت الى خطبهم ورسائلهم وجدتهم سواءً في ذلك . بل هذه رسائل ابن الاثير نفسه تجد فيها كثيراً مما عابه على الصابي . فقد نقلنا له فيما سبق قوله « اجاد كل الاجادة واحسن كل الاحسان » . وانظر الى قوله في تقليد يفاخر بسجعه ويقول انه السجع الذي يثبت على المحكّ « فانه ياخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسه واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه »[1]

وقوله :

« طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ويشير اليك بان الانعام قد اطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق »[2]

وقوله : « ولك انت من هذا الدعاء حظٌّ على قدر محلك من العناية التي جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك، فخذ هذا الامر اخذ من لم يتعقّبه بالنسيان، وكن في رعايته ممن اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان »[1]

ولو استعرضت كلام عبد الحميد والجاحظ وابن العميد والصاحب وسواهم من ائمة الانشاء لوجدت التكرار صفة ملازمة لهم ولا نقصد بذلك مدحاً او ذماً ، ولكن نفياً لما قد يتبادر الى الذهن من كلام ابن الاثير ان التكرار من مزايا الصابي دون سواه .

---

(١) المثل السائر ١٤١ (٢) المثل السائر ١٤٣ (٣) المثل السائر ١٤٤

واما تحميداته وموافقتها لغرض الرسائل ففيهـا يجيد الصابئ احياناً ويسيء احياناً . فمن اجادته تحميده في رسالته عن عزّ الدولة الى ركن الدولة . فقد جعل حمد الله هناك مقروناً بقدرته عَلَى كبت الاعداء وتذليل صعاب الخطوب وتنوير الدياجي وردّ الطُّغاة . وكل ذلك موافق لمقام الكلام[1] . ومثل ذلك ما كتبه عن نفسه الى الامير عضد الدولة[2] . وغير ذلك من التحميدات التي جاءت موافقة لغرض الكتاب

ومن اساءاته في هذا الباب ما انتقده ابن الاثير فاصاب اذ قال « انه كتب كتاباً يتضمن فتح بغداد وهزيمة الاتراك عنها . فجاء بتحميدة لا تناسب الكتاب ولكنها تصلح ان تكون في صدر مصنَّف من مصنَّفات اصول الدين[3] — واليك قوله في هذه التحميدة : —

« الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ المجيد ، الذي لا يوصف الاّ بسلب الصفات ، ولا يُنعت الاّ برفع النعوت الازليّ بلا ابتداء ، الابديّ بلا انتهاء ، القديم لا منذ امدٍ محدود ، الدائم لا الى اجل معدود ، الفاعل لا من مادّةٍ استمدّها ، ولا بآلة استعملها ، الذي لا تدركه الاعين بلحاظها ، ولا تحدّه الالسن بالفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ولا تضارعه الاجسام باخطارها ، ولا تجانسه الصور باعراضها ، ولا تجاريه أقدام النظر ولا الاشكال ، ولا تزاحمه مناكب القرناء والامثال ، بل هو الصمد الذي لا كُفء له ، والفذّ الذي لا توأم معه ، والحيّ الذي لا تخرمه المنون ، والقيُّوم الذي لا تشغله الشؤون ، والقدير الذي لا تؤوده المعضلات ، والخبير الذي لا تعييه المشكلات »

---

(١) راجع الرسائل ٥٢ (٢) الرسائل ٧٤ (٣) المثل السائر ٤١٠

واذا تجاوزت ما ذكره ابن الاثير من هذه المآخذ على الصابئ وراجعت رسائله ناظراً فيها نظر المنعم المدقق رأيته يشارك كبار المنشئين في مزايا انشائية عامّة . منها --

صحة التقسيم وتوازن الفقرات

كقوله [1] « ولا يقبل على ذي هيئة لهيئته ، ولا يُعرض عن دميم لدمامته ، ولا يزيد شريفاً على مشروف ، ولا قوياً على ضعيف ، ولا قريباً على اجنبيّ ، ولا مليّاً على ذمّي ، ما جمعهما التخاصم ، وضمّهما التحاكم . ومن احسّ منه بنقصان بيان ، او عجز عن برهان ، او قصور من علم ، او تأخّر في فهم ، صبر عليه حتى يستنبط ما عنده ، ويستشفّ ضميره ، وينقع بالاقناع غلته ، ويزيح بالايضاح علته »

ومثل ذلك قوله من كتاب الى الرعية يحذّرهم من شيطان الفتنة [2]

« فحقيق على كل ناظر لنفسه ، وحافظ لدينه ، ان يتحرّز من الوقوع في اشراكه المبثوثة ، وحبائله المنصوبة ، وخطا طيفه الحجن ، التي تجتذب القلوب وتغتال الالباب . وان يتّهم هواجس فكره ، ووساوس صدره . ويعرضها على نظره وفحصه ، وتأمّله وبحثه . فاذا خاصت من الشوائب ، وسلمت من المعايب ، وضاقت على الشيطان فيها حِيله ، وانحسمت عنها غِيله ، وخولف فيها الهوى الذي قليلاً ما يشاكلها ويضاهيها ، و كثيراً ما يخالفها وينافيها ، كان اتيانه ما يأتيه منها ، عن نية لا شك معها ، ووثيقة لا طعن عليها ، ويقين من السلامة في اولاها وأخراها ، والسعادة بفاتحتها وعقباها »

واكثر رسائله على هذا النسق .

---

(١) رسائل الصابي ١٢٠ (٢) الرسائل ١٩٧

الاطناب والتكرير

وقد اشرنا الى ذلك في ذكرنا لنقد ابن الاثير فلا حاجة الى بسطه الآن وهو ظاهر في رسائله ظهوره في اكثر انشاء الطبقة الاولى من ذلك العصر ومن اراد امثلة خاصة فليراجع الصفحات التالية من رسائله[١]. ونجتزئ منها هنا بما يلي — كقوله ص ١٩

« في حماية البيضة ، وحياطة الحوزة ، وذبّ العداة ، وقمع الطغاة ، وكبح الجامح ، وبعث الجانح ، وتقويم الزائغ ، وتسديد الرائغ »

وقوله ص ٤١ — « والله في ذلك كله ناصرنا وخاذله ، ومظفّرنا وقاتله ، ومعلينا ومسقطه ، ومديلنا ومورّطه »

وقوله ص ٧٥ — « واصبحت الدنيا متحلية منه بافضل حليها ، ومتجلية له في افخر حللها ، وضاربة من آثاره وافعاله بمعلّى قداحها ، ومفضية من تدبيره وسياسته الى نهاية اصلاحها . فلا اعدمه الله السعي الرشيد ، والمقام الحميد ، والطائر السنيح ، والمتجر الربيح » الخ

وقوله ص ١٩٧ — « ويعرضها على نظره ، وفحصه ، وتأمله ، وبحثه » الخ

اطراد الوصف وجزالة الكلام

كقوله من كتاب عن الطائع الى عضد الدولة بعد وقوع الوحشة بينه وبين عزّ الدولة[٢]

« ولم يزل امير المؤمنين منذ نزغ الشيطان بينك وبين عزّ الدولة ابي منصور ، ايد كما الله ، مغضوض الجفون على قذى ، منطوي الجوانح على

(١) الرسائل ١٩ — ٢٨ — ٣٠ — ٣٢ — ٤١ — ٤٧ — ٧٤ و٧٥ — ١٧٥ — ٢١٠

(٢) الرسائل ٢٢٤ و٢٢٥

اذى وقيذاً من ان تنتقض نعم الله عنده فيكما ، بتنافس يقدح في تعاستكما وتقاطع يعترض ذات بينكما » — الى ان يقول — « واعتقد ان يبتديك بالدعاء الى ارشد الطريقة واحسن الخليقة في الايجاب له ، والقبول منه ، والتصرّف على مراده وايثاره ، والزوال عن جوالب عتبه وانكاره . ولا سيما وانت وعزّ الدولة في الملاحاة التي خرجتما اليها ، والوحشة التي الممتما بها بمرأى ومسمع من اباعد واقارب ، ان يكن منهما ولىّ صديق فقد سوءتماه وعققتماه ، او عدوّ فقد كفيتماه وشفيتماه ، وما يختار ذلك مثلكما ، ممن تقدّمت قدمته ، وعلت منزلته ، وبعد صيته ونبه ذكره . وظاهر ما بينكما ظاهر : انت المحجوج فيه لانه ما تطرّق اليك عملاً ولا افسد عليك امرا . . . » — ثم يقول . . .

« وقد يجوز ان تكون بلاغات المتنحّين هاجتك . وحكايات المتسوّقين احفظتك ، وان تكون انكرت من الصفاء تكدّرا ، ومن الود تغيرا . فاين الاستعتاب بالحسنى ، والاستعادة الى الاولى ، والاخذ بفضل من قدمته السنّ والحنكة ، وتحلّى بالثبات والمسكة ؟ والاّ كاتبت امير المؤمنين بما هجس في نفسك وصرحت اليه بجوجاء صدرك ، والتمست منه ما عساك ان تبلغه منه بالملاطفة والموادعة ، دون المخاشنة والمنازعة »

. . . . .

والكتاب كله من هذا الطراز العالي بل كيفما وقعت عينك على رسائله تجد انشاءه يتجلى في جزالة مشبعة واطراد بليغ وعبارات طنانة حسنة التوقيع . ومما يذكر للصابئ — عدم اسرافه في تكلف المحسنات اللفظية[1] . فهو من هذا القبيل شبيه بكتاب صدر الدولة العباسية . والذي يظهر ان هذا

(١) الاّ في مواقف الصيد فيشتد حينئذٍ سجعه ويكثر تقطيع فقرائه

الاسراف لم يملك على المنشئين مذاهبهم الا بعد هذه الطبقة كما نجد من المقابلة بين انشاء ابن العميد والصابي والصاحب وبديع الزمان، وانشاء القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني والحريري واضرابهم ·

اطلاعه اللغوي

وقد اولع الصابئ بالقرآن وحفظه وكان كثير الاستشهاد به في كتبه[1] ومن عباراته تظهر سعة اطلاعه اللغوي وانه ملك زمام الالفاظ يتصرّف بها كيف شاء، وقد لا يتورّع عن استعمال الغريب منها اداءً لمعنى او شرحاً لعاطفة · وهو جريء في استعمال المجاز المناسب للحال

وللتمثيل على سعة اطلاعه وتصرّفه في مجازاته ننقل العبارات التالية مع الاشارة الى مظانها في رسائله

		صفحة
نزت به نوازي البطنة	(اي ابطره الغنى)	٢١
وكشف ما اظلّ وكرث	(ما اتى بالكارثة)	٢٢
نقضت مرائره	(وهت حباله اي عزائمه)	٢٣
جثم الحتف على صدره		٢٣
حلّ مني محلّ الغيث عند اللّزبة	(عند الجدب)	٢٣
وملك عليهم ما وراء الجبال		٢٦
ولم يلبثوا فيها الا فواقا آخذين على سمت الموصل —		٣٦
(فواقاً قليلا — سمت طريق)		

(١) راجع مثالاً على ذلك الصفحات التالية من رسائله — ١٥ و٢٧ و٣١ و٤٣ و٤٥ و٨٨ و١٠٢ و١٠٣ و١٠٧ و١١٢ و١٢١ و١٢٤ و١٣٢ و١٣٣ و١٤٩ و١٥٧ و١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠ و٢١٢ ·وسواها

صفحة

المتردّي من ذروة طاعتنا (المتردي الهاوي) ٣٣

يدبّ الضراء (اي يمشي مختفياً في شجر الضراء · بمعنى المكر) ٣٣

يُوكي على الغشّ عيابه (يقفل عليه خزانته · يضمر الغش) ٣٣

امتدّت في الغيّ اشطانه (اي حباله) ٣٤

عهد مُحصَد (اي متين محكم) ٣٦

وتنابحت اليه كلاب الغارة الشعواء ، وتعادت اليه ذئاب الصيلم الصماء (الصيلم الداهية) ٣٨

فتشوّف الينا من كان استغرّه منهم بأُخذه (اي من كان قد غرّهم بسحره) ٣٩

وتباكّوا عليه (اي ازدحموا) ٤٢

فقد ارقدتما طرفه بيقظتكما ٤٧

التقت حلقتا البطان (البطان الحزام) يقال للامر اذا اشتدّ ٥٠

ويفتتح معاصمهم واعصارهم (ملاجئهم) ٥٢

الرأي الزنيق (المحكم) ٥٤

واستباحهم في موبل بعد موبل (في شدّة بعد شدة) ٥٧

فتناولته باطراف العذل ملوّحا ثم باثباجه مفصحاً مصرّحا ٨٤

ومتى التوى ملتوٍ بحقٍّ يحصل عليه ، ودين يستقرّ في ذمته ، قادوه الى ذلك بازمّة الصَّغار ، وخزائم الاضطرار ١٠٨

وبحراسة السكك ان تتناولها الايدي المدغلة والجهات الظنينة ١١٣

تقيّل مذاهب ابيه (نزع اليه في الشبه) ١١٥

نحلهم اياه من المفخر العِدّ (العدّ — القديم الشريف) ١١٧

صفحة

فان الشورى لقاح العقول والمباحثة رائد الصواب ١٤٥

صلي بالنائرة التي فوه نفخ لها (النائرة — نار الفتنة) ٩٨١

فان الشيطان لا يزال يكسو الخدع والشبهات سرابيل

الحجج والبيّنات، ليستضلّ بها الاحلام ويستزلّ الأقدام ١٩٧

وله مثل ذلك كثير

. . . . .

والخلاصة ان الصابي من ايمة الانشاء الديواني وهو يقرن في نفسه ثقافة البلاط السلطاني بذكاء الاديب المتفنن، وقد تمكن بهاتين الخلتين من احراز اعلى المناصب الكتابية والتمتع بنصيب وافر من النعم السنية .

نخب من رسائله

من كتاب كتبه عن الخليفة الطائع الى رعية خرجت عن الطاعة [1]

وفيه يظهر عدم تقيده بالسجع

« وتواترت الى امير المؤمنين اخبار اهمّته ، وانباء ارمضته، من اجتماع طوائف من أحداثكم على امر خرجوا فيه عن طاعته، ونكثوا بيعته مما اظهروه من مشايعة من لم يجعل امير المؤمنين له ولاية عليكم، ولا سبيلاً الى تقلد شيء من امور كم : بل هو مقيم من عناده، والعيث في بلاده، على مركب سيستوعره ومشرب سيستمرّه . وهذه حال لا ينتظم لكم معها نظامُ صلاة ولا زكاة ، ولا مناكحة ولا محاكمة اذ كان ذلك انما يصح ان يتولاه

(١) الرسائل ص ١٩٨ و١٩٩

امير المؤمنين او من يقلّده اياه او يستخلفه عليه من اوليائه الراشدين . واما اذا اقتديتم فيه بيدٍ قد خرجت عن عصمته ، وسقطت من جملته ، وبرئت ذمته منها وانبتت الاسباب بينه وبينها ، فانتم في هذا الفعل حارجون آثمون ، غاوون ضالون ، وكل راضٍ منكم به ، فقد اسخط الهه ونبيه وامامه

ولو كنتم — والله يعصمكم — كفاراً لاوجب امير المؤمنين عَلَى نفسه ان يبدأكم في الدعاء الى الحق بالقول الاحسن ، والطريق الالين ، رجاء ان يعطف الله بكم الى الهدى ، ويشعركم شعار اهل الحجى ، من حيث لا يسفك لكم دم ولا ينتهك محرم . فاما وانتم مسلمون مؤمنون ، لكنكم مخطئون غالطون فاحرى واولى ان يصبر عليكم لتنزعوا ، ويتأنّاكم لترجعوا ، ويقيم في انفسكم الحجة ، ويردّكم الى سواء المحجّة : لكن قد جعل الله لذلك حدًّا محدوداً ، وامداً معلوماً ومتى قلّ انتفاع امير المؤمنين منكم ، وأطلتم عناءه فيه ، ورآكم على المعصية مصرّين ، وللنقمة مستجرّين ، فهل يجد بدًّا من تسريب العساكر اليكم ، واطلاق اعنّتها عليكم ، وهل يماز لها حينئذٍ بريئكم من سقيمكم ، وبرّكم من اثيمكم ؟ الا ترون الى قول الله : واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصةً : واي فتنةٍ هي اعظم من طاعة الشيطان ، ومعصية السلطان ، والعيث في الدماء والديار ، واتباع السفهاء الاغمار ، الذين يحملونكم على اشنع خطة ، ويلجئونكم الى اضيق ورطة ؟ هيهات ما اضلّ ذلك من رأي واسوأه من اختيار ، وابعده من سداد وصواب ، واخلقه بعائدة نكال ووبال !

وامير المؤمنين يُعذر ويُنذر ، ويَعظ ويزجر ، ويخوّف ويحذّر ويعيد ويكرّر ابقاءً عليكم ورعايةً للحق الذي يوجبه فيكم : فمن رجع القهقرى ونزع وارعوى فالتوبة تنفعه ، والانابة تنعشه والعفو يسعه ، والحلم يغمره . ومن دام على لجاجه ، واصرّ عَلَى اعوجاجه ، فجيوش امير المؤمنين تطرقه وعساكره

ترهقه ، والمعاصم تلفظه ، والمعاقل تسلمه والشقي من كان معه ، والسعيد من برىء منه »

٢ — من كتاب كتبه عن معز الدولة

عند ظفره بروزبهان العاصي عليه بالاهواز

قال بعد تحميدة طويلة تقع في ٣ صفحات[1]

« وكان الغامط لانعامنا، الجاحد لاحساننا، المتردّي من ذروة طاعتنا، الهاوي في هوة معصيتنا ، الخالع ربقة ذمتنا ، النازع جنة مشايعتنا، روزبهان بن وندا خرشيذ، تصنّع عندنا في قديم امره بالولاية، وتنفّق بالكفاية واظهر لنا غروراً من سعيه في الخدمة وكدحه ، وسراباً لامعاً من وفائه ونصحه، وهو يدبّ الضراء ويُسرّ حسواً في ارتغاء، ويوكي على الغش عيابه ، ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه، ولا يبدي لنا بادية وفاق الا عن خافية نفاق، ولا يطلع طالعة وداد الا عن خبيثة عناد، ولا يبرز في شيمةٍ من شيم التقرّب منا والتوصل الى قلوبنا، الا كانت غطاء على حيلةٍ يعملها او غيلةٍ يرصد لها ، وغشاءً على فرصة ينتهزها وغرّةٍ يهتبلها . ونحن نحمل امره على ظاهرهِ، ونظنّ غائبه مثل حاضرهِ وباطنه مثل عالنه ، بل كلما زدناه احساناً وامتناناً ، زدنا اليه سكوناً وركوناً، وكلما ارتقينا به الى منزلةٍ ورتبةٍ، ارتقينا فيه الى مثلها من انسةٍ وثقةٍ، حتى استبطناه من الحضيض الاوهد ، الى السناء الامجد ، وجذبنا بضبعه من المسقط المنحط الى المرفع المشتط، وانتهينا في الانافة بقدره، والاشادة بذكره، والتفخيم لامره والتقديم لقدمه الى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل، ولا تسمو اليها همة آمل فلما عزّ بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعد صيته بعد الخمول، وطلع سعده بعد الافول ، وجمّت عنده الاموال، ووطئت عقبه الرجال، وتضرّمت بجسده

(١) الرسائل ٣٣ و ٤٠ و ٤١

جوانح الاكفاء، وتقطعت بمنافسته انفاس النظراء، نزت به بطنته وادركته شقوته، ونزغ له شيطانه، وامتدت في الغي اشطانه، فنصب اشراكه وحبائله واعمل مكايده ومخاتله

وبثثنا رسلنا الى اوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن الذين كل منهم احد الرجلين، اما مسفٌّ الى تناول حطامه، عازم على خذلانه واسلامه، او مغلوب على رأيه محام عن حوبائه، طالب لنفسه فرصة الانسلال، وخلسة الانتقال فاستجابوا الى الواجب، واذعنوا بالحق اللازب، واقاموا ضروباً من العذر عندنا، ولاذوا بالعفو والغفران منا

فلما تراءى الناس هلال شوال وكادت تغشاهم غواشي الظلام، انزل الله نصره على اوليائه، وشفع لهم وعده بوفائه، فانهزم الخائن هزيمة قوّض الله بها عروشه، وفضّ جيوشه، وضلّل وساوسه، وابطل هواجسه، واستلحمت رجاله السيوف، وحرقتهم نار الحتوف، واقتسمتهم المكاره شعاعا ايدي سبا بين قتيل مرمل، واسير مكبّل، وهارب مفلول، ومستأمن ذليل

٣ — رسالة في التطفل (١)

وهي من باب الكتابة الهزلية

« هذا ما عهد علي بن احمد المعروف بعليكا الى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على احياء سننه، واستنابه في حسن رسومه، من التطفل على اهل مدينة السلام وما يتصل بها من ارباضها واكنافها، ويجري معها في سوادها واطرافها، لما توسّمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم وجودة الهضم، ورآه اهلاً له من سدّ مكانه، والرفاهة المهملة التي فطن لها

(١) نثبت هنا بعضها، وتجدها كاملة في صبح الاعشى ١٤ ص ٣٦٠—٣٦٥

والرقاعة المطّرحة التي اهتدى اليها ، والنعم العائدة على لابسيها بملاذّ الطعوم وخصب الجسوم

وامره ان يتأمل اسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفّحه تصفُّح الباحث عن حظه بمحموده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده فان كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله ، وكرهه لمن استعمله ، ونسبه فيه الى الشرَه والنّهم ، وحمله منه على التّفه والقرَم . فمنهم من غلط في استدلاله فاساء في مقاله ، ومنهم من شحّ على ماله ، فدافع عنه باحتياله ، وكل الفريقين مذموم ، وجميعهما ملوم ، لا يتعلقان بعذر واضح ، ولا يعتريان من لباس فاضح ، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العِنان ، فهي تتدله اذا كان لها وتتدلى عليه اذا كان لغيرها ، وترى ان المنّة في المطعم للهاجم الآكل ، وفي المشرب للوارد الواغل ، وهي احق بالحرّية ، واخلق بالخيرية ، واحرى بالمروّة ، واولى بالفتوّة ،

وامره ان يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمط الامراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها الى الغنيمة النادرة ، واذا استقراها وجد فيها من طرائف الالوان ، الملذّة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة في الحلقوم ، ما لا يجده عند غيرهم ، ولا ينال الا لديهم ، لحذق صناعتهم ، وجودة ادواتهم ، وانزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل اليه سبيلنا

وامره ان يصادق قهارمة الدور ومدبّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمّاليها ، فانهم يملكون من اصحابهم ازمّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من اهل مودّاتهم ومعارفهم ، واذا عدّت هذه الطائفة احداً من

الناس خليلاً من خلانها ، واتّخذته اخاً من اخوانها، سعد بمرافقتها ، ووصل الى محابّهِ من جهاتها ، ومآربه في جنباتها

وامره ان يروض نفسه ، ويغالط حسّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطوي دونه كشحا ، ويستحسن الصمم عن الفحشا . وان اتته اللكزة في حلقه ، صبر عليها في الوصول الى حقه ، وان وقعت به الصفعة في راسه ، صبر عليها لموقع اضراسه ، وان لقيه لاقٍ بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء ، اذ كان قد ولج الابواب ، وخالط الاسباب ، ، وجلس مع الحضور ، وامتزج بالجمهور ، فلا بد ان يلقاه المنكرِ لامره ، ويمرُّ به المستغرب لوجهه : فان حرًّا حييًّا امسك وتذمّم ، وان كان فظًّا غليظًا همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة ، واستعمل مع المخاطِب له الملاينة ، ليبرّد غيظه ، ويفلّ حدّه ، ويكفّ غربه ، ويأمن شغبه . ثم اذا طال المدى تكررت الالحاظ عليه فعُرف ، وانست النفوس به فأُلف ، ونال من المحالِّ المجتمع عليها ، منال من حُشم وسئل الذهاب اليها

هذا عهد عليكا بن احمد اليك ، وحجّته لك وعليك ، لم يألك فيه ارشادا وتوفيقا ، وتهذيباً وتثقيفا ، وبعثاً وتبصيرا ، وحثاً وتذكيرا ، فكن باوامره مؤتمرا ، وبزواجره مزدجرا ، ولرسومه متّبعا ، وبحفظها مضطلعا ، ان شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»

القاضي الفاضل

٥٢٩ — ٥٩٦ هـ

نشأته ومكانته

ولد « كاتبنا » واسمه عبد الرحيم بن علي البيساني في عسقلان وكان والده قاضياً فيها[١] . ولما ترعرع ظهر فيه ميل الى الادب فرأى والده ان يلحقه بديوان المكاتبات ليتخرّج هناك على كبار المنشئين . فارسله الى مصر ايام الحافظ الفاطمي[٢] . وكان رئيس الديوان في تلك الايام الموفّق بن الخلاّل . قال القاضي الفاضل[٣] « فلما مثلت بين يديه وعرّفته من انا وما طلبتي رحب بي وسهّل ، ثم قال لي ما اعددت لفنّ الكتابة من الآلات فقلت ليس عندي شيء سوى اني احفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فقال في هذا بلاغ ، ثم امرني بملازمته . فلما تردّدت اليه وتدرّبت بين يديه امرني بعد ذلك ان احلّ شعر الحماسة فحللته من اوّله الى آخره ، ثم امرني ان احلّه مرّة ثانية فحللته »

اما ابن خلكان فيصحح الرواية السابقة التي ذكرها ابن الاثير ويقول ان القاضي الفاضل دخل مصر ايام الظاهر بن الحافظ وان والده ترك بيسان لخلاف بينه وبين والي الناحية فاستدعي الى مصر وصودر ماله وتوفي هناك[٤] اي لما كان صاحب الترجمة في السابعة عشرة من عمره .

---

(١) وفيات الاعيان ٢ — ٦٠٨ (٢) الوشي المرقوم ٩

(٣) الوشي المرقوم ٩ (٤) الوفيات ٢ — ٥٤٦

والمهمّ من الروايتين ان القاضي الفاضل أمّ مصر حدثاً وتأدّب فيها . وبعد موت والده ترك مصر الى الاسكندرية وقصد ابن حديد قاضيها وعرّفه بنفسه فعطف عليه واستكتبه . وكانت مكاتبات ابن حديد ترد الى مصر بخطّه[١] وهي غاية في البلاغة . فاثار ذلك حسد كتّاب الانشاء وخافوا ان يتقدّم عليهم فسعوا الى الظافر به . ولكنّ هذه السعاية كانت لخيره فان الظافر الفاطمي استقدمه اليه واستخدمه[٢] .

ولما تولى صلاح الدين الايوبي المشهور امر مصر جعله وزيره[٣] . فنال غاية الشرف لديه . وبعد وفاة صلاح الدين ابقاه ولده الملك العزيز على حاله من الرفعة ونفاذ الامر . ولم يزل كذلك ايام العزيز وايام ولده الملك المنصور حتى دخلت مصر في حوزة الملك العادل فتوفي فجأةً اول دخوله اليها وذلك سنة ٥٩٦ هـ . قال ابن خلكان « وقد زرت قبره بسفح المقطم مراراً وقرأت تاريخ وفاته على الرخام وكان من محاسن الدهر »

ومن ما ثره انه بنى مدرسة بمصر ووقف لها اوقافاً ونقل اليها بعض كتبه[٤] . ونقل طاش كبري زاده المتوفى ٩٦٢ انه اشترى اكثر كتب خزانة الفاطميين ووقفها على المدرسة المذكورة[٥] . واستفتح التدريس بها مستهلّ المحرّم من سنة ٥٨٦ اي وهو في السابعة والخمسين من عمره . ومما يذكر انه وقف على الاسارى وقفاً عميماً فاستنقذ به خلقاً عظيماً ومع ذلك لم يخل من هجاء بعض الناقمين عليه[٦] .

قلنا انه نال غاية الشرف عند اهل الامر . ويكفي للدلالة على علو منزلته

---

(١) الوفيات ٢ — ٦٠٩ (٢) وفيات الاعيان ٢ — ٦٠٩
(٣) وفيات الاعيان ١ — ٤٠٢ (٤) مرآة الزمان ٨ ص ٣٠٥
(٥) مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤١ (٦) مرآة الزمان ٨ — ٣٠٥

ان صلاح الدين كان يقول في ملأ من الناس «لا تظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل[1]»

رجل مثل القاضي الفاضل يبلغ من الادب ما بلغ ويحظى من شرف الرئاسة بما حظي حقيق ان يمدحه الناس في عصر كان المدح بضاعة الادباء، كما كان ايام ابن العميد والصاحب بن عبّاد. وقد كثر مدّاحه حتى قال العماد الاصفهاني انه مدح بمئة الف بيت من الشعر[1]. ونجتزئ من مدح المدّاحين له بما انشأه العماد نفسه في خريدته اذ قال على طريقته من التأنق والغلوّ في التقريظ — «ربّ القلم والبيان، واللّسن واللسان، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النقّادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرّزة. فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع. يخترع الافكار، ويُطلع الانوار، ويبدع الازهار. وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بلآلائه. ان شاء انشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دُوّن لكان لاهل الصناعة خير بضاعة. اين قسٌّ عند فصاحته. واين قيس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟» الخ

ولمعاصره الشاعر المعروف بابن الساعاتي جملة مدائح. منها قصيدة مطلعها:

اماط لثاماً فاجتلى القمر الادنى ... والقى وشاحاً فاجتنى الغصن اللدنا

ومنها في مدح انشائه:

هو العارض الوسميُّ وهو وليُّه ... فيسراه فيها اليسر واليمن في اليمنى

اذا ما انبرى في طرسه قالت النهى ... قفوا فانظروا ما يصنع الناحل المضنى

وإمّا اتى يوماً عدوّاً كتابه ... ثنى جيشه ثاني العنان وقد اثنى

(١) مرآة الزمان ٨ — ٣٠٤ (٢) مرآة الزمان ٨ — ٣٠٥

هو الدهر فالطرس الصباح تبلّجت ثناياه والنِّقس الظلام اذا جنّا
فهل خطّهُ خطيّةٌ سمهريّة فلم نرَ خطًّا غيره يهزم القرنا
بنا طربٌ مما يصوغ يراعه فهل صاغ حليًا للمسامع او لحنا

ومثل ذلك قوله من قصيدة ومطلعها

محيّاك احيا الوجد بل اتلف الصبّا وقلبك امسى ساكنًا يزعج القلبا

وفي مديحه يقول —

هو الشمس لم تجنح لغرب دنيّة هو السيف لم يُفلل له مضرب غربا
تحمّل عبء الملك مضطلعًا به وفاض على العافين كالبحر اذ عبّا

الى ان يقول —

اقام لسان العُرب بعد اعوجاجه اخو كَلِمٍ يستعبد العجم والعُربا
له قلمٌ مثل الحسام ذبابه بانمله كم بذّ خلقًا وكم ذبّا
خميس اذا ما الخمس حاطت جهاته وإما تمادى خاطبًا الخم الخطبا
يميت ويحيي كاتبًا ومكتّبًا لداعيه والعادي الكتائب والكتبا

ومنها

طوى ذكر سحبان فاقبل ساحبًا لديه ذيول العجز تستلم التربا
سحابٌ همى خصبًا وجدبًا وقلما رأيت سحابًا يمطر الخصب والجدبا

وله فيه كثير غير ذلك[1]

(١) راجع مخطوطة ديوانه في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت

اسلوبه الانشائي :

لا يخرج انشاء القاضي الفاضل عمَّا كان عليه الانشاء الديواني منذ ايام ابن العميد والصابي والصاحب، الاّ انه يمتاز كما يمتاز معاصره وزميله العماد الاصبهاني ومن جاراهما من منشئي ذلك الزمان بالتوفُّر على صناعة البديع . والعصر الذي نشأ فيه صاحب الترجمة اي القرن السادس الهجري عصر بلغ فيه التأنُّق البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً، وقد ظهر تأثيره في كل العصور التالية حتى انصرفت عناية المتأدبين ولا سيَما المنشئين الى ما يلبسون الكلام من زخارف الزِين اللفظية . ومما لا ريب فيه انه كان للقاضي الفاضل يد طولى في هذه الحركة حتى عُدَّ شيخ الصناعة الكتابية، وحتى صاروا يقولون الطريقة الفاضليَّة . واليك اهم مزاياها —

البيان المجازي :

ونعني بذلك تشخيص المعاني والتوفُّر على الاستعارات : كقوله من رسالة كتبها عن صلاح الدين الى الخليفة ببغداد يبشّره بفتح بلد من بلاد النوبة وانهزام ملكها بعساكره [1] . وهي طويلة بداها بالصلاة ثم بتعظيم الخليفة ثم بذكر الفتح وتفنن في كل ذلك ما شاء حتى وصل الى ذكر الهزيمة فقال يصف جلاء العدو عن دياره :

« ولم يبقَ الاّ مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها، واثافيُّ دهمٌ اعجلت المهابة ما ردَّ سَغَبهم عن طعامها ، وغربان بينٍ كأنها في الديار ما قُطع من رؤوس بني حامها ، وعوافي طيرٍ كانت تنتظر من اشلائهم فِطرَ صيامها .

(١) راجع صبح الاعشى ٦ ص ٥١١ — ٥١٥

وعادت الرُّسُل المنفَّذة لاقتفاء آثارهم ، واداء اخبارهم ، ذاكرةً انهم لبسوا الليلَ حداداً على النعمة التي خُلعت ، وغسلوا بماء الصبح اطماع نفسٍ كانت قد تطلَّعت ، وأنهم طلعوا الاوعار اوعالاً ، والعِقاب عِقباناً ، وكانوا لمهابط الاودية سيولاً ، ولأعالي الشجر قضباناً — فرأى المملوك ان الكتاب فيهم قد بلغ اجله ، والعزمَ منهم قد نال املَه ، والفتكَ بهم قد اعمل مُنْصُلَه ، وأنَّ سيوف عساكر امير المؤمنين منزَّهة ان تُريق الاَّ دماء اكفائها من الابطال ، وان تلقى الاَّ وجوه انظارها من الرجال ، وانَّ المذكورين نملٌ حطَمه سليمان عليه السلام وجنودُه ، ورملٌ اطاره العاصف الذي يسحفهُ ويقوده . واصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معرَّتهم عارية ، والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويد الله على اعدائه عادية ، وانفُس المخاذيل في وثاق مهابته العالية عانية »

. . . . .

فالقارئ يرى في هذه القطعة ميل كاتبها الى الاستعانة بالمجاز — فان ارتحال القلوب ، واعجال المهابة ما ردّ السغَب ، وعوافي الطير ، ولبس الليل حداداً ، وغسل ماء الصبح ، وطلوع الادعار اوعالاً ، وهبوط الاودية سيولاً ، واعمال الفتك منصله ، والانفس في وثاق المهابة ، وغير ذلك مما في الرسالة من تجسيم المعاني وتشخيص الجماد — كل ذلك دليل على تأنق متكلف وصناعة في ذلك العصر رائجة

ومن تأنّقه بهذا الضرب من الانشاء قوله من رسالة عن صلاح الدين الى ديوان الخلافة ببغداد ايام الناصر لله يبشره بفتح القدس وذلك سنة ٥٨٣ هـ والمقام طبعاً يقتضي التعظيم والتهويل ولم يقصّر فيهما القاضي الفاضل اذ قال واصفاً انخذال العدوّ[1] —

(١) صبح الاعشى ٦ — ٤٩٩

« وقد اظفر الله بالعدوّ الذي تشظّت قناته شَفَقا ، وطارت فِرَقه فَرَقا وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغُضَّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطف الكرى من الجفون ، وجُدعت انوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى او راعفة بالمنون » —

ثم يقول —

« فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة » — ويقول — « فكم اهلّة سيوفٍ تقارضن الضراب بها حتى صارت كالعراجين ، وكم انجم اسنّة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسيّة ركض عليها فارسها السهمَ الى اجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه »

ومن غريب هذا الاسلوب قوله من الرسالة عينها يذكر هجوم المسلمين على سور القدس وهدمه — « فصافحت (القسيّ) السور باكنافه فاذا اسهمها في ثنايا شُرفاته سواك ، وقدّم النصر نسرا من المنجنيق يُخلد اخلاده الى الارض ويعلو علوّه الى السماك . فامكن النقّاب ان يسفر للحرب النقاب ، وان يعيد الحجر الى سيرته الاولى من التراب . فتقدّم الي الصخر فمضغ سَرْده بانياب مِعوله ، وحلّ عقده بضربه الاخرق الدالّ على لطافة انمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته الى ان كادت ترق لمقبّله ، وتبرّأ بعض الحجارة من بعض ، واخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض » .

. . . . .

ونشير اشارة خاصة في هذه القطعة الاخيرة الى جعله الاسهم مساويك في ثنايا الشرفات — وانياب المعول تمضغ الصخر الاصمّ في السور — والخراب

ياخذ على الحجارة موثقاً فلن تبرح الارض . وفي كلامه كثير من مثل هذه المجازات المتكلفة التي كان يُعنى بها اتم العناية ويتوخى استعمالها تعظيماً للمقام واظهاراً لبراعته في فنون الكلام

الجناس

والجناس من الفنون المستحبَّة عند المنشئين . قال ابن الاثير (وهو ممن دخلوا في خدمة صلاح الدين على يد القاضي الفاضل) : « اعلم ان التجنيس غرَّة شادخة في وجه الكلام وقد تصرّف العلماء من ارباب هذه الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لا سيما المحدَثين منهم، وصنَّف الناس فيه كتباً كثيرة وجعلوه ابواباً متعدّدة . وحقيقته ان يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً » الخ[1]

. . . . . .

وقد اولع به القاضي الفاضل وتكلّفه في رسائله ومن امثلة ذلك قوله[2] « والشرق يهتدي بانواره ، بل ان ابدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بان واره » فانوار الاولى جمع والثانية مؤلفة من ان الوصلية والامر من يواري وفي ذلك ما فيه من التصنع . ومنه قوله عن العدوّ[3] : « راسل ورأى سلّ السيوف يغمده ، وما كر وما كرّ لعله ان الحتف يعمده » . فالجناس في راسل ورأى سلّ وما كر وما كرّ ويغمده ويعمده .

ومن تفنّنه في الجناس قوله[4] — فالحمد لله الذي صدقه وعده ، واورثه الارض وحده ، وجدّد علاه واعلى جَدّه ، واسعد نجمه وانجم سعده ، ووعده نجحه وانجح وعده ، واورده وصفه واصفى ورده » فانك ترى فيه انعكاس الالفاظ في القرينتين وهو ما يسمونه بالجناس المعكوس

---

(١) راجع تفصيل ذلك في المثل السائر ١٥٣ — ١٦١ (٢) صبح الاعشى ٦ — ٤٩٨
(٣) صبح الاعشى ٦ — ٥١٣ (٤) صبح الاعشى ٦ — ٥١١

وقوله[١] « — والحمد لله الذي اعاد الاسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان جديداً حبله » . ويراد بجديداً الثانية منقطعاً

وقوله[٢] — « وان عَزّ اوّل الاسلام بحطّ تاج فارس ، فكم حطّت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس » — ففارس الاولى بلاد الفرس والثانية صاحب الفروسية

وقوله[٣] — « والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويد الله على اعدائه عادية ، وانفس المخاذيل في وثاق من مهابته العالية عانية »

وقوله[٤] — « فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاورة ، ومكاسرة وراءها مكاثرة »

وقوله[٥] — « وكان النيل قدماً قد فرّت عن الفرات ابناؤه ، وتحصّنت غُلل المؤمنين عنه فلم يتغلغل اليها ماؤه »

. . . . .

ومثل الجناس في الشيوع الطباق وهو كثير في كلام القاضي الفاضل ونكتفي هنا بالاشارة اليه .

سمة الترسل او التبسط

ونعني به الميل الى العطف والترادف والاطناب كقوله يصف الاسلام في عرض رسالة عن صلاح الدين الى الخليفة المستضيء ببشره بفتح بلد من بلاد النوبة[٦] —

« ان الله قد رفع ملة الاسلام على المِلل ، وكثّل نصرها وكفى ما كفل

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٥١٨ (٢) صبح الاعشى ٦ — ٥١٩
(٣) » » ٦ — ٥١٤ (٤) » » ٦ — ٥١٤
(٥) » » ٦ — ٥٠٨ (٦) » » ٦ — ٥٠٧

وحمى ملكها وحمل . وجعل لها الارض في ايدي المخالفين ودائع ، ومكّن يده من اعناقهم فهي امّا تعقد الاغلال او تصوغ الصنائع . والحقّ بها قائم العمود ، والسيف الكفاية لازم الغمود ، والبشائر تمسِك الصباح وتخلّق الدجى ، والخيل على طول ما تشتمل الوحا تنتعل الوجى ، والايام زاهرة ، وعزّة اوليائها قاهرة ، وذلة اعدائها ظاهرة ، وعنايات الله لديها متوالية متظاهرة . اذا تغرّب اسمها يوماً عن منبر أُعيد الى وطنه غدا ، واذا أُوقدت نار فتنةٍ في معصيتها أُوقدت في طاعتها نار هدى »

ففي هذه القطعة ترى الكاتب ينسج معنى واحداً هو عظمة الاسلام وازدهار ملكه في نحو خمس عشرة سجعة متشابهة — ارتفاع الاسلام ونصر الله له ، وتمكنه من اعناق الاعداء ، وقيام الحق به ، وازدهار الايام ، وعزّة الاولياء ، وذلة الاعداء ، وعناية الله — كل هذه العبارات اشكال مختلفة لشيء واحد . وانما تبسّط فيها تعظيماً لموضوع الكلام كما فعل في الفقرات التالية من الرسالة نفسها تحقيراً لاعداء الاسلام قال :

« فهل ترى لهم من باقية ، او تسمع لهم من لاغية ، او تجد اليهم من صاخية . فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم او مساكينهم ، وحصدوا حصد الحشيش ثم لا تخاف سيوفهم ولا سكاكينهم ، واستنزلوا من عقاب اللُّوح وسجنوا في الهمّ من طول مداومة عقاب الروح . ثم تداركوا الى الدرْك واشتركوا في الشرْك ، واقفرت منهم عِراص ، وزهدت فيهم خواصّ ، وعُلِمَ ان ليس لله غالب ، وان ليس يفوته طالب ، وان الملك لله وحده ، وانّ الويل لمن تجاوز امره وحدّه »

فكل هذه الاسجاع لو جمعت معانيها لما تجاوزت قولنا — خربت ديارهم وقُهرت رجالهم وادركهم عقاب الله وهو الغالب القهار

ولو اردنا ان نستشهد بما للقاضي الفاضل من ذلك لتحتم علينا ان ننقل جميع رسائله او جلّها فانك قلما ترى له رسالة لا تظهر فيها جميع مزاياه ولا سيما هذا العطف او الترادف الترسّلي ، ويكثر ذلك طبعاً في رسائل الفتوح حيث يقتضي المقام التعظيم والتفخيم . وتقترن هذه المزايا التي ذكرناها له بما يشترك به كبار المنشئين من توازن العبارات وحسن سبك الالفاظ ومتانة التركيب ، وسترى ذلك كله في المختارات التالية من رسائله :

نخب من رسائله

١ — كتاب عن صلاح الدين الايوبي

الى بردويل ملك القدس معزّياً له في ابيه[1]

اما بعد — خصّ الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجدّ الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ما ورّثه ، واحسن من هداه فيما اتى به الدهر واحدثه : فان كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الاصادق ، والنعي الذي وددنا ان قائله غير صادق ، بالملك العادل الاعزّ الذي لقّاه الله خير ما لقّى مثله ، وبلّغ الارض سعادته كما بلّغه محله ، معزٍّ بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذي عظمت فيه الارزاء : الاّ ان الله سبحانه قد هوّن الحادث ، بان جعل ولده الوارث ، وانسى المصاب ، بان حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، ادام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء من لسانه

(١) صبح الاعشى ٧ — ١١٥

ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، و كيف لا يستوحش ربُّ الدار لفرقة جيرانه ؟ وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا وودُّنا الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا . فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من اهلها ، وليعلم انَّا له كما كنا لابيه : مودَّة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة ، مع ما في الدين من المخالفات . فليسترسل الينا استرسال الواثق الذي لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل عن والده ما تحمَّل والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ، ويقضي له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق »

٢ — كتاب بفتح القدس

كتبه سنة ٥٨٣ عن صلاح الدين الى الخليفة الناصر ببغداد ، وهو كبير يقع في نحو ٨ صفحات من صبح الاعشى[1] . نثبت منه هنا ما يلي — وقد مرَّ معنا بعض فقراته

« و كتاب الخادم هذا وقد اظفر الله بالعدو الذي تشظَّت قناته شفقا ، وطارت فِرَقه فَرَقا ، وفُلَّ سيفه فصار عصا ، وصُدِعت حصاته و كان الاكثر عدداً وحصا ، فكلَّت حملاته و كانت قدرة الله تصرّف فيه العنان بالعيان ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يدٍ بها يدان ، وعثرت قدمه و كانت الارض لها حليفة ، وغُضَّت عينه و كانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه و كانت يقظته تريق نُطف الكرى من الجفون ، وجُدعت انوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى ، او راعفة بالمنون

فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية ،

(١) صبح الاعشى ٦ ص ٤٩٦ — ٥٠٤

مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عُصرة ، ولا في فناء الافنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدّل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من ايدي اصحاب المشأمة الى ايدي اصحاب الميمنة

ولما لم يبق الاالقدس وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا انها من الله مانعتهم ، وان كنيستها الى الله شافعتهم[1] : فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التّناد ، وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرْصته ، وهان عليها مورد السيف وان تموت بغصّته ، فزاول البلد من جانب فاذا اودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وابرجة قد نزلت مكان الواسطة من عِقد الدار ، فعدل الى جهة اخرى كان للمطامع عليها معرَّج ، وللخيل فيها متولَّج ، فنزل عليها ، واحاط بها وقرب منها ، وضُربت خيمته بحيث يناله السلاح باطرافه ، ويزاحمه السور باكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمّها ضمةً ارتقب بعدها الفتح ، وصدع اهلها فاذا هم لا يصبرون على عبودية الجدّ عن عتق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نَظِرةً من شدة ، وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم في لحن القول ، واجابهم بلسان الطَّول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيّها وحبالها ، واوتر لهم قسيّها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور باكنافه فاذا اسهمها في ثنايا شرفاتها سِواك ، وقدّم النصر نسراً من المنجنيق يخلد اخلاده الى الارض ويعلو علوه الى السماك ، فشجّ مرادع ابراجها ،

(١) كذا في الاصل بدون جواب « لمّا » وهو مفهوم من المقام

واسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فاخلى السور من السيَّارة ، والحرب من النظَّارة ، فامكن النقَّاب ، ان يسفر للحرب النقاب ، وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده ، بانياب معوله وحل عقده بضربه الاخرق الدال على لطافة انمله ، واسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته الى ان كادت ترق لمقبله ، وتبرَّأ بعض الحجارة من بعض واخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ، وفتح في السور باب سدَّ من نجاتهم ابوابا ، واخذ نقبٌ في حجره قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا فحينئذ يئس الكفار من اصحاب الدور ، كما يئس الكفار من اصحاب القبور وجاء امر الله وغرَّهم بالله الغرور

واوزع الخادم بردِّ الاقصى الى عهده المعهود ، واقام له من الائمَّة من يوفيه ورده المورود ، واقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان ، فكادت السموات يتفطَّرن للسُّجوم لا للوجوم ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة ، وظهرت قبور الانبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ، وأُقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها ، (وجهرت الالسن بالله اكبر وكان سحر الكفر يعقدها) وجُهر باسم امير المؤمنين في قطبه الاقرب من المنبر ، فرحَّب به ترحيب من بُرَّ بمن بَرّ ، وخفق علماه في حِفافيه ، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه »

لسان الدين محمد بن الخطيب

٧١٣ — ٧٧٦ هـ

توطئة تاريخية :

نشأ لسان الدين في بيت علم ورئاسة . فأبوه عبد الله كان من اهل الادب والطب ، وجدّه الاعلى (وهو اول من تلقب بالخطيب) عُرف بالعلم والدين والخير ، وكذلك جدّه الاقرب [١] . وكان بيتهم يعرف ببني الوزير ثم ببني الخطيب . قال ابن خلدون عند ذكر نسبه —

« اصل هذا الرجل من لوشه على مرحلة من غرناطة . كان له بها سلف معدود في وزرائها ، وانتقل ابوه عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام . ونشأ ابنه محمد هذا (اي لسان الدين) بغرناطة » [٢] . ولما مات ابوه كان ابن الخطيب لا يزال في مفتتح شبابه لكن ذلك لم يحل دون خدمته للسلطان وفي هذا الصدد يقول :

« خلفني (اي ابوه) عالي الدرجة ، شهير الخطة ، مشمولاً بالقبول ، مكنوفاً بالعناية ، فقلدني السلطان سرّه ولمّا يستكمل الشباب ، ويجتمع السنّ ، معزّزاً بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه ، واستأمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجون حرَمه ، ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان

---

(١) نفح الطيب ٣ — ٣ (٢) تاريخ ابن خلدون ٧ — ٣٣٢

ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصر المشورة على نصحي ، الى ان كانت عليه الكائنة[١]

اما ابن خلدون وهو معاصر له فيقول « ان ابن الخطيب رقي الى خدمة السلطان ابي الحجاج وأثبت في ديوانه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجيّاب[٢] شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية وكاتب السلطان بغرناطة وان ابن الجياب استبدّ برئاسة الكتاب الى ان هلك بالطاعون وذلك سنة ٧٤٩ . فولّى السلطان يومئذٍ ابن الخطيب رئاسة الكتاب ببابه وثنّاه بالوزارة ولقّبه بها فاستقلّ بذلك »[٣] فيكون عمر كاتبنا اذن يوم تولى الوزارة ورئاسة الكتّاب ستّاً وثلاثين سنة . وهذا لا يصدق حسب الظاهر على ما ذكرناه له آنفاً من الكلام على علاقته بالسلطان . ويمكن الجمع بين القولين بان ابن الخطيب دخل في خدمة السلطان وهو حدث واخذ كما قال ابن خلدون يرتقي حتى بلغ اوج الارتقاء بعد وفاة ابن الجياب

وفي سنة ٧٥٥ قتل سلطانه ابو الحجاج فانتقل الى خدمة ولده السلطان محمد وزيراً وكاتباً وسفيراً ، بل جعله رديفاً له في امره[٤] ، فجرت الدولة على احسن حال واقوم طريقة . لكن الحال لم تدم على صفائها فنشبت ثورة اقصت السلطان عن عرشه الى وادي آش فقبض الثوار على ابن الخطيب والقوه في السجن . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق (وهو احد مشايخه) مودّة فزيّن ابن مرزوق لسلطان المغرب ابي سالم استدعاء ملك غرناطة المخلوع لاغراض سياسية ، فارسل الى اهل الاندلس سفيراً يطلب منهم تسهيل طريقه

---

(١) الاحاطة نقلاً عن نفح الطيب ٣ — ٤٠ (٢) في تاريخ ابن خلدون الحباب وقد تابعنا في لفظها نفح الطيب ودائرة المعارف الاسلامية

(٣) ابن خلدون ٧ — ٣٣٢ (٤) ابن خلدون ٧ — ٣٣٣

الى المغرب وحمّله الشفاعة في ابن الخطيب وحلّ معتقله . فقبلوا شفاعته وصحب السفير الى سلطان المغرب فاكرم مثواه[١] . ويظهر ان ابن الخطيب ملّ حياة الوزارة ودسائسها، واراد التخلّي عن خدمة الملوك ، والتحلي بزينة اهل التصوّف والسلوك ، فلم يرد الله ما اراده ابن الخطيب .

وكان قد احسّ من شيخه ابن مرزوق حنيناً الى الدنيا وغرورها فكتب رسالة يصف فيها خدّام الدولة ومصايرهم ، وينبّهه الى النظر في عواقب الرئاسة — قال المقّري « وكانّ لسان الدين اشار ببعض فصولها الى نفسه ، ونطق بالغيب في نكبته التي قادته الى رمسه » . ومن هذه الرسالة قوله[٢] —

« ليت شعري ما الذي غبّط سيدي بالدنيا ، وان بلغ من زبرجدها الرتبة العليا ، أَلتوقُّع المكروه صباحاً ومساءً ، وارتقاب الحوالة التي تُديل من النعيم البأساء ، ولزوم المنافسة التي تعادي الاشراف والرؤساء ؟ أَلترتُّب العتب على التقصير في الكتب ، وضغينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنب ؟ أَلنسبة وقائع الدولة اليك وانت بري، وتطويقك الموبقات وانت منها عري ؟

أَلقطع الزمان بين سلطان يُعبد ، وسهام للغيوب تكبّد ، وعجاجة شرّ تلبّد ، وأقبوحة تخلد وتوأَبّد ؟ أَلوزير يصانع ويدارى ، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى ، وعورة لا توارى ؟ المباكرة كل غرن حاسد ، وعدوّ مستأسد ، وسوق للانصاف والشفقة كاسد ، وحال فاسد ؟ أَلوفود تتزاحم بسدّتك ، مكلِّفة لك غير ما في طوقك، فان لم يقع الاسعاف

---

(١) ملخصة عن ابن خلدون ٧ ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(٢) نفح الطيب ٣ ص ٧٨ و ٧٩

قلبت عليك السماء من فوقك ؟ ألجلساء يبابك ، لا يقطعون زمان رجوعك وايابك ، الاّ بقبيح اغتيابك ؟

وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضى ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلّق عليه سيف منتضى . واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما لا يُملك ، واللجاج حول المسقط الذي تعلم انها فيه تهلك ، فكيف تنسب الى نبل ، او تسير من السعادة في سبل ؟ وان وجدتْ في القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية ، فليت شعري اي شيءٍ زادها ، او معنى افادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذي القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد ؟ او شعرتْ ببعض الايناس في الركوب بين الناس ، ما التذّت الا بحكم كاذب ، او جذبها غير الغرور جاذب ، انما راكبك من يحدّق الى الحلية والبزة ، ويستطيل مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسايرة انيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمر الشرّ لك ولرئيسك . وأي راحة لمن لا يباشر قصده ، ويمشي اذا شاء وحده ؟

ثم يذكر مشاغل الوزير ومتاعبه فيقول :

« أما ليله ففكر او نوم ، وعتب بحراء الضرائر[1] ولوم ، واما يومه فتدبير ، وقبيل ودبير ، وامور يعيا بها ثبير ، وبلاءٌ مبير ، ولغط لا يدخل فيه حكم كبير ، وانا بمثل ذلك خبير »

. . . . .

والرسالة طويلة تقع في اربع صفحات من صفحات نفح الطيب وكلها على هذا النسق من الموعظة والنصيحة

---

(١) كذا في الاصل وفيه ابهام

وفي سنة ٧٦٣ عاد السلطان محمد الى ملكه بالاندلس فاستقدم ابن الخطيب ودفع اليه تدبير المملكة . قال ابن خلدون « وانفرد بالحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه[1] »

« وخيِّل لابن الخطيب ان السلطان مال الى قبولها فرحل عن الاندلس الى تلمسان تخلصاً من دسائس اعدائه فتلقاه سلطانها عبد العزيز بالتكرمة ووفر الاقطاع له ولبنيه . ولما مات هذا السلطان اخذ نجم كاتبنا بالافول وكان له اعداء وحساد في المغرب وفي الاندلس فاكثروا الوشايات فيه واتّهموه بالزندقة[2] فقبض عليه والقي في السجن . قال ابن خلدون ما ملخصه

« وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب الى السلطان (اي سلطان غرناطة) بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب وهو ابو عبد الله بن زُمرك فقدم على السلطان ابي العباس (سلطان المغرب) . وأُحضر ابن الخطيب الى مجلس الخاصة والشورى ... ووُبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ثم افتوا في قتله ودسُّوا اليه بعض الاوغاد فقتلوه خنقاً »

والغريب ان يكون لابن زمرك يد في قتله وهو احد تلامذته وبه نال الجاه والعز . وكان لسان الدين يكرمه وقد اثنى عليه في كتابه الاحاطة . ولابن زمرك فيه مدائح كثيرة قال المقري « ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته ، وكم من صديق لك ضرّك وعقّك بعد ما برّك[4] » . وفيه يقول

---

(١) ابن خلدون ٧ — ٣٣٥ (٢) يقول المقري ان كتابه روضة التعريف بالحب الشريف وهو كتاب تصوّف تكلم فيه على طريقة اهل الوحدة المطلقة فاغتنم ذلك اعداؤه ونسبوا اليه مذهب الحلول وغيره ، نفح الطيب ٤ — ٢٤٣ (٣) ابن خلدون ٧ — ٣٤١ (٤) نفح الطيب ٣ — ٤٤٦

ابن لسان الدين « هو اخسُّ عباد الله استعمله ابي في الكتابة السلطانية فجنبنا ايام تحولنا عن الاندلس منه كل شر، وهو كان السبب في قتل ابي الذي رباه وادَّبه واستخدمه حسبما هو معروف ، وكفانا الله شر من احسنَّا اليه واساء الينا[١]

نشأته الادبية

يؤخذ مما كتبه عن نفسه في الاحاطة ومما ذكره ابن خلدون والمقري انه كان واسع المعرفة ملمًّا باكثر علوم زمانه . وقد تأدّب على اهمّ مشايخ الاندلس والمغرب[٢] . فاخذ العلوم اللسانية عن ابي عبد الله بن مرزوق وابي الحسن بن الجياب وابي سعيد المقَّري ، وابي بكر بن شيرين ، وابي الحكيم الرندي ، وكثيرين من طبقتهم من اهل العدوتين . واخذ علوم الاوائل كالطب والمنطق والتعديل والفلسفة عن الامام ابي زكريا بن زهر والحكيم يحيى بن هذيل . فنشأ ابن الخطيب ادبيًا عالمًا . قال ابن خلدون :

« وبرَّز في الطب وانتحل الادب واخذ عن اشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه فرقَّاه السلطان الى خدمته الخ[٣] »

وهو احد اعلام المؤرخين . وله من المصنفات المشهورة ما يلي[٤] :

(١) — الاحاطة في اخبار غرناطة في ثلاثة مجلدات

---

(١) نفح الطيب ٣ — ٤٤٧ (٢) راجع مشيخته في نفح الطيب ٣ ص ٣٧٢ — ٣٧٥
(٣) ابن خلدون ٧ ٣٣٢ (٤) راجع قائمة مصنفاته في نفح الطيب ٤ ص ٢٤٣ — ٢٤٦ وما بعدها . وفي دائرة المعارف الاسلامية II-397 . وفي تاريخ اداب اللغة لزيدان ٣ — ٢١٧

(٢) — والحلل المرقومة · وهو تاريخ الخلفاء في المشرق والاندلس وافريقية

(٣) — والحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية

(٤) — اللمحة البدرية في الدولة النصرية · وهو تاريخ امراء غرناطة الى سنة ٧٦٥

(٥) — نفاضة الجراب في وصف مدن الاندلس وعلمائها ومكاتبها

وله ايضاً كثير من الرسائل والاشعار ، وقد ألّف في الطب والفلسفة والرياضيات والفقه فجمع في نفسه الاديب والعالم، وترك في نفوس معاصريه ومن تلاهم اثراً عظيماً حتى نوّه بفضله كبار الرجال من امراء وعلماء ومدحه كبار الادباء من منشئين وشعراء[1]

اسلوبه الانشائي في رسائله :

نبغ ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري وكانت الاناقة الانشائية من سجع وبديع وتغارب لا تزال في اوجها ، وقد شارك ادباء الاندلس والمغرب ادباء المشرق في ذلك · فاذا التفتّ الى الرسائل الديوانية وسواها في ذلك العصر تجدها على نمط واحد في القاهرة ودمشق وفارس وقرطبة وسواها : كلها مسجّعة وكلها محلاّة بانواع الزخارف اللفظية والنكت المعنوية · فكلامنا على ابن الخطيب في غرناطة يصدق على كتّاب الامصار العربية عموماً اذ هو يمثّل روح العصر وادبه ويوضح لنا في انشائه الاسلوب العام لانشاء معاصريه · والذي يراجع رسائله يرى فيها ثلاث مزايا بارزة وهي :—

(١) انه مطيل يميل الى الاسهاب والاكثار ، وقد قال فيه بعض علماء الشرق :

---

(١) لمعرفة اقوال الناس فيه راجع نفح الطيب ٣ ص ٣٧٥ — ٤١٠ وما بعد ذلك

« وهو خليق بالتعظيم جدير بمزيد التمجيد والتكريم. كيف لا وهو شاعر مفلق، وخطيب مِصقع، و كاتب مترسل بليغ لولا ما في انشائه من الاكثار الذي لا يخلو من عثار، والاطناب الذي يفضي الى الاجتناب والاسهاب الذي يقدّ الاهاب ويورث الالتهاب[1] ». وقد علّق على ذلك المقّري بقوله « وهذا الانتقاد غير مسلّم فان لسان الدين وان اطنب واسهب فقد سلك من البلاغة احسن مذهب[2] »

والذي ينظر في كلام الاثنين يرى انهما على اختلاف نظريهما يتفقان على اكثار ابن الخطيب. وقد رجعنا الى عدد كبير من رسائله فوجدناها تزكّي ما اتفقا عليه واليك امثلة على ذلك —

رسالة[1] عن سلطانه ابن الاحمر الى المستنصر بالله ابي اسحق خليفة الموحدين. والرسالة طويلة يفتتحها بوصف الخلافة والدعاء لها فيملأ نحو ثلاث صفحات كبيرة من مثل قوله — « فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرّجت الرياض الافواف، لما زارها الغمام الوكّاف، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علائها يسمو به الى قرع ابواب السموات العلا الاستشراف »

ثم يصف كتاب الخليفة الذي ورد الى غرناطة فيطيل ويتفنن في نحو ثلاث صفحات كقوله « ولله من قلم دبّج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدّة من عين الحياة الغلل. فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلّد فخرها في الوجود، فجاد بسرّ البيان ولبابه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمح لفرط بشاشته وفهامته، بعد شهادة السيف بشهامته،

---

(١) نفح الطيب ٣ — ٤٠٧ (٢) نفح الطيب ٣ — ٤٠٨

(١) راجع الرسالة في صبح الاعشى ٦ ص ٥٣٦ — ٥٥٨

فمشى من الترحيب في الطرس الرحيب على امّ هامته » . ويأخذ من ذلك بوصف الهدية في نحو اربع صفحات فيتغارب ما شاء في وصف الخيول من احمر واشقر واصفر واشهب الخ . كقوله في وصف الاصفر منها —

« واصفر قيّد الاوابد الحرّة ، وامسك المحاسن واطلق الغرّة ، وسئل من انت في قوّاد الكتائب ، واولي الاخبار العجائب ، فقال انا المهلّب بن ابي صفرة ، نرجس هذه الالوان ، في رياض الاكوان ، تحيا به وجوه الحرب العوان ، اغار بنخوة الصائل ، على معصفرات الاصائل ، فارتداها وعمد الى خيوط شعاع الشمس ، عند جانحة الامس ، فالحم منها حلّته واسداها واستعدَتْ عليه ملك المحاسن فما اعداها . فهو اصيل تمسك بذيل الليل عُرفه وذيله ، وكوكب يطلعه من القتام ليله ، فيحسده فرقد الافق وسهيله » . وعلى هذا النمط الغريب وصفه لسائر الخيول .

ويتقدّم من ذلك الى ذكر العهود التي بين البلدين وشرح حال الاندلس وما قام به ابن الاحمر سلطان غرناطه من غزو العدوّ ، فيصف المدن التي افتتحها والحروب التي خاضها في نحو اثنتي عشرة صفحة وصفاً مسهباً يتكلف فيه المجاز الغريب والبديع المكدود والتنطس في الاشارات العلمية كقوله في غزوهم مدينة جيّان . —

« وهذه المدينة هي الامُّ الولود ، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود ، وكرسيُّ الملك ومجنبته الوسطى من الممالك ، باءت بالمزايا العديدة ونجحت ، وعند الوزان بغيرها من امّات البلدان رجحت ، غاب الاسود ، وجُحر الحيات السود ، ومنصب التماثيل الهائلة ، ومعلّق النواقيس الصائلة » ثم وصفه للمعركة . —

« في موقف يذهل الوالد عن الولد ، صارت السهام فيه غماما ، وطارت

كاسراب الحمام تهدي حِماما ، واضحت القنا قِصَدا ، بعد ان كانت شهاباً رصَدا ، وماج بحر القتام بامواج النصول ، واخذ الارض الرجفان لزلزال الصياح الموصول ، فلا ترى الا شهيداً تظلل مصرعه الحور ، وصريعاً تقذف به الى الساحل امواج تلك البحور ، ونواشب تبأى[1] بها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور ، فالمِقضب ، فوده يخضب ، والاسمر ، غصنه يستثمر ، والمغفر ، حماه يخفر ، وظهور القسي تقصم ، وعصم الجند الكوافر تفصم ، وورق اليلب في المنقلب يسقط ، والبتر تكتب والسمر تنقط ، فاقتحم الربض الاعظم لحينه ، واظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عزة دينه ، وتبرّأ الشيطان من خدينه ، ونهب الكفار وخذلوا ، وبكل مرصد جدّلوا » — الى ان يقول :

« وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد ، ونهلت القنا الرُدينية من الدماء حتى كادت تورق كالاغصان المغترسة والاوتاد ، وهمت افلاك القسي وسحّت وأرنّت حتى بحّت ، ونفدت موادها فشحّت بما الحّت ، وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر ، واستأصل الله من عدوّه الشأفة وقطع الدابر ، وازلف الشهيد وأُحسب الصابر ، وسبقت رسل الفتح الذي لم يسمع بمثله في الزمن الغابر ، تنقل البشرى من افواه المحابر ، الى آذان المنابر »

والرسالة كلها على هذا المنوال وهي افضل مثال على اسلوبه وقس عليها اكثر رسائله . على انه مع اطالته في الوصف لا يطيل العبارات فازدواج الكلام في انشائه مستساغ حسن الايقاع : سواء في ذلك رسائله الديوانية او الادبية . واليك رسالة كتبها الى ابي عبد الله يهنئه بالرجوع الى التعليم وفيها مداعبة طريفة قال منها —

(١) تبأى تفخر

« وتعرّفتُ ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم، والحنين الى العهد القديم، فسررت باستقامة حاله، وفضل ماله . وان لاحظ اللاحظ، ما قال الجاحظ، فاعتراض لا يردّ، وقياس لا يطّرد . حبذا والله عيش التأديب، فلا بالضنك ولا بالجديب، معاهدة الاحسان، ومشاهدة الصور الحسان . يمينا ان المعلمين، لسادة المسلمين، واني لانظر منهم كلما خطرت على المكاتب، امراء فوق المراتب، من كل مسيطر الدِرّة، منقطب الاسرّة متنمر للوارد تُنمُّر الهرة، يغدو الى مكتبه، كالامير في موكبه، حتى اذا استقلّ في فرشه، واستوى على عرشه، اظهر للخلق احتقارا، وازرى بالجبال وقارا، ورفعت اليه الخصوم، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم : فتقول كسرى في ايوانه، والرشيد في اوانه، او الحجاج بين اعوانه ! فاي عيش كهذا العيش وكيف حال امير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة، ووجوه اليه مصروفة، فان اشار بالانصات لتحقق القصّات، فكانما طمس على الافواه، ولأم بين الشفاه، وان امر بالافصاح، وتلاوة الالواح، علا الضجيج والعجيج، وحُفّ به كما حف بالبيت الحجيج، وكم بين ذلك من رشوة تدسّ، وغمرة لا تحس، ووعد يستنجز، وحاجة تستعجل وتحفز . هنأ الله سيدي ما خوله وانساه بطيب اخراه اوله »

٢ — ولعه بالمجاز والبديع وقد المعنا الى ذلك في وصفنا لرسالته الى المستنصر ابي اسحق، بل الرسالة كلها تعج بمثل قوله

فهو (الفرس) اصيل تمسّك بذيل الليل عرفه وذيله

حديقة بيان استثارت نواسم الابداع من مهابّها

وخصّوا الحديث بفري الاديم (اي ذموا الحديث)

واجبناه بجهدٍ ما كنا لنقنع من جناه المهتصر ، بالمقتضب المختصر ، لولا طروء الحصَر

فتحرّ كنا اولى الحركات ، وفاتحة مصحف البركات

وعملنا في رمّ ما ثلم القتال وبقر من بطون مسالحه الرجال (يتكلم عن ترميم الحصن)

ولسان الحمية ينادي يا لثارات الاسرى

قبل ان يلتقي الخديم بالمخدوم ويركع المنجنيق ركعتي القدوم

وقد ضاقت ذروع الجبال عن اعناق الصهب السبال

وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا، بعد ان شقّت غدر السوابغ خلجانا

ورفرف على المدينة جناح البوار

وارسلنا رياح الغارات لا تذر من شيءٍ اتت عليه الا جعلته كالرميم

. . . .

ومثل ذلك كثير في سائر رسائله — كقوله من رسائل شتى في نفح الطيب

ولا حصر ينفض به المنجنيق ذؤابته ، ويظهر بتكرار الركوع انابته

وبكتابك تحيي جوامد الافهام وبمذبّتك تشرّد ذئاب الاوهام

بعد خطوب تسبح فيها الاقلام سبحاً طويلا ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلا ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلا

وجزنا البحر وضلوع موجه اشفاقاً علينا تخفق ، واكفُّ رياحه حسرة تصفق

وطوينا بساط العتاب طي الكتاب، وعاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب

واما ضده من عدوّ يتحكم وينتقم، وحوت بغيٍ يبتلع ويلتقم، وثعبان قيدٍ يعضّ الساق، وشؤبوب عذاب يمزّق الابشار الرقاق

. . . . .

ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا هو الغالب في ترسله وهو ينسج فيه على منوال القاضي الفاضل. وعلى ذلك جرى المنشئون من بليغ وغير بليغ حتى دالت دولة الانشاء المزخرف في القرن الماضي

ومما يدلك على ولع ابن الخطيب بالسجع انه لم يحصره في رسائله بل كان اسلوبه الانشائي في ترجماته وقصصه وتجد من ذلك كثيراً في الاحاطة ونفح الطيب

٣ — كثرة الاشارات التاريخية والعلمية . ولايضاح ذلك ننقل له ما يلي : — [1]

« وأكرِم به من حكيم افصحَ بملغوز الإكسير ، في اللفظ اليسير ، وشرحَ بلسان الخبير ، سرَّ صناعة التدبير ، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد ، قبل اشتجار الجِلاَد ، فآثرتْهُ بالطارف من سحرها والتِّلاد ، او عثر بالمعلَّقة ، وتيك القديمة المطلَّقة ، بدفينةِ دار ، او كنز تحت جدار ، او ظَفِر لباني الحنايا ، قبل ان تقطع به عن امانيّهِ المنايا ، بيديعه ، او خلف جرجير الروم، قبل منازلة القدوم ، على وديعه ، او اسهمه ابن ابي سرح ، في نشب للفتح وسرح ، او حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب ، او غلب الحظوظ بخدمة آل الاغلب ، او خصه زيادة الله بمزيد ، او شارك الشيعة في

(١) صبح الاعشى ٦ — ٥٤٠

امر ابن ابي يزيد ، او سار على منهاج ، في مناصحة بني صنهاج ، وفضح بتخليد امداحهم كل هاج .... وقوله ...[1]

« حربٌ لم تنسج الازمان على منوالها ، ولا اتت الايام الحبالى بمثل اجنة اهوالها ، من قاسها بالفِجار افكَ وفجر ، او مثّلها بجفر الهباءة[2] خرف وهجر ، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء فما عرف الخبر ، فليسأل من جرّب وخبر ومن نظرها بيوم شعب جَبله ، فهو ذو بلَه ، او عادلها ببطن عاقل ، فغير عاقل او احتج بيوم ذي قار ، فهو الى المعرفة ذو افتقار ، او ناضل بيوم الكديد ، فسهمه غير السديد »..... وقوله ....[3]

« والليل من خوف الصباح ، على سرحه المستباح ، قدشابت غدائره ، والنسر يرفرف باليمن طائره ، والسماك الرامح يثأر ثغر الاسلام ثائره ، والنعائم راعدة فرائص الجسد ، من خوف الاسد ، والقوس يرسل سهم السعادة ، بوتر العادة ، الى اهداف النعم المعادة ، والجوزاء عابرة نهر المجرّة والزهرة تغار من الشعرى العبور بالضرّة ، وعطارد يسدي في حيل الحروب على البلد الحروب ويلحم ، ويناظر على اشكالها الهندسية فيفحم ، والمشتري يبدئ في فضل الجهاد ويعيد ، وزحل على الطالع منزحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفي زلق السقوط وحِل ، والبدر يطارح حجر المنجنيق ، كيف يهوي الى النيق ، ومطلع الشمس يرقب ، وجدار الافق يكاد بالعيون عنها ينقب »

---

(١) صبح الاعشى ٦ — ٥٥٤

(٢) الفجار وجفر الهباءة من ايام العرب و كذلك ما يليها

(٣) صبح الاعشى ٦ — ٥٤٩

ومن مصطلحاته العلمية ما ورد له في نفح الطيب ..

مولاي فتّاح الاقطار والامصار أثير هِبات الله الآمنة من الاعتصار
وجد عبدكم الذي خلص ابريز عبوديته لملك ملككم المنصور
واقتحمت الابهاء والمقاصر وتفرّقت الاجزاء وتحللت العناصر
وكأنّ ماءه ذوب لقي اكسيرا

لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق وعارضت القواعد الموحشة بالفروق

وتعترف به الابصار والاسماع وان جحدت عارضها الاجماع

. . . . .

ومثل ذلك كثير في كلامه . فاذا قرنته بتغاربه البديعي وبميله الى الاطالة والاطناب وجدت نفسك امام اسلوب متكلّف مكدود يشق على القارىء فهم معانيه او تتبع مقاصده .

المختار من رسائله الديوانية

لابن الخطيب كتاب سماه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » قال فيه المقّري[1] « وهذا الكتاب اشتمل من الانشاء على كثير في اغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف اجناسهم وغير ذلك من احوالهم واحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب بعض كتبه . وفي آخره بعض مقاماته وتحلية لاهل عصره وغير ذلك . وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابه » . ويذكر زيدان ان منه نسخاً في المتحف البريطاني وليدن وسواهما[2] . على اننا لم نطلع عليها ولا نعلم انها مطبوعة . وقد

(١) نفح الطيب ٤ — ٢٤٣ (٢) تاريخ اداب اللغة ٣ — ٢١٧

اعتمدنا ما ورد منها في الجزءين الثالث والرابع من نفح الطيب وهما اهم مصدر لدينا، وفيهما مجموعة كبيرة من رسائله — وكذلك ما ورد في صبح الاعشى وفيه اطول رسالة له وقد مرّ ذكرها . ولما كان الغاية من درس رسائله ان نتفهم اسلوبه الخاص واسلوب عصره العامّ فاننا نكتفي هنا ان نثبت منها ما يلي:

١ — رسالته الى السلطان ابي عنان (١)

ابن السلطان ابي الحسن المريني صاحب فاس عند ورود كتابه الى الاندلس بفتح تلمسان

قال بعد مقدمة —

« من الضريح المقدّس: وهو الذي تعدّدت على المسلمين حقوقه، وسطع نوره وتلألأ شروقه، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ورسخت عروقه، وعظم بتبوّئكم فخره فما فوق البسيطة فخر يفوقه: حيث الجلال قد رست هضابه، والملك قد سترت باستار الكعبة الشريفة قبابه، والبيت العتيق قد أُلحفت الملاحد الامامية اثوابه، والقرآن العزيز ترتّل احزابه، والعمل الصالح يرتفع الى الله ثوابه، والمستجير يخفي باطنه سوءاله فيجهر بنعرة العز جوابه، وقد تفيأ من اوراق الذكر الحكيم حديقة، وخميلة انيقة، وحط بجُوديّ الحق نفساً في طوفان الضرّ غريقة، والتحف برق الهيبة الذي لا تهتدي للنفس فيها الا بهداية الله طريقه، واعتزّ بعزّ الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة، اذ جعل المولى المقدس المرحوم ابا الحسن مقدّمه واباه . سقاه المولى الكريم بهذا المجد سيب رحماه

فالحمد لله الذي اقال العثار، ونظم بدعوتكم الانتشار، وجعل

(١) صبح الاعشى ٧ — ١٠٠

ملككم يجدّد الآثار ويأخذ الثار. والعبد يهنىء مولاه، بما انعم الله به عليه وأولاه، وما اجدره بالشكر واولاه، ! فاذا اجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلّى والرقيب، واذا استهموا حظوظ الجذل فلي القِسَمُ الوافرة والنصيب، واذا اقتسموا فريضة شكر الله تعالى فلي الحظ والتعصيب، لتضاعف اسباب العبودية قِبَلي، وترادف النعم التي عجز عنها قولي وعملي، وتقاصر في ابتغاء مكافاتها وجدي وان تطاول املي

فمقامكم المقام الذي نفّس الكربة، وآنس الغربة، ورعى الوسيلة والقربة، وانعش الارماق، وفك الوثاق، وادرّ الارزاق، واخذ على الدهر بالاستقالة بالعهد والميثاق، وان لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء، ويتمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسناء، ويمد بسبب البدار الى تلك السماء، فقد باشر به اليد التي يحنّ مولاي لتذكّر تقبيلها، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الابوية وتكميلها، ووقفت بين يدي ملك الملوك الذي اجال عليها القداح، ووصل في طلب وصالها المساء بالصباح.

وقلت يهنيك يا مولاي ردُّ ضالتك المنشودة، وخبر لقطتك المعرفة المشهودة، ودالّتك المودودة، فقد استحقها وارثك الارضَى، وسيفك الامضى، وقاضي دينك، وقرة عينك، مستنقذ دارك من يد غاصبها، ورادُّ رتبتك الى مناصبها، وعامر المثوى الكريم، وستر الاهل والحريم

مولاي ! هذ، لسان قد اطاعت، واخبار الفتح على ولدك الحبيب اليك قد شاعت، والامم الى هنائه قد تداعت، وعدوّك وعدوّه قد شرّدته المخافة وانضاف الى عرب الصحراء نخفضته الاضافة، وعن قريب تحكم فيه يد احتكامه، وتسلّمه السلامة الى حمامه

فلتطب يا مولاي نفسك، وليستبشر رمسك، فقد نمت بركتك

وزكى غرسك. نسأل الله ان يورد على ضريحك من انباء نصره ما تفتح له ابواب السماء قبولا ، ويرادف اليك مدداً موصولا وعدداً آخرته خير لك من الاولى ، ويعتريه بركة رضاك ظعناً وحلولا ، ويضفي عليه منه ستراً مسدولاً

٢ — رسالة عن لسان سلطان غرناطة (١)

الى المنصور احمد بن الناصر قلاوون ملك مصر والشام يعلمه فيه بما فعل به الثوار وكيف اضطروه الى ترك الوطن والالتجاء الى المغرب

وهي طويلة نجتزىء منها بما يلي

« الى ان كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الاقلام سبحاً طويلا ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلا ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلا ، وجزنا البحر وضلوع موجه اشفاقاً علينا تخفق ، واكفُّ رياحه حسرة تصفق ، ونزلنا من جناب سلطان بني مرين على المثوى الذي رحب بنا ذرعه ، ودلَّ على كرم الاصول فرعه ، ، والكريم الذي وهب فاجزل ونزل لنا عن الصهوة ونتنزّل ، وخبر وحكم ، ورد على الدهر الذي تهكم واستعبر وتبسم ، ، وآلى واقسم ، وبسمل وقدم ، واستركب لنا واستخدم »

الى ان يقول ..

« واستقل على اريكته ، استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهامة ، متنفقاً بالشجاعة والشهامة ، مستظهراً باولى الجهالة والجهامة ، وساءت في محاولة عدو الدين سيرته ، ولما حصحص الحق انكشفت سريرته ، وارتابت لجبنه المستور جيرته ، وفتح عليه طاغية الروم فمه فالتقمه ، ومد عليه الصليب ذراعه فراعه ، وشد الكفر عليه يده ، فما عضده الله ولا ايده ، وتخرمت ثغور

(١) نفح الطيب ٣ ص ٤٨ — ٥٠

الاسلام بعد انتظامها ، وشكت اليه باهتضامها ، وغصّت باشلاء عباد الله وعظامها ظهور اوضامها ، واشتدت المجاعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ، وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسيراً ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيراً ، وكأن ماءه ذوب لقي اكسيرا ، ونهضنا يتقدمنا الرعب ويتقدمنا الدعاء ، وتجأجئ بنا الاشارة ويخفرنا الاستدعاء ، واقصر الطاغية عن البلاد بعد ان ترك ثغورها مهتومة ، والاخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا مختومة ، واخذت الخائن الصيحة فاختبل ، وظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع اوباشه السفلة واوشابه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقل العزيزة ، واحتمل عدد الحرب والزينة ، وخرج ليلاً عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم بقضّه وقضيضه ، وأوجه وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا امر عرف حقيقته ، الا ما امل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة . فلم يكن الا ان تحصّل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في امره ، وحكّم الحيلة في جناية غدره وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، والحق به جميع من امدّه في غيه ، وظاهره على سوء سعيه ، وبعث الينا بروؤسهم فنصبت بسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها ، واصبحت عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين واحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين

وعدنا الى اريكة ملكنا كما رجع القمر الى بيته ، او العقد الى جيده ، بعد انتثار فريده ، او الطير الى وكره ، مفلتاً من غول الشرك ومكره ، ينظر الناس الينا بعيون لم تروَ مذ غبنا من محيا رحمة ، ولا

طشّت عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة في ذمة ، ولا ركنت الدين ولا همة ، فطوينا بساط العتاب طي الكتاب ، وعاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب ، وآنسنا نفوس اولي الاقتراف بالاقتراب ، وسهلنا الوصول الينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا

٣ — رسالته الى المستنصر خليفة الموحدين

ذكرنا آنفاً انها تقع في نحو اثنتين وعشرين صفحة كبيرة وقد اثبتنا مختارات منها في كلامنا على اطالته . ولما كانت هذه الرسالة اطول رسائله واهمها وادلّها على ما بلغه الانشاء الديواني في عصره فاننا نثبت منها ايضاً القطعة التالية في غزو قرطبة قال[1] :

« ثم تأهبنا لغزو امّ القرى الكافرة ، وخزائن المدائن الوافرة ، وربة الشهرة السافرة ، والانباء المسافرة ، قرطبة وما ادراك ما هيه ، ذات الارجاء الحالية الكاسية ، والاطواد الراسخة الراسية ، والمباني المباهية والزهراء الزاهية والمحاسن غير المتناهية : حيث هالة بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ، ونهر المجرّة من نهرها الفياض ، المسلول حسامه من غمود الغياض ، قد لصق بها جارا ، وفلك الدولاب المعتدل الانقلاب قد استقام مدارا ، ورجع الحنين اشتياقاً الى الحبيب الاول وادّكارا : حيث الطود كالتاج ، يزدان بلجين العذب المجاج ، فيزري بتاج كسرى ودارا : حيث قسيّ الجسور المديرة ، كانها عوج المطي الغريرة ، تعبر النهر قطارا : حيث آثار العامري المجاهد ، تعبق بين تلك المعاهد شذى معطارا : حيث كرائم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدر نثارا : حيث

(١) صبح الاعشى ٦ — ٥٥٢

شمول الشمال تدار على الادواح ، بالغدوّ والرواح ، فترى الغصون سكارى وما هي بسكارى : حيث ثغور الاقاح الباسم ، تقبلها بالسحر زوّار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيارى : حيث المصلّى العتيق قد رحب مجالا وطال منارا ، وازرى ببلاط الوليد احتقارا . فما شئت من جوٍّ صقيل ، ومعرّسٍ للحسن ومقيل ، ومالك للعقل وعقيل ، وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيل ، وخفيف يجاوب بثقيل ، وسنابل تحكي من فوق سوقها ، وقضب بسوقها ، الهمزات فوق الالفات ، والعصافير البديعة الصفات ، فوق القضب المؤتلفات ، تميل بهبوب الصبا والجنوب ، مائلة الجيوب بدرر الجنوب ، وبطاح لا تعرف عين المحل ، فتطلبه بالذحل ، ولا تصرّف في خدمة بيض قباب الازهار ، عند افتتاح السوسن والبهار ، غير العبدان من سود النخل ، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ الطيّة البعيدة راحله ، الى الوادي وسمَر النوادي ، وقرار دموع الغوادي ، المتجاسر على تخطّيه ، عند تمطّيه ، الجسر العادي ، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد ، والفرا الذي في جوفه كل صيد ، اقلّ كرسيه خلافة الاسلام ، واعار بالرصافة والجسر دار السلام ، وما عسى ان تطنب في وصفه السنة الاقلام ، او تعبر عن ذلك الكمال فنون الكلام »

ثم يصف حربها فيقول

« ومرعى نفوس لم يفِ بوصفه لسان مرتاد ، وزلزال جبال اوتاد ، ومتلف مذخور لسلطان الشيطان وعتاد ، أعلم فيه البطل الباسل ، وتورّد الابيض الباتر وتأوّد الاسمر العاسل ، ثم افضى امر الرماح الى التشاجر والارتباك ، ونشبت الاسنّة في الدروع نشب السمك في الشباك ، ثم اختلط المرعى بالهمل وعُزل الرديني عن العمل ، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد ان

شقت غدر السوابغ خلجانا، وانحدت جداول الدروع فصارت بحرا، وكان التعانق فلا ترى الا نحراً يلازم نحرا ، عناق وداع ، وموقف شمل لذي انصداع ، واجابة مناد الى فراق الابد وداع ، واستكشفت مآل الصبر الانفس الشفّافة ، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة، ثم امد السيل ذلك العباب ، وصقل الاستبصار الالباب ، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر : ادخلوا عليهم الباب ، فاصبحت طوائف الكفار ، حصائد مناجل الشفار ، فمفارقهم قد رضيت حرماتها بالاعفار[1]، ورؤسهم محطوطة في غير معالم الاستغفار ، وعلت الرايات من فوق تلك الابراج المستطرفة والاسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء الى الحد والمقدار ، والوقوف عند اختفاء سر المقدار »

(١) كذا في الاصل ولعلها الاغفار

الرسائل الادبية

نظرة عامة

لا تختلف هذه الرسائل من حيث الصناعة اللفظية عن الرسائل الديوانية فاكثرها يسود فيه السجع والبديع وانما افردنا لها باباً خاصاً لاختلاف اغراضها عن اغراض المكاتبات الرسمية . فبينا نتناول هذه عادةً ما يصدر عن الديوان السلطاني او الاميري من اوامر واحكام ، نرى تلك تتناول اغراضاً عامة من مكاتبات اخوانية او مناظرات ادبية او وصف مشاهدات شخصية . وكثيراً ما يكون كتّابها من ارباب الدواوين على ان ذلك ليس بقاعدة مطّردة . فقد نبغ من ارباب الانشاء الادبي جماعة ممن لم يدخلوا في خدمة الديوان كبديع الزمان الهمذاني، وابي عامر ابن شُهيد (الاندلسي) وابي العلاء المعرّي وابي بكر الخوارزمي وكثير غيرهم .

ولما كان الاسلوب النثري في هذه الرسائل مماثلاً لاسلوب النثر الديواني فقد رأينا ان لا نترجم لاحد من اربابها بل نقصر الكلام على النظر في بعض الرسائل المشهورة وفي اغراضها ، ثم نعقّب على ذلك بما بلغته في بدء نهضتنا الاخيرة .

وتسهيلاً للبحث نُجمل هذه الرسائل تحت المواضيع التالية —

١ الاخوانيات — وهي تشمل ما كان يجري من المكاتبات الشخصية بين اثنين او اكثر من اخوان الادب

٢ — المفاكهات — ويدخل فيها المكاتبات الهزلية والمباسطات الادبية

٣ — المناظرات — اي ما كان يجري بين الادباء من محاورات ومناظرات ومنافسات

٤ — الاوصاف — وهو باب واسع يدخل فيه كل ما يراد به وصف محسوس كالمراكب والمعارك والحيوان ، او غير محسوس كالبلاغة والشعر والصيد والاخلاق . ويلحق الاوصاف المديح والهجاء وما شاكل

٥ — الحكايات ويدخل تحتها انواع القصص المختلفة والمقامات وسنفرد لهذه باباً خاصاً

ومما يعدّ في باب الانشاء الادبي بعض المصنَّفات التاريخية التي تُكلّف فيها من التأنق الانشائي ما تكلف في الرسائل . وقد ذكرنا بعضها في كلامنا عن مواطن السجع [1] ، ونضيف على ما ذكرناه هناك الفتح القسّي لعماد الدين الاصبهاني (٥٩٧ هـ) الذخيرة لابن بسام (٥٤٢) نفحة الريحانة للمحبي (١١١١) سلافة العصر لابن معصوم (١١٠٤) إعلام الناس للاتليدي (١١٠٠)

وقس على ذلك كثيراً مما تجده في كل عصر حتى العصر الاخير ، فقد وقفنا على مخطوطة حديثة في أعلام القرن الثالث عشر الهجري لمؤلفه عبد الرزاق البيطار وهو على نمط الكتب الآنفة الذكر من التزام السجع . وليس غرضنا هنا دراسة هذه الكتب بل غرضنا الاشارة اليها والى مقام امثالها تطور في الانشاء العربي

---

(١) راجع ص ٢٢٩

امثلة من الرسائل الادبية

اشرنا في فصل سابق الى تطور النثر الديواني وكيف انه اخذ منذ القرن الحادي عشر الهجري بالهبوط حتى بلغ احط دركاته قبيل النهضة الحديثة . كذلك كان شأن الانشاء الادبي . فاذا نظرت في الرسائل التي وصلتنا من منتصف العهد العباسي الى اوائل العهد العثماني وجدت اسلوبها برغم التأنق البديعي فيه محافظاً على رونقه ومتانته، ثم اخذ الفساد يتسرّب اليه مع الزمن حتى اصبح في القرن الثامن عشر للميلاد وفي النصف الاول من التاسع عشر غثاً ركيك المادة والصنعة كما سيتبين لك بعد . واليك نماذج من الرسائل الادبية قبل ان دخل الانشاء عصر الانحطاط

الرسالة الاغريضية[1]

لابي العلاء المعرّي (٤٤٩هـ) . ارسلها الى ابي القاسم الحسين بن علي المغربي جواباً على كتاب ورد منه . والمعرّي في هذه الرسالة كما في اكثر رسائله شديد التكلف للسجع وللغريب كثير التوفر على البديع والاشارات التاريخية واللغوية ، ولذلك ترى رسائله عادة عويصة المعاني مكدودة الالفاظ تعيي قارئها ببعد اشاراتها وقلة طلاوتها . كقوله في مفتتح هذه الرسالة مشيراً الى كتاب ابي القاسم المغربي —

« السلام عليك ايتها الحكمة المغربية ، والالفاظ العربية . ايّ هواءٍ رقاك وايّ غيث سقاك ، برقه كالإحريض[2] ، وودقه مثل الاغريض[3] .

---

(١) رسائل المعري ١٤ — ٢٠ (٢) الاحريض العصفر (٣) الاغريض قطر جليل تراه اذا وقع كانه اصول نبل

حللتِ الربوة ، وجللت عن الهبوة . اقول فيك ما قال اخو نُمير ، لفتاة بني عمير

زكا لك صالح وخلاك ذمٌّ وصبَّحك الايامن والسعود

لَأَنا آسف على قربك من الغراب الحجازيّ ، على حسن الزيّ ، لمّا اقفر ، وركب السفر ، فقدم جبال الروم في نوّ ، انزل البرس[1] من الجوّ» الى ان يقول مادحاً مطرياً ..

« فحرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء وذلك ان هذين ضدّان ، وعلى التضادّ متباعدان ، رخو وشديد ، وهاد وذو تصعيد » ...

ويجري كذلك الى قوله —

« واني وان غدوت في زمان كثير الدَّد[2] ، كهاء العدد لزمتِ المذكر فاتت بالمنكر ...وحال كالهمزة تبدل العين ، وتجعل بين بين ...ونوائب الحقت الكبير بالصغير كانها ترخيم التصغير ...لا مدنّ صوتي بتلك الآلاء مدّ الكوفي صوته في هؤلاء » .

ويأخذ في هذا الضرب من الكلام فيطيل ويبرم وقد يتكلف تشابيه الاقدمين فيقول واصفاً شوقه —

« ما حاملة طوقٍ من الليل ، وبُرد من المرتبع مكفوف الذيل[3] ، اوفت الأشاء[4] ، فقالت للكئيب ما شاء ، تُسمعه غير مُفهوم ، لا بالرمل ولا بالمذموم[5] ، كان سجيعها قريض ، ومراسلها الغريض[6] ، قد ماد لشجوها

---

(١) البرس القطن (٢) الدد اللهو واللعب (٣) يعني بذلك الحمامة المطوقة بلون اسود كالليل ، اللابسة بردا كالربيع (٤) حطت على النخل (٥) نوع من الالحان (٦) مغنٍّ مشهور

العود ، وفقيدها لا يعود ، تندب هديلاً فات ، وأتيح له بعض الآفات — باشوق الى هديلها من عبده الى مناسمة انبائه » .. الى آخر هذا الكلام ..

ثم يرجع الى الاطراء ووصف الفاظ صاحبه وحسن نظمه كقوله

« وانّى للكندي [١] قواف كهجمة السعدي [٢]

اذا اصطكّت بضيقٍ حجرتاها تلاقى العسجدية واللطيم [٣]

فالعسيب [٤] ، في تضاعيف النسيب ، والشباب في ذلك التشبيب ، ليس رويّه بمقلوب ، ولكنه من ارواء القلوب ، قد جمع أليل [٥] ماء الصبا وصليل ظِماء الظِّبا ، فالمصراع كوذيلة [٦] الغربية ، حكت الزينة والريبة ، وأرتِ الحسناء سناها ، والسمجة ما عناها » ...

ونختم كلامنا على هذه الرسالة التي تملأ نحو سبع صفحات كبيرة بقوله يصف ادبه . قال بعد ان شبه الادب بالغيث

« واني نزلت من ذلك الغيث ببلد طسم [٧] ، كأغمر الوسم ، منعه القراع [٨] من الامراع : يابوس ، بني سَدوس ! العدوّ حازب [٩] ، والكلأ عازب ، ياخصب بني عبد المدان ! ضأن في الحرُبْث وإبل في السعدان [١٠] . فلما رأيت ذلك اتعبت الاظل [١١] ، فلم اجد الاّ الحنظل ، فليس في اللبيد [١٢] الا الهبيد [١٣] ، جنيته من شجرة اجتثّت من فوق الارض ما لها من قرار . لبن الابل عن المُرار مرّ ، وعن الاراك طيّب حُرّ » [١٤]

---

(١) اي امروء القيس (٢) كنياق السعدي (٣) العسجدية حاملة الذهب واللطيم حاملة الطيب (٤) الماء الجاري بصوت (٥) خرير الماء (٦) الوذيلة المرآة (٧) قفر (٨) الفراع القتال (٩) شديد (١٠) الحربث والسعدان من نباتات المراعي الطيبة (١١) الاظل باطن المنسم اي اتعبت ناقتي (١٢) اللبيد المخلاة (١٣) الهبيد الحنظل (١٤) المرار نبات والاراك شجر

وكل الرسالة على هذا النسق الذي ذكرناه من تكلف في الصناعة وغرابة في الالفاظ وتنطّس في الاشارات اللغوية والتاريخية . ومثلها كل رسائل المعرّي الطويلة — كرسالة الغفران والمنيح وملقى السبيل وسواها[1]

رسالة ابن زيدون (٤٦٣)

وكان بينه وبين الوزير ابي عامر بن عبدوس منافسة في حبّ ولاّدة بنت المستكفي . وكان هذا الوزير قد ارسل اليها مرّة امرأة تستميلها اليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرُّد به دون سواه، فبلغ ابن زيدون ذلك فكتب عن لسانها هذه الرسالة يتهكم عليه ويتنقص منه وارسلها اليه من قِبل ولاّدة فبلغت منه كل مبلغ واشتهر ذكرها في الآفاق . قال في مطلعها

« اما بعد ايها المصاب بعقله ، المورَّط بجهله، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، (الى قوله) متصدّياً من خلتي لِما قرعت دونه انوف اشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوّادة ، كاذباً نفسك انك ستنزل عنها اليَّ ، وتخلف بعدها علي »

ولا شك انها قَلَتْك اذا لم تضنْ بك ، وملَّتك اذا لم تعز عليك ، فانها اعذرتْ في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروَّة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، حتى خيَّلت ان يوسف (عليه السلام) حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك

---

(١) اما رسالة الغفران فهي برغم تكلف المعرّي جديرة بعناية الادباء ، وذلك لما فيها من مشاهد ومباسطات خيالية ترفعها الى مقام خاص في الادب العربي

فسلت عنه ، وان قارون اصاب بعض ما كنزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، وازدشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك »

ثم يجري على هذا النمط من التهكم فيذكر نحواً من اربعين علماً من اعلام التاريخ العربي وغيره حتى يصل الى قوله

« فكدمت في غير مكدم ، واستسمنت ذا ورم ، ونفخت في غير ضرم ، ولم تجد لريح مهزاً ، ولا لشفرة محزاً ، بل رضيت من الغنيمة بالاياب وتمنيت الرجوع بخفي حنين »

ويشير الى الامرأة التي ارسلها فيقول :

« ولولا ان للجوار ذمة ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب في قذال الدمستق [1] ، والنعل حاضرة ان عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة ان اصرّ المذنب ، وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملوءها حبيبها ، حسن فيها من تودّ ، وكانت انما حلّتك بجلاك ، ووسمتك بسيماك ، ولم تعرك شهادة ، ولا تكلفت لك زيادة ، ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالمُعيدي تسمع به خير من ان تراه

هجين القذال ، ارعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، جافي الطبع ، سيء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الانفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة

فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك

---

(١) الدمستق قائد الروم ولعله اشارة الى بعض قول المتنبي فيه

سقر ، كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاءً ، وضعتك لشرفي وفاءً ، وانّى جهلت ان الاشياء انما تنجذب الى امثالها ، والطير انما تقع على اشكالها ، وهلاّ علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان ، وقلت الخبيث والطيب لا يستويان »

ثم يضع على لسانها ما يصمه به من ادّعاء وغرور وحسد فيقول

« ولعلك انما غرّك من علمت صبوتي اليه ، وشهدت مساعفتي له من اقمار العصر ، وريحان المصر ، الذين هم الكواكب علوّ همم ، والرياض طيب شيم

فحنَّ قِدْحٌ ليس منها ، ما انت وهم ، وانى تقع منهم ، وهل انت الا واو عمرو فيهم ، ، وكالوشيظة في العظم بينهم ، وان كنت انما بلغت قعر تابوتك ، وتجافيت عن بعض قوتك ، وعطّرت اردانك ، وجررت همبانك واختلت في مشيتك ، وحذفت فضول لحيتك ، واصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ، واستأنفت عقد ازارك ، رجاء الاكتنان فيهم ، وطمعاً في الاعتداد منهم ، فظننت عجزا . والله لو كساك محرّق البردين ، وحلتك مارية بالقرطين ، وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحرث على النعامة ، ما شككت فيك ، ولا سترت اباك ، ولا كنتَ الا ذاك »

ويختم الرسالة بالاهابة به ان يعرف قدر نفسه ولا يتطال الى ما ليس من شأنه « ذلك بما قدمت يداك ، لتذوق وبال امرك ، وترى ميدان قدرك »

والرسالة طويلة يكثر فيها الاشارات التاريخية والامثال العربية وقد شرحها ابن نباته في كتابه شرح العيون فليراجعها من شاء

رسالة النمس [1]

للقاضي محيي الدين ابي الفضل يحيى ويرجع نسبه الى عثمان بن عفان كتبها حين وروده الى القاهرة وذلك سنة ٦٢٩ هـ

ذكر القلقشندي هذه الرسالة في باب ما يكتب به الحوادث والماجريات وقال : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع . فاذا وقعت للاديب ماجرية واراد الكتابة بها الى بعض اخوانه . حكى تلك الماجرية في كتابه مع تنميق الكلام في ذلك ، اما ابتداءً او جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه اذ ذاك اليه [1] »

وهي من النوع الثاني — يبدأ كاتبها بوصف رسالة وردته من بعض معارفه ويتأنق في ذلك الوصف في نحو صفحتين من مثل قوله —

« وفضضتها عن مثل النور تفتحه الصبا ، وبرود الرياض تساهمت في اكتساء وشيها الاهضاب والربا . . . في كل فقرة روضة وكل معنى كاس مدام ، وكل ألفٍ ساقٌ وكل سين طرّة غلام ، وكل واوٍ عطفة صدغ وكل نون تقويس حاجب ، وكلّ لام مشقة عذار وكلّ صادٍ خطة شارب فلما اجتليت منها المعاني المسهبة في اللفظ الموجز ، واجلت طرفي منها ما بين نزهة المطمئن وعقلة المستوفز . . . سألت خاطري الجامد ان يعارض بوابله طلّها ، وان يقابل بجثمانه ظلها » .

ثم يأخذ بوصف حاله حين ورود الرسالة اليه وانشغال خاطره بمحاربة الزمان له وقلقه لتراكم الهموم عليه ويملأ من ذلك نحو ثلاث صفحات ثم يقول —

« فبينا انا اعوم في هذه الخواطر متفكرا ، واقرع سنّ الندم على تقضّي

(١) صبح الاعشى ١٤ ص ٢٥٢ — ٢٦٢ (٢) صبح الاعشى ١٤ — ٢٥١

عمري في غير مأربي متحسّرا ، واتسلّى بمصارع الاولين اخرى معتبرا ... فاستروحتُ الى فتح باب كان مرتجا ، وارتدتُ باستجلاء محيّاً السماء من بعض همي فرجا .... ففتحته عن شُباك كتخطيط الآفاق ، او كرقعة شطرنج وضعت بين الرفاق ... يُشرف الى غيضة قد التفّت اشجارها ، ورقصت اغصانها اذ غنّت اطيارها » ..

ويجري كذلك في وصف الروضة والليل والكواكب والنسيم

« حتى هتف بشير النجح بمن احيا ليلته ، لما تمزّق قميص الليل وانفرى : عند الصباح يحمد القوم السرى »

ثم يقول —

« فبينا انا اتفكر في ان جملة ماعاينته سيصبح زائلا ، وعن تلك الصبغة العجيبة حائلا ، اذ اهدت اليّ الايام احدى طُرفها وغرائبها ، وكبرى اوابدها وعجائبها ، فطرق سمعي من الشباك نبأة ، وتلتها وجبة تتبعها وثبة .. واذا بنمس قد فارق وجاره الى وجاري ، واختارني على الصحراء جاراً فارتضيته لجواري »

ويعقب ذكره لصلاته ثم انفتاله من المصلّى ورؤيته غلامه جريحاً وقد انتضى سيفاً هزّه في وجه النمس فيزجر الغلام ويقبض على الحيوان فيستجلي صوته ثم يصف في نحو صفحتين خلقه واعضاءه وحركاته ويحدّثنا بعد ذلك انه شد وثاقه وانصرف الى البلد لبعض شأنه . قال —

« فلما قضيت نهمتي من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، الفيته عمد الى الوثاق فقرضه وصال على شيخة نستسعد بدعائها ، ونفزع ان دهمنا همٌّ قبل نداء اولي البطش الى ندائها »

وبعد ان يصف حال تلك الشيخة المسكينة بنحو عشرة اسطر يقول :

« واتيته بسلسلة تنبو انيابه عن عَجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برجمها . . . فتغيَّظ تغيُّظ الاسير على القدّ ونظر اليَّ بطرف حديد ، وتذلّل بعد يأس شديد ، وبصبص بذنبه فقلت « أمكراً وانت في الحديد » ؟

وبعد حديث النمس يختم الرسالة الى صديقه معتذراً بقوله —

« فلما تمّ ما ذكرته ، وأبدأته واعدته ، وردت رقعة سيدنا على عقابيل هذه الوقعة التي وقعت ، وصدّتْ عن الجواب ومنعتْ ، واقتضى بي الحال كتابة هذه الخرافة وان تشبثت باذيال الجدّ ، فاخرجتها مخرج الهزوء وان دلت على علو حوز قصبات المجد ، ليعلم ان في الزوايا خبايا ، واذا صحّ ان عليها ينبت الشجر ، فانا ابن جلا وطلاع الثنايا »

ويستمر على ذلك الى آخر الكلام

. . . . .

ويكثر في هذه الرسالة عدا التسجيع والبديع اقتباس الامثال ومأثور الكلام كقوله —

وكيف توقّى ظهر ما انت راكبه

افرغ من حجّام ساباط — مثل

يرى بالجود طلعة نائر وبالعرمس غرّة آثب — من بيت لابي تمام

اذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل — من بيت

فشق له من الظلماء فجرا وابدى له وجهاً مكفهرّا — من شعر لابن بشر في الاسد

والعوان لا تعلّم الخمرة — مثل

كانه كوكب في اثر عفريت — من بيت

فلقد انصف القارة من راماها — مثل

فالفحل يحمي شوكه معقولا — مثل

وغير ذلك من هذه المقتبسات

رسالة الشكر على نزول الغيث[1]

لابى عبد الله محمد بن ابي الخصال الغافقي الاندلسي (من اهل القرن السادس الهجري) قال بعد الحمد والشهادة — يصف الجدْب —

« ولما لقحت حرب الجدب عن حيال ، واشفق ربُّ الصريحة والعيال وتنادى الجيران للتفرق والزيال ، وتناوحت في الهبوب ريحها الجنوب والشمال وتراوحت على القلوب راحتا اليمين والشمال ، وأُحضرت انفس الاغنياء الشحّ ، وودوا ان لا تنشأ مزنة ولا تسحّ ، وتوهم خازن البُرّ ، ان صاعه بعدل صاع الدرّ ، وخفّت الازواد ، وماجت الارض والتقت الروّاد ، وانتزعت العازب القصيّ ، فالقت العصيّ ، وصدرت بحسراتها ، وقد اسلمت حزراتها ، واصبحت كل قنّة فدعاء ، وهضبة درعاء : انشأ الله العنان ، وقال له : كن فكان

فبينما النجوم دراريها الاعلام ، واغفالها التي لا تحمد عندهم ولا تلام ، قد اختلط مرعاها بالهمل ، ولم تدر السدة بالحمل ، ولا علم الجدي بالرئبال ، ولا احس الثور بالرامي ذي الشمال ، اذ غشيتها ظُلل الغمام ، وحجبتها استار كاجنحة الحمام ، واخذت عليها في الطروق ، مصادر الغروب والشروق ، فما منها الا مقنّع بنصيف ، او مزمّل في نجادٍ خصيف ، لم تُترك له عين تطرِف ،

(١) صبح الاعشي ١٤ ص٢٦٣—٢٦٦

ولا ثقبة يطلع منها او يشرف ، فباتت بين دور متداركة السقوط ، ودِيَم منحلّة الخيوط ، وجيوش منصورة الاعلام ، ثابتة الاقدام ، وكتائب صادقة الهجوم ، صائبة الرجوم ، تطلب المحل ما بين التخوم والنجوم ، وما زالت ترميه باحجاره وتحترشه في اجحاره ، وتغزوه في عقر داره ، حتى عفت على آثاره ، واخذت للحزن والسهل بثاره

فيا أيها المؤمن بالكواكب ، انظر الى الديم السواكب ، واسبح في لجج سيولها ، وارتع في ممر ذيولها ، وسبّح باسم ربك العظيم الذي قذف بالحق على الباطل ، واعاد الحلي الى العاطل ، فبرود الظواهر مخضرّة ، وثغور الازاهر مفترّة ، ومسرّات النفوس منتشرة ، والدنيا ضاحكة مستبشرة ، وارواح الادواح حاملة ، واعطاف الاغصان مائلة ، واوراق الاوراق تفصّل ، واجنحة الظلال تراش وتوصل ، وخطباء الطير تروي وتخبر ، وشيوخ المحارب تهلل وتكبر ، وإنْ من شيءٍ الا يخضع لجبروته ، ويشهد لملكوته ، وتلوح الحكمة ما بين منطقه وسكوته »

ثم يصف حال الطيور بعد ذلك الغيث وما نالها من فرح وحبور وينتقل الى وصف الزهور « من نرجس ترنو الرواني باحداقه ، وتستعير الشمس بهجة اشراقه » ... ومن « عرار تغني مُطالعه على عرار ، وكلفت به السواري والغوادي كلف عمرو بعرار »

الى « الحوان جرى على الثنايا الغرّ ، وسبك من ناصع الدر »

« وبنفسج كاطواق الوُرق ، او كاليواقيت الزرق » الخ

الى ان يقول

« وكل ربوة قد اخذت زخرفها وازّينت ، وبيّنت من آيات الله ما بينت كما تتوّج في إيوانه كسرى ، واستقبلته وفوده تترى ، وانقلبت عن حسن

ناديه النواظر حسرى ، وكل تلعة مذانب نصولها تسلّ ومضارب فصولها لا تثنى ، واراقم تنساب ، ولجين يدأب ويذاب ، على حافاتها نجوم من النور مشتبكة ، وجيوب عن لبّات الغواني منتهكة ، فلو افتتحت الظهور والبطون ونطقت السهول والحزون ، لقالت : « قتل الخرّاصون الذين هم في غمرة ساهون »

ويختم الرسالة بعشرة اسطر في شكر الله وتعظيمه والاقرار بوحدانيته والتماس الخير منه .

(١) مفاخرة بين السيف والقلم

للقلقشندي صاحب صبح الاعشى انشأها للمقرّ الزيني الظاهري سنة ٧٩٤ وسماها « حلية الفضل وزينة الكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم »

وباب المفاخرة في الانشاء العربي واسع وقد تفنن الكتبة فيه فنطقوا بلسان الازهار والعلوم وادوات الملك وغير ذلك . وكل هذه المفاخرات من قبيل الرسائل الادبية وهي تجري على وتيرة واحدة من حيث المحاورة في وصف المفاخر الذاتية والتزام السجع والنكات البديعية

وهذه المفاخرة انموذج حسن لهذا الضرب من الترسل — تبدأ بحمد الله والصلاة على النبي وآله وصحبه « الذين قامت بنصرتهم دولة الاسلام فسمت بهم على سائر الدول ، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلوق النصر لا بحُمرة الخجل »

ثم يذكر تحاسد المتقاربين في الرتبة وانه « لما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا ، واخذا بطرَفيّ الشرف وتجاذبا . . . . . جرّ كلٌّ

(١) صبح الاعشى ١٤ ص ٢٣١

ثوب الخُيَلاء فخراً فمشى وتبختر ، واسبل رداءَ العُجب تيهاً فما تخبَّل ولا تعثَّر ، واتسع له المجال في الدعوى فجال ، وطاوعته يد المقال فقال وطال ».

. . . . .

ويبدأ القلم مفاخرته فيقول بعد مقدّمة « واني لأَول مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة ، والمستحقّ لفضل السبق من غير منازعة ، أَقسم الله تعالى بي في كتابه ، وشرّفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه ... فكان لي من الفضل وافر القسمة ، وخصّصت بكمال المعرفة ، فجمعت شوارد العلوم ، وكنت قيّم الحكمة »

فيجيبه السيف « وانت وان ذكرت في التنزيل .... فقد حرّم الله تعالى تعلُّم خطّك على رسوله ، وحرمك من مسّ انامله الشريفة ما يُوسي على فوته ويسرّ بحصوله ، لكني قد نلت من هذه الرتبة اسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد »

وتستعر نار المساجلة فتتفجر ينابيع الفصاحة من حدّيهما ، فلا يأتي هذا على ذكر مفاخر له معروفة حتى ينبري ذاك فيعارضها بمفاخر اعلى . ولقد ترامى الخصمان بلواذع الكلام كقول القلم للسيف « أنسيت اذ انت في المعدن تراب تداس بالاقدام ، وتنسفك الرياح وتُزري بك الايام . ثمّ صرت الى القَين تقعد لك السنادين بالمراصد ، وتدمغك المقامع وتسطو بك المبارد » . فيقول السيف :

« انّا لله ! لقد استأسدت الثعالب . . . . . فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمتَ في السكينة طريق ابناء جنسك ، ووقفت عند ما حُدَّ لك ، وذكرت عجزك وكسلك لكان اجدر بك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك »

وبعد جدال طويل يملّ القلم لرقة طبعه الخصام، فيميل الى الصلح، ويجنح الى السلم . قال الكاتب : —

« واقبل على السيف يقلبٍ صافٍ ، ولسان رطب غير جافّ ، فقال لقد طالت بيننا المجادلة ، وكثرت المراجعة والمقاولة ، مع ما بيننا من قرابة الشرف .. فهل لك ان نعقد للصلح عقداً لا يُتعدّى حدُّه ، ولا يُحلّ على طول الزمان عِقده » فقبل السيف بذلك .. قالا : —

« لا بد من حَكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع في ذلك اليه ، لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفَر من كمال الرِفعة بغرفٍ من فوقها غُرَف ولسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا الاَّ لدى السيد الاكمل (الى اخر نعوت المفدوح) وتجري نعوته في نحو صفحة كبيرة

« ثم لم يلبثا ان كتبا بينهما كتاباً بالصلح والمصافاة . وتعاهدا على الودّ والموافاة .... وزالت عنهما الاحقاد والإِحن . وباتا في اعزّ مكان واشرف وطن

. . . . .

ومما يجري مجرى الرسائل الادبية ما جرت عادة الكتاب عليه من انهم يتكاتبون بالمسائل اما على سبيل الاستفهام واما عن سبيل الامتحان والتعجيز قال القلقشندي[1] « ثم تارة يجاب على تلك الاسئلة باجوبة فتكتب ، وتارة لا يجاب عنها بحسب ما تقتضية الحال » . ومن امثلة ذلك رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباته المصري الى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الانشاء بالمملكة الشامية . وقد بلغه ان بعض اهل الديوان نال منه ، وان الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع فكتب اليه يشكره على

(١) صبح الاعشى ١٤ ص ٢٤٠

ذلك ويسأل كتّاب الديوان عن اسئلة بعضها يرجع الى صنعة الانشاء واكثرها يرجع الى فنّ التاريخ [١] — ومن تلك الاسئلة قوله :

من كتب في الورق واستنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطيف وربَطَه ؟ ومن غيّر طين الكتاب بالنشا وضبطَه ؟

وما اوجز مكاتبة كُتب بها عن خليفةٍ في معنى . وما ابلغ جوابٍ واوجزه اجاب به عن خليفةٍ من لا سمّى ولا كنّى ؟

و كيف يهنّئ من زَوَّج بعد موت ابيه أُمه ، ويعزّي والداً قتل ولدَه وولداً قتل والده ويصوّب حكمَه ؟

الى غير ذلك من هذه الاسئلة التي كانوا يتساءلونها اظهاراً لفضلٍ او تعجيزاً لخصمٍ [٢]

رسالة في صيد الملك الناصر بن الملك منصور قلاوون [٣] (٧٤٠)

للقاضي تاج الدين البازياري نثبت منها ما يلي :

« وفي خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة الى ابتغاء صيد الوحش والطير : لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد ، وحصول المسرة بكل ظفر جديد ، فيرسم — خلد الله سلطانه — في الوقت الذي يرسم به من مشتى كل عام باخراج الدهليز المنصور فينصب في بر الجيزة بسفح الهرم ، في ساعة مباركة آخذة في اقبال الجود والكرم ، فتمد بالتأييد اطنابه

---

(١) صبح الاعشى ١٤ ص ٢٤١

(٢) راجع تفصيل ذلك في صبح الاعشى ١٤ ص ٢٤٠ — ٢٥١

(٣) صبح الاعشى ١٤ ص ١٦٥ — ١٧٢

وترفع على عمد النصر قبابه ، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه ، وتضرب خيام الامراء حوله وطاقا ، وتحف به مثل النجوم بالبدر اشراقا »

وبعد ان يصف عبوره النيل يقول :

« واستقرّ على جواد شرفت صهوته ، وقرنت بالاناة والسكون خطوته عربي النّجار ، يختال في سيره كأنما انتشى من العقار

وسار في زروع مخضرّة ، وثغور نبات مفترّة ، وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره ، وأُعدّت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقّد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يُتوسم فيه النجاح ، قبل خفق الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح

ويأمر — خلد الله سلطانه — امراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية في التقاط حبّها ، غافلة عما يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ومولانا السلطان — خلد الله ملكه — لنافرها مترقّب ، ولطائرها بالجارح معقّب ، فما يدنو الكركي مقرورا ، حتى يؤوب مقهورا ، ساقطاً من سمائه الى ارضه ، ومن سعته الى قبضه . فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه : هذا والجارح قد انشب فيه مخالبه ، وسدّ عليه سبله في جوّ السماء ومذاهبه ، ولم يزل — خلد الله تعالى سلطانه — عامة يومه متوغلاً في التمتع بلذات صيوده ، واوقات سعوده ، وحصول اربه ومقصوده ، وجنود الملائكة حافّون به وبجنوده ، حتى ينسخ الليل النهار بظلمائه ، ويلمع الطارق باضوائه ، فيعود عند ذلك الركاب الشريف الى المخيّم المنصور والجوارح كاسبه ، والاقدار واهبه ، والجوارح مسرورة ، والطيور مأسورة ، والنفوس ممتّعة ، والمواهب منوّعة ، والارجاء مضوّعة

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من ايام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ، فعند ذلك يثني عنان السير ، الى اقتناص الوحش فيعدّ لامساكها كل هيكل قيد الاوابد ، قد عقد الخير بناصيته فاصبح حسن المعاقد »

ويتقدم بعد ذلك الى وصف خيله واوابد الوحش جنساً جنساً وجند السلطان وامرائه ثم قفوله الى القلعة « فيأخذ فيما بَطن من مصالح المسلمين وظهر ، وتنشده أَلسِنة السلامة ما املى عليها العز والتأييد والظفر »

والرسالة طويلة وهي في غاية الاناقة الانشائية المعهودة في ذلك العصر .

وصف قصيدة نظمها ابن حجاج[1]

من انشاء القلقشندي صاحب صبح الاعشى (٧٨٢ هـ)

يبدأ الكلام بتحميدة تقع في ستة اسطر وبعد ان يذكر انه اطلع على هذه البديعية البديعة يقول في وصفها[2]

« فالفيتها الدرة الثمينة غير انها لا تسام ، والخريده المخدّرة الا انها لا يليق بها الاحتشام ، قد اتخذت من الاحتشام معقلاً وحصناً لا يُغشى ، وانتبذت من حسادها مكاناً قصياً فلا تخاف دركاً ولا تخشى

اراد المدعي بلوغ شأوها والجري في مضمارها فقيل : كلاّ ، ورام الملحد في آياتها الغضّ منها عناداً فابى الله الاّ

---

(١) صبح الاعشى ١٤ ص ٣٣٧ — ٣٤٠

(٢) نثبت منها النثر دون ما يتخلله من اشعار

فامسوا في معارضتها غير طامعين ، وتلت عليهم آيات بلاغتها : « فظلت اعناقهم لها خاضعين »

وكيف لا تخضع لها الاعناق ، وتذل لها رقاب الشعراء على الاطلاق وهي اليتيمة التي أُعقمت الافهام عن مثلها ، والفريدة التي اعترف كل طويل النجاد بالقصور عن وصلها ، وانّى بذلك وقد اخذت من المحاسن بزمامها ، واحاطت من الطلاوة بكمامها ، واحدقت رياض الادب بحدائقها ، واقتطفت من افنان الفنون ثمار معان تلذُّ لناظرها وتحلو لذائقها ، وتصرّفت في جميع العلوم وان كانت على البديع مقصورة ، وشرفت بشرف متعلّقها فاصبحت بالشرف مشهورة

لا جرَم اضحت أُمَّ القصائد وكعبة القصّاد ، ومحط الرّحال ومنهل الورّاد ، فأربت في الشهرة على « المثل السائر » ، واعترف بفضلها جزالة البادي وسهولة الحاضر

فاعجب بها من بادرة جمعت بين متضادين سُمرٍ وسَمَر ، وقرنت بين متاعبدَين زُهرٍ وزَهر ، وجادت بمستنزهين روضٍ ونهر ، وتفننت في اساليب الكلام وجالت ، وطاوعتها يد المقال فقالت وطالت ، ودعت فرسان العربية الى المبارزة فنكصوا ، وتحقق المفلقون العجز عن موٴاخاتها ولو حرصوا

ان ذكرت الفاظها فما الدر المنثور ؟ او جليت معانيها اخجلت الرّوض الممطور ، او اعتبر تحرير وزنها فاق الذهب تحريرا ، او قوبلت قوافيها بغيرها زكت توفيراً وسمت توقيرا ، او تغزّلت اسكتت الوُرق في الاغصان ، او امتدحت قفّت اثر « كعب » وسلكت سبيل « حسان [1] » فاطنابها

( ) كعب بن زهير وحسان بن ثابت

— لفصاحتها — لا يعدُّ إطنابا ، وايجازها — لبلاغتها — يمدّ على المعاني من حسن السبك أطنابا

هذا وبراعة مطلعها تحثُّ على سماع باقيها شغفا ، وبديع مخلصها يسترق الاسماع لطافة ويسترقُّ القلوب كلفا ، وحسن اختتامها تكاد النفوس لحلاوة مقطعه تذوب عليها اسفا

وبالجملة فمآثرها الجميلة لا تحصى ، وجمائلها المأثورة لا تعدّ ولا تستقصى فكأنما « قسُّ بن ساعدة » يأتمُّ بفصاحتها ، و « ابن المقفع » يهتدي بهديها ويروي عن بلاغتها ، و « امروءُ القيس » يقتبس من صنعة شعرها ، و « الاعشى » يستضيء بطلعة بدرها ، فلو رآها « جرير » لرأى ان نظمه جريرة اقترفها ، او سمعها « الفرزدق » لعرف فضلها وتحقق شرفها ، او بصر بها « حبيب بن اوس » لأحبّ أن يكون من رواتها ، او اطلع عليها « المتنبي » لتحير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها

ولا نطيل فمبلغ القول فيها أنّ آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض بان لا تسمح قريحة ان تنسج على منوالها ولا يطمع شاعر ان يسلك سبلها »

. . . . .

والذي يتأمل الرسائل الآنفة الذكر وسواها يرى ان التأنق الانشائي او التكلف البديعي قد زادت رغبة الكتاب فيه بعد القاضي الفاضل حتى انه ليجوز لنا ان نقول ان الانشاء بعد القرن السادس الهجري كان صناعة متكلفة يتنافس صنّاعها في زخرفتها وتزويقها . ومن افضل الامثلة على ذلك كتاب نسيم الصبا لبدر الدين ابن حبيب الحلبي المتوفي ٧٧٩ هـ . وهو مجموعة فصول تبلغ الثلاثين يصف بها منشئها ظواهر شتى من الطبيعة والحياة والاخلاق

وصفاً ذهب في التأنق والتكلف فيه كل مذهب . على ان اهل عصره أعجبوا به واثنوا على براعة منشئه حتى قال فيه الصفدي شارح لامية العجم ، وهو من ائمة المنشئين — « هذا الانشاء الذي ماله عديل في هذا العديد ولا ضريب وهذا الكلام الدي فاق في الآفاق فما لحبيب بن اوس حسن ابن حبيب . فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحرة ، والفوائد التي ايقظت جفن الادب بعد ما كان بالساهرة ، ومتع الله تعالى الزمان واهله بهذا النوع الغضّ ، والنقد النضّ ، والبز البضّ ، والبديع الذي رمّ ما تشعّث من ربع هذا الفن ورضّ [1] » .

والفصول كلها على نسق انشائي واحد فنكتفي بفصل منها انموذجاً لاسلوب الكتاب — وهو الفصل الحادي والعشرون في الكتابة والكتاب — وقد تغارب كاتبه في الاشارات البديعية فقال [2]

« الكتابة الهمك الله معرفة فضلها ، ولا حرمك نفع صداقة اهلها ، اشرف الوظايف والمناصب ، وارفع المنازل والمراتب ، وافلح صناعة ، واربح بضاعة ، قطب دائرة الآداب ، وصدر اسرار الالباب ، ورسول صادق ، ولسان بالحق ناطق ، وسيف تُحدُّ بحده المعارف ، وميزان يميز التالد من الطارف تُلحق خبر الحاضر بالغائب ، واليها تنتهي الآمال والرغائب ، بها تتم النعمة وتفصَّل شذور الحكمة ، تُبرز ابريز البلاغة ، وتصوغ لجين الكلام احسن صياغة ، لطف حواشي رقاعها محقَّق ، وجدولها المسلسل على الريحان يتدفق قد تحلّت بصحة الوضع والتركيب ، وحلت بما حكت من اعضاء الحبيب ، فاللام والالف كعذاره وقده ، والجيم كصدغه المعقرب على خده ، والصاد والنون كعينه وحاجبه ، والميم فمه النائي عن رائد ورده بجانبه

(١) باب تقاريظ الكتاب ٧ (٢) نسيم الصبا ٧٧ — ٨٠

لا تُعدّ عن فن الكتابة انها مغنى الغنى ومفاتح الارزاق ، واخش اليراعة وارجُها فهي التي عرفت بنفث السم والدرياق . والكتّاب عماد الملك واركانه ، وعيونه المبصرة واعوانه ، وبهاء الدول ونظامها ، ورؤوس الرياسة وقوامها ، ملابسهم فاخرة ، ومحاسنهم باهرة ، وشمائلهم لطيفة ، ونفوسهم شريفة ، مدار الحل والعقد عليهم ، ومرجع التصرف والتدبير اليهم ، بهم تحلّى العواطل وتبتسم ثغور المعاقل ، مجالسهم بالفضائل معمورة ، وبندائهم اندية القصّاد معمورة ، يهدون الى الاسماع انواع البديعِ ، وينزّهون الاحداق في حدائق التوشيح والتوشيع ، هم اهل البراعة واللسن ، وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن ، يميلون الى القول بموجب المدح ، ولا يملُّون من مراجعة الراغبين في المنح ، دأبهم استخدام الناس بالمعروف ، وعدم التورية عن العاني والملهوف ، يجلُّون الكبير ، ويبجلون الصغير ، ولا يخلُّون بمراعاة النظير ، لهم الى الخير رجوع والتفات ، وبالجملة فقد حازوا جميع جميل الصفات :

بايديهم اقلام تختلس بلطفها الاحلام ، صافية الجواهر ، زاهية الازاهر لينة الاعطاف ، ناعمة الاطراف ، تبكي وهي مبتسمة ، وتسكت وهي بما يطرب السمع متكلمة ، قد اعتدلت قدودها ، واشرقت في سماء البراعة سعودها ، اسنّتها مرهفة ، ومطارفها مفوّفة ، تجتهد في خدمة الباري ، وتبدي من دررها ما يفضح الدراري ، تميس في وشي ابرادها ، وتشرح الصدور بعذوبة ايرادها ، نشأت على شطوط الانهار ، وتعلمت اللحن من أعراب الاطيار ، طويلة الانابيب ، تسلب القلوب بحسن الاساليب ، تدهش الناظر وتخجل العامل ، ولا ترضى بامتطاء غير الانامل . الشجاعة كامنة في مهجتها والفصاحة جارية على لهجتها ، تبهر بالنضارة نواظر البهار ، وتطرّز بالليل

اردية النهار ، ان قالت لم تترك مقالاً لقائل ، وان صالت رجعت السيوف مستترة باذيال الحمائل »

الى ان يقول :

« يكرع (اي القلم) من دواة حالكة الحياض ، مشرقة الادواح والرياض ، جنيّة الاثمار ، مطعمة الاشجار ، ريقها رائق ، ونِيل نَيلها دافق ، تكشف غطائها عن كل معنى انيق ، وتفتح فاها بكسر العدوّ وجبر الصديق ، شرفها ليس فيه نزاع ، وسقطها من انفس المتاع ، تحنو على اولادها طول المدى ، ثم تقطّ رؤسهنّ ولا ذنب لهنّ بحدّ المدى ، سمت الى المعالي بنفسها ، واعارت المسك السحيق بنفسها

لله اطراسها التي اضاءت بمدادها ، واشبهت عيون العِين ببياضها وسوادها ، وانطوت المحاسن تحت رق منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على اغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تزفّ الى الاسماع عرائس القرائح ، البسها الحِبر اثواباً من الحَبر ، ودبجها صواب الفكر لا صوب المطر ، كم حازت من در منظوم ، وعلم لفظ بوشي المعاني مرقوم ، وفِقرٍ تفتقر اليها أجياد الحسان ، وغرر كلمٍ تذهب العقول بسحرها وان من البيان !

فاجتهد اعزّك الله في طلابها ، واحرص على الدخول في زمرة اربابها وتمسَّك باذيال بنيها ، تجد جواداً او نبيلاً او نبيها : وحسبهم شرفاً ان الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين ، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم فقال وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين ! »

الترسل الادبي في العصر العثماني

لم يطرأ على الانشاء تغير فجائي في العهد العثماني ولكن بذور الفساد كانت قد غرست في تربة الانشاء العربي فنمت في هذا العصر نمواً تدريجياً ولم يكد يدخل القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر للميلاد) حتى اينعت وعظم امرها . وبينا نرى التأنق البديعي ايام القاضي الفاضل وما بعده مقروناً بمتانة التركيب نراه في القرنين السابقين للنهضة الاخيرة يكتسي اطمار الغثاثة والركاكة كما يتبين لك من الامثلة التالية (وهي من انشاء القرن الثاني عشر للهجرة[1])

تهنئة بمكتوب الى باشا في تقرير المنصب

ان ابدع ما تزينت صحائف المداد، وابرع ما استهلّ به متمسك بذيل الولاء والاعتقاد، واحلى ما سارت به سايرة الاقلام، واحصى ما تراسلت به القراطيس في الطف اماني الاحلام، شرايف تحيات نشرها عميم، وصالح دعوات تتنافس كالدر النظيم، تهدى الى جناب وليّ النعم، كريم الشيم، عالي الهمم، كان الله تعالى له حيث كان، وغمره بمواليد كرمه الغزيرة في كل وقت واوان، وبعد فالمنهي الى الجناب العالي، انه لما طرقت المسامع عواطف الدولة العلية بالمقرّ المنيف، على جنابكم الشريف، اخلص الفقير

(١) ننقل هذه الرسائل من مخطوطة في مكتبة الاستاذ عيسى اسكندر معلوف اسمها «مجموع ارشادات في لطايف المكاتبات وتحايف المراسلات» وقد تكرم علينا حضرة الاستاذ البحاثة بمطالعتها والاستشهاد بها

الداعي بجزيل الدعا ، وجليل الثنا ، لجناب سعادتكم ، وحصل له غاية الفرح والسرور ، والحظ الموفور ، فهنأكم الله تعالى ، بما نالكم وبوّأكم بنعمه الى حسن مآلكم ، ولا زال الزمان لكم خادما ، والسعادات مقرونة لسعادتكم دايما ، ولا برحت تسعى الى باب فضلكم صدور المعالي بل وجوه القبايل ويشار اليكم في السعادة والهنا ويُوما الى تعظيمكم بالمحافل ، وجناب سعادتكم في امان ، ما تعاقب الملوان وشعشع النيّران .

ديباجة مكتوب الى احد الاكابر

ان ارضاً تشرّفت بمواطئ تلك الاقدام ، وتمسكت باذيال ذلك الهمام لجديرة بان تقبّل بسواد الاحداق دون بياض الاوراق . وتلثم بالافواه والمحاجر ، دون ثغور السطور والمحابر : غب اهدا لطايف تحيات نشرها فايح طيّب الشميم ، وشرايف دعوات ذكرها صالح مقرونة الاجابة من رب رحيم الى جناب الوليّ الكريم ، من اتخذ افاضة المعروف واغاثة الملهوف مذهبا ، واختصّ بعموم النفع في الارض مشرقاً ومغربا . المشار اليه بالاعالي ، دامت له المعالي ، ولا زال كرمه مختم آمال الراغبين ، ومحطّ رحال الطالبين ، معروض العبد الذليل ، لحضرة المولى الجليل هو انه كذا — وكذا ..

مكاتبات الى احد الاماجد الفضلا

يقبّل الارض المقبّلة بشفاه المُقل لا بشفاه الثغور . الضاربة سرادق المجد فوق هام النسرَين وهالات البدور ، المسامية بهرام وكيوانا ، الساحبة على مفرق الفرقدين اذيالاً واردانا ، المتخذة الجوزاء نطاقاً ، والثريا شنفاً واقراطا ، والنجوم قلايداً واعلاقا .. (ويجري في ذلك الى ان يقول)

« ووصف اشواق زنادها له بين القلوب ريٌّ وريّ ، وعضبها الماضي الشبا له في اديم القلب شقٌّ وفريّ ، ولوعات وفود همومها متتابعة ، وزفرات تضيق بها الانفاس في بيدائها الواسعة ، وشكوى فراق تمنته الاعداء فجاء على وفق الاقتراح ، وعدم المحبّ معه صبراً من حيث راح ، قد حلّ عرى التجلد والاقتدار ، ودار بكؤوس منونه فازهق الارواح من وقت دار . . . . ان المملوك منذ استولى عليه بعد مولانا وفراقه ، وذاق صاب هجره وبعده المرير مذاقه ، ما خيطت جفونه على سِنة مع وجود إبَر اهدابه ، ولا الف جنبه المضطجع منذ فارقه ظبي الكناس وانحصر مع ليث الفراق في غابه ، وليس له في الليل اذا عسعس ، مسامر غير النجوم الكنَّس ، ولا في الليل اذا اسفر ، معاشر غير تمثيل شخص مولانا وخياله المستحضر ، قد نبذ الاخوان والاخدان ظهريّاً ، وهزّ اليه نخلة ودادهم فتساقطت عليه حشفاً وكان يجد بقرب مولانا رطباً جنياً . وتطلّب اخاً صادقاً وخلاً مثل مولانا سريّاً ، فناداه الزمان لقد حاولت محالا وجئت شيئاً فريّاً » . الخ الكتاب

صورة مكتوب لبعض السادة الاشراف

تهنية في النقابه تكتب من جانب السادة الاسلام (كذا)

دم في ذرى اوج النقابة راقياً قطب المكارم ما بقيت موقّرا

مفخر المدرّسين الكرام ، سليل الافاضل الفخام ، خلاصة السادات الاشراف ، صفوة بني عبد مناف ، صاحب العزّ والشرف ، خلفاً بعد خلف غرّة جبهة الايام ، بهجة اولي المجد من الانام ، الذين شادوا مباني العزّ والاكرام ، نهدي سلاماً كالدرّ النظيم ، وثناء يفوق معطار النسيم ، ودعاءً

مقروناً بالقبول من السميع العليم ، هذا وان سألتم الخ . (اي عن الكاتب) فانه يعطر مجالسه باحاديث لطفكم ويروّح مجالسه بعبير فضلكم فلا زال هذا السرّ فيه (الممدوح) وفي نسله معنعناً متصل الاسناد صحيحاً من غير ضعف وانقطاع الى يوم التّناد

ديباجة من المكاتبات الاخوانية والمراسلات الاقرانية

غبّ زواهي زواهر تحيّات تغدو وتروح ، وبواهي بواهر تسليمات منها ارج المسك الاذفر يفوح ، وأثنية كزهر الروض تتأرّج ، وأدعية كأنها انهار دجلة تتموّج ، (توءم) تلك الذات السنية ، ذات الاخلاق الرضيّة والمعارف البهية

على ذلك الوجه المنير تحيّة مباركة من ربنا وسلام
ولا زال في عزٍّ ومجدٍ ورفعة موقّى من الاسواء ليس يضام

ولا برح محروساً بعناية الله ، وارف العزّ وافر العلم والجاه . هذه تحية مخلص قد اضرّه الفراق ، وصدعت به مرارة الاشواق ، فصار يترقب شفاه بيوم التلاق ، وينشد ودموعه باندفاق

عسى الله يقضي بالتواصل بيننا كما هو فينا بالتهاجر يحكم

فقد وصل مكتوبه الكريم ، المحتوي على الدرّ النظيم ، والخط المستقيم المبشر بالحظ الوافر المقيم ، فكم من ألفٍ هي كالقوام الرطيب ، وعين كعين الشادن الربيب ، وميم كأنها سرّة كاعب او مبسم حبيب ، والفاظ كالسحر الحلال ، أرقّ واعذب من ماء الزلال ، فملا القلب نوراً و كساه غبطة وحبورا

فهذا سروري من ملاقاة خطه فكيف سروري بالتقاء لقائه

حقق الله ذلك عن قريب ، انه سميع مجيب

ديباجة مكتوب الى وزير

وكان الوزير ينوي الحج وكادت ركابه تتحرك من صحراء المزاريب فكتب اليه احد الوجهاء هذا الكتاب يصف ما قاسوه من العربان، ويشكره على ما نالوه على يديه من الاطمئنان . ويقدم لكتابه مقدمة دعائية طويلة يقول في اولها : —

« اللهمَ نتوسل اليك بحق اسمائك الحسنى ، ونضرُع الى وحدانيتك ازليَّة الفضل الاسنى ، ونبتهل لدى عزَّتك القوية ، ومواهبك الغزيرة السنيَّة ، يا من علَّمت الانسان البيان ، وألهمته التبيان » ...

ويجري هذا المجرى في نحو صفحتين الى ان يقول عن اهل الفساد :

« وكل يوم كان منهم شان ، يزيلون في حوادثهم كل راحة وأمان ، فيا لها من مدة قد مضت في عبوس وامتحان ، واوقات دارجات من غير اطمئنان »

ثم يقول مادحاً وشاكراً فعل الوزير :

« فانتصب حينئذٍ قوس السرور في كبد السما ، مبشّراً بوجود ما اضاعه يعقوب بعد العما ، وأحال خوفنا الى امان ، كأنه قوس الميثاق من الطوفان ، وتلألأت شموس الحجاج تحت رايات قائدهم العظيم اسد البيداء ، صاحب المجد الجسيم ، آمنين من حوادث الملوان (كذا) ، ومطمئين من اكدار الزمان ، تتلألأ مواكبهم بالابتهاج والسرور ، مسبحين تسابيح الظفران » .

ويتقدم من ذلك الى قوله :

« فكن بعد الآن ايها الهمام ، والاسد الضرغام ، تدير عليك النعم

دورات الافلاك ، محروساً بحراسة الاقطاب والاملاك ، وقد نلت ما لم ينلهُ الاقدمين (كذا) ، وصرت مثلاً للاوّلين والآخرين »

ثم يختم الرسالة بقوله :

« ولا زال سهمك في نحور حسّادك يصيب، وعلى القرب والبعد منهم لا يخيب ، ما غرّد العندليب على اكمام الشجر ، وما ضاء القمر على البدو والحضر »

ومما يحسن ذكره من هذه المجموعة كتاب الشوق (ص ٢٧٤—٢٩٠) وهو كتاب طويل يتخلله اشعار ويذكر فيه الكاتب على الطريقة المسجعة المتكلفة ألم الفراق والشوق الى رؤية المكتوب له ، ثم يختمه بحلم رأى فيه « الاخ الاكرم » بصورة شاب ابهى من الشمس فيعاتبه على هجره ، ويذكر جواب ذلك الأخ وبكاءه لفراق الاحبّة وينهي الكتاب بكلمة يزجر فيها البين فيقول :

« تبًّا لك ايها البين وتعسًا لك ايها النوى، لحاك الله ايها البعد لان القرب دنا . حتّامَ تعيق خطوات الوصال ، فلتضمحلّ من طريقه ليحظى المحبّ بمحبوبه ، هلمَّ ايها المحب وارحم من مزج شرابه بدموعه . . . فكن مقيماً بالسعادة والسرور ، الى يوم النشور ، ثم اهديك سلاماً يفوق الوصف . اخوتي وجميع الاهل يهدوك (كذا) السلام والدعاء »

. . . .

والمجموعة كلها من هذا الانشاء المسجع الغث ويكثر فيها اغلاط النسخ والانشاء . وهي قسمان ما يُكتب الى ارباب الدولة وسادات المسلمين والعلماء ، وما يكتب الى رؤساء المسيحيين واعيانهم .

ونوقف اهميتها على انها تحفظ لنا نماذج مختلفة من انشاء القرن الثاني

عشر الهجري. وهي تؤيد قولنا انه كان عموماً شديد التكلف والركاكة، رثّ الديباجة، قليل الرواء. على ان الاوساط الادبية على ما يظهر كانت يومئذٍ احسن حالاً من الاوساط الديوانية التي انحطت الى دركة العاميّة وخرجت عن نطاق الاوضاع الفنيّة

ونختم النماذج الادبية في هذا العصر برسالة كتبها احد الادباء ويكنى البهلول الى استاذه الشيخ عبد الغني النابلسي توطئة لقصيدة قدّمها البهلول الى الشيخ المذكور

من رسالة البهلول الى النابلسي (١)

« متّع الله الوجود بجناب جمال درّة اكليل تاج المحققين، وواسطة عقد المدققين، من سمى الى سما اسرار حقيقة حق اليقين، انسان عين روح البلاغة، ومقاليد البراعة، من تحلى بحسن وصفه الطروس، وتحنّ شوقاً الى طيب ذكره النفوس، من حلّ ذرى المجد ورقى بحبوبة الآداب، واوتي بالحكمة وفصل الخطاب، شمس افضال ترقرقت من سما المعارف، وكعبة اجلال اشرقت بسناء العواطف »

ويجري على النمط الى قوله :

« اما بعد فقد تجاوز القاصر حدّه وتعدّاه بالهجوم على جناب ذوي الفضل والحياه (٢)، ولكن توقع الصفح الجميل، حملني على مدح هذا السيد الجليل، بسجعات معتلة، ولفظات مختلة، وقصيدة هي وان كانت عند منظومات آل البلاغة بمعزل، لكنها بمحاسن اوصافكم تجلّ وتفضل، بذكرى حبيب ومنزل

---

(١) تاريخ الامير حيدر ٢٢ (٢) كذا في الاصل ولعلها الجاه

لقد طابت بكم القريحة السليمة ، بمرأه (كذا) هذه الدرّة اليتيمة، فجاءت مفتخرة مهذبة عربا ، وتتباهى تيهاً وتفتخر عجباً ، وتسمو على كل نظم شرقاً وغربا ، فيالها حسن منظومة لم ينسج منوالها ، ولم تسمع قريحة بامثالها ، قد افترت ثغور[1] البلاغة بطيب معانيها ، وابتعت محيا الفصاحة بطلاوة مبانيها »

ويأخذ في وصف القصيدة وغرائب صنعتها الى ان يقول :

فيا لها عروساً ارقّ من نسمات السحر والآصال ، والطف من صفا الودّ وصافي الزلال ، ليس مهرها الا الاغضاء وحسن القبول ، ولعمري ان هذا غاية المسئول والمأمول ، ولم تكمل هذه الاوصاف الحسنى ، الا بنظمها لمديحك الاسنى »

. . . . .

دخل القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) والرسائل الادبية على ما كانت عليه في القرن السابق . وظلّ السجع مدّة طويلة اسلوب الكتاب العام فيه ثم اخذ الانشاء يتحوّل عن الاسلوب القديم المقيد الى الاسلوب الجديد الحرّ ، وقد اعان على ذلك انتشار العلم والتجارة والاحتكاك بالعالم الغربي ، ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب فلم يكد يبلغ القرن التاسع عشر عصاراه حتى كان الترسّل الادبي قد اخذ يخلع عنه اطمار القدم . على ان ذلك لم يتم فجأة كما يتبين لنا من مراجعة النصوص في القرن المذكور : حتى الصحافة التي هي اقرب الى الجمهور من سواها ظلت مدّة من الزمن تميل الى التسجيع ، وعلى ذلك قال فقيد الصحافة داود بركات بصف الاسلوب الصحافي قبل اربعين سنة[2]

---

(١) في الاصل صغر (٢) الهلال (يناير ١٩٢٨) ٢٧٥

« ان تطوّر الصحافة تابع لتطوّر الامة فقد كان الكاتب يعدّ عظيماً بنسبة قدرته على التطويل وابتكاره للسجعات واستشهاده بالاشعار والامثال ولما كنت انا في طنطا كانت تسمى طنطده ولكن حبّ كتاب ذلك الزمان للسجع جعلهم يقولون طنطه حتى تقع على وزن « محطّه » حين ارادوا وصف مرور الخديوي »

ومهما يكن في تعليل التحوّل في لفظة طنطه من الغرابة فمما لا شك فيه ان الاسلوب السجعي كان لا يزال متسلطاً او مستحسناً في الاوساط الادبية . واليك بعض امثلة من الرسائل الادبية في القرن التاسع عشر ، ولنبدأ بالاخوانيات : —

رسالة الى الشيخ ناصيف اليازجي

كتبها سنة ١٨٤٨ اديب بغدادي اسمه بكر زاده[1]

جناب الشيخ الاجل الامجد الشيخ ناصيف اليازجي دام بقاه

سلام لا تحصيه السنة العارفين ، وثناء متعدد اتصال الايام بالسنين ، ودعاء انشقّ له جوهر الاجابة على طور سينين ، علا فارتفع ، واضاء فلمع ، تحمله نياق الاشتياق ، وتقتاده ازمّة الوجد والاحتراق ، من محب انحله الجوى واذابه الهجر والنوى ، دموعه تتبدّد ، وانفاسه تتصعد ، واحزانه تتجدّد ونيرانه تتوقد ، كما قيل شعراً —

فان بكى في قفار خلتها لججاً وان تنفّس عادت كلها ببسا

يهدى الى من توشّح سوابغ المجد والكرم ، وامتطى سوابق الفخر والشيم ، البحر الزاخر ، والقمر الزاهر ، والكلم الظاهر ، ذو الثوب الطاهر والعقل الباهر ، والايادي السخية ، والاخلاق المرضية ، والنظم الذي يزري

(١) من مخطوطة لدينا

بالدرر في اسلاكها ، والدراري في افلاكها ، والقلم الذي تقصر عنه السنة اسنَّة الرماح ، وتكلُّ دون صحايفه صفحات الصفاح ، حضرة الامجد ، الارشد الاسعد ، لا زالت ايامه باسمة الثور ، حالية النحور مشرقة كالبدور . في الليل الديجور ، بحق الطور ، والكتاب المسطور ، والتوراة والانجيل والزبور » . (ثم يأخذ بعرض ما يريده)

والظاهر ان التأنق السجعي في المراسلات الاخوانية بقي على حاله حتى اواخر القرن الماضي . وهاك كتاباً بعث به الشيخ ابرهيم الحوراني جواباً على دعوة وردته من صديقه الاستاذ داود قربان لزيارة مدينة صيدا . وتاريخ الكتاب ٧ نيسان ١٨٩٧ — قال فيه —

« كتابكم ام حديقة ريحان ، وكلامكم ام سلافة حان ، طوي على حبّ ودود ، ونُشر على نشر عود ، واطرب الآذان باطيب من الحان العود ولا غرو فانه كتاب داود ، وصل في اول نيسان بأرجٍ فاق على أرج ازهاره ، ونسخ بآيات صدق الولاء كذبة ذلك اليوم الى آخر ادهاره . وبعد فانكم دعوتمونا الى فردوس صيداء ، وتلكم الرياض الغناء ، وانتم والآيات البيّنات ، ملائكة هاتيك الجنات

جنات عدنٍ ما بها مغوٍ ولا خطرٌ على شيءٍ من الاثمار

ومن لنا بصرف ابرهيم اليها والموانع ثلاثة — عَلَميَّة النشرة ، وجمع التفسير ، وعدل المدرسة البطريركية[1] . فما بقي الا ان تشرّفونا ومنزلكم العيون والقلوب ، فانبؤني عير مأمورين بقدومكم براً او بحراً لنلاقيكم

(١) مجلة النشرة الاسبوعية وكان يحررها ، والتفسير اسم كتاب ، والمدرسة البطريركية كان يدرّس فيها . وفي هذا الكلام من الاشارات النحوية ما هو ظاهر

ملاقاةً تسرّنا اكثر مما تسرّكم . ويا لله من يوم يشرق البدران، انه لأبهج من النيروز والمهرجان ، واكليل الدهر وقلادة الزمان . الوحى الوحى بالاخبار، والعزمَ العزم على تشريف هذه الديار . اودّ سرعة الجواب بالايجاب » الى ان يقول — « فانثم نجوم الغسق ، والفضل منكم سبق ، وهذا القول الحق . والسلام على من خالف الهوى ، وجلا بصبح اللقاء غسق النوى »

وعلى نمطه كتاب كتبه الشيخ حمزه فتح الله الى حفنى بك ناصف في ٢٠ يناير ١٨٩٦ قال فيه بعد مقدّمة يكثر فيها من الاشارات التاريخية

« ولم تكتف ايها الجهبذ المفضال ، بهذا الافضال ، حتى جعلت لي دائرة سوهاج ، مركزاً للدجاج ، والديكة في السكباج ، فلا ادري اية اياديك اشكر ، ولا اية فرائد معاليك اذكر » الى آخر الرسالة

وقد علق على ذلك ناشرها بقوله :

« وقد استعمل في خلال رسالته فقرات من السجع . وهذا السجع كان منتشراً في ذلك الوقت حتى ان المرحوم الشيخ محمد عبده وزملاءه وتلامذته كسعد باشا وحفني ناصف وغيرهما كانوا يستعملونه في مراسلاتهم ومقالاتهم ثم عدلوا عنه قبل ان يبتذل[1] » . ويظهر ذلك في الرسالة التي ارسلها الاستاذ الامام الشيخ عبده الى المرحوم حفني بك ناصف في ٩ رمضان ١٣١٨ هـ وفيها يقول الناشر « يذكّر صديقه بتوبته عن استعمال السجع حتى ولو ساق اليه الطبع ويلومه في ظرف على نقضه لتوبته بسبب ما اضطره ادب حفني بك الى الرجوع اليه ، ثم لا يجد مندوحة من اجابته بهذا الاسلوب ولو على سبيل الاحتذاء الذي طالما يستعمله المتراسلون في اجابة بعضهم بعضاً[2] . واليك الرسالة ننقلها عن صورتها الاصلية :

---

(١) راجع الهلال السنة ٤١ ص ٤٤٩ — ٤٥٠ (٢) راجع الهلال السنة ٤١ ص ٤٥١

« عزيزي — تسجع لي في كتابك ، وتطمع ان اسجع لك في جوابك ، كأنك لم تسمع اني تبت عن السجع ، حتى لو ساق اليه الطبع . فماذا اصنع بك ، وقد نقضت توبتي بادبك . أعاد اليَّ كتابك وجداً ، طالما وجدته نفسي ايام الصوم ، والقضايا كوم يعلوه كوم ، مع لدد القوم ، والحاجة الى النوم ، حتى كأنَّ تعبك صُبَّ عليَّ ، وكأنما انتقل ظمأك اليَّ ، لكن ما تذكَّرت قصر النهار ، وقرب وقت الافطار ، والنجاة الى الدار ، من مقاضاة اهل النار ، وحملة الذنوب والاوزار ، قلت لقلقي قرقاز (كذا)

فكأني بالماء وقد حضر ، والطعام يتبعه على الاثر ، فابتلّت العروق ، ونقعت الحلوق ، وامتلأت البطون ، وقرّت العيون ، وثاب السكون ، فحمدت الله لك على الشبع ، وسألته ان يجنّبك البِدع ، من اطالة السهر ، وقتل الليل بالسَّمَر الى وقت السَّحَر . فذلك منهكة للبدن ، مجلبة للوهن ، مَضيعة لنفيس الزمن ، مطفئ لنور الفطن ، وقاك الله هذه المِحن

ثم قد وصل التحويل وقبض مبلغ الثلاثمائة قرش وسيرسل اليك سند الاستلام وسلامي عليك وعلى السيد احمد رافع والسلام »

ولقد نجد شيئاً من هذا التأنق في المراسلات الاخوانية حتى في اوائل القرن العشرين . واليك الرسالة التالية كتبها محمد بك المويلحي الى حفني بك ناصف في ٢ مارس ١٩٠٨ قال[1] —

« صديقي الفاضل حفني بك ناصف —

لولا يقال اننا بتنا نتقارض الحمد والثناء ، ونتناوب بيننا المديح والاطراء لجعلت لك صحف الاخبار ، تغرّد تغريد الاطيار ، ولصغت فيك ما يتألّق كالنضار ، ويتأرج كالازهار ، حمداً لك على ما صنت به لغة القرآن ،

(١) الهلال ٤١ ص ٤٥٢

بقوّة الدليل والبرهان ، وما نطقت به من فصل الخطاب ، في حسن الدفع عن معجزة الكتاب .

ربما بلغ منا الضعف ان يصبح الدخيل في امورنا فوق الاصيل ، ولكن لغة هذا الدين لا يمكن لها ان تقبل الدخيل . فالله وليُّك فيما اتيت ونصيرك ، والقرآن بعد ذلك ظهيرك — يا ايها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم —

ولئن كنت رأيت بالامس اني نصرت رسول الله بكلمتي في دانتي[1] فانا على يقين اليوم انك نصرت كتاب الله بخطبتك في « التعريب » . جزاك الله عن حرمة كلام الله افضل ماعنده من منازل المتقين الاطهار ، وما ادّخره في النعيم لعباده الصالحين الابرار »

والرسائل الاخوانية كثيرة منها ما هو خاص كالذي مرّ معنا ومنها ما هو نماذج عامة كما تجدها في بعض المجاميع الانشائية[2]

نماذج من غير الاخوانيات

تقريظ مؤلف[3]

« الحمد لله اما بعد فهذا كتاب اشرقت شموس تحقيقه ، وازهرت في سماء الفهوم نجوم تدقيقه ، قد اخذت البلاغة فيه زخرفها ، واشبه الروض من صحيفته احرفها ، وابان عن معجز البراعة ، ومثّل لنا كيف ينفث السحر من تلك اليراعة ، قد انفرد مؤلفه بالرتبة التي لا يدّعيها زيد ولا عمرو ، ولا يتطاول لمثلها احد الا اعجزه الدهر ، وكيف لا وهو سلالة مجد انتظمت في

(١) دانتي الشاعر الايطالي المشهور (٢) راجع مثلاً انشاء العطار ١٢٢ — ١٦٧
(٣) راجع انشاء العطار ١٦٢

عقد نخاره افاضل العلماء ، وثمرة شجرة طيّبة اصلها ثابت وفرعها في السماء ، فلا غرو ان أُوتي ملك البيان الذي لاينبغي لاحد من بعده ، واجتمع له طاعة القلب واللسان فهما خادمان لشكره وحمده ، فخطيب الاقلام يحمده على منابر الانامل ، وفصيح اللسان يقوم بحمده في صدور المحافل ، ويأخذ له البيعة بالتقدم على كل فاضل ، فاصبح محله من الفضل المحل الاسنى ، واسماؤه فيه الجمل الحسنى ، قد احسن كل الاحسان في ابتداع هذا التصنيف ، واجاد في اختراع حسن هذا الترصيف ، وعلمنا كيف يكون الانشاء ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وان الحريري قد قصر في غوصه على درة الغواص وان ابن كمال باشا عاقه كمال استقصاء لحن الخواص [1] ، ولقد وقفت على هذا التأليف وقوف من افحمه الحصَر ، ورمت التطاول لمدحه فلحق باعي القصر واستنطقت لساني ليعرب عن حسن وصفه فاستعجم ، واستقدمت جواد قلمي للجري في هذا الميدان فاحجم . ومن اين لاحد مثل تلك البديهة المتسرّعة ، والرويَّة التي هي عن كل ما يتجنب متورّعة ، والخاطر الذي يستجدي الفضلاء من سماحته ، واللسان الذي تخرس الفصحاء عند فصاحته ، والقلم الذي هو للعلوم مفتاح الاقاليم ، والطريق الذي عزّ سلوكه على الغير ولو انه عبدالحميد [2] او عبد الرحيم [3] ، والالفاظ التي تشرق بها انوار المعاني فكأنها الليلة المقمرة ، واليد التي ان لم تكن الاقلام بها مورقة فهي مثمرة

---

(١) درّة الغواص ولحن الخواص كتابان معروفان

(٢) اي عبد الحميد الكاتب (٣) عبد الرحيم اي القاضي الفاضل

صورة اجازة (١)

قال بعد تحميدة طويلة

اما بعد فان العلم ابهى مطلب ، واسنى مأرب ، واحسن غنيمة ، وارفع من كل شيء قيمة ، يتنافس في اقتنائه المحصّلون ، ويتباهى بتحصيل فوائده الراغبون ، والعلوم وان كثرت انواعها ، وتباينت اوضاعها ، فاجلُّها قدرا ، وارفعها ذكرا ، وابهاها سناء ، وافضلها اقتناء ، واعلاها ارتقاء ، واغزرها ارتواء ، واكملها اشراقاً ، واجملها اتساقاً ، والعلوم الشرعية التي هي مقاصدها ولاجلها تلتمس فوائدها ، وتقيَّد اوابدها وتقتنى عوائدها ، فغيرها من العلوم لها وسائل ، واسطة عقد تلك المسائل ، وقد خص من بينها علم الحديث بمنقبة عظيمة ، ورتبة شريفة جسيمة ، هي اتصال السند فيه بين رواته ، وشدّ الرحال في طلب تحصيله من نقلته وثقاته ، لتتصل بذلك سلسلة الاسناد ، وينتظم طالبه في سلك هؤلاء الائمة الامجاد ، وقد مضى على ذلك السلف والخلف ، ، وحصل للعلماء بالانتظام في ذلك السلك افضل الشرف

وبعد كلام طويل يصف به العلوم ويطنب بفضل العالِم المجاز وسعة معارفه يقول فيه —

ولما حنّ حنين الفحل الى عطَنه ، واراد الرجوع الى وطنه ، زوّدوه بالدعوات الصالحات ، وكسوه حلل الكرامة بتسطير الاجازات ، وتكثير الروايات ، والتمس مني وان كنت لست من رجال هذا المجال ، الا انه احسن ظنه بالحال ، الاجازة ، وان اجعل له الى مشايخي من جهتي اجازة ، فاسعفته بطلبته ، وحقّقت حسن رغبته ، رجاء الانتظام ، مع هؤلاء الاعلام ، وان

---

(١) انشاء العطار ١٦٩ — ١٧١

لا ينساني من صالح دعواته العظام ، فقلت اجزت المذكور بجميع مروياتي وبسائر مؤلفاتي ، بشرطه المقبول عند اهل النظر ، والمعتبر عند علماء الاثر ، سائلاً من الله ان ينفعني واياه ، ويبلغنا ما نتمناه ، بمنه وكرمه

. . . . .

ثم دخل القرن العشرين وانسعت بدخوله اسباب الحضارة فازداد بذلك تقدّم الادب في سبيل الحرّية .

ومما كان له يد في ذلك تطوّر الاحوال السياسية كاعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م ونشوء الروح القومية في الاقطار العربية ثم جاءت الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وما تلاها من تطوّرات سياسية واجتماعية في الشرق الادنى فدخل الادب العربي في طور جديد . ونشأ في مصر وسوريا والعراق والمهاجر اوساط ادبية رفع فيها لواء الادب الجديد فاصبح الانشاء الادبي على ما نعهده الآن من المتانة المقرونة بالبساطة والبعد عن التزويق — نزّاعاً الى ادراك الحياة وتصويرها ، كما توحيه الطبيعة الى النفس ، لا كما تقتضيه قواعد البديع والبيان

ولما كان في النية ان نفرد للادب الحديث كتاباً خاصاً نشرح فيه مناحيه النثرية المختلفة فاننا نقف الآن منه عند هذا الحدّ

المقامات

المقامات جمع مقامة وهي اسم للمجلس او الجماعة من الناس وسمّيت الاحدوثة من الكلام مقامة كانها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة لسماعها[١]. ويعزو الحريري فضل السبق في ابتداعها لبديع الزمان المتوفى ٣٩٨ هـ. واليك قوله في ذلك في ديباجة مقاماته[٢]

« وبعد فانه قد جرى ببعض اندية الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلاّمة همذان، فاشار من اشارته حُكم، وطاعته غنم الى ان أُنشئ مقامات اتلو فيها تلو البديع » ...

الى ان يقول ..

« هذا مع اعترافي بان البديع رحمه الله سبّاق غايات وصاحب آيات وان المتصدّين بعده لانشاء مقامه[١]، ولو أُوتي بلاغة قدامه، لا يغترف الا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى الاّ بدلالته »

ويتابع الحريريّ في ذلك كثيرون منهم القلقشندي صاحب صبح الاعشى فمن قوله

« ان اوّل من فتح باب عمل المقامات علاّمة الدهر وامام الادب البديع الهمذاني فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة اليه وهي في غاية البلاغة

---

(١) صبح الاعشى ١٤ — ١١٠

(٢) مقامات الحريري ص ١٣ و١٥

وعلوّ الرتبة في الصنعة. ثم تلاه الامام ابو محمد قاسم الحريري فعمل مقاماته الخمسين المشهورة فجاءت نهاية في الحسن واتت على الجزء الوافر من الحظّ واقبل عليها الخاص والعام حتى أَنْسَتْ مقامات البديع وصيَّرتها كالمرفوضة»[١]

ويرى زيدان من المحدَثين ان فضل التقدُّم في وضع المقامات هو للامام اللغوي ابي الحسين احمد بن فارس «لانه كتب رسائل اقتبس العلماء منها نسقه وعليه اشتغل بديع الزمان[٢]».

على ان احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ هـ يرجع المقامات الى عهد ابعد من عهد بديع الزمان. فقد نقل عن يزيد بن عبد الله قوله لكاتبه — «فتصفح من رسائل المتقدّمين ما يعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه، ومن نوادر الكلام ما تستعين به، ومن الاشعار والاخبار والسير والاسماء ما يتسع به منطقك ويطول به قلمك. وانظر في كتب المقامات والخطب[٣]». فما هي كتب المقامات التي يذكرها؟

كنا نميل الى الشك في هذه العبارة لو لم نر ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر ما يؤيدها اذ يقول —

«وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات[٤]».

فيستدلّ من كلامه وكلام ابن عبد ربه ان نوعاً من الكلام يعرف بالمقامات كان معروفاً قبل زمن البديع واستاذه ابن فارس. فكيف نشأ هذا الفن والى اي عهد يرجع؟

ولا بدّ قبل الاجابة على هذا السؤال من ان نقول ان المقامة كما وصلت الينا هي نوع من الحكايات القصيرة تروى على لسان احدهم وبطلها رجل

---

(١) صبح الاعشى ١٤ — ١١٠ (٢) تاريخ آداب اللغة ٢ — ٣٠٩

(٣) العقد (بولاق) ٢ — ٢١١ (٤) الشعر والشعراء ١٩

احكم التحيُّل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق . ويوصف عادة بالدهاء والتكدية وغايتها لغوية ادبية . وقد وصفها ابن الطِّقطقي بقوله : « ان المقامات لا يستفاد منها سوى التمرّن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر . وفيها حكم وتجارب الاّ ان ذلك مما يصغِّر الهمة اذ هو مبني على السؤال والاستجداء فان نفعت من جانب ضرَّت من جانب[1] »

فالمقامات المعروفة اذن حكايات قصيرة مقرونة بنكتة ادبية او لغوية كذلك نجدها في مجموعة بديع الزمان ومن تبعه . فهل كانت كذلك قبله ؟

يذهب برو كلمان ان اقدم معاني المقامة يرجع الى ايام الجاهلية و كانت عبارة عن مجتمع القبيلة . وفي ايام الامويين تتخذ شكلاً دينياً فاذا هي احاديث زهدية تروى في مجالس الخلفاء[2] . ثم تطوّر معناها فصارت تقرن بالشعر والادب واخبار الوقائع القديمة

وفي القرن الثالث الهجري اخذت تتدنى الى معنى التكدية والاستجداء بلغة منمقة ولم تتخذ شكلها الحقيقي الاّ على يدي بديع الزمان ثم الحريري . وشواهد التاريخ تشير الى صحة ما ذكره برو كلمان[3]

فالمقامة على ما يظهر ترجع الى ما وراء عهد الهمذاني . ونرجح ان لها علاقة وثيقة بمجالس الرواة الذين كانوا يقصُّون احاديث العرب وصدر الاسلام

واظهر ما ترى ذلك في احاديث ابن دريد المتوفى ٣٢١ هـ . فانّ لهذا الاديب المشهور منها ما يشبه ان يكون مقامات او مصادر للمقامات .

---

(١) الفخري ص ١٣ (٢) راجع قول المسعودي عن عمر (مروج الذهب ٥ — ٤٢١) . ومقامات الزهاد عند الخلفاء في عيون الاخبار لابن قتيبة ٢ — ٣٣٣

(٣) راجع تفصيل ذلك في دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظة Makama

ويؤيد ذلك ما ذكره الحصري اذ قال في عرض كلامه عن بديع الزمان « ولما رأى (البديع) ابا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي اغرب باربعين حديثاً وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره ، وابداها للابصار والبصائر، واهداها للافكار والضمائر في معارض عجمية والفاظ حوشية، فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الاسماع ، وتوسّع فيها اذ صرّف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرّفة ، عارضها باربعمائة مقامة في الكدية » — الى آخر الكلام[1] .

وقد تناول الاستاذ زكي مبارك هذا النصّ للحصري وبنى عليه حكماً نشره في المقتطف قبل ان يظهر كتابه النثر الفني خلاصته ان ابن دريد هو مبتدع فن المقامات[2] . فعارضه الاستاذ مصطفى الرافعي اذ قال ان ما انفرد به الحصري لا يعتمد عليه — لاسباب ذكرها —[3] . على اننا اذا قرنا كلام الحصري بما رواه صاحب العقد وابن قتيبة ترجّح لدينا ان فنّ المقامات نشأ تدريجياً من رواية القصص والاخبار ، وان للبديع الهمذاني فضل تنظيمها ووضعها في شكلها الفني الخاص: فهي لذلك تنسب اليه، وان احاديث ابن دريد من اهمّ الاصول التي اعتمدها في انشاء هذا الفنّ ، لا سيما وانّ في هذه الاحاديث من المغازي الادبية واللغوية ما لا يترك مجالاً للشكّ في ان مقامات البديع والحريري ومن جرى مجراهما تمتّ اليه بصلة متينة

وتختلف هذه الاحاديث الدريدية عن المقامات بعدم تقيدها بالسجع ، الا انها لا تخلو من ذلك ولا سيما في الوصف . فهي في الوصف تضارع

---

(١) زهر الاداب ج ١ — ٣٠٧ (٢) المقتطف مج ٧٧ ص ٤١٩

(٣) المقتطف ٧٧ ص ٥٨٩

المقامات تسجيعاً وتوازناً كما ترى في الحديث التالي عن ابن دريد مرفوعاً الى عمرو بن العلاء قال [1] : —

« كان لرجل من مقاول حِمير ابنان يقال لاحدهما عمرو وللآخر ربيعة ، وكانا قد برعا في العلم والادب ، فلما بلغ الشيخ اقصى عمره واشفى على الفناء دعاهما ليبلو عقليهما ويعرف مبلغ علمهما . فلما حضرا قال لعمرو — وكان الاكبر — اخبرني عن احبّ الرجال اليك ، واكرمهم عليك قال — السيّد الجواد ، القليل الانداد ، الماجد الاجداد ، الراسي الاوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل الذوّاد ، الصادر الورّاد . قال ما تقول يا ربيعة . قال ما احسن ما وصف به ، وغيره احبّ اليّ منه . قال ومن يكون بعد هذا ؟ قال — السيد الكريم ، المانع للحريم ، المفضال الحليم ، القمقام الزعيم ، الذي ان همّ فعل ، وان سئل بذل — . ثم يسألهما عن ابغض الرجال وعن احبّ النساء وابغضهنّ وعن الخيل والعيش والسيف والرمح فيجيبانه في حديث طويل كله على نسق ما ذكرنا من الوصف المسجوع .

فانت ترى من هذا الحديث الموضوع على لسان ابني المقوَل الحميري صنعة ظاهرة في تسجيع الاوصاف ، وميلاً قوياً الى عرض الالفاظ وذلك من خصائص المقامات وقس على ذلك ما ورد في اخبار العرب من اقوالهم واوصافهم كحديث ابن دريد يرفعه الى ابن الكلبي وفيه يذكر ما وقع بين سُبيع بن الحرث وميثم ابن مَثوب من المخاصمة بمجلس مرثد الخير وخطبته في شأنهما واصلاحه ذات بينهما . ومن هذه الخطبة قوله [2] —

---

(١) امالي القالي (بولاق) ج ١ ص ١٥٣ — ١٥٥

(٢) » » » » ص ٩٣

لا تنشطوا عُقُل الشوارد ، ولا تُلقحوا العُون القواعد ، ولا تورثوا نيران الاحقاد . ففيها المتلفة المستأصلة ، والجائحة والأَليلة[1] . وعفُّوا بالحلم ابلاد الكلم ، وأَنيبوا الى السبيل الارشد ، والمنهج الاقصد ، فان الحرب تقبل بزبرج الغرور ، وتدبر بالويل والثبور »

فالحديث كله قصة موضوعة وضعها الرواة ونقلها ابن دريد واهمّ مافيها خاتمتها الخطابية التي تشبه كثيراً بعض القطع الحكمية او الوعظية في مقامات البديع والحريري وسواهما . بل هي تكاد تكون مماثلة للمقامات او الخطب الدينية كما نراها في اقوال الزمخشري وابن نباتة واضرابهما

ومن الاحاديث التي رواها ابن دريد قوله[2] —

« كان قيل من اقيال حِمير منع الولد الدهر . ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً منيفاً بعيداً من الناس ووكل بها نساءً من بنات الاقيال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء . فنشأَت احسن منشأ واتمّه في عقلها وكمالها . فلما مات ابوها ملّكها اهل مخلافها فاصطنعت النسوة اللواتي ربّينها واحسنت اليهنّ ، وكانت تشاورهنّ ولا تقطع امراً دونهنّ . فقلن لها يوماً يا بنت الكرام لو تزوّجتِ لتمّ لك الملك . فقالت وما الزوج ؟ فقالت احداهنّ الزوج عزٌّ في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، ان غضبتِ عطف وان مرضت لطف » . . . . ثم تأخذ الثانية والثالثة بوصف الزوج على هذه الطريقة المسجعة . فتقول لهنّ « امهلنني انظر فيما قلتنّ . فتحتجب عنهنّ سبعاً ثمّ تدعوهنّ وتقول قد نظرت فيما قلتنّ فوجدتني املّكه رقّي وابثّه باطلي وحقي . فان كان محمود الخلائق مأمون البوائق فقد ادركت بغيتي ، وان كان غير ذلك فقد طالت شقوتي : على انه لا ينبغي الاّ ان يكون كفوءاً

(١) الأَليلة الثكل ، الابلاد الآثار (٢) الامالي ١ — ٨٠

كريماً يسود عشيرته ، ويربُّ فصيلته ، لا اتقنّع به عاراً في حياتي ، ولا ارفع به شناراً لقومي بعد وفاتي ، فعليكنّه فابغينه وتفرّقنَ في الاحياء فأيّتكنّ أنتني بما احبّ فلها اجزل الحباء ، وعليّ لها الوفاء » . . . .

فتذهب النسوة في طلب الزوج ثمّ ترجع كلّ واحدة فتصف من وجدته وصفاً مسجعاً نكتفي منه بما قالته الثانية في الرجل الذي وقع من قلب الملكة فاختارته وهو يَعلى بن هزّال بن ذي جَدن — قالت : « مصامص النسب ، كريم الحسب ، كامل الادب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مقتبل الشباب ، خصيب الجناب ، امره ماض ، وعشيره راض » .

. . . . .

اذا راجعت احاديث ابن دريد المرويّة في امالي القالي [1] تجد في جميعها روح الحكاية كما تجدها في المقامات وتجد فيها هذا الميل الى التسجيع في اثناء الوصف والى التبسط في المصطلحات او المترادفات اللغوية . الاّ ان الفن في المقامات اظهر . ففيها بطل واحد تدور الحكاية جميعها عليه ، وفيها صناعة لفظية وبيانية ارقى منها في تلك الاحاديث . ونعني بالصناعة هنا سبك الحكاية في المقامة وما يقترن به من تفنن في السجع وفي اساليب البديع ، ويضاف الى ذلك تفوّق المقامات في ذكر النوادر والاخبار والاشارة الى وقائع الزمان واعلام التاريخ ، وما يعرض فيها من حكم وامثال ونكات ولغة وادب . وقد اشتهر منذ القرن الرابع الهجري الى ان دالت دولة المقامات في القرن الثالث عشر جماعة من ارباب هذا الفن . منهم : —

بديع الزمان منظِّم هذه الطريقة ، والحريري امامها وسنترجم لهما بعد .

---

(١) ١ ص ٨٠ — ٩٢ — ١٤٣ — ١٥٣ — ١٩٠
٢ ص ٧ — ٣٣ — ٢٧١ — ٢٩٢

ومنهم : --

ابن الاشتركوني (٥٣٨)	له خمسون مقامة انشأها بقرطبة تقليداً للحريري
يحيى بن سعيد النصراني (٥٨٩)	المقامات المسيحية جرى فيها ايضاً مجرى الحريري
احمد بن بكر الرازي الحنفي	ثلاثون مقامة كتبها في اواخر القرن السادس
شمس الدين ابن الصيقل الجزري (٧٠١)	خمسون مقامة نسبها الى ابن نصر المصري وروايتها الى القاسم بن جريال الدمشقي
محمد بن ابرهيم الدمشقي (٧٢٧)	المقامات الفلسفية (وهي خمسون)
شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩)	راجع مقاماته في ريحانة الالباء

ومن الكتاب المتأخرين :

احمد البربير ١٢٢٦ (١٨١١)	توجد نسخة من مقاماته في دار الكتب المصرية
نقولا الترك ١٢٤٤ (١٨٢٨)	١١ مقامة
الشهاب الالوسي ١٢٧٠ (١٨٥٤)	كتاب مقامات طبع في كربلاء
ناصيف اليازجي ١٢٨٨ (١٨٧١)	مقاماته المشهورة (مجمع البحرين)
ابرهيم الاحدب ١٣٠٨ (١٨٩١)	٨٠ مقامة

عبدالله باشا فكري ١٣٠٧ (١٨٩٠) له مقامات في مجموعة الاثار الفكرية

. . . . .

وقد يصحّ لنا ان نقول ان المقامات كانت منذ ايام الحريري حتى اواخر القرن التاسع عشر باباً من ابواب الادب قلما مرّ به اديب من الادباء المعروفين دون ان يطرقه، وقد شارك الادباء فيه بعض العلماء كابن الجوزي والسيوطي وسواهما .

واذا عرضنا امامنا اصحاب المقامات اجمعين برز لنا من بينهم ثلاثة كان لهم اليد الطولى في هذا الفنّ وهم بديع الزمان والحريري واليازجي

ولا بدّ لنا هنا من ذكر ابراهيم المويلحي (١٩٠٨) فان في كتابه حديث عيسى بن هشام تحوّلاً ظاهراً عن سياق المقامات المعتاد. وهو درس اجتماعي يحاول فيه عرض احوال مصر ونقدها . وقد ظهر في اواخر القرن التاسع واوائل العشرين بضع كتب من هذا القبيل كالمسامير لعبد الله النديم وليالي سطيح لحافظ ابراهيم وبها ضاعت المقامات القديمة ولم تقم لها بعد قائمة

بديع الزمان الهمذاني

ومقاماته

٣٥٨ — ٣٩٨

توطئة تاريخية

لعلّ اهمّ مصدر نرجع اليه في دراسة بديع الزمان هو يتيمة الدهر للثعالبي فان الثعالبي عاصره ولقيه وعرف احواله[١] . وعنه اخذ ياقوت بعض ما ذكره في معجم الادباء، واخذ البعض الآخر عن تاريخ همذان لشيرويه بن شهردار، وعن ابي الحسن البيهقي صاحب وشاح الدمية. اما ابن خلكان فله كلمه وجيزة فيه يقول فيها انه اطلع على رسائله التي جمعها الحاكم ابو سعيد عبد الرحمن بن دوست .

وخلاصة ما في هذه المصادر ان البديع (واسمه ابو الفضل احمد بن الحسين) نشأ في همذان ودرس على ابي الحسين احمد بن فارس اللغوي المشهور وعيسى بن هشام الاخباري وغيرهما .

وفي سنة ٣٨٠ (اي وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره) ترك موطنه قاصداً الصاحب بن عباد وبقي عنده زمناً يتزوّد من ثماره[٢] . « ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في اكنافهم[٣] »

---

(١) معجم الادباء ١ — ٩٥ (٢) اليتيمة ٤ — ١٦٨

(٣) اليتيمة ٤ — ١٦٨

لكن المقام لم يطب له فيها طويلاً فتركها . ويشرح لنا سبب تركها في رسالة كتبها الى ابي نصر بن المرزبان قال فيها[١]

« كتابي اطال الله بقاء الشيخ وانا متألّم ، والحمد لله ربّ العالمين . كيف تقلّب الشيخ في درع العافية ، واحواله بتلك الناحية ؟ فاني ببعده منغّص شريعة العيش ، مقصوص اجنحة الانس . ورد كتابه المشتمل من خبر سلامته على ما رغبت الى الله في ادامته ، وسكنت اليه بعد انزعاجي لتأخره . وقد كان رسم ان اعرّفه سبب خروجي من جرجان ووقوعي بخراسان ، وسبب غضب السلطان . وقد كانت القصة اني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجّاج ، ومستقر الكرم ، لا مَشعر الحرم ، وقِبلة الصِّلات ، لا قبلة الصلاة ، ومُنى الضيف ، لا مِنى الخيف[٢] ، وجدت بها ندماء من بنات العام[٣] ، اجتمعوا قِيضة كلب[٤] على تلفيق خطب ازعجني عن ذلك الفناء ، واشرف بي على شرف الفناء ، لولا ما تدارك الله بجميل صنعه ، وحسن وقعه ، ولا اعلم كيف احتالوا ، وما الذي قالوا ، لكنّ الجملة ان غيروا السلطان ، فاشار عليّ اخواني ، بمفارقة مكاني ، وبقيت لا اعلم أيمنةً اضرب ام شآمة ، ونجداً اقصد ام تهامة

وقد علم الشيخ ان ذلك السلطان سماءٌ اذا تغيّم لم يُرجَ صحوه ، وماءٌ اذا تغيّر لم يشرب صفوه ، وملك اذا سخط لم ينتظر عفوه ، فليس بين رضاه والسخط عُرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز . فهو سيد يغضبه الجرم الخفيّ ، ولا يرضيه العذر الجليّ ، وتكفيه الجناية وهي ارجاف ، ثمّ لا تشفيه العقوبة

---

(١) تجدها في رسائل البديع ص ١٥٠ (٢) من مشاعر الحج (٣) بنات العام اي حديثو العهد (٤) اي مثل الكلاب

وهي اجحاف، حتى انه ليرى الذنب وهو اضيق من ظلّ الرمح ، ويعمى عن العذر وهو ابين من عمود الصبح . وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب عن هذه العذر وله برهان ، وذو يدين يبسط احداهما الى السفك والسفح ، ويقبض الاخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح احداهما الى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم . فمزحه بين القدّ والقطع ، وجدّه بين السيف والنِطع . ومراده بين الظهور والكمون ، وامره بين الكاف والنون . ثمّ لا يعرف من العقاب غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدي من التأنيب الا لازالة النعم ، ولا يعلم من التأديب غير اراقة الدم ، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرّة ودقة الشعرة ، ولا يحلم عن الهفوة ، كوزن الهبوة ، ولا يغضي عن السقطة كجرم النقطة . ثم النِعم بين لفظه وقلمه ، والارض تحت يده وقلمه . لا يلقاه الوليُّ الا بغُمَّة ، ولا العدوّ الاّ بذمَّة . والارواح بين حبسه واطلاقه ، كما ان الاجسام بين حله ووثاقه . فنظرت فاذا انا بين جودين إما ان اجود بباسي ، واما ان اجود براسي ، ورَكوبين — إمّا المفازة وإما الجنازة ، وبين طريقين — إما الغربة وإما التربة ، وبين فراقين — إما ان أفارق ارضي او أُفارق عِرضي ، وبين راحلتين — إما ظهور الجمال وإما اعناق الرحال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن »

والرسالة طويلة وكلها على هذا المنوال —

. . . . .

ترك جرجان الى نيسابور فوافاها سنة ٣٨٢ . وكان قطّاع الطريق من الاعراب قد سلبوه ما كان له من مال وامتعة فدخلها مُعدماً او كما يقول

في بعض كتبه « براحة انقى من الراحة ، و كيس اخلى من جوف حمار[١] . و كان في نيسابور اديب زمانه ابو بكر الخوارزمي، ويظهر ان بديع الزمان قصده موءملاً الخير على يديه . لكن الخوارزمي لم يحسن استقباله فغاظ ذلك البديع وجرت بينهما معاتبات مُرّة يُستدلّ منها ان صاحبنا اخذ يتحين الفرص للانتقام من الخوارزمي والحط من شأنه . وفي ذلك يقول[٢]

« وقديماً كنّا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوّقه ، وبخبره فنتعشّقه ، ونقدّر انّا اذا وطئنا ارضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العِشرة ، عن القِشرة ، وفي المودّة ، عن الجِلدة ، فقد كانت كلمة الغُربة جمعتنا ، ولحمة الادب نظمتنا . فاخلف ذلك الظن كلّ الاخلاف »

الى ان يقول :

« فلما اخذتنا عينه سقانا الدُّردي[٣] من اول دنّه ، واجنانا سوء العشرة من باكورة فنّه ، من طرفٍ نظر شطره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخفّ بامره ، لكنّا اقطعناه جانب اخلاقه ، ووليّناه خطّة نفاقه ، فواصلناه اذ جانَب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الامر في ذلك الى زيّ استغثّهُ ، ولباس استرثّهُ ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونستلين قياده ، ونقيم منآده ، بما هذه نسخته —

الاستاذ ابو بكر ، والله يطيل بقاءه ، ازرى بضيفه أَن وجده يضرب اليه آباط القلّة[٤] ، في اطمار[٥] الغربة ، فعمل في رتبته اعمال المصارفة ، وفي الاهتزاز اليه اصناف المضايقة ، من ايماءٍ بنصف الطرف ، واشارة بشطر

---

(١) زهر الاداب ٢ — ١٥٧ (٢) زهر الاداب ٢ — ١٥٦ و ١٥٧
(٣) الدردي ما يبقى راسباً في الاناء (٤) اي يسير اليه على جناح الفقر
(٥) الاطمار الثياب الرثة البالية

الكف ، ودفعٍ في صدر القيام عن التمام ، ومضغ للكلام ، وتكلّف لردّ السلام . وقد قبلت ترتيبه صَعَرا ، واحتملته وَزرا ، واحتضنته نكرا ، وتأبطته شرّا ، ولم آله عذرا ، فان المرء بالمال ، وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفي هذه الاسمال ، اتقزّز من صفّ النعال ، فلو صدقته العتاب وناقشته الحساب ، لقلت ان بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح[1] ، وناساً يجرّون المطارف ، ولا يمنعون المعارف

وفيهم مقامات حسان وجوههم واندية ينتابها القول والفعل

فلو طوّحتْ بابي بكر — ايده الله — اليهم مطارح[2] الغربة ، لوجد منزل البشر رحيبا ، ومحطّ الرحل قريبا ، ووجه المضيف خصيبا ، فرأي الاستاذ ابي بكر — ايده الله — في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود والمرّ الذي يتلوه شهد ، موفّقاً ان شاء الله »

فيجيبه ابو بكر وتحتدم بينهما المعاتبة ، ولكن الخوارزمي يلزم فيها جانب الملاينة والملاطفة . وكأن بديع الزمان يعمد الى اظهار نفسه بالتحكك بخصمه والحطّ من شأنه ، فلا يقبل هوادة او عذرا . وكان من وجوه نيسابور قوم يكرهون ابا بكر فاعانوا البديع عليه وما زالوا[3] حتى جمعوهما في دار نقيب السادة بنيسابور . واغتنم بديع الزمان تلك السانحة فاخذ يداعب الخوارزمي متهكماً ويداوره متحكماً ، فاقترح النقيب عليهما ان يتناظرا في معارضة بعض قصائد المتنبي ، فابتدا الخوارزمي بابيات ، ثم البديع بابيات ، واخذا في المساجلة والمطاعنة وما زالا كذلك حتى امال النعاس الرؤوس ، وسكنت الالحان

---

(١) الثاغية الصائتة من الشاه ، والراغية الصائتة من الابل اي ان لنا صحاباً لهم ثروة وجاه (٢) في رسائله طوائح (٣) معجم الادباء ٢ — ١٠١

والنفوس ، وسعى الفضلاء بينهما بالصلح . فتصالحا واضافه الخوارزمي حتى كأن لم يكن بينهما ما كان .

على ان بعض المستوحشين من الخوارزمي لم يرقهم ذلك فهيأوا مجمعاً في دار الوزير السيد ابي القاسم حضره جماعة من الكبراء والعلماء ودفعوهما الى المناظرة ، فاخذا يتساجلان ويتناقدان . وكانت معركة ادبية حامية خرج منها بديع الزمان ظافراً فتلقاه الناس بالتعظيم والتبجيل ، وعاد الخوارزمي الى منزله مخذولاً ، وانكسفت باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى مات [١]

وبموته خلا الجوّ للبديع ، فاصبح إمام الادب ، قال الثعالبي : —

« وتصرّفت به احوال جميلة واسفار كثيرة ، ولم يبقَ في بلاد خراسان وسجستان ، وغزنة بلدة الاّ وحلّها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ، ولا امير ، ولا وزير ، ولا رئيس الاّ استمطر منه بنوء ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النّعم ، وحصل على غرائب القِسَم [٢] »

ثم القى عصاه بهراة [٣] . وخدمه التوفيق بمصاهرة ابي علي الحسين بن محمد الخشنامي فانتظمت احواله ، واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية . وفي سنة ٣٩٨ لبّى نداء ربّه وهو في الاربعين من عمره وكان قد بلغ اوج شهرته الادبية

---

(١) راجع هذه المناظرة في معجم الادباء ١ ص ١٠١ — ١١٤ ، وفي رسائل البديع ص ٢٨ — ٨٤

(٢) اليتيمة ٤ — ١٦٩

(٣) هي اليوم حاضرة الافغان

بعض اهوال الشخصية

وكان الهمذاني بارعاً في الفارسية ، يترجم ما يُقترح عليه من الابيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة ، بالابيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع[1] . ويجمع المؤرخون له على سرعة خاطره وتوقُّد ذهنه — فمن قول الثعالبي في ذلك[2] :

« ولم يُرَ ولم يروَ ان احداً بلغ مبلغه من لبّ الادب وسرّه ، وجاء بمثل اعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها . انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي اكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ، ويؤدّيها من اوّلها الى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يخلّ معنى ، وينظر في الاربعة والخمسة اوراق من كتاب لم يعرفه ولم يرَهُ نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهدّ بها عن ظهر قلبه هدًّا ، ويسردها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة او انشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت والساعة ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ، ثم هلمّ جراً الى الاول ، ويخرجه كأحسن شيء واملحه . . ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في اسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونَفَس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة وفيض اليد ، ومسارقة العلم ، ومسابقة اليد ، وجمرات الحدّة ، وثمرات المدّة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة الطبع للسمع »

واول ما يتبادر الى الذهن ان في كلام الثعالبي اغراقاً بيّناً . ولكن

---

(١) اليتيمة ٤ — ١٦٧ (٢) اليتيمة ٤ — ١٦٧

الذي يطّلع على مناظرة البديع للخوارزمي يجد فيها ما يزكّي شهادة الثعالبي وغير الثعالبي فيه . فالرجل كان سريع الخاطر والحفظ واسع المعرفة اللغوية والبيانية تطيعه الالفاظ والاشكال البديعية طاعة الادوات للصانع الماهر . على انه كان برغم ما وصفه به الثعالبي من خفة الروح وحسن العشرة والخلق ، كثير الميل للظهور ، وظاهر الانانية والغرور . والدليل على ذلك مهاجمته للخوارزمي بعد ما جرى من الصلح بينهما — ومقابلته ملاينة خصمه ومسايرته بمرضاةٍ ملبسة ثوب التهكم ، وتواضع ينضح بالخيلاء والتعاظم . اذ لم يكن له همّ الا خضد شوكته واعتلاء سدته .

وكان في البديع على ما يظهر مرارة لسان شديدة على من ينقم عليهم كما ترى في كتاب بعث به الى ابن ميكال رئيس نيسابور ومنه[1] —

« أعجوبة ، لكنها محجوبة ، حتى تصلّي على النبي بنشاط ، وتنزل عن قيراط[2] ، ما هي يا خبيث ، اليك يساق الحديث ، ان عشنا وعشتَ رأيتَ الاتان ، تركبُ الطحّانَ : روحٌ ولا جسد ، وصوتٌ ولا احد ، والغودُ احمدَ ، ومتى فرزنتَ يا بيدق ؟[3] وأُفّ لقومٍ سدتهم ويا بؤسَ عصرٍ احوجهم اليك »

ومثل هذا الكلام اللاذع كثير في رسائله . بل قد يبلغ به الى درجة عدم الصفح عند المقدرة كقوله وقد كتب اليه بعض من عزل عن ولاية يستمد وداده ويستميل فؤاده فاجابه[4] —

« وردت رقعتك أطال الله بقاءك فأعرتها طرفَ التغزُّز ، ومددتُ اليها يدَ التقزُّز ، وجمعت عنها ذيل التحرُّز ، فلم تندَ على كبدي ، ولم تحظَ

---

(١) الرسائل ٤٩٦ (٢) اي قيراط من الدرهم (٣) البيذق من حجارة الشطرنج والفرزان الملكة منها (٤) الرسائل ٨٤

بناظري ويدي ، وخطبتَ من مودّتي ما لم أَجدْ لها كفوءًا ، وطلبت من عشرتي ما لم أَرَ لها رِضًا ، وقلت : هذا الذي رفع عنا اجفانَ طرفه ، وشال بشعرات أَنفه ، وتاه بحسن قدّه ، وزها بورد خدهِ ، ولم يسفِنا من نوئه ، ولم نسر بضوئه ، والآن اذ نسخ الدهرُ آيةَ حسنه ، وأَقام مائد غصنه وفئأَ غرْب عجبه ، وكفّ زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، واكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيرت حاله ، وكدّرت شِرعته جاءَ يستقي من جُرفنا جَرفًا ، ويغرف من طيبنا غرفًا

وتناسيت ايامك اذ تكلمنا نزراً ، وتلحظنا شزراً ، وتجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر ، ونهتزُّ لكلامك ، ونهشُّ لسلامك

ومن لك بالعين التي كان مدّةً اليك بها في سالف الدهر يُنظرُ

ايام كنت تتمايل ، والاعضاء تتزايل ، وتتغانج ، والاجساد تتفالج ، وتتلفّت والاكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجد يعلو بنا ويسفل ، وتدبر وتقبل ، فتَمني وتخبل ، وتصدّ وتعرض ، فتُضني وتمرض :

وتبسم عن أَلمى كأنّ منوّراً تخلل حرّ الرمل غضٌّ له ندي

فأَقصر الآن ، فانه سوقٌ كسدَ ، ومتاعٌ فسد ، ودولة عرضت ، وايامٌ انقضت

مقاماته

قال ابو اسحق الحصري يصف البديع ومقاماته [١]

« وهذا اسم (اي البديع) وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه . كلامه غضّ المكاسر ، انيق الجواهر ، يكاد الهواء ينسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً » . ثم يذكر ما نقلناه قبلاً من معارضته لاحاديث ابي بكر ابن دريد باربعمئة مقامة « تذوب ظرفاً وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى . وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى احدهما عيسى بن هشام والآخر ابا الفتح الاسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدرّ ، ويتنافثان السحر ، في معان تضحك الحزين ، وتحرّك الرصين ، تتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما افرد احدهما بالحكايه ، وخصّ احدهما بالرواية »

على ان ما وصلنا من مقاماته الاربعمائة لا يتجاوز الحادية والخمسين . والذي يطالعها يرى في بطلها ابي الفتح ما يراه عادةً في ابطال المقامات الاخرى ، من جشع وتحيل مقرونين بذكاء واختبار واسع . وهي تتناول المواضيع الادبية واللغوية والكلامية والاخبار وتتجلى فيها المزايا التالية —

١ — سهولة المأخذ وعدم التقيد دائماً بالازدواج والسجع

كقوله من المقامة الفزارية —

« فقلت له على رِسلك يا فتى ، ولك فيما نصحبني حكمك . فقال الحقيبة بما فيها . فقلت وإنّ وحاملتها [٢] . ثم قبضت بجمعي عليه ، وقلت لا والذي

(١) زهر الاداب ١ — ٣٠٧ (٢) اي نعم وانها لك ولك الناقة التي تحملها

الهمها لمسا ، وشقّها من واحدة خمسا ، لا تزايلني او اعلم علمك . فحدر لثامه فاذا هو شيخنا ابو الفتح الاسكندري »

وقس على ذلك كثيراً في تضاعيف المقامات . وقد اصاب الدكتور زكي مبارك اذ قال[1] « وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريري يتبين لنا ان لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف ، ولا كذلك لغة الحريري التي تعدّ من اغرب نماذج النثر المصنوع . وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفنّ المقامات نراهم في الاغلب تلامذة الحريري لا تلامذة البديع فقد اولع اكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم الى فطرته الا القليل »

٢ — روح الدعابة والظرف

ومع ان بعض مقاماته قصيرة تكاد لا تجد فيها اثراً لحكاية او نكتة . فان البعض الآخر يدلّ على روح فكهة تحب النكتة وتحسن سرد الحكاية وهو في ذلك يفوق عامة اصحاب المقامات . ومن مقاماته الفكهة

المقامة البغدادية — وفيها يقول :

حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الازاذ[2] ، وانا ببغداد ، وليس معي عقد ، على نقد ، فخرجت انتهز محالّه حتى احلني الكرخ ، فاذا انا بسواديّ[3] يسوق بالجهد حماره ، ويطرف بالعقد ازاره ، فقلت : ظفرنا والله بصيد ، وحياك الله ابا زيد ! من اين اقبلت ، واين نزلت ، ومتى وافيت ، وهلم الى البيت . فقال السواديّ : لست بأبي زيد ، ولكني ابو عبيد ، فقلت : نعم لعن الله الشيطان ، وابعد النسيان ، أنسانيكَ طول العهد ، واتّصال البعدِ ، فكيف حالُ ابيك ، أشابٌ كعهدي ، ام شابَ بعدي ، فقال : قد نبت

(١) النثر الفني ١ — ٢٠٣ (٢) نوع من الحلوى او التمر (٣) قروي

الربيع على دمنته ، وارجو ان يصيّره الله الى جنّته ، فقلت : انّا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم ! ومددت يد البدار ، الى الصُّدار ، اريد تمزيقه ، فقبض السوادي على خصري بجُمعه ، وقال : ناشدتك الله لا مزقته ، فقلت : هلمَّ الى البيت نصب غداءً ، او الى السوق نشتري شواءً ، والسوق اقرب ، وطعامه اطيب . فاستفزته حمية القَرَم ، وعطفته عاطفة اللقم ، وطمع ، ولم يعلم انه وقع ، ثم اتينا شوّاءً يتقاطر شواوُه عرقاً ، وتتسايل جوذاباته مرقاً ، فقلت : افرز لابي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الاطباق ، وانضد عليها اوراق الرقاق ، ورشّ عليه شيئاً من ماء السمّاق ، ليأكله ابو زيد هنيئاً . فانحنى الشوّاء بساطوره ، على زبدة تنوّره ، فجعلها كالكحل سحقاً . وكالصحن دقاً ، ثم جلس وجلست ، ولا يئس ولا يئست ، حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجرى في الحلوق ، وامضى في العروق ، وليكن ليليّ العمر ، يوميّ النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤيّ الدُّهن ، كوكبيّ اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله ابو زيد هنيئاً . قال :

فوزنهُ ثم قعد وقعدتُ ، وجرَّد وجرَّدتُ ، حتى استوفيناه . ثم قلت : يا ابا زيدٍ ما احوَجنا الى ماءٍ يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارَّةَ [1] ، ويفثأ هذه اللُّقم الحارَّة ، إجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقّاءٍ ، يأتيك بشربة ماءٍ . ثمَّ خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع . فلمَّا ابطأت عليه قام السوّاديُّ الى حماره ، فاعتلقَ الشوّاكَ بإزاره . وقالَ :

اين ثمن ما اكلت ؟ فقال ابو زيد : اكلته ضيفا . فلكمه لكمةً ، وثنّى

(١) العطش

عليه بلطمةٍ . ثم قال الشواء : هاك ، ومتى دعوناك ، زن يا اخا القحة عشرين فجعل السواديُّ يبكي ويحلُّ عقده باسنانه ويقول : كم قلتُ لذاك القُريد ، انا ابو عبيدٍ ، وهو يقول : انت ابو زيدٍ . فانشدتُ :

اعمل لرزقك كلَّ آلهْ لا تقعدنَّ بكل حالهْ
وانهض بكل عظيمةٍ فالمرءُ يعجزُ لا محالهْ

المقامة المضيرية :

وهي طويلة ومن ابدع ما كتب في هذا الفن — وخلاصتها ان ابا الفتح الاسكندري دعي مرّة الى اكل المَضيرة على مائدة بعض التجار فلعنها ولعن طابخها ، ولما سألوه عن امرها قصَّ لهم ما حدث له من جرّائها والحديث طويل ، وهو يدور على رجل ثقيل دعاه مرة الى اكل المضيرة في منزله ، فيبرمه ويصدّعه لكثرة ما يصف زوجته ومحلته وداره وما فيها ، وغلامه وخوانه وما الى ذلك فيطيل ويجرح . كل ذلك قبل ان يحضر الطعام . وكان وقت الغداء قد فات ولم يبقَ لأبي الفتح صبر على شرح الرجل وابرامه وثقل روحه وأحسّ ان الشرح لا يزال طويلاً وان ثمت كثيراً من الاشياء التي لا بدّ للداعي من وصفها وازهاق الروح بذكر دقائقها ، فلم يرَ امامه الاَّ الهرب قال :

« وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت اعدو وهو يتبعني ويصيح : يا ابا الفتح المضيرة . وظنَّ الصبيان انَّ المضيرة لقبٌ لي فصاحوا صياحه ، فرميت احدهم بحجر ، من فرط الضجر . فلقي رجلٌ الحجر بعمامته ، فغاص في هامته ، فأُخذت من النعال بما قدُمَ وحدُثَ ، ومن الصفع بما طاب وخبثَ ، وحُشرتُ الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك

النحس، فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشت، فهل انا في ذا يا آل همذان ظالم، . قال عيسى ابن هشام : فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا قديماً جنت المضيرة على الاحرار، وقدّمت الاراذل على الاخيار

٣ — مرارة التهكم والهجاء

وتظهر في مقاماته كما تظهر في رسائله كقوله في المقامة المارستانية على لسان مجنون يصف المعتزلة :

وانتم يا مجوس هذه الامة تعيشون جبراً، وتموتون صبراً، وتساقون الى المقدور قهرا، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، أفلا تنصفون، ان كان الامر كما تصفون ؟ وتقولون خالق الظلم ظالم . أفلا تقولون خالق الهلْكِ هالكٌ ؟ اتعلمون يقيناً، انكم اخبث من ابليس ديناً . قال : ربِّ بما اغويتني : فأقرّ وانكرتم، وآمن وكفرتم، وتقولون خُيِّر فاختار . وكلاّ فانّ المختار لا يَبعج بطنه، ولا يفقأ عينَه، ولا يرمي من حالق ابنهُ، فهل الاكراه، الاّ ما تراه ؟ والاكراه مرّةً بالمِرّة، ومرّةً بالدِّرّة[1]، فليخزكم انّ القرآن بغيضكم، وان الحديث يغيظكم، اذا سمعتم من يضلِل الله فلا هادي له الحَدْتم، واذا سمعتم زُوِيَت لي الارض فأُريت مشارقها ومغاربها جحدتم، واذا سمعتم عُرضت عليّ الجنة حتى هممت ان اقطف ثمارها وعرضت عليّ النار حتى اتّقيت حرّها بيدي، انغضتم رؤوسكم ولويتم اعناقكم، وان قيل عذاب القبر تطيّرتم، وان قيل الصراط تغامزتم، وان ذكر الميزان قلتم : من الفِرْغِ كِفتّاه[2]، وان

(١) المرّة هنا العقل والدرّة العصا (٢) اي قلتم تهكماً كفتاه فارغتان

ذكر الكتاب قلتم : من القِدّ دفتّاه . يا اعداءَ الكتاب والحديث بمَ تطيّرون ؟ أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ انما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث ، ثمَّ مرقتم منها فانتم خبثُ الخبيث »

ومن نقده اللاذع قوله في المقامة النيسابورية يصف قاضياً يصلي في المسجد :

« هذا سوسٌ لا يقع الاّ في صوف الايتام ، وجرادٌ لا يسقط الاّ على الزرع الحرام ، ولصٌّ لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكرديٌّ لا يغيرُ الا على الضعاف ، وذئبٌ لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لاينهب مال الله الا بين العهود والشهود . وقد لبسَ دنيّته[1] ، وخلع دينيّته ، وسوّى طيلسانه ، وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سباله ، وأطال حباله ، وابدى شقاشقه ، وغطى مخارقه ، وبيّض لحيته ، وسوّد صحيفته ، واظهر ورعه ، وستر طمعه »

ومما يدلك على طول باعه في الاقذاع والهجاء مقامته الدينارية . فهي مجموعة شتائم وضعها عن لسان شخصين يتناظران في التهاجي فليراجعها من شاء

والبديع في مقاماته وصّاف ماهر[2] . على انه لا يمتاز بذلك عن سواه من منشئي عصره وما بعده ، فان الوصف والتبسط من صفاتهم البارزة وفنونهم المقصودة . ونظرة الى ما ورد من ذلك في الرسائل الديوانية والادبية تكفينا مؤونة الاستشهاد

وهو يكثر من الحكم والعظات ولكن اكثرها راجع الى ذم الدنيا

---

(١) قلنسوة القاضي (٢) للدكتور زكي مبارك في النثر الفني ج ١ ص ٢١١ — ٢٢٠ فصل تناول به الوصف في مقامات البديع فليراجع

واهلها ذماً ينمّ عن نفس مرّة وطبع متبرّم . ولا بدع فبطل المقامات ابو الفتح انانيٌّ لا يثق باحد ولا يسعى لغير الكسب . فاذا ارسل حكمة او ابدى زهداً فان همّه كما ذكر في وصاته لابنه : —

وكما اخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصيّن احدهما الكرم ، واسم الآخر القرَم ، فاياك واياهما ! ان الكرم اسرع في المال من السوس ، وان القرَم اشأم من البسوس ، ودعني من قولهم ان الله كريم انها خدعة الصبي عن اللبن . بلى ان الله لكريمٌ ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه وينفعنا ولا يضرّه . ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله . فأمّا كرمٌ لا يزيدك حتى ينقصني ولا يريشك حتى يبريني فخذلانٌ لا اقول عبقريٌّ ، ولكن بُقريٌّ [1] . افهمتها يا ابن المشؤومة . انما التجارة تنبط الماءَ من الحجارة ، افتتركه وهو مُعرضٌ ثم تطلبه وهو معوزٌ [2] . افهمتها لا أُمّ لك . انه المال عافاك الله فلا تنفقنّ الاّ من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في الخَلّ والبصل رخصة ما لم تُذِمّهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمكَ وما اراكَ تأكله ، والحلوُ طعام من لا يبالي على ايّ جنبيه يقع ، والوَجَبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقيةُ الفوتِ ، وعلى الشِّبْعِ داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك ، يا بنيَّ قد اسمعتُ وابلغتُ ، فان قبلتَ فالله حسبك ، وان ابيتَ فاللهُ حسيبكَ

---

(١) اي خذلان مهلك

(٢) اي اتترك المال وهو موجود وتطلبه حين يعجزك تحصيله

المقامة الصيمرية

وهي تجمع الى حلاوة القصة حكمة العظة جمعاً يملك النفس وهو يضعها على لسان رجل اسمه ابو العنبس الصيمري واليك حديثه — قال

« قدمت من الصيمرة الى مدينة السلام ومعي جراب دنانير ومن الخُرثيّ[1] والآلة وغير ذلك ما لا احتاج معه الى احد ، فصحبت من اهل البيوتات والكتّاب والتجار ، ووجوه التُّنّاء[2] من اهل الثروة واليسار ، والجدة والعقار جماعة اخترتهم للصحبة ، وادّخرتهم للنكبة

وبعد ان يصف طيب عيشهم عنده يقول :

وكنت عندهم اعقل من عبد الله بن عباس ، واظرف من ابي نواس ، واسخى من حاتم ، واشجع من عمرو ، وابلغ من سحبان وائل ، وادهى من قصير واشعر من جرير ، واعذب من ماء الفرات ، واطيب من العافية ، لبذلي ومروءتي ، واتلاف ذخيرتي ، فلمّا خفّ المتاع ، وانحطّ الشّراع ، وفرغ الجراب ، تبادر القوم الباب ، لما احسّوا بالقصّة ، وصارت في قلوبهم الغصة ، ودعوني بُرصة ، وانبعثوا للفرار ، كرَمية الشرار ، وأخذتهم الضجرة ، فانسلّوا قطرةً قطرة ، وتفرّقوا يَمنةً ويسرة

ثم يصف حاله وما وصل اليه من الفقر والمذلة وجفاء الاصحاب الكاذبين ويصل ذلك بقوله —

فلما رأيت الامر قد صعُب ، والزمان قد كَلِب ، التمست الدرهم فاذا هو مع النَّسرين ، وعند منقطع البحرين ، وابعد من الفرقدين ، فخرجتُ أسيحُ ، كأني المسيح ، فجلتُ خراسان ، الخراب منها والعمران ، الى كرمان وسجستان وجيلان الى طبرستان والى عُمان ، الى السند والهند والنُّوبة

---

(١) الخرثي الاثاث (٢) التناء الدهاقين او كبار المزارعين

والقبط واليمن والحجاز ومكة والطائف اجول البراري والقفار ، واصطلي بالنار ، وآوي مع الحمار

وهنا يصف ما جمعه من نوادر واختبارات وما عاناه من مشقة وتكدية حتى كسب ثروة طائلة وجمع كثيراً من الطرائف والتحف قال —

« فلما قدمت بغداد ووجد القوم خبري ، وما رزقته في سفري ، سرّوا بقدمي ، وصاروا باجمعهم اليّ يشكون ما عندهم من الوحشة لفقدي ، وما نالهم لبعدي ، وشكوا شدة الشوق ، ورزء التوق ، وجعل كل واحد منهم يعتذر مما فعل ويظهر الندم على ما صنع ، فاوهمتهم اني قد صفحت عنهم ولم اظهر لهم الموجدة عليهم بما تقدّم فطابت نفوسهم ، وسكنت جوارحهم وانصرفوا على ذلك . وعادوا اليّ في اليوم الثاني فجبستهم عندي ووجهت وكيلي الى السوق فلم يدع شيئاً تقدّمت اليه بشرائه الا أتى به »

ويصف بعد ذلك مقامهم عنده تلك الليلة وكيف سقاهم الخمر حتى سكروا قال —

« ووجهت الى بلال المزيّن فاحضرته وقدمت اليه طعاماً فاكل وسقيته من من الشراب القطربليّ فشرب حتى ثمل ، وجعلت في فيه دينارين احمرين وقلت : شأنك والقوم ، فحلق في ساعة واحدة خمس عشر لحية فصار القوم جرداً مرداً كأهل الجنة ، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوب فيها : من اضمر بصديقه الغدر وترك الوفاء كان هذا مكافأته والجزاء : وجعلتها في جيبه »

وكان قد استحضر حمالين فحملوهم الى منازلهم « فلما اصبحوا رأوا في نفوسهم هماً عظيماً ، لا يخرج منهم تاجر الى دكانه ، ولا كاتب الى ديوانه ولا يظهر لاخوانه

وشاع الخبر بمدينة السلام بفعلي معهم ولم يزل الامر يزداد حتى بلغ الوزير القاسم بن عبيد الله وذلك انه طلب كاتباً له فافتقده فقيل انه في منزله لا يقدر على الخروج . قال : ولمَ . قيل : من اجل ما صنع ابو العنبس لانه كان امتُحن بعشرتهم ومنادمتهم . فضحك

ثم قال : والله لقد اصاب وما اخطأ فيما فعل ، ذروه فانه من اعلم الناس بهم ، ثم وجه الي خلعة سنية وقاد فرساً بمركب ، وحمل اليّ خمسين الف درهم لاستحسانه فعلي »

الحريري

٤٤٦ هـ — ٥١٦

توطئة تاريخية

ولد ابو محمد القاسم بن علي الحريري في مَشان وهي بلدة صغيرة فوق البصرة . وسكن البصرة وفيها قضى حياته . وقد قرأ الادب على ابي القاسم القصباني البصري

ونقل ياقوت عن الخريدة ان الحريري كان « صاحب الخبر » بالبصرة في ديوان الخلافة ، وان هذا المنصب بقي في اولاده الى اواخر عهد المقتفي . ويفهم مما ذكره الطبري ان صاحب الخبر كان يعيّنه الخليفة لموافاته بالمعلومات اللازمة عن الجيش او سواه[1] . فهو اشبه برئيس قلم الاستخبارات في هذه الايام .

ويستدل مما ذكروه ان الحريري كان ذا يسار وفضل ولكنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة . ويحكي الانباري[2] « ان رجلاً قصده ليقرأ عليه، فاستدلّ على مسجده الذي يقرأ فيه فلما اراد الدخول رأى شخصاً دميم الخلق فاحتقره وقال لعله ليس هو هذا . فرجع ثم قال في نفسه لعلهُ يكون هذا ، ثم استبعد ان يكون هو ، والشيخ يلحظه . فلمّا تكرّر ذلك منه تفرّس الشيخ منه ذلك ، فلما كان في المرّة الاخيرة قال له ارحل فانا من تطلب ، اكبر من قرد محنّك »

---

(١) الطبري (الجملة الثالثة) ١٢٦٠ (٢) طبقات الادباء ٤٥٦

وكان، على ما يروونه، وعلى ما يظهر في مقاماته، غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة . وقد قُرن ذلك فيه بشيء من الظَّرف والدعابة قيل[1]:

« ويحكى انه كان مولعاً بالعبث بلحيته بحيث يتشوّه بذلك، فنهاه الامير وتوعَّده على ذلك . وكان كثير المجالسة له فبقي كالمقيَّد لا يتجاسر ان يعبث بها . فتكلم في بعض الايام عند الامير بكلام استحسنه منه فقال له الامير سلني ما شئت حتى اعطيك ، فقال له أَقطعني لحيتي ، فقال له قد فعلت »

. . . . .

وله من التصانيف « درّة الغوّاض في اوهام الخوّاص » وهو كتاب نقدي يبين فيه اغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الالفاظ . وقد طبع في ليبسك ومصر والاستانة — ومن مصنفاته ارجوزة في النحو سماها « ملحة الاعراب في النحو »

وله غير ذلك رسائل واشعار وكلها تدل على طول باعه في اللغة

اسلوبه الانشائي

وهو في ذلك لا يخرج عن منهاج العصر الذي نشأ فيه . ولعله كان من اكثر المنشئين ميلاً الى التصنع في رسائله واظهاراً لطول باعه وسعة معرفته

فمن رسائله رسالة كتبها على لسان بعض اصدقائه يعاتب صديقاً اخلّ به في دعوة ، وقد التزم في كل كلمة منها السين ومنها[2] —

« باسم القدوس أَستفتح ، وباسعاده أَستنجح . بحجية سيدنا سيف السلطان ، السيد النفيس سيد الرؤساء ، حرست نفسه ،

---

(١) طبقات الادباء ٤٥٦ (٢) راجعها في معجم الادباء ٦ — ١٧٥

واستنارت شمسه ، وبسق غرسه ، واتّسق أُنسه ، استمالة الجليس ، ومساهمة الانيس ، ومواساة السحيق النسيب ، ومساعدة الكسير والسليب »

والرسالة كلها على هذا النسق نثراً ونظماً

وله رسالة التزم فيها الشين قال منها[1] —

« بارشاد المنشئ أُنشئ — شغفي بالشيخ شمس الشعراء ، رِيشَ معاشُه ، وفشا رياشه ، واشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شغف المنتشي بالنشوة ، والمرتشي بالرشوة ، والشادن بشرخ الشباب ، والعطشان بشمّ الشراب ، وشكري لتجشمه ومشقته ، وشواهد شفقته يشابه شكر الناشد للمنشد ، والمسترشد للمرشد »

ويجري هذا المجرى الى آخر الرسالة ويتعسَّف في نثرها وشعرها ويتغارب ما شاء .

ويقابل ذلك في مقاماته المقامة الرّقطاء التي اورد فيها رسالة احد حروفها منقَّط والآخر غير منقوط كقوله —

« اخلاق سيدنا تحبّ ، وبعقوته يُلبّ[2] ، وقربه تُحَف ، ونأيه تلف ، وخلّته نسب ، وقطيعته نصب » وهي طويلة ومن شعره فيها —

مخلفٌ متلفٌ أَغرُّ فريدٌ نابهٌ فاضلٌ ذكيٌّ أَنوفُ
مُفلقٌ إِن أَبانَ طبٌّ اذا نا بَ هياجٌ وجلّ خطبٌ مخوفُ

ومثلها المقامة الشعرية وفيها يتلاعب بقصيدة له مطلعها

يا خاطب الدنيا الدنيَّة انها شرك الردى وقرارة الاكدار

---

(١) معجم الادباء ٦ — ١٧٦ (٢) اي وبفنائه يقام

فقد نظمها بحيث يمكن قراءتها مجزوءة على هذا المنوال

يا خاطب الدنيا الدنيـ ـة انها شرك الردى

والمقامة كلها من هذا الباب

ومنها المقامة النجرانية والحلبية وفي سائر المقامات كثير من هذا التلاعب الصناعي الذي عني به الحريري اشد العناء

مقاماته

وهي اهمّ ما صنفه . وقد حذا فيها كما مر معنا حذو البديع . بدأ بها سنة ٤٩٥ اي وهو في الحادية والثلاثين من عمره ولكنه لم يتمها (وهي خمسون مقامة) دفعة واحدة بل انشأها في آجال منقطعة خلال بضع سنوات.

وقد نالت هذه المقامات شهرة واسعة جداً حتى في ايام صاحبها فانه اجاز بيده ٧٠٠ نسخة منها واليك ما قال ياقوت في ذلك[1] —

« ولقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب . فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتّسعت له الالفاظ ، وانقادت اليه وفود البراعة حتى اخذ بازمتّها ، وملك ربقتها ، فاختار الفاظها واحسن نسقها ، حتى لو ادّعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، ولا يردّ قوله ، ولا يأتي بما يقاربها ، فضلاً عن ان يأتي بمثلها . ثمّ رزقت مع ذلك الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقّت واكثر .

ومن عجيب ما رأيته وشاهدته اني وردت آمد في سنة ٥٩٣ وانا في عنفوان الشباب وريعه ، فبلغني ان بها علي بن الحسين المعروف بالشميم الحلّي ، وكان من العلم بمكان مكين ، واعتلق من حباله بركن ركين : الا انه كان

---

(١) معجم الادباء ٦ — ١٧٠

لا يقيم لاحدٍ من اهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً ، ولا يعتقد لاحد فضيلة ، ولا يقرّ لاحد باحسان في شيءٍ من العلوم ولا حُسن . فحضرت عنده وسمعت من لفظه ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالمَعيب عليهم بالقول والفعل . فلما ابرمني واضجر ، وامتدّ في غيّه واصحر ، قلت له اما كان فيمن تقدّم على كثرتهم ، وشغف الناس بهم ، عندك قطّ مجيد ؟ فقال لا اعلم الاّ ان يكون ثلاثة رجال : المتنبي في مديحه خاصة ولو سلكت طريقه لما برز عليّ ، والثاني . ابن نباتة في خطبه ، وان كانت خطبي احسن منها . . . والثالث ابن الحريري في مقاماته . قلت فما منعك ان تسلك طريقته وتنشئ مقاماتٍ تُخمد بها جمرته وتملك بها دولته . فقال :

« يا بنيّ ! الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل . ولقد انشأتها ثلاث مرّات ، ثم اتأملها فاسترذلها فاعمد الى البركة فاغسلها . ثم قال : ما اظنُّ الله خلقني الاّ لاظهار فضل الحريري وشرح مقاماته بشرح قرئ عليه وأُخذ منه »

ويدلك على منزلة المقامات كثرة الشرّاح لها ، واهمهم الشريشي والمطرّزي والرازي والعكبري — على ان شهرتها لم تنحصر في العالم العربي بل تعدّته الى امم اخرى فترجمت قديماً الى السريانية والعبرانية . وفي القرن الثامن عشر للميلاد نقلت الى اللاتينية . ثم اصدر دي ساسي سنة ١٨٢٢ منها نسخة ضافية وافية وتلاه كثيرون في الشرق والغرب . وقد ترجمت الى بضع لغات اوربية وغير اوربية

اما بطل هذه المقامات فرجل اسمه ابو زيد السروجي . ويروون عن لسان الحريري ان ابا زيد هذا كان شيخاً شحّاذاً بليغاً ومكدياً فصيحاً ، وانه رآه في مسجد بالبصرة ، وكان بعض الولاة حاضراً والمسجد غاصٌّ بالفضلاء

فاعجبتهم فصاحته . قال الحريري[١] « واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل . فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد منه في مسجده مثل ما شاهدت ، وانه سمع منه في معنى آخر فصلاً احسن مما سمعت . وكان يغيّر في كل مسجد زيه وشكله ، ويظهر في فنون الحيلة فضله . فتعجبوا من جريانه في ميدانه وتصرّفه في تلوّنه واحسانه . فانشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات » .

امّا ان يكون بطل المقامات رجلاً حقيقياً فذلك مما يرتاب به ويقول مرغوليوث انها خرافة[٢] . اما بروكلمان فيقف موقف المرتاب فقط[٣] ويقول برستون « انه نموذج ادبي يمثل ذوق الوسط الادبي في ذلك العصر . فالمقامة معرض فني لاعلى انواع الادب عندهم وصورة دقيقة تعكس لنا شخصيات كبار الادباء[٤] »

ويعزو الحريري رواية المقامات الى الحارث بن همّام . قال ابن خلكان[٥] : « وانما عنى نفسه هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات وهو مأخوذ من قوله (ص) كلكم حارث وكلكم همام . فالحارث الكاسب والهمّام كثير الاهتمام »

. . . . .

واذا قابلنا مقامات البديع بمقامات الحريري وجدنا ان الاولى اسهل مأخذاً واقل تكلّفاً وا كثر ابتكاراً للوقائع والحوادث . اما الثانية فأدقّ صنعةً

---

(١) معجم الادباء ١٦٨ (٢) دائرة المعارف الاسلامية Hariri

(٣) دائرة المعارف الاسلامية Makamat (٤) Préston, Makamat

(٥) وفيات الاعيان ١ — ٥٩٨ al Hariri XII, London 1850

وافضل شعراً واكثر تعمقاً في اللغة واوضاعها وامثالها وحوادث رجالها ولايضاح اسلوبها نقتطف منها ما يلي —

المقامة الاسكندرية

قال الحارث بن همام طحابي مرح الشباب ، وهوى الاكتساب ، الى ان جبت ما بين فرغانة ، وعانة ، اخوض الغمار لاجني الثمار ، واقتحم الاخطار لكي أدرك الاوطار ، وكنت لقيت من افواه العلماء ، وثقفت من وصايا الحكماء ، انه يلزم الاديب الاريب ، اذا دخل البلد الغريب ، ان يستميل قاضيه ، ويستخلص مراضيه ، ليشتد ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جور الحكّام ، فاتخذت هذا الادب اماما ، وجعلته لمصالحي زماما

فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، في عشية عريّة ، وقد احضر مال الصدقات ، ليفضّه على ذوي الفاقات ، اذ دخل شيخٌ عِفرية[٢] ، تعتله امرأة مُصبية[٣] ، فقالت ايّد الله القاضي ، وادام به التراضي ، اني امرأة من اكرم جرثومة ، واطهر ارومة .

وكان ابي اذا خطبني بُناةُ المجد ، وارباب الجدّ ، سكّتهم وبكّتهم ، وعاف وُصلتهم وصِلتهم ، واحتجّ بانه عاهد الله تعالى بحِلفة ، ان لايصاهر غير ذي حِرفة ، فقيّض القدَر لنصبي ، ووصبي ، ان حضر هذا الخُدَعة نادي ابي ، فاقسم بين رهطه ، انه وفق شرطه ، وادّعى انه طالما نظم درّة الى درة فباعهما ببدرة ، فاغترّ ابي بزخرفة محاله ، وزوّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجني من كناسي ، ورحّلني عن اناسي ، ونقلني الى كِسره ، وحصّلني

---

(١) اي خبيث ماكر (٣) ذات صبيان

تحت أَسره ، وجدته قُعَدَةً جُشَمة ، وأَلفيته ضُجُعةً نُومة ، وكنت صحبته برياش وزيّ ، واثاث وريّ ، فما برح ببيعه في سوق الهضم ، ويتلف ثمنه في الخضم والقضم[1] ، الى ان مزّق مالي بأَسره ، وانفق مالي في عسره ، فلما انساني طعم الراحة ، وغادر بيتي انقى من الراحة .. قلت له الخ »

وتتابع المرأة حديثها فتقول :

«وقد قدته اليك ، واحضرته لديك ، لتعجم عود دعواه ، وتحكم بيننا بما اراك الله . فاقبل القاضي عليه وقال له قد وعيت قصص عرسك ، فبرهن الآن عن نفسك ، والا كشفت عن لبسك ، وأَمرت بحبسك ، فاطرق اطراق الافعوان ، ثم شمّر للحرب العوان ، وقال :

إسمع حديثي فانه عجبُ ... يُضحَك من شرحه وينتحبُ
انا امرؤٌ ليس في خصائصه ... عيب ولا في نخاره رَيبُ
ورأس مالي سحر الكلام الذي ... منه يصاغ القريض والخطب
أَغوص في لجة البيان فاخ ... تار اللآلي منها وانتخبُ
فاليوم من يعلق الرجاء به ... أَكسد شيءٍ في سوقه الادبُ
فهذه الحرفة المشار الى ... ما كنت احوي بها واجتلبُ
فأْذن لشرحي كما أَذنت لها ... ولا تراقب واحكم بما يجبُ

ويسمع القاضي الابيات فيرقّ له ويفضّ المشكلة بقبضة من الدراهم يناولها اياها ثم يوصيهما بالصبر عسى الله ان يأْمر بالفتح من عنده

ويتلو ذلك محاولة الحارث بن همام ان يتقصّى خبرهما وما كان من ندمه وخيبة آماله

---

(١) اي في انواع الاكل واللذّات

المقامة الواسطية

«حكى الحارث بن همام قال ألجأني حكم دهرٍ قاسط ، الى ان انتجع ارض واسط ، فقصدتها وانا لا اعرف بها سكناً ، ولا املك فيها مسكناً ، ولما حللتها حلول الحوت بالبيداء ، والشعرة البيضاء في اللمة السوداء ، قادني الحظ الناقص ، والجدّ الناكص ، الى خان ينزله شذّاذ الآفاق ، واخلاط الرّفاق ، وهو لنظافة مكانه ، وظرافة سكانه ، يرغب الغريب في إبطانه ، وينسيه هوى اوطانه . فاستفردت منه بحجرة ، ولم انافس في اجرة ، فما كان الا كلمح طرف ، او خط حرف ، حتى سمعت جاري بيتَ بيت ، يقول لنزيله في البيت ، قم يا بنيّ لا قَعدَ جدُّك ، ولا قام ضدُّك ، واستصحب ذا الوجه البدريّ واللون الدرّي[1] » . ويجري هنا في اوصاف كثيرة يعلم منها الحارث انه ابو زيد فيقبل عليه . وبعد حديث طويل بينهما يقول له ابو زيد —

« قد عاق بقلبي ان تصاهر من يأسو جراحك ، ويريش جناحك فقلت وكيف اجمع بين غلّ وقلّ ، ومن الذي يرغب في ضلّ بن ضلّ ، فقال انا المشير بك واليك ، والوكيل لك وعليك

على انك لن تطالب بصداق ، ولا تلجأ الى طلاق ، ثم اني سأخطب في موقف عقدك ، ومجمع حشدك ، خطبة لم تفتق رتق سمع ، ولا خطب بمثلها في جمع ، قال الحارث بن همام فازدهاني بوصف الخطبة المتلوّة ، دون الخطبة المجلوّة ، حتى قلت له قد وكلت اليك هذا الخطب ، فدبره تدبير من طبّ لمن حبّ

---

(١) يريد به الرغيف

ثم اخذ في مواعدة اهل الخان ، وإعداد حلواء الخوان ، فلما مدّ الليل اطنابه ، واغلق كل ذي باب بابه ، اذّن في الجماعة ، ألا احضروا في هذه الساعة . فلم يبق فيهم الا من لبّى صوته ، وحضر بيته ، فلما اصطفّوا لديه ، واجتمع الشاهد والمشهود عليه ، جعل يرفع الاصطرلاب ويضعه ، ويلحظ التقويم[1] ويدعه ، الى ان نعس القوم ، وغشي النوم ، فقلت يا هذا ضع الفاس في الراس ، وخلص الناس من النعاس ، فنظر نظرة في النجوم ، ثم انتشط من عقلة الوجوم ، وأقسم بالطور والكتاب المسطور ، لينكشفنّ سرّ هذا الامر المستور » .. فيلقي عليهم خطبة طويلة عريّة من الاعجام (النقط) قال الحارث :

« ثم احضر الحلواء التي كان اعدّها ، وابدى الآبدة[2] عندها ، فاقبلت اقبال الجماعة عليها ، وكدت اهوي بيدي اليها ، فزجرني عن المؤاكلة ، وأنهضني للمناولة ، فوالله ما كان باسرع من تصافح الاجفان ، حتى خرّ القوم للاذقان » . ويتبع ذلك حديث وعتاب ولكن ابا زيد لا يهتم بقول الحارث

« ثم عمد لاستخراج ما في البيوت ، من الاكياس والتخوت ، وجعل يستخلص خالصة كل مخزون ، ونخبة كل مذروع وموزون ، حتى غادر ما الغاه فخّه كعظم استخرج مخّه ، فلما همّ[3] ما اصطفاه ورزّم ، وشمّر عن ذراعيه وتحزّم ، أقبل عليّ إقبال من لبس الصفاقة ، وخلع الصداقة ، وقال هل لك في المصاحبة الى البطيحة ، لازوّجك باخرى مليحة .

---

(١) الاصطرلاب من آلات الفلك ، والتقويم كتاب في حساب الفلك

(٢) الفعلة التي يبقى ذكرها ابداً لغرابتها (٣) جعله في الكيس

فلويت عنه عذاري ، وأبديت له ازوراري ، فلما بصر بانقباضي ، وانجلى له إعراضي ، قال

يا صارفاً عني المودَّ ة والزمان له صروف
لا تلحني فيما اتيت فانني بهمُ عروف
ولقد نزلت بهم فلم ارهم يراعون الضيوف
ما فيهمُ الا مخيف ان تمكَّن او مخوف
ولكم بلغت بحيلتي ما ليس يبلغ بالسيوف
ووقفت في هولٍ ترا عُ الاسدُ فيه من الوقوف
ولكم سفكت ولم فتكت ولم هتكت حمى أنوف
لكنني أعددتُ حسنَ الظنّ بالمولى الرؤوف

قال فلما انتهى الى هذا البيت لجَّ في الاستعبار ، والظَّ بالاستغفار ، حتى استمال هوى قلبيَ المنحرف ، ورجوت له ما يرجى للمقترف المعترف ، ثم انه غيَّض دمعه المنهلّ ، وتأبَّط جرابه وانسلّ ، وقال لابنه احتمل الباقي والله الواقي . قال المخبر بهذه الحكاية فلما رأيت انسياب الحية والحُيَّة ، وانتهاء الداء الى الكيَّة ، علمت ان تريُّثي بالخان ، مجلبة للهوان ، فضممت رحلي ، وجمعت للرحلة ذيلي ، وبتُّ ليلتي اسري الى الطيب ، واحتسب الله على الخطيب »

ولو استعرضنا مقاماته واحدة واحدة لما وجدنا فيها ما في مقامات البديع من طرائف القصص ، وان هي الا مجموعة لغوية بلغ فيها اقصى ما يبلغه علماء الادب واللغة في كل زمان ، وقد ظلَّت زمناً طويلاً انموذج الانشاء عند المتأدبين ثم سقطت من مكانها بسقوط دولة السجع وشيوع النثر المطلق في جميع الدوائر الادبية الحديثة

وقد كان القصد ان نختم كلامنا على المقامات بعرض مقامات اليازجي وشرح اسلوبها فان هؤلاء الثلاثة : بديع الزمان ، والحريري ، واليازجي هم أهم من جرى في هذا المضمار فى كل تاريخ الادب . وتمتاز مقامات اليازجي السثون بحسن النظم وكثرة الفنون . وهي كمقامات الحريري مجموعة لغوية تضم اوضاع اللغة وامثالها وشواردها ضمًّا تقترن به المعرفة الواسعة بسلامة الطبع . وفي ذلك يقول واضعها [1] —

« وقد تحرَّيت ان اجمع فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد ، والغرائب والشوارد ، والامثال والحكم ، والقصص التي يجري بها القلم ، وتسعى لها القدم ، — الى غير ذلك من نوادر التركيب ، ومحاسن الاساليب والاسماء التي لا يعثر عليها الاّ بعد جهد التنقير والتنقيب »

ولا شك ان المقامات اليازجية تحفة فنيّة . ولو اتسع لنا المقام لحللناها تحليلاً وافيًا على انها لا تختلف في اسلوبها العام عن مقامات الحريري ، فحسبنا الآن احالة القارئ اليها وهي سهلة المنال وقد صدق فيها من قال :—

حواها مجمع البحرين لمَّا جرت من جانب البحر الكبير

فهرست المراجع القديمة

حسب ترتيبها التاريخي

القرآن

عبدالله بن المقفّع — الدرّة اليتيمة نشر المكتبة المحمودية مصر (لاتاريخ)

المفضل الضبّي — امثال الضبي مطبعة الجوائب ١٣٠٠

مالك بن انس — الموطّأ مطبعة باب اللوق مصر ١٢٨٠

ابن سعد — كتاب الطبقات ليدن ١٩١٧

الجاحظ — البيان والتبيين المطبعة العلمية ١٣١١

〃 — البيان والتبيين (س) نشر السندوبي مصر ١٣٥١

〃 — رسائله نشر مطبعة التقدم مصر ١٣٢٤

〃 — المحاسن والاضداد مصر ١٣٣١

البخاري — صحيح البخاري بولاق ١٢٩٦

مسلم — صحيح مسلم دار الطباعة الاسثانة ١٣٣٤

البلاذري — فتوح البلدان ليدن ١٨٦٦

المبرّد — الكامل مصر ١٣٢٨

الطبري — تاريخ الرسل والملوك ليدن ١٨٧٩ — ١٩٠١

ابن عبد ربه — العقد الفريد بولاق ١٢٩٣

ابو بكر الصولي — ادب الكتاب المطبعة السلفية مصر ١٣٤١

المسعودي	التنبيه والاشراف ليدن ١٧٩٤
〃	مروج الذهب باريس ١٨٦١ — ١٨٧٦
الاصبهاني	كتاب الاغاني بولاق ١٢٨٥ . ودار الكتب المصرية ١٩٢٧ — ١٩٢٩
القالي	الامالي بولاق ١٣٢٤
الاصطخري	مسالك الممالك ليدن ١٩٢٧
الامدي	الموازنة مطبعة الجوائب ١٢٨٧
ابن النديم	الفهرست ليبزك ١٨٧١
بديع الزمان الهمذاني	رسائله المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠
〃	مقاماته 〃 〃 〃 ١٨٨٩
العسكري	كتاب الصناعتين مطبعة محمود بك الاستانة ١٣١٩
الباقلاني	اعجاز القرآن مصر ١٣١٥
قابوس بن وشمكير	كمال البلاغة المطبعة السلفية مصر ١٣٤١
الثعالبي	خمس رسائل مطبعة الجوائب ١٣٠١
〃	يتيمة الدهر المطبعة الحنفية دمشق ١٣٠٣
ابو حيان التوحيدي	المقابسات المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٩
المعرّي	رسائله اكسفورد ١٨٩٨
الحصري	زهر الآداب المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥
الحريري	مقاماته المطبعة الادبية بيروت ١٨٨٦
الميداني	مجمع الامثال وبهامشه جمهرة الامثال المطبعة الخيرية ١٣١٠
الجواليقي	المعرّب ليبزك ١٨٦٧
ابن عساكر	التاريخ الكبير مطبعة روضة الشام ١٣٢٩

ياقوت	معجم الادباء تحقيق مرغوليوث مطبعة هندية (الطبعة الثانية)
ابن شيت القرشي	معالم الكتابة بيروت ١٩١٣
ضياء الدين بن الاثير	المثل السائر بولاق ١٢٨٢
״ ״ ״	الوشي المرقوم مطبعة ثمرات الفنون ١٢٩٨
القفطي	تاريخ الحكماء ليبزك ١٩٠٣
ابن ابي الحديد	شرح نهج البلاغة دار الكتب الكبرى مصر ١٣٢٩
علي ابن ابي عمران	عنوان المرقصات والمطربات مصر ١٢٨٦
ابن خلكان	وفيات الاعيان دار الطباعة المصرية مصر ١٢٧٥
ابن الطقطقى	كتاب الفخري المطبعة الرحمانية مصر ١٣٤٠
شهاب الدين الحلبي	حسن التوسل في صناعة الترسل مطبعة هندية مصر ١٣١٥
النويري	نهاية الارب دار الكتب المصرية ١٩٢٤
الذهبي	تذكرة الحفاظ مطبعة المعارف النظامية حيدر اباد
الصفدي (صلاح الدين)	الغيث المنسجم في شرح لامية العجم مصر ١٣٠٥
ابن الخطيب	الاحاطة في اخبار غرناطة (١ و٢) مصر ١٣١٩
بدر الدين الحلبي	نسيم الصبا المطبعة الوطنية الاسكندرية ١٢٨٩
ابن خلدون	المقدمة . المطبعة الادبية بيروت ١٩٠٠
القلقشندي	صبح الاعشى المطبعة الاميرية مصر ١٩١٣—١٩١٨
السيوطي	الاتقان في علوم القرآن مطبعة عبد الرازق مصر ١٣٠٦
״	المزهر مصر ١٢٨٢
ابن الديبع الشيباني	تيسير الوصول الى جامع الاصول مصر ١٣٣٠

المقّري نفح الطيب المطبعة الازهرية مصر ١٣٠٢ هـ
الامير حيدر لبنان في عهد الامراء الشهابيين المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣

المراجع الحديثة

دي ساسي كتاب الانس المفيد باريس ١٢١٤ هـ
برستون Preston, Makamat al Hariri London 1850
زيدان تاريخ آداب اللغة مصر ١٩١١ — ١٩١٤
طاهر الجزائري اشهر الامثال المطبعة السلفية مصر ١٩١٩
حسن العطار انشاء العطار مطبعة الجوائب ١٢٩٩
حمزة فتح الله الاصل والبيان مطبعة مصر الحرّة (لا تاريخ)
مخايل عبد السيد سلوان الشجي الجوائب ١٢٨٩
حبيب الله الجكني زاد المسلم دار احياء الكتب المصرية (لا تاريخ)
الخازن محررات سياسية مطبعة الصبر جونيه ١٩١٠
هرشفلد Herschfeld, New Researches into the Composition and Exegesis of the Qur'an 1902
غيوم Guillaume, the Traditons of Islam Oxford 1924
ادي شير الالفاظ الفارسية المعرّبة المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨
العنيسي اصول الالفاظ السامية رومية ١٩٠٨

رشيد رضا مجلة المنار الاسلامي

نكلسون Nicholson, Literary Hist. of the Arabs 1930

دائرة المعارف البريطانية الطبعة الاخيرة

دائرة المعارف الاسلامية

خليل مردم ابن العميد دمشق ١٣٥٠

اسد رستم الاصول العربية المطبعة الاميركانية ١٩٣٠ — ١٩٣٣

زكي مبارك النثر الفني في القرن الرابع مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤

فهرس محتويات الكتاب

١ **نظرة في السجع القديم**

٨ قدمية النثر المطلق

١٠—١٦ ادوار الرسائل النبوية

٢١ صحة الرسائل

٢٤ لغتها واسلوبها

٢٧ **الاسلوب القرآني**

٣٠ لغته

٣٣ غريبه

٣٥ اسلوبه

٤١ ظواهر بلاغته

الاحتباك

٤٣ حسن الايقاع

٤٤ روعة الانتقال

٤٦ جمال التمثيل

٤٨ رأي نولدكه في اسلوبه

٥٠ **الحديث النبوي**

٥١ وضع الاحاديث

٥٣ نقد الحديث

٥٧ تطبيق احكام النقد عموماً

٦٠ تطبيقها على الصحيحين

٦٩ احاديث يجوز قبولها

٧٣ اسلوب الحديث

٧٤ **الامثال القديمة ولغتها**

٨٢ نخبة من الامثال

٨٧ **الانشاء في عصر الفتوح**

٨٨ الجزالة

٨٩ عدم التصنع

٩٠ الايجاز

٩٩ ما يتحفظ منه في نصوص هذا العصر

١٠٠ كتاب معاوية الى يزيد

١٠٣ رسالة ابي بكر الى علي

١٠٦ كتاب عبد الملك الى الحجاج

امثلة من الخطب السياسية

١٠٩—١١١ خطب الامام علي

١١٢—١١٤ خطب الحجاج

١١٤ كلام الاحنف

١١٥ خطبة زياد

١١٧ خطبة سعيد بن العاص

١١٧ خطبة عمرو بن سعيد

١١٨ خطبة يزيد بن الوليد

١٢٠ الرسائل والوصايا

١٢٠ كتاب عمر الى عمرو بن العاص

١٢٠ « محمد بن ابي بكر الى علي

١٢١ وصية معاوية ليزيد

١٢٢ زياد والحكم بن عمرو
١٢٢—١٢٣ كتاب الحجاج الى قطري
١٢٣ كتاب المهلب الى الحارث
١٢٤ كتاب سليمان الى الوليد
١٢٤ عهد معاوية وعمرو
١٢٥ رسالة هشام

١٢٨ **العظات الاخلاقية**
١٢٩ خطبة قطري
١٢٩ حكم الاحنف
١٢٩ خطبة ابن حمزة
١٣٠ « ابن القرية
١٣٠ « ابي الدرداء
١٣١ صفة الامام العادل

١٣٣ **الاسلوب المتوازن**
١٢٥ النثر في اواخر العصر الاموي
١٣٨ التوازن
١٤٠ نماذج من الاسلوب المتوازن
١٤٢ كتاب سهل
١٤٣ اسلوب الحسن
١٤٤ « احمد بن اسماعيل
١٤٥ كتاب المعتصم
١٤٧ رسائل ابن المعتز
١٥٠ الرسالة العذراء

١٥٣ **عبد الحميد الكاتب**
١٥٩—١٧٢ رسائله واسلوبه
١٧٣ مزاياه الانشائية

١٧٦ **ترسل الجاحظ**
١٧٩—١٨٢ مذهبه في البلاغة
١٨٢—١٨٦ انشاؤه
١٨٧—١٩٦ رسائله
١٩٧—٢٠١ غرر اقواله

٢٠٢ **نماذج من التوازن بعده**
٢٠٣—٢٠٦ الصولي
٢٠٧—٢٠٩ الجرجاني
٢٠٩—٢١٢ العسكري
٢١٢—٢١٦ التوحيدي
الثعالبي

١١٧ **الاسلوب المسجع**
٢١٩ السجع ومنزلته عند القدماء
٢٢١—٢٢٩ السجع والبديع
٢٢٩ مواطنه

٢٣٠—٢٣٣ **الرسائل الديوانية**
٢٣٤—٢٣٦ الرسائل الديوانية بعد العصر العباسي
٢٣٧—٢٥١ امثلة منها في العهد العثماني المتأخر
٢٥٢ نخبة من امراء الانشاء الديواني

٢٥٣ **ابن العميد**
٢٥٦ سعة معارفه
٢٥٩ منزلته الادبيه والاجتماعية
٢٦١ فنه الانشائي
٢٩٦—٢٧٣ رسائله

٢٧٤ **الصابي — نشأته**
٢٧٩ نكبته
٢٨١ اخلاقه
٢٨٥—٢٩٣ اسلوبه
٢٩٣—٢٩٨ نخب من رسائله
٢٩٩ **القاضي الفاضل : نشأته**
٣٠٣—٣٠٩ اسلوبه
٣٠٩—٣١٢ نخب من رسائله
٣١٣ **ابن الخطيب : توطئة تاريخية**
٣١٨ نشأته الادبية
٣١٩—٣٢٦ اسلوبه
٣٢٧—٣٣٤ المختار من رسائله

الرسائل الادبية

٣٣٥ نظرة عامة
٣٣٥ الرسالة الاغريضية
٣٣٧ رسالة ابن زيدون
٣٤٠ رسالة النمس
٣٤٣ رسالة الشكر
٣٤٨ مفاخرة بين السيف والقلم
٣٥١ في صيد الملك الناصر
٣٥٣ وصف قصيدة
٣٥٥ نظرة في هذه الرسائل
٣٥٩ الترسل الادبي في العصر العثماني
٣٥٩—٣٦٦ امثلة منه حتى القرن التاسع عشر
٣٦٦—٣٧٤ امثلة من القرن التاسع عشر
٣٧٥—٣٧٨ **المقامات واصل وضعها**
٣٧٨—٣٨١ الاحاديث الدريدية
٣٨١—٣٨٣ منشئو المقامات
٣٨٤ **بديع الزمان**
٣٩٠ احواله الشخصية
٣٩٣—٤٠٢ مقاماته ومزاياها
... **الحريري**
٤٠٣ توطئة تاريخية
٤٠٤ اسلوبه
٤٠٦—٤١٣ مقاماته ... مزاياها
٤١٤ ذكر مقامات اليازجي

فهرس الاعلام

حرف الالف

آدم ١٨٦٦٦٦٦٤

آسيا ٢٣٥

آش ٣١٤

آل راهبون ١٨٥

آل عمران (سورة) ٣٤ ، ٣٩

آمد ٤٠٦

ابراهيم ٦٦٦٣٩٦١٥

ابراهيم الاحدب ٣٨٢

ابراهيم باشا ٢٤٩

ابراهيم بن سيار ١٩٥

ابراهيم بن عباس ١٧٦٦١٤٤

ابرهيم بيك ٢٤٣

ابراهيم الحوراني ٣٦٨

ابن ابي حديد ١٠٤٦١٠٠

ابن ابي سرح ٣٢٥

ابن ابي الخصال ٣٤٦

ابن ابي يزيد ٣٢٦

ابن الاثير ١٣٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦

ابن الاحمر ٣٢٠

ابن اسحق (سيرته) ١٥

ابن الاشتركوني ٣٨٢

ابن اياس ٢٣٥

ابن بسام ٣٣٦

ابن بلكا ٢٦٩

ابن التمار ٥٨

ابن الجوزي ٣٣ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣٨٣

ابن الجياب ٣١٤ ، ٣١٨

ابن حارثة (اوس) ٨٥

ابن حبيب ٣٥٦

ابن حجاج ٣٥٣

ابن حجة الحموي ٢٣٥

ابن حديد ٣٠٠

ابن حسان ١١٠ ، ١٢٧

ابن حمزة ١٣٠ ، ٢٥٧

ابن الخطيب (لسان الدين) ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥

ابن خلدون ٢٨ ، ٥١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨

ابن خلكان ٥١ ، ٥٥ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٨٤ ، ٤٠٨

ابن دريد ٣٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٣

ابن راهويه ٥٢

ابن الزبير ٨٨ ، ٨٩

ابن زمرك ٣١٧
ابن زيدون ٣٤٠
ابن الساعاتي ٣٠٠
ابن سعد ١١، ١٤، ٢٢، ٢٧، ٦١، ٩٦
ابن سعيد ٢٧١
ابن سلام ٣٣
ابن شداد (اوس) ٩١
ابن شُهيد ٣٣٥
ابن بشر ٣٤٥
ابن الطقطقى ٢٣٤، ٣٧٧
ابن عباس ٣٣، ٥٣، ٦٥، ٧٣
ابن عبد ربه ١٥٤، ١٥٥، ٢٣٣
ابن عبدوس ٣٤٠
ابن عربشاه ٧٩، ٢٣٥
ابن عساكر ٧، ٥٨، ٥٩
ابن عمر ٥٨، ٦٠، ٦٢
ابن العميد ١٤٠، ١٧٧، ٢١٠، ٢١١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٠١، ٣٠٢
ابن فارس ٣٣، ٢١٥، ٣٧٦، ٣٨٤
ابن فهد ٢٣٤
ابن قتيبة ٤٠، ٥٠، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨
ابن القرية ١٣٠
ابن القطان (يحيى) ٥٢
ابن الكلبي ٣٧٩
ابن كمال باشا ٣٧٢
ابن كيسان (صالح) ٦٢
ابن لسان الدين ٣١٨
ابن ماجه ٦١
ابن الماحوز ١٢٣
ابن مالك (انس) ١٠٦، ١٠٧
ابن مامة (كعب) ٧٨، ٧٩
ابن المدبر ١٣٧، ١٥٠، ١٧٦
ابن مرزوق ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨
ابن المعتز ١٤٧
ابن معصوم ٣٣٦
ابن المقفع ٩٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٨٥، ٣٥٥
ابن ميكال ٣٩١
ابن نباتة ٢٥٢، ٣٤٢، ٣٥٠، ٤٠٧
ابن النديم ٢٧، ٩٨، ٩٩، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩
ابن نصر المصري ٣٨٢
ابن هند ٨٩
ابو اسحق ٢٧٧
ابو بكر ٢٧، ٢٨، ٦١، ٩٧، ١٠٣، ١٠٤، ٢١٢
ابو بكر بن شيرين ٣١٨
ابو تغلب ٢٨٣
ابو تمام (حبيب بن اوس) ٣٤٥، ٣٥٥، ٣٥٦
ابو حامد ١٠٣
ابو الحجاج ٣١٤
ابو الحسن ٢٧٤

ابو الحسن البصري ٢١٣
ابو الحسن العامري ٢٥٨
ابو الحسن علي بن القاسم ٢٥٨
ابو الحكيم الرندي ٣١٨
ابو حنيفة ١٧٧٫٥١
بو حيان ٣٠
ابوخلف ١٧٨
ابو داود ٥٦١
ابو الدرداء ١٣١
ابو ذؤيب ٨٠
ابو الزناد ٦١
ابو زيد ٣٩٦٫٣٩٥٫٣٩٤
ابو زيد الانصاري ١٧٦
ابو زيد السروجي ٤٠٧٫٤١١٫٤١٢
ابو سالم ٣١٤
ابو سفيان ٩٣٫٨٠
ابو العباس احمد بن الحسين ٢٧٧
ابو العباس (السلطان) ٣١٧
ابو عبد الله ٣٢٧٫٣١٢
ابو عبد الله الحسين ٢٥٣
ابو عبيد ٣٩٦٫٣٩٤
ابو عبيدة ٦٩٩٫٨٠٫٧٩٦٫٦٩٦٫٣٣٫٦٣٠
١٧٦٫١٠٣٧٫١٠٥
ابو العلاء السروري ٢٦٦
ابو العلاء المعري ٣٣٧٫٣٣٥
ابو عمر الزاهد ٣٠
ابو عمر (بن العلاء) ٩٩
ابو عمر (بن عمار) ٩٩
ابو غنان (السلطان) ٣٢٨
ابو العنبس ٤٠٢٫٤٠٠
ابو عيسى (ابن الرشيد) ١٣٦
ابو الغنائم ٢٧٦
ابوالفتح الاسكندري ٣٩٦٫٣٩٤٫٣٩٣
٣٩٩
ابو فراس ٢١٣
ابو الفرج (الاصبهاني) ١٧٦
ابو الفضل الميكالي ٢٦١
ابو القاسم الاصبهاني ٣٨٩٫٢٥٨٫٢١٣
ابو القاسم الحسين بن علي المغربي ٣٣٧
ابو القاسم القصباني ٤٠٣
ابو حمد جعفر بن شعيب ٢٧٧
ابو منصور سعيد بن احمد ٢٨١
ابونابارته ٢٤٣
ابو نصر سهل بن المرزبان ٣٨٥٫٢٨١
ابو نواس ٤٠٠
ابو الهذيل ١٧٧
ابو هريرة ٦٥٦٫٢٧٫٥٩٫٥٤٫٥٢
ابي بن كعب ٢٧٫١٥
الاتراك ٢٨٧
الاتقان (كتاب) ٦٣٣٫٦٣٠٫٦٢٩٫٢٧
٤٦٦٣٦٫٣٥٫٣٤
الاتليدي ٣٣٦
الاحاطة(كتاب)٣٢٥٫٣١٨٫٣١٧٫٣١٤
احد (جبل) ٢٥٫٢٤
الاحزاب (يوم) ٧١
الاحصّ (مكان) ٧٩

احكام الرأي (كتاب) ٤٣
احمد (مسند) ٦٠٦٥٩
احمد البربير ٣٨٢
احمد بن الحسين ٢١٤
احمد خان ٢٣٩
احمد رافع ٣٧٠
الاحمدية ٢٤٣
الاحنف ١٩٢٦١٣٥٦١٢٩٦١١٥٦١١٤
اخبار الحكماء (كتاب) ٢٨١٦٢٧٥
اخبار مكة (كتاب) ١٠
الاخفش ١٧٦
ادب الجاحظ (كتاب) ١٧٨
ادب الكاتب ٥٠٦٤٠
ادب الكتاب ١٣٧٦١٣٦٩٨٦٤٠٦٢٧
٢٠٢٦١٤٠٦
اذربيجان ٢٥٥
ارسطاطالس ٢٦٨٦٢٥٨٦١٩٥
الارشاد (كتاب) ٣٠
الارقم ١٦
ازدشنوءة ٣٢٦٣١
ازدشير ٣٤١
الازهرية ٢٤٣
الاستانة ٤٠٤٦١٥٥
اسحق ١٥ ١٣٧٦١٤٠٦١٤١٦١٤٥٦
اسد ١٢٧
اسد بن عبد العزى ١٢
اسد رستم ٢٤٩٦٢٣٦
اسرائيل (بنو) ٤٥٦٤٠
اسف (ثغر) ٢٤٥
الاسكندر ٣٤١٦٢٥٩
اسكندرية ٤٠٩٦٣٠٠٦١٢٠٦٢١
اسلام ٦٧٣٦٧٠٦٦٩٦٥٦٦٥٣٦٥٢٦٦
٩٨٦٩٧٦٩٥٦٩٢٦٩٠٦٨٨٦٨٧٦٧٤
١٣٥٦١٢٥٦١٢٠٦١١٥٦١٠٨٦١٠٥
٦٢١٩ ٦٢٢٨ ٦٢٥٨ ٦٢٨١ ٦٢٨٣
٦٣٠٧ ٦٣٠٨ ٦٣٢٦ ٦٣٣١ ٦٣٣٣
٣٦١ ٦٣٤٨
اسماعيل باشا ٢٤٩
الاسماعيلية ٣٨٤٦٢١٥
الاشرف (الملك) ٢٢٦
الاشعري (ابو موسى) ١١٥٦١١٤
اشهر الامثال (كتاب) ٧٨٦٧٦
اصبهان ٢٥٥٦٢٥٤
الاصطخري ١٥٣
الاصل والبيان (كتاب) ٣٤
الاصمعي ١٧٦٦١٠٠٦٨٢٦٧٩٦٧٨
١٩٢
الاصول التاريخية (كتاب) ٢٣٦
اعجاز القرآن ١٨٤٦٣٦
أعراب ٣٨٦٦١٨٣٦٩٩٦٩٢
الاعشى ٣٥٥
اعلام الناس (كتاب) ٣٣٦
الاغريضية (رسالة) ٣٣٧
الاغلب ٣٢٥
افريقية ٣١٩
الافشين ١٤٧٦١٤٥

الافغان ٣٨٩
افلاطون ٢٦٨٦١٩٥
الاقصى (مسجد) ٣٢٢
اكثم صيفي ٨٤
الاكراد ٢٨٣
اكيدر ١٩
الالفي ٢٤٣
الامالي (كتاب) ٦٦١١٧٦٩٠٦٥٦٤٦٢،
٦١٤٥٦١٤٣٦١٣٥٦١٢٤٦٣٥٦١٢٩،
٣٨٠٦٣٧٩
امرؤ القيس ٣٥٥٦٧٥
ام مروان ٨٩
الامير حيدر (تاريخ) ٦٢٣٨٦٢٣٦،
٣٦٥٦٢٤٢٦٢٤٠٦٢٣٩
الامين ١٣٦
امية (امويون٦الدولة٦العصر٦بنو) ٦٤٦٣،
٩٨٦٩٥٦٨٨٦٧٦٧٦٢٦٠٦٥٥٦٥٣
١٥٤٦١٥٣٦١٣٥٦١١٢٦١٠٧٦٩٩
٣٧٧٦١٥٩٦١٥٨
الانبار ١٥٤٦١٥٣٦١٠٩
الانباري ٤٠٣٦١٧٧٦٣٠
الانبياء (سورة) ١٠
الانجيل ٣٦٨٦٦٨٦٤٢٦٣٩
اندلس ٢٦١٦٢٥٢٦٢٣٤٦١٧٨٦١٧٧
٣٢٨٦٣٢١٦٣١٩٦٣١٨٦٣١٧٦٣١٤
الانسان (سورة) ٣٥
انشاء العطار (كتاب) ٣٧٣٦٣٧١
الانصار ٢٢٠٢٠٠٦١٣٠٦١٠٤٦٦٦٦٤

الانعام (سورة) ٣٤
الانس المفيد (كتاب) ٦٢٤٤٦٢٣٦،
٢٤٨٦٢٤٦
الاهواز ٢٩٥
الاوزاعي ٧
اوس (بن شداد) ٩١
اياس ١٨٢
الايوبية (الدولة) ٢٥٢

حرف الباء

باب النصر (مكان) ٢٤٣
بابك ١٤٦٦١٤٥
الباقلاني ١٨٤٦١٨٣٦٣٣
البيغا ٢٦٦٦٢٥٢
بجيلة ١٢٦
البحتري ٢٠٤
البحرين ٢١
البخاري (شخص٠ صحيح) ٢٨ ، ٥١
٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧
٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣
بخارى ٢٨١
بختيار ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
بدائع الزهور (كتاب) ٢٣٥
بديع الزمان (الهمذاني) ٢١٤ ، ٢٦١
٢٩١ ، ٣٣٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧

٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣
٣٩٤، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٤
البديعي ٢٣٦
بديل ١٢
براقش ٨٤
بردويل ٣٠٩
برستون ٤٠٨
بروكلمان ٣٧٧، ٤٠٨
بسر ١٢
البسوس ٣٩٩
البصرة ٦، ٩٢، ٩٧، ١١٣، ١١٤
١١٥، ١٧٦، ١٧٧، ٢١٣، ٤٠١
٤٠٧
بطليموس ٢٥٩
بطن عاقل ٣٢٦
البطيحة ٤١٢
بغداد (مدينة السلام) ٦٧، ١٠٣، ٦١٤٠، ٦
١٧٦، ١٧٧، ٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٧٩
٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣١٠، ٣٩٤، ٤٠١
البقرة (سورة) ٩، ٣٩٦، ٤٥، ٤٦
بكرزاده ٣٦٧
البكرية ٢٤٣
البلاذري (شخص (كتاب) ١٠، ١٩
٢٧
بلال ٤٠١
البلخي ٥٧
البندقية ٢٣٩، ٢٤٠
بنو الاحمر ٣١٣
بنو اسد ٧١
بنو بويه ٢٥٢
بنو الجرمز ١٤
بنو الحارث ١٢، ٢٠٦
بنو الخطيب ٣١٣
بنو رئام ٢
بنو الربعة ١٢
بنو زهرة ١٢
بنو سدوس ٣٣٩
بنو صنهاج ٣٢٦
بنو ضمرة ١٢
بنو عبد شمس ١٠٠
بنو عبد الظاهر ٢٢٦
بنو عبد المدان ٣٣٩
بنو عبد مناف ٣٦٣
بنو عمرو ١٢
بنو عمير ٣٣٨
بنو عاديا ٢٦
بنو غفار ١٢
بنو كرز ٧٨
بنو مرين ٣٣٠
بنو نهد ٢٣
بنو هاشم ١٢، ١٠٠، ١٠٢، ١٩٩
بنو الوزير ٣١٣
بنو يعقوب ٥٨
بيرام ٣٦٠
البهلول ٣٦٥

البيهقي ٢٩
بولص (دينار خان) ٢٤٠
البيان والتبيين (كتاب) ١، ٢، ٤، ٦، ٧٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١١٥، ١١٨، ١٢١، ١٢٣، ١٥٠، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٨
بيت المقدس ١٢٤
بيسان ٢٩٩

حرف التاء

التابعي ٦٧، ٩٥
تاج العروس (كتاب) ٢٣٦
التاجي (كتاب) ٢٥٣
تاريخ آداب اللغة ١٥٣، ٣١٨، ٣٢٧، ٣٧٦
تبوك ١١، ١٦، ١٧، ٥٧
تجارب الامم (كتاب) ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠
التجريد الصريح (كتاب) ٦٨
تذكرة الحفاظ (كتاب) ٢٧، ٥١، ٦١، ٦٢
تراجم الاعيان ٢٣٥
التربيع والتدوير (رسالة) ١٩٠
تركيا ٢٤٤
الترمذي ٦١
التعريف بالمصطلح الشريف ٢٣٣
تلمسان ٣١٧، ٣٢٨، ٣٢٩
التنبيه والاشراف (كتاب) ١٨٥
تهامة ١٢، ١٧، ٢٤، ٨٢، ٣٨٥
التوبة (سورة) ٨
التوحيدي (ابوحيان) ٢٠٩، ١٠، ٢١١، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦١
التوراة ٣٩، ٤٢، ٦٤، ٦٨، ٣٦٨
تيسير الوصول (كتاب) ٥٩
تيم بن مرة ١٢
التين (سورة) ٣

حرف الثاء

ثابت (بن شماس) ١٩
ثابت بن قرة ١٧٦
الثريا ٣٦٠
الثعالبي ٩١، ٢١٢، ٢٢٩، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٥، ٣٨٤، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١
ثعلب ١٢٤
ثقيف ١٦
ثمود ٩٥
ثهلان ١٩٩

حرف الجيم

الجاحظ ١، ٢، ٤، ٦، ٩١، ٩٦، ١٢١، ١٤٣، ١٥٠، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧

١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٥٩
٢٨٦ ، ٣٢٣
جامع الاصول (كتاب) ٥١
جامع الجوامع (كتاب) ٥١
الجامعة الاميركية في بيروت ٣٠٢
الجاهلية ١ ، ٢٧ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١١
١١٦ ، ١٥٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٥٨ ، ٣٧٧
جبريل ٧٢
الجبرية ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٤
جبلة بن الايهم ٢٧٧
جثعم ٣٢
جدة ٢٤٨
جذام ٣٢ ، ١٠٩
جذيمة ٨٥
جرجان ١٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
جرهم ٣٢
جرير ٩٩ ، ٢٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٥ ، ٤٠٠
الجزائر ١٣٧ ، ١٣٨
الجزيرة ٧٧
جساس ٧٩
جشم ١٣٨
جعفر بن يحيى ١٣٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩
١٩٠
جعفر الهباءة ٣٢٦
جمادى ٩٦
جمع التفسير (كتاب) ٣٦٨
جمهرة الامثال (كتاب) ٧٤
جميل ٢٠٤
الجلندي (ابن ٠ بنو) ١٤ ، ١٥٥
جناح ١٥٤
الجنة ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٧٢
٣٤١ ، ٣٩٧
جهينة ١٢ ، ١٤ ، ٧٥ ، ٨٣
الجواليقي ٣٣ ، ٣٤٤
الجوزاء ٣٦٠
جوين ٨٣
جيّان ٣٢١
الجيزة ٣٥١
جيفر ١٥
جيلان ٤٠٠

حرف الحاء

حاء (قبيلة) ٩٢
حاتم ١٠ ، ٣٠١ ، ٤
حاجي خليفة ٢٣٥
الحارث ٣٤٣ ، ٤١٢
الحارث بن عبد الله ٢٣
الحارث بن عمر الكندي ٨٢
الحارث بن عبد كلال ١٧
الحارث بن همام ٨ ، ٤٠ ، ٩٤ ، ١٠ ، ٤١ ، ٤١١
حافظ ابراهيم ٣٨٣
الحافظ الفاطمي ٢٩٩
الحاقة (سورة) ٣٧٢
الحجاج ٧٨ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١
١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣٦ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣
٣٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٣

الحجاز ٤٠١٦٢٠٤٦١٢١٦٩٣٦٢٤
الحديبية ٢٢٦١٣
الحديث ٦١٦٥٦٦٥٥٦٥٣٦٥١٦٥٠٦١١
٦٦٢ ٦٦٤ ٦٧٥ ٦٢٢٠ ٦٢٤١ ٣٧٣
٣٩٧
الحديد (سورة) ٨ ٦ ٣٥
الحريري ٢٩١ ٦ ٣٧٢ ٦ ٣٧٥ ٦ ٣٧٦
٣٧٧ ٣٧٨٦ ٣٨١ ٦ ٣٨٢٦ ٣٨٣
٤١٤٦٤٠٨٦٤٠٣٦٣٩٤
حسان ٦٦٩ ٢٧٧ ٦ ٣٥٤
الحسن البصري ١٧٧٦١٣٥٦١٣١
الحسن البوريني ٢٣٥
الحسن بن مهل ١٤٣
الحسن بن عمر التغلبي ١٣٨
الحسن بن علي ١٣٥
حسن التوسل (كتاب) ٢٣٠ ٦ ٢٣٣
حسين (بن علي) ١٢١
الحصري ٣٧٨ ٦ ٣٩٣
حصين ٧٥
حضرموت ٣٢٦٢٠
حفصة ٢٨
حفني ناصف ٣٦٩ ٦ ٣٧٠
الحكم (ابن عمر) ١٢٢
حكم (قبيلة) ٩٢
حلب ٢٣٤
حلبة الكميت (كتاب) ٢٣٥
الحلبي (بدر الدين) ٣٥٥
الحلبي (شهاب الدين) ٣٥٠٦٢٣٣
الحلل المرقومة (كتاب) ٣١٩
الحلل الموشية (كتاب) ٣١٩
حليمة (يوم) ٨٤
الحماسة (كتاب) ٢٩٩
حمزة فتح الله ٣٤ ٦ ٣٦٩
حمص ١٤٤
حمة الدوسي ٥
حمير ٣٨٠٦٦٠٦٥٩٦٣١٦١٧
حنيفة ٣٢
حنين ٣٤١٦٨٣٦٧١
الحواري ٢٠٠
حيدر بن كاوس ١٤٧
الحيوان (كتاب) ١٨٣٦١٧٨

حرف الخاء

خارف ١٨
خالد (بن سعيد) ٢٠٦١٦
خالد (بن صفوان) ١٥١٦١٣١
خالد (بن عبد الله) ١٢٥
خالد (بن الوليد) ٨٤٦١٩
خالد (بن يزيد) ٩٩٦٩٣
الخديوي ٣٦٧
خراسان (الخراسانيون) ٦١١٤٦٩١٦٥٨
٢٥٣٦٢١٥٦١٨٨١٤٠٦١٢٧٦١٢٢
٤٠٠٦٣٨٩٦٣٨٥٦٢٧٤٦٢٥٨٦٢٥٦
الخريدة (كتاب) ٤٠٣٦٢٢٩
الخزاعي ٣
الخشنامي ٣٨٩٦٢١٥

الخضوية ٢٤٣
الخفاجي ٣٨٢، ٢٣٥، ٢٢٩، ٣٣
خلاصة الاثر (كتاب) ٢٣٦
الخلافة ٤٠٣، ٦١٨، ٩٧، ١٧٦، ١٦٣
خلفان بن محمد ٢٤٧
خمس رسائل (كتاب) ٩٢، ٩١
خنافر (الحميري) ٤
الخندق (واقعة) ١١
الخوارج ١٢٣، ١٠٨، ٩٨، ٦٧، ٥٥، ٢٩
الخوارزمي ٣٣٥، ٢٦١، ٢٥٢، ١١٤
٣٩١، ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٧
خيبر ٥٧

حرف الدال

دائرة المعارف ٣١٨، ٣١٤، ٩٦، ٤٨، ٢٩
٤٠٨، ٣٧٧
داحس والغبراء (حرب) ٣٢٦
دارا ٣٣٢
دار الكتب المصرية ٣٨٢، ٩٥
الدموراشية ٢٤٣
دانتي ٣٧١
داود ٣٦٨، ٣٦٦، ٦٨
دجلة ٣٦٢
دحية ١٩
درة الغواص (كتاب) ٤٠٤، ٣٧٢
الدرة اليتيمة ١٥٦
الدمستق ٣٤١، ٢٨٣
دمشق ٣١٩
دوق تسكانا ٢٤٤
دومة ١٩
دون حاكم (الملك) ٢٢٦
دي ساسي ٤٠٧، ٢٤٤، ٢٣٦
الديلم ٢٧٩، ٢٥٥، ٢٥٤
الدينوري ٩٥

حرف الذال

الذخيرة (كتاب) ٣٣٦
الذهبي ٥١، ٢٧
ذو الرمة ٢٥٣، ٢٠٤
ذو قار (يوم) ٣٢٦
ذو يزن ١٢٦

حرف الراء

الرازي ٤٠٧، ٣٨٢
الراشدون (الخلفاء العصر) ١٥٨، ٩٨، ٦٦
الرافعي ٢٤٩
الراغب ٣٠
ربيعة ٣٧٩، ٦٣، ٢٥
الرحمن (سورة) ٣٤
الرزيلي (على مرسي) ٢٤٥
رزين ١٢٦
رسالة الشكر ٣٤٦
رسالة الغفران ٣٤٠
رسطاليس ٢٥٩
الرشيد ٣٢٣، ١٨٦، ١٣٧
الرعد (سورة) ٤٧
الرفاعية ٢٤٣

الرقة (بلدة) ١٥٣، ١٥٤
ركن الدولة البويهي ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٧
الرماني ١٣٩
رهم ١٣٨
روح بن زنباع ١٠٩
روح بن حاتم ٣٢٥
روزبهان ٢٩٥
روضة التعريف (كتاب) ١٣٧
الروم ٩٤، ٢٨٣، ٣٣٠، ٣٢٥، ٢٨٤، ٣٣٨، ٣٤١
الري (بلدة) ٢٥٤، ٢٥٧
ريحانة الالباء (كتاب) ٢٢٩، ٣٨٢
ريحانة الكتاب (كتاب) ٣٢٧

حرف الزاي

زاد المسلم (كتاب) ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣
زبراء ٥٥، ٦٢
الزبور ٣٦٨
زبيدة ١٧٨
الزبيدي ٦٨، ٢٣٦
الزبير ٩٢، ٩٣، ٩٧
الزخرف (سورة) ٣٥
زرزور (علم) ١٩٢
زكريا بن زهر ٣١٨
زكي مبارك ١٥، ١٠، ٢١، ٣٧، ٣٩٤، ٣٩٨
الزمخشري ٢٨، ٣٨٠
الزمر (سورة) ٣٣، ٤٢
زهر الاداب (كتاب) ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
١٩٩، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٢
٣٧٨، ٣٨٧، ٣٩٣
الزهرة ١٩٢
الزهري (شخص) ٦١، ٦٢
زهير ٢٨٣
زيادة الله ٣٢٥
زياد بن ابيه ١١٥، ١٢٢، ١٢٩
زيد ٢٧، ٢٨، ٣٧١
زيدان ٣، ١٥، ١٨، ٣٢٧، ٣٧٦

حرف السين

سارة ٦٨
سالم ١٥٤
سبا ٣٣، ٨٦
سبكتكين ٢٨٥
سبيع بن الخرث ٣٧٩
سجستان ١١٤، ١٥٢، ٣٨٩، ٤٠٠
سحبان ٦٢، ٣٧، ٧١، ٤٠٠
السركار ٢٤٧
سر من رأى (بلدة) ١٥٥
سعد ١٨، ٣٢، ١١٦، ٣٦٩
سعدى ٣
السعدي ٣٣٩
سعيد ٨٢، ١١٦
سعيد بن العاص ٢٨، ١١٧

سفيان ٥٢، ١٠٩
سقر ٣٤٢
السكاكي ٤١
السلار ٢٥٤، ٢٥٥
سلافة العصر (كتاب) ٣٣٦
سلام ١٧٨
سليم ٣٣، ٢٣٧، ٢٣٨
سليمان ٩٣، ١٠٨، ١٢٤، ١٥٤، ٣٠٤
سلك الدرر (كتاب) ٢٢٩، ٢٣٦
السماء ٥٨
السمعاني ٥٢
السند ٤٠٠
السندوبي (حسن) ١٠٤، ١٧٨، ٢٠٩
سهل بن هرون ١٤٢، ١٤٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩
سهيل بن عمرو ١٣، ٢٢
سوريا ٢٤٤، ٢٤٩
سوهاج ٣٦٩
السيوطي ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٤٦، ٥١، ٧٤، ٣٨٣
سيف الدولة ٢٦٠، ٢٧٨

حرف الشين

الشافعي ٣٣
الشام (الشامية) ٨، ٩٣، ٩٧، ١١٤، ١٣١، ١٥٤، ٢٢٦، ٢٣٤، ٣٣٠، ٣٥٠
شبيب ٧٩، ١٨١، ١٨٢
الشرق ٢٢٨
الشريشي ٤٠٧
الشريف الرضي ٢٧٦
شصار ٤
شعب جبلة (يوم) ٣٢٦
شعبة ٥٢
الشعراء (سورة) ٣٤
الشعر والشعراء (كتاب) ٣٧٦
الشعوبية ٥٨، ٦٧
شفاء الغليل (كتاب) ٣٥، ٢٣٥
الشمس (سورة) ٣، ١٩٢
شمس الدين ٤٣، ٢٣٥، ٣٨٢
الشميم الحلي ٤٠٦
الشهاب الالوسي ٣٨٢
الشورى (سورة) ٤٢
الشيباني ٢٣٣
شيرويه بن شهردار ٣٨٤
الشيعة ٢٩، ٥٥، ٣٢٥

حرف الصاد

ص (سورة) ٣٤
الصابي (ابو اسحق) ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦١، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٢
الصاحب ٢١٥، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٨٤

الصادقة (صحيفة) ٦٢
صبح الاعشى ١، ٥، ١١، ١٤، ١٥، ١٨
١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٥٠، ٨٧، ٨٨
٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦،
١٠٧، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥
١٤٦، ١٤٨، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١،
١٦٨، ١٧٣، ١٨٧، ٢٢١، ٢٢٦،
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٩٦، ٣٠٣،
٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠،
٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٢،
٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٥
الصبح المنبي (كتاب) ٢٣٦
الصحابة ٥١، ٥٣، ٦٠، ٦٧، ٦٨، ٩٥،
٩٩
الصحيح (الصحيحان) ٥١، ٦٢، ٦٧،
٧١
الصيمرة (بلدة) ٤٠٠
صخر بن نهشل ٨٢
الصدر الاعظم ٢٤١
الصديق ٢٠٠
الصراط ٣٩٧
صفد ٢٣٤
الصفدي ٤٥، ٣٥٦
صفين (يوم) ١٢٦
صلاح الدين ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٦
٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠
الصمصامة ٣٤٢
الصناعتين (كتاب) ١٩، ٢٠، ٤٠، ٨٩
٩٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٥، ٢٠٧
٢٠٨، ٢١٩، ٢٢٨
الصولي ٢٧، ٩٨
صيدا ٢٣٧، ٣٦٨

حرف الضاد

الضبي (ابو حمزة) ١٨٣
الضبي (المفضل) ٧٥، ٧٧، ٧٩،
الضحاك ١٢١، ١٦٨

حرف الطاء

الطائع ٢٧٩، ٢٨٩، ٢٩٣
الطائف ١٥، ٩٤، ١٠٧، ٤٠١
طاش كبري زاده ٢٣٥، ٣٠٠
طاهر بن الحسين ١٣٦، ١٣٧، ٢٣١، ٢٣٢
طبرستان ٤٠٠
الطبري (شخص . تاريخ) ١٠، ١٣، ١٥
١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣٣، ٩٦، ١١٧
١٢٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ٤٠٣
الطبقات (كتاب) ١١، ١٢، ١٤، ١٦،
١٨، ١٩، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٦٢، ١٤٤
طبقات الادباء ٤٠٣، ٤٠٤
طراز المجالس ٢٣٥
طرفة ٧٥
طلحة ٩٣، ٩٧
طنطا ٣٦٧
طه (سورة) ٣٥، ٤٥

الطوائف (ملوك) ٣٤١
الطور ٣٦٨٦٢
طورسينين ٤٤٦٣
الطوفان ٣٦٣
طي ٢٣

حرف الظاء

الظافر ٣٠٠
الظاهر (بيبرس) ٢٢٦ ، ٢٣٤
الظاهر (بن الحافظ) ٢٩٩
ظاهر العمر (ضاهر) ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤

حرف العين

عائشة ٦٠ ، ١٦ ، ٩٢
عاد ٩٥
العادل (الملك) ٣٠٠
عاصم ٥١
العالم العربي ٤٠٧
عامر بن الظرب ٥ ، ٨
العامري ٣٣٢
العاملي ٢٣٥
عانة ٤٠٩
عبادة الصامت ٩١
العباسية (البيت ، الدولة) ٤ ، ٥ ، ٨٨ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠
العباسي (العصر) ٧ ، ٨ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٨ ، ١٣٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٣٣٧
عبد الرازق البيطار ٣٣٦
عبد العزيز ٣١٧
عبدالله ١٩ ، ٢٨٦
عبدالله باشا فكري ٣٨٣
عبدالله بن احمد ١٣٧
عبدالله بن جعفر ١٧٦
عبدالله بن الزبير ٨٩ ، ١٢١
عبدالله بن سالم ٢٥
عبدالله بن سليمان ١٤٨
عبدالله بن عباس ٩٢ ، ٤٠٠
عبدالله بن مروان ١٦١ ، ١٦٨
عبدالله بن عمر ١٢١
عبدالله بن طاهر ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠
عبدالله بن يزيد ٩٣ ، ١٢٦
عبدالله النديم ٣٨٣
عبد الحميد (الاصغر) ١٥٤
عبد الحميد الاول ٢٣٩
عبد الحميد بن يحيى (الكاتب) ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ٣٧٢
عبد الرحمن ٢٨ ، ٥٢
عبد الرحمن بن دوست ٣٨٤
عبد الرحمن بن علي اليزدادي ٢٢١
عبد الرحيم ٣٧٢
عبد الرحيم (بن شيث) ١٥٠ ، ٢٢٣
العبرانية ٤٠٧
عبس ٣١

عبد الغني النابلسي ٣٦٥، ٢٣٦
عبد الملك بن مروان ٩٩٦، ٩٤٦، ٩٣٦، ٨٨
١٠٠، ١٠٦، ١٠٧، ١١٢٦، ١١٣
١٥٤، ١٢٧
عتبة ٩٤٦، ٩٣٦، ٩٠
العتبي ٢٥٢، ٢٢٩
عثمان بن عفان ٩٤٦، ٢٩٦، ٢٨٦، ٢٧٦، ٩٣
٣٤٣، ١١٧، ١١١٦، ٩٧
عثمان باشا ٢٤٤
عثمان شاه ٢٣٩
العثماني (عصر . دستور . دولة) ٢٢٨،
٣٧٤، ٣٥٩، ٣٣٧، ٢٥٢، ٢٣٧، ٣٣٥
عجائب المقدور (كتاب) ٢٣٥
العجم ٣٠٢، ١٦٤
عدي ١٣٨
العذام ٤
عذرة ٣٢، ٢٣
العراق ٨، ٩٣، ١١٢٦، ١١٤، ١٢١٦،
٢٨٥، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٧٧، ١٢٧، ١٢٥
العرب (شعب . امة . لغة) ٦٦٩، ١٤
١٦٤٦، ١٥٩، ١٥٥، ١٢٠، ٧٧٦، ٧٤
٢٠٦، ١٩٨، ١٨١، ١٧٧، ١٧٦
٣٧٩، ٣٠٢، ٢٢٦، ٢٢١
عرقوب ٧٨
عروس (شخص) ٨٦
عز الدولة البويهي ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٨١،
٢٩٠، ٢٨٩، ٢٨٧
العزيز ٣٤٠
العزيزي (كتاب) ٣٠
عسقلان ٢٩٩
العسكري (ابو هلال) ٨٩٦، ٧٤٦، ٤٠
٢١٩، ٢٠٧، ١٥٥، ١٤٠، ١٣٨، ٩٤
٢٦١، ٢٢٠
عصام ٨٥، ٧٥
عضد الدولة ٢٨٩، ٢٨٧، ٢٧٩، ٢٧٢
عطارد ٢١٤
عكاظ ١٦
العقد الفريد ١٠، ١١، ١٦، ١٨، ١٩
٩٢، ٨٩، ٢٣، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٧،
١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١٥٤،
٣٧٨، ٣٧٦، ٢٣٣، ١٨٥، ١٥٥
العكبري ٤٠٧
عكرمة ٣٣
العلاء بن الحضرمي ١٥
العلاء بن وهب ١٥٣
العلق (سورة) ١٠
علقمة بن علاثة ١٣
العلويون ٥٥
علي بن ابي طالب ١١، ٢٧، ٢٩، ٥٦،
٧١، ٩٢، ٩٧، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤،
١٠٥، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٤،
١٢٠، ١٩٣، ٢١٢
علي بن احمد ٢٩٦
علي بن خالد الاسواري ١٩٥
علي بن عبد العزيز الجرجاني ٢٠٣
علي بن عرس الموصلي ٢٩٦

علي بن محمد التوحيدي ١٣
عليكا بن احمد ٢٩٨
عماد الدين الاصفهاني ٢٢٩، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٩١، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٣٦
عمارة ٣٣
عمان ١٤، ١٦، ٢١، ٣١، ٢٤٤، ٢٤٦، ٤١٠
عمر ٢٠٤، ٣٧٧
عمر بن الخطاب (الفاروق) ٢٨، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٠، ١٧٧، ١٨٨، ٢٠٠
عمر بن عبد العزيز ٨٧، ١٥٤
عمر بن هبيدة ١٢٧
عمر بن الوردي ٢٣٤
عمرو ٣٠١، ٣٤٢، ٣٧١، ٤٠٠
عمرو بن سعيد ١١٧
عمرو بن العاص ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١١٤، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥
عمرو بن عبيد ١٩٥
عمرو بن العلاء ٣٧٩
عمرو بن مسعدة ١٣٧
العنانية ٢٤٣
عنوان المرقصات والمطربات (كتاب) ٢٦٢، ٢٧١
العواصم ١٣٧، ١٣٨
عوج بن عناق ٥٧
عيسى ٥٧، ٦٦
عيسى اسكندر معلوف ٣٥٩
عيسى بن ماهان ١٣٧، ٢٣١
عيسى بن هشام ٣٨٤، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٧
عيون الاخبار (كتاب) ٣٧٧

حرف الغين

غالب ٢٤٨
غامد ١٠٩
غرر الخصائص (كتاب) ٢٣٤
غرناطة ٢٥٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢١، ٣٣٠
غزة ٢٤٣
غزنة ٢١٥، ٣٨٩
غسان ١٢٦
الغلاة (فرقة) ٥٢
الغوير ٧٨
الغيث المنسجم (كتاب) ٤٥
غيلان الدمشقي ١٩٥

حرف الفاء

الفاتحة (سورة) ٣٤
فارس (بلد. قوم. لغة) ٧٨، ٦٧، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ٢٥٢، ٢٧٩، ٣٠٧، ٣١٩، ٣٩٠
فاس ٣٢٨
الفارض (ابن . كتاب) ٢٣٥
الفاضل (القاضي) ٢٣٤، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٥، ٣٥٥، ٣٥٩

فاكهة الخلفاء (كتاب) ٧٩ ، ٢٣٥
الفتح بن خاقان ٢٢٩
الفتح القسي (كتاب) ٣٣٦
الفجار (عام) ١٠ ، ٣٢٦
الفجر (سورة) ٣
فخر الدين المعني ٢٤٤
الفخري (كتاب) ٢٣٤ ، ٣٧٧
الفرات ٣٠٧ ، ٤٠٠
الفرزدق ٧٨ ، ٩٩ ، ٣٥٥
فرعون ٤٥
فرغانة ٤٠٩
الفرقان (سورة) ١٠
الفرقدان ٣٦٠ ، ٤٠٠
الفرنج ٢٢٦
فرنسا (الفرنس) ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
فريد الخازن ٢٣٦
فصلت (سورة) ٣٣ ، ٤٤
الفهرست (كتاب) ٢٧ ، ٢٨ ، ٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩
فؤاد بستاني ٢٣٦
الفيل (عام) ١٠
فيليب الخازن ٢٣٦ ، ٢٤٩
قابوس (بن وشمكير) ٢٢١ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٤
القادرية ٢٤٣
القارظان ٨٠
قارون ٣٤١
القاسم بن جزيال ٣٨٢
القاسم بن عبيدالله ٤٠٢
القالي ٢ ، ٥ ، ٩٦ ، ١٤٣٧
القاهرة ٣١٩ ، ٣٤٣٧
القبط ٤٠١
قبجي باشي ٢٣٨
قبوجيلار احمد هاشم ٢٤٢
قتيبة بن مسلم ٩١ ، ١١٤
قدامة ٢٢١ ، ٣٧٥
القدرية ٥٥ ، ٩٥ ، ٦٤
القدس ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ١١٦
القرآن ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ١٠ ، ٢٧ ، ٢٩٦ ، ٣٠ ، ٣٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢٦ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩٦ ، ٣٢٨ ، ٣٧١ ، ٣٩٧
قرطبة ٣١٩ ، ٣٣٢
قريش ٨ ، ٩٦ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٩٩
قس بن ساعدة ١٦٥ ، ٣٠٥ ، ٣٥٥
قسطنطين زريق ١١
قمّ (بلدة) ٢٥٣
القصص (سورة) ٣٤
قصير ٨٥ ، ٤٠٠
قضاعي ٢٣

قطري بن الفجاءة ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨
قطن بن حارثة ١٨
القفطي ٢٧٥، ٢٨١
قلائد العقيان (كتاب) ٢٢٩
القلقشندي ٢٤، ٥٠، ٨٧، ٨٨، ١٣٩
١٦١، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٥
٣٤٣، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٧٥
القلم (سورة) ١٠
القيامة ٧٠
قيس ٣٠١
قيس (آل) ٢٦، ٣٢
قيس بن زهير ١٩٢
قيصر ٣٤١

حرف الكاف

الكامل (كتاب) ٩١، ٩٣، ٩٧، ١٠٠
١٢٥
كثير ٢٠٤
الكديد (يوم) ٣٢٦
كربلاء ٣٨٢
الكرخ ٣٩٤
كرمان ٢٧٥، ٤٠٠
كسرى ٥، ١٧، ٢١، ٣٢٣، ٣٣٢، ٣٤١
٣٤٧
الكسعي ٨٢
الكشاف (كتاب) ٢٨
كشف الظنون ٢٣٥
الكشكول ٢٣٥
كعب بن لؤي ٦٥، ٧٨
كعب بن زهير ٣٥٤
كعب الاحبار ٥٨
الكعبة (البيت) ٢٣، ٣٢٣، ٣٢٨
كلاع (ذو) ١٢٦
كلب (بنو) ١٨، ١٠٩
كليب بن وائل ٨٠
كمال البلاغة ٢٢١
الكميت ٧٨
كنانة ١٨، ٣١، ٦٣، ١٧٦
كندة ٣٢، ١٢٦
الكندي ٣٣٩
كنز العمال (كتاب) ٦١
الكهان ٢٢٠
الكهف (سورة) ٣٤، ٣٥، ٤٧
الكوفة ٧٨، ١١٢، ١١٦، ١١٧
الكوفي ٣٣٨
كيوان ٣٦٠

حرف اللام

اللات ١٥
اللاتينية ٤٠٧
لامية العجم ٣٥٦
لحن الخواص (كتاب) ٣٧٢
لخم ٣٢، ١٠٩
لقمان (سورة) ١١
لقمان بن عاد ١٨٣
اللمحة البدرية (كتاب) ٣١٩
لوشة ٣١٣

لويز ٢٤٥
لويس الرابع عشر ٢٤٤
لويس السادس عشر ٢٤٦
ليالي سطيح ٣٨٣
ليبسك ٤٠٤
الليث بن رقية ١٥٤
ليدن ٣٢٧

حرف الميم

مارية ٣٤٢
مالك ٥٢، ٥١، ١٨، ١٧
مالك (بن جني) ٨٤
مالك بن عمر (الشيباني) ٧٤
المأمون ٢٣١، ١٤٢، ١٣٧، ١٣٦
مباهج الفكر (كتاب) ٢٣٤
المبرّد ٥٥، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٩
المتنبي ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٤١، ٣٥٥، ٤٠٧
المتوكل ١٤٤، ١٤٥، ١٨٧
مثالب الوزيرين (كتاب) ٢٥٤
المثل السائر (كتاب) ٨٨، ١٣٧، ١٣٩
١٥٠، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٦، ٣٥٤
مجاني الادب (كتاب) ١٣٠
مجاهد ٣٣
المجلة البطريركية السورية ٢٣٦، ٢٤٤
مجمع البحرين (كتاب) ٣٨٢
المجمع العلمي العربي (مجلة) ١٥٨، ١٨٥
مجموعة الآثار الفكرية ٣٨٣
مجموع ارشادات (كتاب) ٣٥٩
مجمع الامثال (كتاب) ٧٤
مجنون بني عامر ٢٦٣
مجوس ٥٩
المحاسن والاضداد (كتاب) ٢٠٠
المحبي ٢٣٦
محرّق ٣٤٢
المحسّن (شخص) ٢٧٥
محمد الاول (العثماني) ٢٣٥
محمد بن ابراهيم الدمشقي ٣٨٢
محمد بن ابي بكر ١٢٠
محمد بن شماعة ١٤٣
محمد بن الحسن بن دريد ٣٧٨
محمد بن عبد الملك الزيات ١٣٧
محمد بن يحيى الصولي ٢٠٢
محمد ١١٣
محمد (النبي . الرسول . رسول الله . الملة)
١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٨، ٧، ٦، ٥، ٣، ٢، ١
١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠
٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٦،
٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥،
٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤
٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢
٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ١٠٤، ١٠٧،
٢٠٠، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦
٢٨٤، ٢٨٥، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٩١
٣٩٨

محمد توفيق باشا ٢٥٠
محمد (السلطان) ٣١٤، ٣١٧
محمد كرد علي ١٥٨، ١٨٥
محمد عبده ٦٥٢، ٣٦٩
محمد بن المكرم ٢٢٦
محي الدين بن عبد الظاهر ٢٣٤
محي الدين (ابو الفضل يحيى) ٣٤٣
مخائيل الصباغ ٢٣٦، ٢٤٤
مخارق ١٩٢
مختار الدين ٣٠٩
المدثر (سورة) ٣٤
المدرسة البطريركية ٣٦٨
المدينة ٦٨، ١٦١، ٣٥، ٦٩، ٩٥، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠
مذحج ٣٢
مرآة الزمان (كتاب) ٣٠٠، ٣٠١
المرادي ٢٢٩، ٢٣٦
مراكش ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦
المربد ١٧٦
مرة ١٣٨
مرثد الخير ٣٧٩
مرحب (آل) ٢٥، ٢٦
المرسلات (سورة) ٣٧
مرغوليوث ٤٠٨
مروان ٩٢
مروان بن الحكم ٧٨، ٨٨، ٩٢
مروان بن عبد الحميد ١٥٣
مروان بن محمد ٨٧، ١٥٤، ١٦٨
مروج الذهب (كتاب) ١٥٥، ١٧٧
المزاريب (مكان) ٣٦٣
المزمل (سورة) ٣٥
المزهر (كتاب) ٣٣، ٧٤
مزينة ١٨، ٣٢
مسالك الممالك (كتاب) ١٥٣
المسامير (كتاب) ٣٨٣
المستضيء ٣٠٧
المستكفي ٣٤٠
المستنصر ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٣٢
المسعودي ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ٣٧٧
مسقط (بلدة) ٢٤٧
مسكويه ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠
مسلم (شخص ، صحيح) ٥١، ٥٢، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٣
مسلم بن عقبة ١٢١
المسلمون ٥٢، ٥٥، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢٧، ١٤٥، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٤٢، ٢٨٤، ٢٩٤، ٣٢٣، ٣٦٢، ٣٦٤
المسيح (المسيحيون) ٦٨، ٢٣٩، ٤٠٠
مسيلمة ٢٥
مشان (بلدة) ٤٠٣
المشتري (نجم) ١٩٢
المشرق ٢٧٩، ٣١٩
مصر ٥٨، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٢٥، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٣٠، ٤٠٤

مصطفى (الرافعي) ٣٧٨
مصطفى (السلطان) ٢٣٧، ٢٣٩
مضر ٤، ٦٠، ٦٣، ١٢٧
المطرزي ٤٠٧
المطففون (سورة) ٣٥
المطيبون (جماعة) ١٢
المطيع لله ٢٧٦، ٢٨٣
معاذ ٢٧
المعارج (سورة) ٣٥
معالم الكتابة (كتاب) ٢٢٣، ٢٣٣
معاوية ٢٦، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٩، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦
معبد الجهني ١٩٥
المعتزلة (معتزلي) ٥٥، ١٧٨، ٣٩٧
المعتصم ١٤٥
معجم الادباء ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٨
المعراج (سورة) ٣٧
المعرب (كتاب) ٣٤، ٣٥
المعري ٢٦٤
معز الدولة ٢٧٥، ٢٩٥
المعيدي ٧٧، ٨٤، ٣٤١
المغرب ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٣٠، ٣٣١
المغولي (العصر) ٢٣٤
المغيرة ١٤
مفتاح السعادة (كتاب) ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٤١، ٤٣، ٥١، ٥٢، ٢٣٥، ٣٠٠
المفردات (كتاب) ٣٠
المقابسات (كتاب) ١٠٤، ٢٠٩، ٢١١
المقتبس ١٥٠
المقتطف ٣٧٨
المقتفي ٤٠٣
مقدمة ابن خلدون ٢٩، ٥١، ٢٢٧
المقر الزيني الظاهري ٣٤٨
المقَّري ٢٣٥، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٧
المقطم ٣٠٠
مقنا ٢٥
مكة ٥، ٨، ١١، ١٢، ١٦، ٣٥، ٣٨، ١٢٠، ٢٤٤، ٢٤٨، ٤٠١
مكحول ٦٠
ملحة الاعراب (كتاب) ٤٠٤
ملقى السبيل (رسالة) ٣٤٠
منى (مكان) ٣٨٥
المنار (مجلة) ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٦
المنذر بن ساوى ١٥، ٨٥
المنصور (قلاوون) ٢٢٦، ٣٥١
المنصور (احمد بن الناصر) ٣٠٠، ٣٣٠
المنيح (رسالة) ٣٤٠
المهاجرون ١٠٤، ١٣٠
المهرجان ١٢٧، ٣٦٩
المهلب ٥٥، ٩٨، ١١٢، ١٢٣، ٣٢١

المهلبي ١٠٣، ٢٦٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨
٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢
مواد البيان (كتاب) ٢٣٣
مورتز (مصوّر) ٩٥
موسى ٤٤، ٦٤، ٦٥، ٦٦
الموضوعات (كتاب) ٥١، ٥٣
الموطا (كتاب) ١٦١، ٦١
الموفق بن الخلال ٢٩٩
المويلحي (ابراهيم) ٣٧٠، ٣٨٣
الميثاق ٣٦٣
ميثم ابن مثوب ٣٧٩
الميداني ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠

حرف النون

النابغة ٧٥، ٨٠
الناس (سورة) ٣
الناصح الامين ٥٦
الناصر (الخليفة) ٣١٠
« الملك ٣٥١
ناصيف اليازجي ٣٦٧، ٢٨٢
النثر الفني (كتاب) ٢٦٢، ٣٧٨، ٣٩٤
٣٩٨
النجاشي ٢١
نجد ٢٤، ٣٨٥
نجران ٢٠
النحل (سورة) ٩
النساء (سورة) ٣٤
النسائي ٦١
النسران (نجم) ٣٦٠، ٤٠٠
نسيم الصبا (كتاب) ٣٥٥، ٣٥٦
النشرة ٣٦٨
نصر ٢٠٣
النصرانية (النصارى) ٦٨، ٢٤٥، ٣٢٧
نصيب ٢٠٤
النظام ١٧٦، ١٧٧، ١٩٢
النعامة ٣٤٢
النعمان ٨٥
نعمان باشا ٢٣٧
نعيم ١١، ٢٥
نفاضة الجراب (كتاب) ٣١٩
نفح الطيب (كتاب) ٢٣٥، ٣١٣، ٣١٤
٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠
٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠
نفحة الريحانة (كتاب) ٣٣٦
نقولا الترك ٣٨٢
نكلسون ٧
النمر ٧٨، ٧٩
نمير ٣٣٨
نهاية الارب (كتاب) ٣، ٧٣، ٧٦، ١٠
١١٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨
نهج البلاغة ١٠٠، ١٠٣، ١١١
النوبة ٩٤، ٣٠٣، ٣٠٧، ٤٠٠
نوح ٦٦
النور (سورة) ٦٨، ٣٥٧، ٤٧
نولدكي ٢٩، ٤٨، ٤٩
النويري ٠٤، ١٤، ١١
النيروز ٢٧، ١٩٦، ٣٦٩

نيسابور ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٨
نيل ٣٥٨

حرف الهاء

هاشم ٣
هجر ٨٠
الهجرة ٧٩
هذيل ١١٣، ٣١
هراة ٢١٥
الهرم ٣٥١
هرقل (هرقلي) ٢١، ١٩٢
هشام بن عمر ٩٦، ١٢٥
هشام بن المغيرة ٧١
الهلال (مجلة) ٢٤٩، ٢٥٠، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٠
همذان ٢١٤، ٢١٥، ٣٧٥، ٣٨٤، ٣٩٧
همميان بن قحافة ٢٠٣
الهند ٤٠٠
هندواني ١٩٢
هوازن ١٣، ٣١، ٧١
هوذة ١٣، ١٤

حرف الواو

وائل ٢٠
الواثق ١٣٧
الواسطي ٣٠
واصل بن عطاء ١٩٥
الوافي بالوفيات (كتاب) ٢٣٤
الواقدي ١٠، ٢٧، ٩٦
الواقعة (سورة) ٣٤
وج (مكان) ١٦
الوساطة (كتاب) ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦
وشاح الذمية (كتاب) ٣٨٤
الوشي المرقوم (كتاب) ٢٩٩
الوطواط (جمال الدين) ٢٣٤
وفيات الاعيان ٥٥، ١٣٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٦، ١٧٧، ٢٣٤، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٤٠٨
وكيع بن حسان ١١٤
ولادة ٣٤٠
الوليد ٨٧، ٩٣، ١٠٧، ١١٨، ١٢٤، ٣٣٣

حرف الياء

اليازجي ٣٨٣، ٤١٤
ياقوت ١٧٧، ١٧٨، ٢٥٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٨٤، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤٠٧
اليتيمة ٠ يتيمة الدهر (كتاب) ٢١٢، ٢٢٩، ١٥٣، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٨٩، ٣٩٠
يحيى بن خالد البرمكي ١٨٥، ١٨٩، ١٩٠
يحيى بن سعيد ٣٨٢
يحيى بن محمد الجناتي ٢٤٥
يحيى بن هذيل ٣١٨
يزيد ٥٤، ١٧٨، ١

يزيد بن اسد ١٢٦
يزيد بن عبدالله ٣٧٦
يزيد بن مروان ٩٢
يزيد بن معاوية ٨٩، ٩٥، ١٠٠، ١٠١
١٠٢، ٩٦، ١١٧، ١٢١
يزيد بن الوليد ٨٧، ١١٨
يس (سورة) ٩
يعقوب ١٥، ٨٧، ٥٩
اليعقوبي ١٥٣
يعلى بن هزّال ٣٨١
يمامة ١٤، ٢١، ٣٣٧
اليمن (يماني) ٨، ٢٤، ٦٠، ٦٣، ١٢٠، ٦٧
١٢٦، ١٩٢، ٤٠١
اليمني ٢٢٩
اليهود ٦٨
يوسف ٥٨، ٥٩، ٣٤٠
يوسف (سورة) ٢٩
يونس (سورة) ٩

اصلاح خطأ

برغم ما بذل من الجهد في مراجعة الاصول المطبعية لم تخل هذه الطبعة من اغلاط قليلة بالنسبة الى حجم الكتاب . وها نحن نشير الى المهمّ منها :

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٢٦	٨	رسول	رسول الله
٣٨	٧	في المدنية	في المدينة
٤١	١٠	لما	لمن
٥٤	١٣	الى الصحابة	الى احد الصحابة
١٠٦	١٩	كتب الحجاح	كتب الى الحجاج
١٢٥	٧	والي الراق	والي العراق
١٢٥	٨	سنة ١٦٩	سنة ١١٩
١٣٨	٩	جنيب	جنب
١٤٢	١٥	معدته	معدنه
١٤٣	١	يزحلون	يرحلون
١٥٧	٨	يكره تاخير	يكره تأخيره
١٧٧	٢٢	معجم البلدان	معجم الادباء
١٧٨	٩	ان تعرفنني	ان تعرفني
١٨٥	١٥	السمم	السمسم
٢٠٧	١٩	يبني عن	ينبي عن
٢٢٢	٢٢	المخلجل	المخلخل

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٢٣٩	١	كتاب السلمان	كتاب السلطان
٢٦٠	٢	فيه	فيهما
٣١٤	٧	سنة ٤٤٩	سنة ٧٤٩
٣١٥	١٦	عجاحة	عجاجة
٣١٧	١٤	خنقا	خنقا(؟)
٣٣٦	٢٠	تطوّر في	في تطوّر
٣٥٠	١٠	المفدوح	الممدوح
٣٥١	٣	بالطيف	بالطين
٣٦٥	١٣	بالحكمة	الحكمة
٣٦٥	١٨	يسجعات	بسجعات
٣٧٥	١١	مقامه٠قدامه	مقامة٠ قدامة
٣٨٣	١٢	بضع كتب	بضعة كتب

تنبيه

٤٣٩	٢٣	في باب فهرس الاعلام — سقط سهواً عنوان	

« حرف الفاف »

Published by the Theodore Fund

The American University of Beirut

DEVELOPMENT OF ARABIC PROSE

A Critical Presentation of the Different Arabic Styles, Tracing their Historical Changes from the Rise of Islam to the Present Time

BY

ANIS E. KHURI M. A.

(AL MAKDISI)

Professor of Arabic Literature

THE AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Vol 1

Sarkis Press - Beirut

1935

II 42.

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

CA:AUB:892.7408:M23A:v.1:c.2
المقدسى ،انيس الخورى
تطور الاساليب النثرية فى الادب العرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01068697

CA:AUB:892.7408:M23A v.1:c.2

المقدسي ٠

تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ٠

DATE	Borrower's	DATE	Borrower's

CA
AUB
892.7408
M23A
v.1
c.2